النظرية الاجتماعية وقضايا المجتمع

آليات التماسك الاجتماعى

الكتاب الثالث

دكتور على ليلة



مكتبة الأنجلو المصرية

١

النظرية الاجتماعية

وقضايا المجتمع

«آليات التماسك الاجتماعي»

دكتور علي ليلة

أستاذ النظرية الاجتماعية

بجامعة عين شمس

الكتاب الثالث

٢٠١٥



مكتبة الأنجلو المصرية

بطاقة فهرسة

ليلة ،علي .

النظرية الاجتماعية وقضايا المجتمع : اليات التماسك الاجتماعى

تألـيــف الدكتور على ليلة

17× 24 ســم

1- العلاقات الاجتماعية

2- التغيير الاجتماعى

3 - النظم الاجتماعية

أ – العنوان

رقــم الإيداع :2014/26292 تصنيف ديوى :301.11

ISBN : 978-977-05-2955-3

طبع فى جمهورية مصر العربية بمطبعة محمد عبد الكريم حسان

مكتبـة الانجلـو المصريـة 165 شارع محمد فريد القاهرة – مصر

تليفون : 23914337 (202) ؛ فاكس : 23957643 (202)

E-mail : angloebs@anglo-egyptian.com
Website : www.anglo-egyptian.com

الفهرس

مقدمة:

يوجد إتفاق بين مختلف إتجاهات التنظير السوسيولوجى، على أننا نعيش فى عصر التفكيك، حيث إنتهى عصر الكيانات الكبيرة والمتماسكة، سواء على مستوى الواقع المادى أو على المستوى المعنوى والنظريات. تأكيداً لذلك أنه إذا كان تنظير ما بعد الحداثة قد غابت عنه السرديات الكبرى، فإن واقع العولمة، المناظر لعصر ما بعد الحداثة، على صعيد المعانى، شهد تفكيك الوحدات المتماسكة على مختلف المستويات. فقد إنتشرت الفردية والتجزئة أو لنقل الذرية على كل الساحات، فالعائلة التى كانت متماسكة إنهارت، وسقطت آليات الحفاظ على تماسكها، ونتيجة لذلك إرتفعت معدلات الطلاق. بل إنا لاحظنا العزوف عن الزواج والاقبال على تشكيل الأسر، وتفضيل البقاء عند مستوى الحياة الفردية، حيث أصبح فى إمكان الفرد فى إطارها أن يكون قادرا على إشباع حاجاته الأساسية مباشرة من السوق دون الحاجة لأسرة.

وبنفس المنطق تبدلت العلاقات الاجتماعية، التى كانت ذات طبيعة جماعية بالأساس، تستند إلى عواطف ومشاعر الجماعة التى تتحقق هذه العلاقات على ساحتها. سواء كانت الجماعة القرابية أو جماعة الأصدقاء أو حتى جماعة العمل، وحلت محلها العلاقات ذات الطبيعة المنفعية والمصلحية، وهى علاقات لا تعبر عن عواطف جماعية، بقدر ما تعبر عن مطامع فردية أنانية ينشدها أطراف العلاقة من تأسيسها. وإلى جانب أن العلاقات الجماعية ذات طبيعة تجميعية، لكونها تعمل على أن يشكل الأفراد المتناثرون جماعات، ومن ثم فمضامين هذه العلاقات تتصف بالدوام والاستمرار. فإننا نجد أن العلاقات الفردية التجزيئية ذات طبيعة مؤقتة، تنتهى بمجرد أن تبدأ، أو بمجرد أن يتحقق الهدف منها. وإذا كانت العلاقات الجماعية تعمل على تشكيل المجتمع الواسع، فإن العلاقات الفردية النفعية تعمل على تفكيك الجماعات إلى أفراد، يتجمعون إلى جانب بعضهم البعض، ويشكلوا نموذجاً أو نمطا جديداً من التجمع أو المجتمع.

وتؤكد تفاعلات العولمة هذه النزعة إلى التفكيك، حيث تعمل العولمة بإتجاه تجانس وتداخل عالمى على الأصعدة الثقافية والسياسية والاقتصادية، تأكيدا

لذلـك أنهـا إذا كانـت ترغـب فى تحقيـق تجانس عالمى على الصعيد الثقافى، فإنها تسـتهدف تأسـيس حالـة مـن المسـاواتية الثقافيـة، حيـث يمتلـك كل فـرد ذات المعطيـات الثقافيـة والمعرفيـة، ومن ثم يصبـح مكتـف بذاتـه ثقافيـا، وليـس فى حاجـة إلى الآخـر. وحتـى تنجـح العولمـة فى تحقيـق هـذه الحالـة مـن المسـاواتية الثقافيـة، فإنـه كان عليهـا أن نعمـل بإتجـاه تفكيـك الثقافـة القوميـة، حتى لا تشـكل آليـة لتماسـك المجتمـع القومـى، بحيـث يـؤدى تفكيـك الثقافـة القوميـة وسـقوطها إلى تفكيـك المجتمـع. بالإضافـة إلى ضرب الثقافـات المحليـة فى مقتـل، مـن خـلال تسريب معـانى وقيم غريبـة عليهـا ومضـادة لهـا، تفـرض تحللهـا مـن الداخـل ومـن الطبيعـى أن يـؤدى تفكيـك الثقافـة القوميـة والثقافـات المحليـة، إلى إفتقادهـا القـدرة عـلى تأكيـد تماسـك المجتمـع ومـن ثـم الدفـع بإتجـاه تفكيكـه، وهـى الحالـة التـى تقـود إلى التفكيـك الاقتصـادى والسـياسى والاجتماعى.

بيـد أن عمليـة التفكيك التـى تتعرض لها المجتمعات فى واقعها المـادى بفعل آليات العولمة، ليسـت قـدراً مفروضـا لاراد لقضائه، حيث يمكـن للمجتمعات القومية أن تعمـل هـى الأخرى آلياتها الحضاريـة، للحفـاظ عـلى وحدة وتماسـك بنيتهـا. إرتباطا بذلـك فإننا نجد أنفسـنا فى مواجهة أربعة آليـات أساسـية، تعمل جميعها فى إتجاه تأكيد التماسـك الاجتماعى. وتتمثـل الآلية الأولى فى الدين، الـذى يضـم المعـانى الموحـى بها من العـالم الآخر، والتـى أوحى بها لتنظيـم التفاعـل الواقعى للبشر، وإذا كان كل مجتمـع يحتـاج إلى إعتقـاد وإيمان، فإن المعانى المتضمنة فيهما تعمل فى إتجاهين لتأكيد التماسـك الاجتماعـى بـين البشر. فهـى من ناحية توجه غالبية أفراد المجتمع شـطر توجه واحد، هو اللـه الخالـق لهـذا الكـون، والذى فرض علينا عبادته، على أسـاس مـن التوازى والمسـاواة، يضاف إلى ذلـك فـإن المعـانى الدينيـة توفـر نوعاً مـن التماسـك الأفقى بين البـشر وبعضهم البعـض فى المجتمع، طاعة لنداء قيم ومعانى التسـامح والتضامن، والاسـتقامة والحفاظ على إسـتقرار المجتمع. وإذا كان الديـن معنـى أساسـاً بتحقيق التماسـك الاجتماعى، فـإن تناحر أبنـاء الأديان أو المذاهب، من شـأنه أن ينـشر الفـوضى فى المجتمـع ويهز الاسـتقرار الاجتماعـى. كذلك فإن التطـرف بالدين حتى العنف

والارهـاب يقـضى عـلى قيـم ومعـانى التسـامح والتضامـن والاسـتقامة. لذلـك نجـد أن غالبيـة المجتمعـات ترفـض وتحـارب هـذه الظواهـر المرضيـة، لأنهـا تهـدد إسـتقرارها وتماسـكها.

وتشـكل الثقافـة الآليـة الثانيـة التـى تحافـظ عـلى إسـتقرار المجتمـع، وإذا كان الديـن قـد أوحـى بـه اللـه إلينـا من رحـم الغيب، فـإن الثقافة قد تشـكلت وصدرت عـن رحم المجتمـع، وإذا كان الديـن يفـرض تنظيـما معينا عـلى المجتمع، وعلى الأفراد سـلوكيات محـددة، إذا لم يطعها البشر فسـوف يواجهـون عقابهـم فى الحيـاة الدنيـا والآخـرة. فـإن الدين يشـكل فى ذات الوقـت قاعدة أو مرجعيـة للمجتمـع، فالحـلال والحـرام الدينـى هـو فى الغالب الصـواب والخطأ الثقـافى. وإذا كانت الثقافـة قـد ظهـرت متطـورة مـع تطـور المجتمـع، فإننـا نجـد أنهـا كأحـد مكونـات المجتمـع يعـاد إنتاجهـا فى كل فـترة مـن فـترات تاريـخ المجتمـع، وذلـك لكونهـا هـى التـى تنظـم تفاعـل البشر مع بعضهـم البعـض فى مختلـف مجـالات الحيـاة الاجتماعيـة. حيـث يعيد البـشر يعيـدون إنتاجها من خـلال تفاعلهـم الاجتماعـى مـع بعضهـم البعـض، أثنـاء ذلـك يملى عليهـم هـذا التفاعـل – بإعتباره أصبـح يعـبر عـن العقـل الجمعـى - تعديـل بعـض معـانى الثقافـة وقواعدهـا أو إسـتبدالها بأخـرى، أو حتـى إبتـكار معـانى وقواعـد جديـدة. وهـو الأمـر الـذى يشـير إلى حالـة مـن التفاعـل الجـدلى بـين المجتمـع وثقافتـه، وهـو التفاعـل الـذى يـؤدى إلى تطويـر كليهـما، لتصبـح الثقافة اكـثر فاعلية والمجتمـع أكثر تماسـكاً.

وإذا كان الديـن كأحـد الآليـات التـى منحتهـا العناية الألهيـة للمجتمع، لتنظيـم التفاعل فى إطـاره، فـإن الثقافـة تعـد الآليـة التـى يبتكرهـا المجتمـع لتحافظ عـلى تماسـكه، فهى مـن صناعته، ويعنـى ذلـك أن النظـام السـياسى أو الدولـة فى أى مجتمـع مـن المجتمعـات، هـى المسـئولة عـن تطويـر الآليـات التـى تحافـظ بهـا عـلى تماسـك المجتمـع وتأكيـد إسـتقراره. وإذا كانـت الدولـة قـد طـورت تاريخيـا الجيـش فى محاولـة للحفـاظ عـلى بقـاء المجتمـع متماسـكا ضـد أى أعتـداء أو عـدوان خارجـى، وإذا كانـت قـد طـورت أجهـزة الشرطـة مـن أجـل الحفـاظ عـلى الأمـن الداخـلى تحقيقـا لنفـس الهـدف، وإذا كانـت قـد طـورت الاعـلام – فى آلياتـه القوميـة – لاعـلام المواطـن

بما يحدث فى مجتمعه حتى يظل مرتبطا به. إضافة إلي تنوير الرأى العام، المعبر عن العقل الجمعى للمجتمع، حتى يصبح المجتمع واعيا بصورة دائمة بالمخاطر التى تتهددة. إلى جانب ذلك فإنه نظراً لطبيعة التنمية الليبرالية التى يقودها القطاع الخاص، فقد إتسعت مساحة التهميش الاجتماعى، الذى أصاب فئات كثيرة فى المجتمع، والتى برز وجودها منشقة عنه، إقتصاديا أو ثقافيا أو إجتماعيا وسياسيا، حيث يعنى وجودها أن المجتمع بدأ يعانى من تشققات فى جدران بنائه، وهى الأوضاع التى دفعت الدولة لتبنى سياسات الحماية الاجتماعية. تعبيرا عن توجهات أخلاقية وعواطف جمعية، وذلك بهدف العمل بإتجاه تمكين المهمشين، وتطوير البرامج والسياسات التى تساعد فى إدماجهم فى المجرى الرئيسى للمجتمع، ومن ثم إستعادة تماسكه، قد تقوم الدولة بتطوير هذه السياسات بمفردها، أو قد تتجه إلى تأسيسها وتفعيلها من خلال تنظيمات المجتمع المدنى أو القطاع الخاص، أو إستناداً إلى الشراكة الثلاثية بينهم، إضافة إلى الجماهير المستهدف إدماجها.

ذلك يعنى أن آليات التماسك الاجتماعى تصدر عن مصادر عديدة، وتسعى جميعها إلى الحفاظ على بقاء المجتمع مستقراً ومتماسكا حتى يؤدى أدواره بفاعلية فى نطاق نظام عالمى، يموج بقدر هائل من ظروف التفكيك وعوامله، وهى قضايا حاولنا تطوير حوار بشأنها من خلال فصول هذا الكتاب.

والله الموفق أولاً وأخيراً

على ليلة

الرحاب فى يناير ٢٠١٥

الفصل الأول

المتغيرات المتصلة بالتماسك الإجتماعى

وآليات إستعادته

الفصل الأول
المتغيرات المتصلة بالتماسك الإجتماعى
وآليات إستعادته

تمهيد

أصبحت قضية الحفاظ على التماسك الإجتماعى من القضايا المحورية فى عصرنا الحاضر، وذلك بإعتبار أن المجتمع القومى يتعرض لأنماط ومستويات من الضغوط التى تهدد وجوده وتماسكه، وتدفعه إلى مواجهة مصير التفكك والتشظى. وإذا كانت المجتمعات القومية فى نظامنا العالمى تعيش فى ظل حالة من عدم التجانس فى تكوينها الديموجرافى والإجتماعى، وهو ما يعنى أن هذه المجتمعات تتشكل من جماعات مختلفة على أساس دينى أو عرقى أو إجتماعى أو إقتصادى أو ثقافى. فإن مثل هذه الأوضاع تحمل فى وطياتها خطورة التشظى وإنهيار التماسك الإجتماعى بسبب تحول الخلافات بين هذه الجماعات إلى تناقضات وصراعات، وكذلك بسبب غياب عوامل الإدماج والصهر الإجتماعى. وهى العوامل التى تؤكد على المساحات المشتركة بين هذه الجماعات وتعمل على تقليص مساحات التباين أو التناقض والإختلاف.

ذلك يعنى أننا إذا تأملنا الأوضاع فى مجتمعنا المصرى فى الفترة الأخيرة فسوف نجد أن المجتمع قد تعرض، وما زال يتعرض، لمتغيرات كثيرة تعمل على تفكيكة وتهدد تماسكه. ويمكن أن نقسم هذه العوامل أو المتغيرات إلى متغيرات داخلية وخارجية. فى هذا الإطار فإننا نجد أن بعض الجماعات تعيش حالة من الغبن وعدم الحصول على الحقوق الأساسية، الأمر الذى دفعها إلى العزلة عن المجتمع، وهو ما يهدد تقليص مساحة المواطنة لديها. مثال على ذلك تخلف مستويات الوعى والتنمية فى بعض المناطق التى تضم جماعات مصرية، كما هى الحال فى «النوبة» أو «سيناء» مقارنة بالتنمية الحادثة فى العواصم الأساسية، كالقاهرة والأسكندرية، أو الوجه البحرى والقبلى. حيث نجد أن مستويات التنمية فى هذه الساحات منخفضة للغاية بما لا يؤمن إشباعاً

للحاجات الأساسية لمواطنيها، الأمر الذى يسبب ضعف روابطها بالمجتمع، ومن ثم تهديد تماسكه الإجتماعى، أو عدم تفعيل القانون والإحتكام الدقيق إليه، كما فى حالة الجماعات المسلمة والمسيحية. وكذلك وجود المهمشين الفقراء الذين لا يحصلون على الحد الأدنى من حقوقهم الأساسية فيما يتعلق بمختلف الفرص الإجتماعية. الأمر الذى يتطلب توفير مختلف الفرص لهم أسوه بالشرائح التى تستمتع بهذه الفرص بصورة فائضة. ذلك أننا فى عصر أصبحت جملة جماعات الوطن تمتلك وعيا أساسياً وواضحاً بحقوقها، ومن الضرورى إحترام مضامين هذا الوعى والتسليم بهذه الحقوق.

إضافة إلى ذلك توجد المتغيرات الخارجية التى تسعى لتفكيك المجتمعات القومية، لترتع قوى العولمة على ساحاتها بلا عوائق أو قيود. فى هذا الإطار تسعى القوى الإقليمية والعالمية إلى تأليب مختلف الجماعات لتخرج على الدولة القومية. لأن هدف هذه القوى إضعافها، أو تأليب هذه الجماعات ضد بعضها البعض، لتعيش فى ظل حالة دائمة من التناقض والصراع الذى يستهدف إضعاف الدولة والمجتمع القومى معا. فى هذا الإطار فإننا نجد أن القوى الخارجية تعتمد آليات كثيره لتفجير الصراع الداخلى. من هذه الآليات إضعاف الدولة القومية سياسيا وإقتصاديا، حتى تظل عاجزة فى مواجهة التدخل الخارجى الذى يسعى لتفكيك التماسك الإجتماعى. من هذه الآليات كذلك أن تعمل هذه القوى بإتجاه دفع بعض الجماعات إلى مواقف متطرفة، تجعلها على عتبة ممارسة العنف ضد الدولة لإضعافها، أو ضد الجماعات الأخري لإستنفار عدوانيتها، حتى ينتشر الصراع الإجتماعى على ساحة المجتمع. أو أن تلجأ القوى العالمية إلى تطوير الوعى الزائف لبعض الجماعات، التى ينبغى أن تحصل عليها، ولو على حساب تآكل المواطنة. يساعدها فى ذلك عجز الدولة القومية عن تحقيق التنمية بمعدلات كافية وتوزيع نتائجها بصورة عادلة، بحيث توفر بسلوكها الضعيف على هذا النحو الظروف المواتية لهذه القوى لإختراق المجتمع، ومن ثم دفعها التماسك الإجتماعى بإتجاه الإنهيار.

وحتى يمكن أن نحافظ على التماسك الإجتماعى للمجتمع، فإنه من

الضرورى الإنشغال بإصلاح البيت القومى من الداخل، إصلاحه من الناحية السياسية، عن طريق دفع التحول الديموقراطى الذى تأخر كثيراً، بإتجاه تحقيق غاياته وكامل نضجة. إضافة إلى الإصلاح التنموى والإقتصادى الذى يبدأ بالمواجهة الحاسمة للفساد، والعمل على تحقيق التنمية المتوازنة لكل خريطة المجتمع، وتوزيع عائدها على أفراد المجتمع وليس جماعاته بما يحقق المواطنة الكاملة ويعمق عواطفها فى نفوس البشر. يضاف إلى ذلك أن تعمل مؤسسات التنشئة الإجتماعية إبتداء من الأسرة والمؤسسات التعليمية والمؤسسات الدينية والإعلام بإتجاه التأكيد على المواطنة. بإعتبارها صيغة مشتركة ينبغى أن تشكل مرجعية أساسية، محورية ووحيدة لكل أفراد وجماعات المجتمع. ذلك أن المواطنة المتساوية الحقوق والإلتزامات، هى وحدها القادرة على الحفاظ على تماسك المجتمع. يساعدها فى ذلك القانون القوى والصارم، الذى يفرض إحترام حدود ومضامين هذه المواطنة، ونعرض فى الصفحات التالية بإيجاز لهذه القضايا.

أولاً: متغيرات التماسك الإجتماعى، البحث عن إطار مرجعى

حينما يكون المجتمع متمتعا بالعافية الإجتماعية فإننا ندرك أن الشروط الأساسية للتماسك الإجتماعى متوفرة وقائمة، حيث يعنى توفر هذه الشروط أن بنية المجتمع متماسكة إلى حد كبير. وذلك بغض النظر عن التنوعات القائمة فى إطاره. فنادراً هى المجتمعات التى تتمتع بحالة من التجانس الكامل، حيث لا يتجاوز عددها على صعيد نظامنا العالمى عدد اصابع اليد الواحدة. إذ نجد أن غالبية المجتمعات على الصعيد العالمى تتشكل من المجموعات الدينية والعرقية والثقافية والإجتماعية «القبلية أو العائلية». وقد تجمعت هذه التجمعات مع بعضها لأنها تسكن ذات المكان أو ذات الأرض. ونظراً لوجود هذه التجمعات وتفاعلها مع بعضها البعض فقد طورت نوعين من الوجود الإجتماعى والثقافى الخاص بها. النوع الأول الوجود الإجتماعى الداخلى، أو الخاص بالجماعة، حيث نجد أن كل جماعة طورت شبكة من العلاقات الإجتماعية الداخلية، أكثر كثافة بين أعضاءها، مقارنة بشبكة العلاقات بين أعضاء هذه الجماعة وأعضاء

الجماعـات الأخـرى. وهـى مسـالة طبيعية إذا كان ثمـة عائق عرقى أو ثقـافى أو دينى أو إجتماعى، يعـوق تطويـر شـبكة كثيفـة مـن العلاقـات بـين أعضـاء الجماعـات المختلفـة. الأمـر الـذى جعـل المنطقـة القائمـة بـين الجماعـات منطقـة هشـة مـن حيـث كثافـة العلاقـات الإجتماعية، وهـو الأمر الـذى يشـير إلى تبلـور الحـدود بين الجماعـات(١).

ويتصـل بذلـك أنـه إذا طـورت كل جماعـة مـن الجماعـات علاقاتهـا الداخليـة بكثافـة عاليـه، فإنهـا بذلـك تمتلـك بنيـة لهـا حدودهـا النسـبية التـى تجعلهـا جماعـة متبلـوره فى مقابـل الجماعـات الأخـرى. ويترتـب عـلى ذلـك أن كل جماعـة مـن الجماعـات تطـور بنيـة ثقافيـة خاصـة بهـا، تحتـوى عـلى منظومـات القيـم التـى تتـولى تنظيـم التفاعـل فى إطـار مختلـف هـذه الجماعـات، وفى هـذه الحالـة فإنـه تظهـر لـكل مـن هـذه الجماعـات حـدود وثقافـة تفصلهـا بطبيعـة الحـال عـن الجماعـات الأخـرى الموجـودة فى المجتمـع. ويـزداد تبلـور بنيـة الجماعـة إذا تفجـر الـصراع أو العـداوة بـين الجماعـات المشـكلة للمجتمـع، الأمـر الـذى يقـود إلى مزيـد مـن تبلـور جماعـات المجتمـع فى مواجهـة بعضهـا البعـض، ويـزداد الأمـر سـلبية، إذا كانـت كل جماعـة مــن الجماعــات تقطــن مســاحة أو منطقــة معينــة مــن أرض الوطــن فى مواجهــة الجماعــات الأخـر، مثـال عـلى ذلـك الأكـراد والسـنة والشـيعة فى العـراق، البربـر الذيـن يسـكنون الجبـال، والعـرب الذيـن يسـكنون الصحـراء والسـهول والوديـان فى المغـرب العـربى، القبائـل الزنجيـة فى جنـوب السـودان، التـى تختلـف مـن حيـث الديـن والعـرق والأرض. وكذلـك قبائـل الفـور فى غـرب السـودان والبجـا فى شرق السـودان، كذلـك الشـيعة فى منطقـة الإحسـاء بالمملكـة العربيـة السـعودية، فى مقابـل السـنة الذيـن يشـغلون بقيـة أرض المملكـة (٢). وهـو مـا يعنـى أن ثمـة ظـروف قـد تتشـكل ثـم تقـود إلى عزلـة الجماعـات عـن بعضهـا البعـض، وكـما أشرت فـإن هـذه الصيغـة تعـد صيغـة قائمـة عـلى الصعيـد العالمـى.

غــير أنــه برغــم هــذا التبايــن المســتند إلى العزلــة أو تحديــد حــدود الجماعــات بالنظــر إلى بعضهــا البعــض، فــإن هــذه الجماعــات تندمــج مــع بعضهــا البعــض فى بعــض المجتمعــات. بحيــث نجــد أن حــدود الإنعــزال ليســت قائمــة. وأن هــذه

الجماعات تشكل فى جملتها كتلة واحدة إلى حد كبير الأمر الذى يدفع إلى تشكيلها لمجتمع واحد متماسك يقترب من التجانس، بحيث تشكل مجتمعاً قوميا متماسكاً من طراز مثالى. وذلك يرجع إلى أن مقومات التماسك أكثر من مقومات العزلة والتحدد. وحتى لا يصبح الحديث عاما فإننا إذا أخذنا المجتمع المصرى نموذجاً لتوضيح المقولات التى نشير إليها، فإننا نجد أن المجتمع لديه مقومات عديدة للتماسك الإجتماعى.

وتشكل الأرض أو الجغرافيا المصرية الساحة التى توجد عليها مختلف الجماعات. وإذا كانت الأرض المصرية سهلية ومنبسطة فى غالبها، فإننا نجد أن مختلف التكوينات موجودة على ساحتها على أساس من التداخل إلى حد كبير، حيث نجد أن التكوين العائلى فى المجتمع المصرى سواء كان قبليا أو بدينيا، من نمط التكوينات المتداخلة، فالقبائل التى تعيش فى الصحراء عادة ما تكون على علاقات مع بعضها البعض، إضافة إلى تداخلها مع البدنات فى التجمعات الزراعية، ومن ثم فالمجتمع لا يعرف العزلة القبلية أو العائلية إلى حد كبير. بالإضافة إلى ذلك فإننا إذ تحدثنا عن التكوين العرقى فسوف نجد أن المجتمع المصرى تغيب عنه العرقية اللهم إلا تكوينات محدودة فى منطقة النوبة، وهو تكوينات تتجانس مع الكل المصرى فى الناحية الدينية فالنوبيون يتجانسون فى خلفيتهم الدينية إسلامية كانت أو مسيحية مع بقية السكان فى المجتمع المصرى، إضافة إلى بعض التكوينات الغجرية المحدودة، وهو ما يعنى أن ثمة تجانس على قاعدة الدين والعرق فى المجتمع المصرى (٣).

وتشكل الثقافة ومنظومات القيم احد أبعاد التجانس على الصعيد المصرى، حقيقة ان هناك بعض العناصر الثقافية التى تمنح ثقافة بعض الجماعات من الداخل قدراً من ملامحها وطبيعتها الخاصة، إلا أن المشترك فى الثقافة العامة يكون أقوى إلى حد كبير. وإذا كانت الثقافة العامة تصدر فى عناصرها التى تشكل بناءها عن اربعة مصادر، فإن المصدر الأول يتمثل فى الدين، حيث يشكل الدين جانبا من قاعدة الثقافة، ويتمثل المصدر الثانى من التراكم الثقافى المتدفق عبر التاريخ، والذى تشارك فيه مختلف جماعات المجتمع، سواء شاركت فى

صياغتـه أو تأسيسـه أو إنتاجـه، أو فى الإسـتفادة منـه. ويتصـل المصـدر الثالـث بمنظومـات القيـم المتضمنـة فى الثقافـة التـى تخـترق فضـاء المجتمـع مـن خارجـه، حيـث نجـد أن قيـم هـذه الثقافـة المخترقـة تؤثـر عـلى قيـم الثقافـة القوميـة التـى يسـتوعبها غالبيـة أفـراد المجتمـع. ويشـير المصدر الرابـع إلى التفاعـل الإجتماعـى الـذى يشـكل السـاحة التـى يعـاد مـن خلالها إنتـاج الثقافـة العامة للمجتمـع، بحيـث تتخلـق الثقافـة مـن خـلال التفاعـل الإجتماعـى بطابـع جديـد، مـن شـأنه أن يهمـش الخصوصيـات الثقافيـة للجماعات، ويجعل المشـترك أقـوى دائماً مما هو خـاص، ولذلك نجد أن الثقافـة المصريـة تحتـوى عـلى القواسـم المشـتركه عـلى الصعيـد القومـى، وهـى القواسـم التـى تحتـوى عـلى منظومـات القيـم المنظمـة للتفاعل داخـل المجـالات العائليـة والإقتصادية السياسـية، أو مجـالات العلاقـات والتفاعـل الإجتماعـى السـائد بـين البـشر، حيث نجـد القيم المنظمـة للتفاعل الإجتماعـى فى مختلـف هـذه المجـالات مشـتركة بـين مختلـف الجماعـات (٤).

ويشـكل البعـد الحضـارى للمجتمـع أحد أبـرز الفضاءات المشـتركة بين مختلـف الجماعات فى المجتمـع، فى هـذا الإطـار فإننـا نعتقـد أن البـشر فى المجتمـع المـصرى، ينتمـى جميعهـم إلى حضـارات ذات طبقـات دينيـة وحضاريـة متتابعـة. هـذه الطبقـات الحضاريـة ذات القاعـدة الدينيـة فى الغالـب، هـى التـى ميـزت المجتمـع المـصرى عـن غـيره مـن المجتمعـات. تأكيـداً لذلـك أننـا إذا تأملنـا بنيـة الشـخصية المصريـة سـوف نجـد أن الحضـارة القاعديـة الراسـبة فى بنيتهـا هـى الحضـارة الفرعونيـة، بـكل تجسـيداتها الماديـة أو أفكارهـا وقيمهـا المعنويـة. فـإذا صعدنـا تاريخيـا إلى طبقـات أحـدث فسـوف نجـد الحضـارة القبطيـة، هـى الحضـارة التـى تشـكل طبقـة راسـبة وقويـة فى البنيـة المصريـة. وحيـما إنتـشر الإسـلام فى مـصر، آمـن بـه بعـض المصريـين بينـما آخـرون ظلـوا عـلى تدينهـم القبطـى، ولأن الإسـلام والمسـيحية صـدرا عـن جـذر ومصـدر واحـد. فإننـا نجـد أنـه لم تحـدث قطيعـة بـين الجماعتـين الدينيتيـين، لأن منطقـة مـا هـو مشـترك أكـثر إتسـاعا مـما هـو مختلـف. وظـل الأمـر حتـى الآن، ويمكـن ننظـر إلى نفـس عبـور بعض الأشـخاص مـن السـاحة الإسـلامية إلى السـاحة المسـيحية، والعبـور المعاكـس مـن المسـيحية إلى الإسـلام،

بإعتباره يرجع إلى أن مساحة المشترك كبيرة بين الجامعتين، بغض النظر عن الإغراءات الموقفية. ونفس الأمر بالنسبة للجماعات العرقية، فبرغم أن لبعضها خصوصيتها الثقافية إلا أن ما هو مشترك أكثر إتساعاً. وحينما طرأت قيم العولمة فى المرحلة الأخيرة أثرت على ثقافة المسلمين والمسيحيين على السواء، تأكيداً لذلك أنه حينما تناقش حقوق المرأة او ظواهر الشباب أو أوضاع الطفولة، فإنها تناقش ذات الآثار تقريبا. بل وذات الإستجابة، وذات الفئات الإجتماعية التى خضعت لتأثير أو إختراق ثقافة العولمة (٥).

ويعتبر التداخل القبلى أو السكانى من الأبعاد أو المتغيرات الأساسية التى حققت قدراً كبيرا من التجانس على الصعيد الإجتماعى، الأمر الذى أكد التماسك الإجتماعى فى المجتمع، وإلى جانب التجانس والتداخل الذى يقوم فى السياق الحضرى المستند إلى الفردية، فإننا نجد أن البشر لا ينفصلون عن بعضهم البعض. وفق آية متغيرات إثنية. تأكيدا لذلك أننا نجد أن السياق الريفى يشهد تداخلاً فى الحياة الإجتماعية والمكانية، فالثابت فى السياق الريفى فى غالبة، أن هناك توزيع مكانى تكون فيه العائلات المسلمة إلى جانب العائلات المسيحية فى كل قسم من أقسام القرية. فإذا كانت القرية مقسمة إلى ثلاث تجمعات أو أربعة فإننا نجد أن كل تجمع يجمع عدداً من العائلات المسلمة إلى جانب عدد من العائلات المسيحية، وأن كل تجمع تسود بداخله روابط عضوية قوية. لأن العائلات المسلمة هى عائلات تميل بطبيعتها إلى العمل فى الزراعة فى مقابل أن العائلات المسيحية تحترف الزراعة إلى جانب مهنة أخرى ولتكن النجارة أو التجارة أو الكتابة والحساب. ومن ثم وقع إرتباط كبير بين الجامعتين، الأمر الذى جعلهما يعيشان بصورة دائمة فى حالة من الوئام الإجتماعى، تنمو بينهم علاقات إجتماعية مستندة إلى التفاعل الإجتماعى الكثيف. الأمر الذى يجعل الجماعات المسلمة بحكم تجمعها العددى الكبير ملتزمة أو تقع عليها مسئولية الحفاظ على العائلة او العائلات المسيحية التى تجاورها جغرافيا. ومن ثم فقد كان من الطبيعى أن تشعر كل جماعة من الجماعات بالأمان فى ظل وجود الجماعة الأخرى. فلأن الجماعة المسيحية كانت تحترف إلى جانب الزراعة

القيـام ببعـض المهـن التـى يحتاجهـا الإنتـاج الزراعـى، فـإن ذلـك كان يعنـى أن الجماعـة المسـيحية كانـت تمنـح الجماعـة المسـلمة الأمـان الإقتصـادى فى مقابـل أن الأخـيرة كانـت تمنـح الأولى الأمـان السـياسى. وفى ظـل هـذا الإرتبـاط العضـوى قامـت شراكات فى مجـال الزراعة، وتربية الماشـية وكثير مـن المناشـط الإقتصاديـة، وهـى المناشـط التـى ترتبـت عليهـا مناشـط إجتماعيـة وثقافيـة عديـدة، جعلـت مـن التجمعـات القرويـة – بغـض النظر عـن إختلاف الدين - كتلة سـكانية واحـدة أو كتلة إجتماعيـة متماسـكة. وإسـتمر الحـال عـلى هـذا النحو لتاريـخ طويـل، كان الحديث أو الإشـارة إلى الصفـة الدينيـة، إشـارة لا تحمـل آية دلالات، ولا تتحمل كذلك آية معانى سـلبية بالنسـبة لأى طرف مـن أطـراف التفاعـل الإجتماعى (٦).

ثانياً: متغيرات تفكيك التماسك الإجتماعى

يمكـن القـول بـأن التاريـخ الإجتماعى للمجتمع المصرى شـهد حالة من التماسـك الإجتماعى عـبر مختلـف مراحلـة. وقـد كان هـذا التماسـك أشـد ما يكـون فى مرحلـة النضال الوطنى المشـترك، ضـد القـوى المسـتعمرة للحصول على إسـتقلال الوطن. إذ نجـد أنه على طول البـلاد وعرضها، كانت كل جماعـات المجتمـع منطويـة تحت لواء النظام السـياسى، تخوض مختلف المعـارك، كأنما المجتمع يشـكل فى جملتـه هويـة واحـدة. حيـث لم تكـن توجـد أية تمايـزات قد تبعـد هـذه الجماعات عن بعضهـا البعـض، وحينـما كانـت تقـوم مختلـف الحـركات الإجتماعيـة كان الجماعـات تشـارك فيها، عـلى مرجعيـة الهويـة المصرية، أو العربية وليسـت وفق أى مرجعيات دينيـة. ولم يحدث أن أعطى الإعتبـار أثنـاء النضـالات القوميـة العديـدة، التـى خاضها المجتمـع أى إهتـمام لآية إعتبـارات إثنية، مـن ناحيـة لأن ثقافـة النضـال ومتطلباته وإحتياجاته كانـت تعلو على أية ثقافة فرعيـة وتتجاوزها. حيـث كانـت المصريـة هـي المرجعيـة الأكـثر بـروزاً، غـير أننـا نلاحـظ فى الفترة الأخـيرة خفوتـا لهذه المرجعيـة بسـبب فاعليـة بعـض المتغـيرات التـى بدأت تفكك تماسـك الأمـة عموما، ونذكـر فيما يلى بعـض من هذه المتغـيرات (٧).

١- ضعـــف التماســـك الثقـــافى والأخلاقـــى فى المجتمـــع: ذلـــك يرجـــع إلى أن الثقافـــة ومنظومـــات القيـــم المتضمنـــة فيهـــا تشـــكل الإطـــار الأخلاقـــى والمعنـــوى الـــذى

يربط جماعات المجتمع مع بعضها البعض. ويرجع ذلك لأن الثقافة تضبط الفرد من خلال ثلاثة أبعاد أساسية. ويتمثل البعد الأول فى أن الثقافة تضم أفراد المجتمع إلى بعضهم البعض عن طريق وجودها الرمزى. فى هذا الإطار توجد الثقافة على هيئة مجموعة من القيم التى ينبغي أن يراعيها أفراد المجتمع فى إنجازهم لمختلف سلوكياتهم الإجتماعية، فهى قائمة فى فضاء المجتمع يعطيها جميع أفراد المجتمع إعتباراً. بالإضافة إلى ذلك فإن منظومات قيم الثقافة البعد الثانى تتسلل إلى داخلنا من خلال عملية التنشئة الإجتماعية. بحيث يستوعب الفرد قيم الثقافة لتشكل ضميره الداخلى، الذى يوجه سلوكياته فى مختلف المجالات الإجتماعية. يضاف إلى ذلك البعد الثالث لفاعلية الثقافة، وذلك حينما تتحول الثقافة إلى مجموعة من القواعد التى تنظم سلوكيات البشر وتفاعلاتهم فى مختلف مجالات الواقع الإجتماعى (٨).

غير أننا إذا تأملنا حالة الثقافة ومنظومات القيم التى تلعب دورها فى تأكيد تماسك بناء المجتمع، فسوف نجد أنها قد تعرضت فى الفترة الأخيرة لمجموعة من المشكلات أو الظواهر، التى أضعفت فاعليتها فى تأكيد هذا التماسك. من هذه الظواهر، الإنفصال بين الأيديولوجيات التى شكلت إختيارات النظام السياسى وبين ثقافة المجتمع، ذلك أنه من المفترض أن تنبثق أيديولوجيات النظام السياسى من رحم ثقافة المجتمع، فى جوانبها العقلية، وتعمل على تطوير بنية الثقافة فى جوانبها الأخرى. ولما كانت الأختيارات الأيديولوجية مشتقة من أيديولوجيات من خارج المجتمع، فإن ثقافة المجتمع ظلت كما هى لم يحدث لها أى تطوير، الأمر الذى جعلها عاجزة عن متابعة وضبط أحوال المجتمع وتفاعلاته فى ظل ظروفه المتغيره والمتجددة. بحيث إتسع هذا الضعف فى نهاية القرن العشرين حتى أسس حالة من الفراغ الثقافى، الذى ظهرت على ساحته ظواهر سلبية عديدة (٩).

من هذه الظواهر بداية تشكل الثقافات الفرعية المتطرفة والمضادة، وهى الثقافات التى نشأت بداياتها فى المرحلة الناصرية، على يد حركة الأخوان المسلمين الرافضة لتوجهات النظام القومية الإشتراكية. والتى تولدت عنها فى

مرحلـة السـبعينيات وحتـى الآن الحـركات الدينيـة المتطرفـة والتـى تبنـت العنـف إلى حـد تكفـير المجتمـع أو بعـض مسـاحاته. وقـد لعبـت هـذه الجماعـات دوراً أساسـياً فى هـز إسـتقرار المجتمع، وتأسـيس بعـض الـشروخ فى جسـد الأمة، خاصـة بين الجماعة المسـلمة والجماعة المسـيحية. ويمكن القـول بـأن ذلـك يرجـع بالأسـاس إلى عـدم الإرتقـاء بثقافـة الأمـة مـن خـلال التأكيـد عـلى قيـم التسـامح، والألتقـاء بالآخـر شريـك الوطـن. فقـد كان مـن المفترض أن يتحقـق تعميق هـذه القيم، خاصـة أن المجتمـع بـدأ ينفتـح عـلى العـالم الخارجـى، الذى بدأ يسـتغل هشاشـه المواطنـة فى بنيتنا الثقافيـة والإجتماعيـة (١٠).

كـما شـهدت هـذه المرحلة الثقافية نشـأة عديد مـن الثقافات الفرعية، التى بـدأت جنينية، ثـم بـدأت هـذه الثقافـات الفرعيـة فى التبلـور الذى أصبـح واضحاً مـع نهايـة التسـعينيات، والعقد الأول مـن الألفيـة الثالثـة، حيـث تشـققت الثقافـة العامـة للمجتمـع لتفسـح الطريـق أمـام ظهور ثقافـات فرعيـة متنوعـة. فقـد ظهـرت نتيجـة لسـلوكيات التطـرف والثقافـة الفرعيـة التـى تـبرره، عـلى الجانـب المسـيحى ثقافـة رافضة لهـذا التطـرف، تطرفت أحيانـا فى رمزيتها. وبدأت مسـاحات الالتقـاء الثقـافى تنكمـش بـين الجماعـة المسـلمة والمسـيحية عـلى السـواء. كذلـك ظهـرت الثقافـة النوبيـة كثقافـة فرعيـة، وجـدت جذورهـا فى الـضرر الـذى لحق بأهـالى النوبـة من جراء بناء السـد العـالى، حيـث لم تعالـج الدولـة الـضرر، ومـن ثـم بـدأ إمتعاضهـم يتبلـور عـلى هيئـة ثقافـة فرعيـة تحافـظ عـلى هويتهـا مـن ناحية، وتسـعى لتحقيق بعـض المطالب مـن ناحية ثانية، بحيـث نجد أن هـذه الثقافـة الفرعيـة مـا زالـت فى مرحلـة الإمتعـاض ولم تتحـول إلى ثقافة رافضـة (١١).

بالإضافـة إلى ذلـك بـرزت ثقافة فرعيـة اخرى يمكن أن نسـميها بالثقافة «السـيناوية»، التى تعـبر عـن إمتعـاض أهـالى سـيناء، سـواء بسـبب إهمال تنميـة سـيناء، برغـم الحديـث والوعود عن المليـارات التـى رصـدت لهـذا الغرض. وقد سـاعد عـلى تبلور هذه الثقافـة الطبيعة القبلية لسـكان سـيناء، وهـى تختلـف عـن طبيعـة التكوينـات الإجتماعيـة لسـكان الـوادى. يضـاف إلى ذلك بعض السـلوكيات الأمنيـة التـى تضمنـت بعـض التجـاوزات لثقافتهـم، يضـاف إلى ذلـك تفويـض الدولـة

لجهاز الأمن فى التعامل معهم. وقد عبرت هذه الثقافة عن رفضها بأشكال عديدة إبتداء من زراعة المخدرات، ما دامت التنمية الصحيحة قد غابت، وتيسير عبور السلاح والغذاء إلى قطاع غزة لقاء عائد، وبروز بعض الجماعات الدينية المتطرفة التى إستهدفت السياح فى المناطق السياحية بسيناء. وبسبب إصرار الدولة على التعامل الأمنى وليس التنموى مع سكان سيناء، بدأت ثقافة عدائية تملأ الفجوة بين الدولة وقبائل أو سكان شبه الجزيرة. دعمها عجز الحكومة فى بعض الأحيان أمام نجدة أهالى سيناء كما حدث أخيراً فى تدفق السيول على سيناء، يزيد الأمر درامية سعى إسرائيل للوقيعة دائما بين أهالى سيناء والحكومة المصرية، ومن شأن ذلك أن يؤسس شروخا فى التماسك الإجتماعى(١٢).

بالإضافة إلى ذلك إتسعت مساحة الثقافة المنحرفة فى حياتنا، وهى الثقافة التى تشير قيمها إلى حالة الإنهيار الأخلاقى التى بلغها المجتمع. تأكيداً لذلك إنتشار ثقافة المخدرات بين الشباب، ثقافة التحرش الجنسى فى الشارع المصرى ولا ضابط، ثقافة الإغتصاب، والقتل المتبادل داخل الأسرة المصرية، يضاف إلى ذلك ثقافة الإستهانة بقيمة الأسرة المصرية (١٣). إلى جانب ثقافة الفساد فى أعلى والرشوة فى أسفل المجتمع، وهى الثقافة التى أصبحت تملأ فضاءنا الثقافى. يضاف إلى ذلك إرتفاع معدلات الإنحرافات والجريمة التقليدية فى مجتمعنا ومن شأن ذلك أن يشير إلى غياب آليات الضبط الإجتماعى التى تلعب دورها فى الحفاظ على إستقراره وتماسكه.

إلى جانب ذلك ظهور ثقافة الإحتجاج الإجتماعى، وهو الإحتجاج الذى يشير على رفض صيغة العقد الإجتماعى السائدة فى المجتمع. والحاجة إلى عقد إجتماعى جديد، بعد أن أصبح النظام السياسى عاجزاً عن الإستجابة لإحتياجات المجتمع. وهو العجز الذى فجر مظاهر الرفض الكثيرة على ساحته. حيث تفجرت إحتجاجات الطبقة العاملة فى مواقعها المتعددة كما تفجرت إحتجاجات المهنيين فى مختلف مواقعهم، وهو الأمر الذى يعنى إتساع مساحة ثقافة الرفض ومع إتساع مساحة ثقافة الرفض، إضافة إلى ثقافات التطرف وتبلور الثقافات الفرعية، فإن ذلك من شأنه أن يشير إلى أن الثقافة العامة للمجتمع أصبحت

أضعف من أن تحافظ على تماسكه الإجتماعى.

٢-المتغيرات الإقتصادية وتفجر المجتمع من الداخل: من الواضح أن التطورات السياسية والإقتصادية التى بدأت مع بداية السبعينيات وحتى الآن، قد لعبت دوراً أساسياً فى إضعاف التماسك الإجتماعى للمجتمع. حيث يمكن بلورة هذه الظروف السلبية من خلال عدة أبعاد أساسية، ويتمثل البعد الأول فى التحول بإتجاه دعم القطاع الخاص لقيادة عملية التنمية والتحديث، تضافراً مع الأيديولوجيا الليبرالية التى أعلنها النظام السياسى، إستجابة للمد الليبرالى على الصعيد العالمى. وذلك فى مقابل تصفية القطاع الحكومى والعام، وهو القطاع الذى كان يشبع الحاجات الأساسية للجماهير، ولو حتى فى الحدود الدنيا من الإشباع. فى هذا الإطار فإننا نستطيع التأكيد بأن التحولات الإقتصادية التى تحققت بإتجاه منح الأولوية للقطاع الخاص المصرى أو الأجنبى، لقيادة عملية التنمية والتحديث، لم تأتى بالنتائج التى كانت مرجوة منها. وبدلاً من أن تعمل مؤسسات هذا القطاع بإتجاه توليد أو توفير فرص عمل كافية لإستيعاب السكان فى سن العمل، كبديل للقطاع العام أو الحكومى الذى توقف عن إستيعاب هذه الشرائح (١٤). وجدنا أن القطاع الخاص بدلاً من أن يؤدى دوره فى هذا الإتجاه يعمل على التخلص من نسبة كبيرة من العمالة التى كانت تعمل فى مؤسسات القطاع العام سابقاً، أو فى الشركات الحكومية التى بيعت إلى للقطاع الخاص. ذلك بالإضافة إلى التعامل مع العمالة التى ما زالت باقية بأساليب مخادعة تحرمها فى أحيان كثيرة من حقوقها فى حالة الأستغناء عنها، ذلك بالإضافة إلى جيوش العاطلين بطبيعة الحال الذين لم يتسلموا عملاً بعد، الأمر الذى زاد من عدد العاطلين فى المجتمع. الذى أدى وجودهم الهامشى إلى توليد توتر، أخذ يتراكم فى كافة السياقات الإجتماعية، فى الأسرة والشارع والحى، وهو التوتر الذى أصبح له علاقة قوية بسلوكيات العنف (١٥)، التى بدأت تظهر بكثافة على سطح حياتنا، وتعمل على تفكيك بناء المجتمع وتعميق الشروخ فى جدرانه.

بالإضافة إلى ذلك فإنه برغم الحديث عن معدلات عالية للنمو، وبرغم

الحديث المعلن عن تنفيذ برامج إنتخابية طموحة، فإن مستويات الدخول تدنت فى مواجهة التضخم وإرتفاع الأسعار. الأمر الذى زاد من نسبة السكان تحت خط الفقر، وهى نسبة أصبحت عاجزة عن إشباع حاجاتها الأساسية فى ظل الأوضاع الإقتصادية الحالية. ومن الطبيعى أن تكون هذه الأوضاع موترة بل وتشكل مصدراً لضخ التوتر فى داخل بناء المجتمع، بسبب الفجوة الواسعة بين التصريحات المتفائلة المعلنة، وبين أحوال الواقع المتردية. وهى الفجوة التى كانت سببا فى إنطلاق كثير من الإحتجاجات الإجتماعية التى تستهدف الحصول على مكاسب إقتصادية، كرفع المرتبات أو الدخول بما يساعد غالبية أسر الطبقة المتوسطة والدنيا من الحصول على الحد الأدنى من الكفاف. ومن شأن ذلك أن يساهم بطبيعته فى زيادة معدلات تراكم التوتر، بحيث تشير هذه الحالة الإحتجاجية إلى تشرذم حماعات المجتمع، وضياع الهدف العام الذى يضمها جميعا، وهو ما يشير إلى ضعف التماسك الإجتماعى للمجتمع (١٦).

ويرتبط بذلك اننا أصبحنا نعيش إقتصاد الأزمات، مع عجز الدولة عن الأدارة الفعالة لهذه الأزمات، حيث أزمة الخبز، وأزمة البوتاجاز وأزمة السولار، وأزمة البنزين، وأزمة السكر. إستجابة لذلك أصبح المواطن يشعر بعدم الأمان فى مواجهة هذه الأزمات، ومن الطبيعى أن تصبح هذه الحالة موترة. تأكيداً لذلك أن هناك قتلى سقطوا من جراء كل أزمة من هذه الأزمات(١٧). وهو الأمر الذى يعنى وجود تهديد دائم للمواطن بأن لا يشبع حاجاته الأساسية، الأمر الذى يشعره بعدم الأمان من ناحية، كما يساعد في إدراكه عجز الدولة عن التصرف فى مواجهة هذه الأزمات من ناحية ثانية، بحيث يضيف ذلك مستويات من التوتر التى تضغط على المجتمع من داخله لتحدث شروخ فى جدرانه.

إلى جانب ذلك عدم وجود خطة تنموية تستطيع تأسيس التجانس على الصعيد الإجتماعى والإقتصادى، فما يجرى من تنمية متحيز للسياقات الحضرية بالأساس. ونتيجة لذلك برز الريف المتخلف فى مواجهة الحضر الذى حقق قدراً من التحديث والتطور، برغم كل مشكلاته. وإنعزلت سيناء والسياقات السياحية، اللهم إلا بعض المنتجعات السياحية، فى مقابل المجتمعات البدوية

والصعيـد التـى أصبـح نصيبها محـدوداً من جهود التنميـة، ونتيجة لذلك برزت فى المجتمع سـياقات إجتماعيـة، شـكلت إطـاراً لمجتمعات محلية، ينمو تباينها على حسـاب تجانس المجتمـع العام. فقد بـرز لدينـا حـضر العواصـم بمؤشراتـه العالية فيـما يتعلق بمختلف فـرص الحياة، يليه السـياق نصف الحـضرى الـذى يضـم كل المـدن الصغـيرة وعواصـم المحافظـات، ثم يأتي بعـد ذلك التجمـع الريفى، ثـم التجمـع الصحـراوى وبخاصـة المجتمـع «السـيناوى» ، إلى جانـب ذلـك يـأتي مجتمـع الصعيـد والنوبـة (١٨). وبرغـم أن هـذه السـياقات الإجتماعيـة تنتمـى إلى المجتمع المصرى، إلا أنها شـكلت سـياقات إجتماعيـة فرعيـة طـورت نوعيـة حياة ثقافيـة وإجتماعيـة تفصلها عن غيرهـا. لأن نصيبها مـن جهـود التنميـة مختلـف، ويمكن أن تطـور ثقافة للعزلـة، وربما الإنفصـال إذا إسـتمرت الأوضاع فى ترديهـا، وهـو مـا ندق الأجراس بشـأنه، ومن الطبيعـى أن يؤدى غياب التجانـس الإقتصادى ومن ثـم الإجتماعـى عـن المجتمـع إلى إنهيار التماسـك الإجتماعى وتحولـه إلى كتل إجتماعيـة متباينة.

يضـاف إلى ذلـك الفسـاد الإقتصـادى، حيـث أصبحـت مـصر تحتـل مكانـة متدنيـة عـلى مقيـاس الشـفافية العالمـى. ونظـراً لأن الفسـاد إنتـشر بالأسـاس فى الشريحـة الأعـلى فى المجتمـع، فإنـه أسـس وقايـة أو حمايـة لـه بتداخـل النخبـة الإقتصاديـة والسياسـية مـع بعضهـما. وتطويـر شـبكة مـن المصالـح المشـتركة يدعـم فى إطارهـا الإقتصـاد السياسـة ويقـدم لهـا يـد العـون التـى تقـدم بدورهـا الحمايـة لـه والدفـاع عنـه. بحيـث شـكلت هـذه الجماعـة كتلة صلبـة لهـا علاقاتها الداخليـة الكثيفـة، التـى أصبحـت تفصلهـا عـن الجماهـير التـى شـكلت كتلـة مقابلـة تعـانى مـن الحرمـان (١٩). بحيـث أنتـج هـذا الوضـع سـلوكيات أضرت بالتماسـك الإجتماعـى بـين قاعـدة المجتمـع العريضـة وقمتـه الضيقـة، وظهـرت بعـض الفضائـح التـى تعبر مـن ناحية عن أن الفسـاد أصبـح صناعـة، وأن أثـاره تزيـد مـن التناقـض بـين الكتلتـين. الكتلـة الأعـلى تقـترض مـن البنـوك وتهـرب بمـا إقترضـت، بينـما يتحمـل دافعـوا الضرائـب - في القاعـدة - معانـاة معالجـة أثـار هـذا التخريـب. يظهـر نواب المخدرات الذين يسـتغلون حصانتهم السياسـية فى تهريـب المخدرات، التى

تدمر شرائح شباب الطبقة الوسطى والدنيا، الأكثر معاناة من إنتشارها، حيث تتضافر على ساحة حياتها نوعية حياة معانية مع الحاجة إلى تخفيف هذه المعاناة بتعاطى المخدرات. بحيث يؤدى ذلك إلى حنق من ما هو أسفل على ما هو أعلى، لادراكه أنه سبب معاناته، ويزداد هذا الحنق عمقا حينما تدرك الجماهير عجزها عن فرض العقاب، بسبب المخادعة السياسية والعصا الأمنية(٢٠).

وتتسع مساحة العبث حينما يطول الفساد صحة الأمة، حيث تعالج شرائح القمة بأرقام فلكية على حساب الدولة ومن ميزانيتها، بينما لا يجد الفقراء ما يحافظ على حد أدنى من الرعاية أو الحماية الصحية. يعالج مرضى قمة المجتمع فى ظل حالة من الترف والرفاهية، بينما يقترب المرضى فى قاع المجتمع من الموت، بسبب العجز عن الحصول على تكاليف العلاج، ومن الطبيعى أن يولد ذلك مشاعر سلبية رافضه من القاع تجاه القمة، تزيد من مساحة التباعد وتدمر تماسك المجتمع. ولقد بلغ هذا المشهد المأساوى قمته فى تولد رمزية محزنة، حيث القمة داخل مجلس الشعب ومجلس الوزراء، تمارس مسرحيه هزلية فى ظل إدعاء الحفاظ على مصالح الشعب، بينما يجلس الفقراء والشرائح الدنيا للطبقة المتوسطة على أرصفة هذه المؤسسات يطالبون بمجرد تأمين القوت اليومى، كما يطالبون بأدنى مظاهر الحماية من المرض الذى يقربهم فى كل صباح من جدار الموت. بينما نواب الشعب المترفون بداخل جدرانه، الذين يحصلون على دخول غير مبررة، وعلى خدمات غير قانونية تجعل حياتهم اكثر ترفا. وحتى لا ينغص صياح المرضى والجائعين وأحتجاجهم العلنى فى الشارع، فإننا نجدهم – أى نواب الشعب فيما قبل ٢٠١٠ - يطالبون بإطلاق الرصاص على هؤلاء المطالبون بأدنى حقوقهم. بحجة أنهم يعكرون الصفو العام، وتهدد سلوكياتهم بإنتشار الفوضى التى يخافون الإحتراق بنيرانها، مرة أخرى تمزقت روابط النسيج الإجتماعى، التى كانت تجمع بين من أختبروا ليكونوا من أهل القمة وبين الفقراء والمعذبين الذين إفترض إختيارهم لهم (٢١).

٣-المتغيرات السياسية وسلوك الدولة الرخوة: المتغيرات السياسية لعبت دورها أيضا فى تفكيك التماسك الإجتماعى. وإذا كان منشأ قيام الدولة على

الصعيد النظرى يتمثل فى ضبط التفاعل الإجتماعى الحادث على ساحة المجتمع، بين أعضائه وجماعاته، بما يساعد فى الحفاظ على التماسك الإجتماعى. فإن قبول الدولة ببعض الممارسات التى تساعد فى تمزيق النسيج الإجتماعى وتفكيك مكوناته، بعد تخليا منها عن واجباتها الأساسية. فى هذا الإطار فإننا نلمس الفاعلية السلبية لمتغيرات عديدة، حيث يتمثل اول هذه المتغيرات فى وقوف النظام السياسى حجرة عثرة أمام التحول الديموقراطى. حول هذه القضية يعانى النظام السياسى من حالة من الشيزوفرينيا السياسية، فمضامين خطابة السياسى تؤكد على ضرورة التحول الديموقراطى، بينما سلوكه الواقعى يرفض وقوع هذا التحول أو إنجازه، لأنه أصبح صاحب مصلحة فى الوقوف بعيداً عن هذا التحول، بل نجده يشكل حجر عثرة فى سبيل إستكمالة (٢٢). وإذا كانت الديموقراطية تؤكد على تداول السلطة، فإننا نجد أنفسنا - قبل ثورة ٢٥ يناير- محاصرين بين إستمرار الأب، وبين توريث الأبن ولا بديل. وإذا كانت الديموقراطية تعنى القدرة على المساءلة من خلال القنوات الشرعية، فإننا نلاحظ فى هذا الإطار وقوع ظاهرتين. إما أن تأخذ المساءلة الطابع المسرحى وتوزيع الأدوار بما يجعلها مادة للتسلية، مؤشر ذلك النشر الإعلامى - قبل ثورة ٢٥ يناير- لمداولات مجلش الشعب والشورى بهدف التسلية الجماهيرية، ودفع الجماهير إلى الحياة فى ظل واقع خيالى زائف وبديل. بينما تتصل الظاهرة الثانية بوجود مناطق محرمة، حيث كان لا يحق لنواب الشعب – إذا إعتقدنا فى صحة وجودهم – التحاور بشأنها والوصول إلى قرار، كتعديل الدستور، وقضايا الإستمرار فى السلطة، والتوريث، وتصدير الغاز إلى إسرائيل، والموقف من بعض الدول المجاورة، أو الفشل فى الإتفاقيات المتعلقة بمياه النيل، أو موقف الدولة من القضية الفلسطينية (٢٣).

وتشكل الحياة السياسية فى ظل نوع من القهر السياسى أحد المتغيرات الأساسية المفككة للتماسك الإجتماعى. قد يصبح هذا القهر خشنا حينما يرفض النظام السياسى القيام بإصلاحات واجبة، كإلغاء قانون الطوارئ - كما كان الأمر - أو ممارسة بعض أعضاء النخبة السياسية لنوع من البلطجة السياسية.

كأن يخرج علينا رئيس مجلس الشورى معلنا أنه لا تعديل فى مواد الدستور، دون أن يكون ذلك تعبيراً ديموقراطيا عن المجلس الذى يراسه. أو أن يهاجم بسفه المرشحين المنافسين للرئيس الأب، أو الأبن الذى يعد ليكون الوريث، أو أن يطالب بعض نواب الشعب، ضرب بعض فئات الشعب بالرصاص لمجرد أنهم أعلنوا عن نية الإحتجاج أو مارسوه. إلى جانب ذلك هناك القهر الناعم، والذى يشيع حالة من الإرتباك الإجتماعى والسياسى على ساحة الجماهير. مثال على ذلك أن تذهب غالبية خطابات النظام السياسى – معبرة عن أحد أجنحته – إلى نشر حالة من التفاؤل المخدر كتوفير المساكن للشباب أو لسكان العشوائيات. أو توفير السلع الأساسية بأسعار رخيصة، أو الحديث عن مجانية التعليم، وإصلاح التعليم، أو الإهتمام بالشرائح الفقيرة، دون أن تجد مضامين هذه الخطابات طريقا إلى التجسيد الواقعى (٢٤). ذلك من شأن أن يساعد على إفتقاد الثقة بين نخبة النظام السياسى من ناحية، والجماهير الفقيرة والمعانية من ناحية ثانية، وهو الأمر الذى كان يلعب دوراً محورياً فى عملية التفكيك السياسى، لإدراك الجماهير المعانية عبثية هذه الخطابات.

ويتصل المتغير الثانى بإتساع مساحة فاعلية العصا الأمنية، وإذا كانت اليد الأمنية مطلوب فاعليتها لتحقيق التماسك والإستقرار الإجتماعى، فإن التطرف فى إستخدامها من قبل النظام السياسى - سواء المباركي أو الإخواني- لفرض الإستقرار القهرى على المجتمع، يعنى إستخدامها فى غير موضعها. ونحن إذا تأملنا الواقع الأمنى على ساحة مجتمعنا فسوف نجد وضعا عبثيا ولا معقولاً. فمن ناحية نجد أن الشارع المصرى يعانى من حالة من الفوضى الضاربة، بسبب عجزه عن ضبط إنتشار وتدفق المخدرات فى المجتمع، حتى إرتفعت نسبة التعاطى بين الشباب. يضاف إلى ذلك ظواهر التحرش، والعنف التى أصبحت شائعة، ناهيك عن إرتفاع معدلات الجرائم التقليدية والمستحدثة على السواء. حتى أقدمت الأجهزة الأمنية ـ أخيرا- على حجب تقرير «الأمن العام» عن التداول حتى داخل دوائر البحث العلمى. ومن ناحية أخرى نجد أن الأمن المحافظ على النظام السياسى والإستقرار القهرى - فيما قبل الثورة- ناجح

وتتزايد فاعليته وتتسع مساحة إبداعة. مؤشر ذلك سيارات الأمن المحملة بالجنود والمدججة بأدوات القمع أمام تقف على أهبه الأستعداد المؤسسات الحساسة كالجامعات، وفى الزوايا والمواضع ذات الخطورة بالعاصمة. يضاف إلى ذلك حجم أو عدد قوات الأمن التى تتواجد فى الشارع المصرى حين تحرك أى مسئول، والتى تتزايد كثافتها كلما علا شأنه وإرتفعت مكانتة (٢٥). أليس مثيراً للسخرية أن يصدر القضاء حكما باتا برفع اليد الأمنية عن الجامعات - فيما قبل ثورة ٢٠١١- ومع ذلك لا يستجيب النظام السياسى، فأى ديموقراطية هذه. فمن شأن ذلك أن يؤسس حالة من العدوانية الداخلية ذات الطابع البنائى، بين الشعب بفئاته المختلفة بخاصة المعانية والواعية من ناحية، وبين النظام السياسى وأجهزتة الأمنية من ناحية ثانية. وهو ما يشكل ضربة فى الصميم للتماسك الإجتماعى لأنه يؤسس فجوة عدائية بين النظام السياسى والجهاز الأمنى والمجتمع.

ويتصل بذلك الإخلال بمنظومة حقوق الإنسان. فى هذا الإطار نستطيع أن نميز فى بناء منظومة حقوق الإنسان بين مستويين، حيث يتعلق المستوى الأول بالحقوق المتصلة بالوجود أو البقاء الإنسانى، كالحق فى الحصول على المسكن، الذى يفى بالمتطلبات الأساسية للإنسان، والحق فى المرافق الأساسية – كالكهرباء والمياة وشبكة الصرف الصحى – بمستوى إنسانى ملائم. والحق فى فرصة عمل ملائمة تولد دخلاً يساعد فى قيادة نوعية حياة إنسانية. بينما يرتبط المستوى الثانى بمجموعة الحقوق المتصلة بممارسة حياة إنسانية ملائمة، كالحق فى المشاركة الصحيحة والحقيقية، وهى المشاركة المستندة إلى حق المواطن فى المواطنة الكاملة بوطنة، وإلى حقوقه التى تؤكد على مبادئ الإدارة الرشيدة للحكم، كالإحتكام إلى القانون، والممارسة الديموقراطية الصحيحة، وإتاحة المعلومات، والقدرة على المساءلة، وتداول السلطة، إضافة إلى فتح قنوات المشاركة الفعالة فى بناء التنمية المستدامة. حيث يؤدى عدم الوفاء بحقوق المواطنة على مستوياتها المتعددة إلى ضعف الإنتماء، وإلى وهن إرتباط المواطنة بوطنه، بل إننا نجد أن الظروف إذا إزدادت تعاسه فى هذا الإطار، فإنها قد

تـؤدى إلى إنـصراف المواطـن عـن وطنـه، وإفتقـاده الرغبـة فى متابعـة احوالـة وحتـى الهـروب منـه (٢٦).

ويشـكل عجـز النظـام السـياسى عـن الحفـاظ عـلى أمـن المجتمـع، والتماسـك بـين فئاتـه أحـد المتغـيرات السياسـية الدافعـة لإنهيـار التماسـك الإجتماعـى. ذلـك أن الحالة القاعديـة لغالبية المجتمعـات فى نظامنـا العالمـى المعـاصر، أنهـا مجتمعـات تفتقـد التجانـس السـكانى، اللهـم إلا عدد محـدود مـن المجتمعـات، التـى لا تتعدى أصابع اليـد الواحدة. ومن ثم يصبح من المهام الأساسـية للدولـة الحديثـة والنظـام السـياسى الـذى يديـر أمورهـا أن يعمـل عـلى إدمـاج الفئـات الإجتماعية، بحيـث تتدفـق جميعهـا متشـاركة فى المجـرى الرئيـسى للمجتمـع. ويتحقـق ذلـك بصـورة أساسـية إسـتناداً إلى قاعـدة حقـوق وإلتزامـات المواطنـة، وهـى الحقـوق التـى تفـرض شرعية عدالـة توزيع الفـرص المتاحـة فى المجتمـع عـلى أفـراده، بغض النظر عـن إنتماءاتهـم الإثنية. بإعتبـار أن المواطنة ومـا يرتبـط بهـا مـن حقـوق وإلتزامـات تصبـح هـى المرجعيـة الأولى، التـى يتحقـق التفاعـل مـع مختلـف الجماعـات والفئـات عـلى مرجعيتهـا الأساسـية. وفى هذا الإطـار فإن على الدولـة أن توازن آدائهـا بـين مختلـف الجماعـات الإثنيـة، وأن تعمل عـلى دمجها فى المجـرى الرئيسى للمجتمـع، وأنها جميعـا بممتلكاتهـا تعـد ثـروة بشرية ومادية مملوكـة للمجتمع وعليها – أى الدولة - حسـن إدارتها وإدارة العلاقـات بينهـا، وأن يكـون القانـون المنطلـق من قاعـدة المواطنة هو المنظـم للتفاعل بينها (٢٧).

عـلى هـذا النحـو فإنـه إذا كان المجتمـع متخما بالتوتر بسـبب ظـروف إقتصادية وسياسـية عديـدة، فـإن هـذه التوتـرات تتفجـر عـادة عـلى الحـدود الفاصلـة بـين الجماعـات، بإعتبـار أن هـذه المناطـق هـى الأضعـف، لأنهـا الأضعـف كثافـة مـن حيـث شـبكة العلاقـات الإجتماعيـة. يحـدث ذلـك التفجـر والمواجهـة بـين الجماعـة الإسـلامية والمسـيحية بسـبب ضعـف كثافـة علاقـات الإتصـال بـين الجماعتـين نتيجـة لإختـلاف الديـن. قـد يحـدث بـين القبائـل «السـيناوية» وسـكان الـوادى بسـبب إختـلاف التكويـن الإجتماعـى ونوعيـة الحيـاة والعزلـة الجغرافيـة، أو بـين سـكان النوبـة وسـكان الـوادى الآخريـن مـن المصريـين بسـبب إختـلاف العـرق والعزلـة

الجغرافيـة النسـبية كذلـك. ويـزداد الطـين بلـه حينـما لا يتعامـل النظـام السـياسى مـع الخـلاف الـذى قـد ينشـأ بـين مختلـف الجماعـات عـلى أسـاس قاعـدة المواطنـة المفـردة، بـل يتعامـل معهـا كجماعـات. بحيـث يجعـل مـن كل منهـا فاعـلاً متماسـكا فى مواجهـة الجماعـات الأخـرى وفى مواجهـة النظـام السـياسى (٢٨). مثـال عـلى ذلـك أحـداث الـصراع الأخـيرة بـين الجماعـة المسـلمة والمسـيحية فى «فرشـوط» و»نجـع حـمادى». الأولى تمثلـت فى إغتصـاب شـاب مسـيحى لفتـاة مسـلمة وهـى واقعـة تحـدث أحيانـا داخـل المجتمـع المسـلم أو المسـيحي، غـير أنهـا بـرزت لإختـلاف الديـن بـين العاشـقين. والثانيـة الهجـوم الـذى شـنة عـدد مـن الشـباب المسـلم، أيـا كانـت بواعثـة، عـلى أفـراد خارجـين مـن كنيـس قبطـى فى أحـد الأعيـاد المسـيحية. فى هـذه الحالـة فـإن الحادثتـين يقعـان تحـت طائلـة القانـون، وكان مـن المفـترض بـدون ضجـة إعلاميـة تقديـم المتهمـين الجنـاة فى الحادثتـين إلى القضـاء الفـورى، الـذى يصـدر حكمـة فيهـا ككل قضايـا الإغتصـاب، أو ككل قضايـا القتـل، فى هـذه الحالـة يكـون القانـون قـد طبـق عـلى مرجعيـة المواطنـة. بيـد أن الخطـأ الـذى إرتكبتـه الدولـة أنهـا أرسـلت وفـود مـن الكنيسـة والأزهـر، ومـن أعضـاء مجلـس الشـعب والمجالـس المحليـة، وأحيانـا بعـض الـوزراء الذيـن تعاملـوا مـع الحـدث بإعتبـاره حدثـا وقـع بـين بـين المسـلمين والأقبـاط. ومـن ثـم كان التعامـل مـع الحـدث عـلى مرجعيـة الخـلاف الدينـى، بينـما كان ينبغـى أن يحـصر التعامـل مـع هـذه القضايـا عـلى أسـاس فـردى، وعـلى مرجعيـة قوانـين المواطنـة المتسـاوية. غـير أننـا نعتقـد أن النظـام السـياسى - فيـما قبـل ثـورة ٢٠١١ - لم يكـن بريئـا فى سـلوكه، الـذى حـاول مـن خلالـه إسـترضاء الجماعتـين المسـلمة والمسـيحية عـلى السـواء، سـعيا وراء أصواتهـم ودعمهم، إما لإسـتمرار الرئيـس أو لمباركـة التوريث, ونفـس الأمـر حـدث تقريبـا فى التعامـل مـع القبائـل «السـيناوية» التـى تمـردت وإسـتنفرها العنـف الأمنـى غـير المبرر، والتعامـل مـع الأحـداث بصـورة جماعيـة وليسـت فرديـة عـلى قاعـدة المواطنـة(٢٩). يؤكـد ذلـك سـعى الأمـين المسـاعد للحـزب الوطنـى - حينئـذ -، السـاعى إلى وراثـة الحكـم إلى زيـارة قـرى النوبـة ليقـدم الوعـود والهدايـا وتصريحـات بحـل المشـكلات – لا نـدرى بـأى صفـة رسـمية - التـى تمثلـت فى توزيـع بعـض الأراضى عـلى أهـل النوبـة بحثـا

عن إستقرار دعمهم لإستمرار الرئاسة أو تمكين التوريث.

خطيئة أخرى قد يرتكبها النظام السياسى، أو هو عبث سياسى فى المنطقة الحرام، حينما يلعب النظام السياسى على التوازن بين جماعات الأمة التى تتصارع أحيانا. وقد حدث ذلك فى زمن الفتنة الطائفية التى تصاعد أوارها فى السبعينيات، فى الخانكة وأبو زعبل وغيرها من المناطق، حيث ينصب النظام السياسى نفسة حكما بين الجماعات، وليس بإعتباره أو يعاقب علي أي إنحراف قد يصدر عن أى منها. ويثبت التاريخ الإجتماعى القريب أن الرئيس السادات بمشورة وزير إسكانه عثمان أحمد عثمان، هو الذى شجع الجماعات الإسلامية لإلتهام الجماعات الناصرية والماركسية فى الجامعة. أو أن تصدر زعامة النظام السياسى عفوا عن «سيناويين» أوقفتهم الزراع الأمنية، كنوع من إستكمال الشرعية بتهدئة الخواطر، ونفس الأمر يحدث مع النوبة. ومن الواضح أن هذا السلوك ينتقص من الشرعية السياسية والضبطية للنظام السياسى(٣٠)، الأمر الذى يدفع جماعات عديدة للخروج على النظام السياسى بحثا عن بعض الإمتيازات أو سعيا وراء تهدئه خواطرهم بسبب بعض الأحداث. مثال على ذلك تمردات الفلاحين وتوقيفهم المرور فى بعض الطرق لوفاة طفلة، أو الحصول على بعض المطالب، ونفس الأمر بالنسبة للعمال وبعض الجماعات الأخرى. بحيث تشير كل هذه المظاهر إلى ضعف النظام السياسى وعجزة عن الحفاظ على تماسك المجتمع، ومن ثم بروز بعض مظاهر إنهيار التماسك الإجتماعى.

٤ - فساد النخبة : ويعد فساد النخبة أحد متغيرات وآليات الآداء السلبى للجهاز السياسى، الذى يمكن أن يعتبر بدوره متغيراً أصيلاً لإنهيار التماسك الإجتماعى، ويشير تأمل فساد النخبة إلى أن لهذا الفساد مرجعيته ودوائره. وفيما يتعلق بمرجعية فساد النخبة، فإننا نجد أن غالبية أعضاء النخبة الحالية هم فى الغالب أبناء الطبقة الوسطى فى مرحلة الستينيات والسبعينيات، الذين إستفادوا من مجانية التعليم التى بشر بها طه حسين وطبقها الرئيس ناصر فى المرحلة القومية والإشتراكية. حيث أشرنا فى دراسة سابقة إلى سيطرة القيم الإنتهازية على توجهات وسلوكيات أبناء الطبقة الوسطى فى ممالئتهم للنظام

السياسى، غير أنها كانت إنتهازية خجولة فى هذه المرحلة. تحولت خلال عقود السبعينيات والثمانينيات إلى إنتهازية جريئة، ثم إلى إنتهازية متبجحة خلال العقد الأخير من الألفية الثانية والعقد الأول من الألفية الثالثة. ومن الواضح أن غالبية أعضاء هذه النخبة هم من أبناء الطبقة الوسطى، التى تآكلت أخلاقها حتى سقطت تماما فى العقد الأخيرة للتحول الليبرالى. نشأوا فى المرحلة الإشتراكية، ولأنهم لديهم قابلية الإنتهازية، كانوا هم أول المتنكرين للقيم الإشتراكية وأول المدافعين عن القيم الليبرالية، هرولوا للألتحاق بتنظيماتها ومؤسساتها إبتداء من الحزب الوطنى ومجالس الشعب والشورى ولجنة السياسات (٣١). عبئوا كل مهاراتهم فى خدمة النظام الليبرالى، مع أن أصولهم الإجتماعية كان من المفترض أن تربطهم منطقيا بالقيم الإشتراكية والدفاع عن مبادئ العدل الإجتماعى. لأن الإشتراكية جف ضرعها، لقد سيطروا على مختلف التنظيمات السياسية، في عديد من المراحل، وبحرفية إنتهازية أطلقوا أقوالا وقالوا كلاما، يتناقض مع سلوكهم العملى والواقعى، ولا خجل !! عاشوا بسيكلوجية «العاهرات» اللائى يدعين الشرف، مع أنهن غارقات من قمة الرأس وحتى أخمص القدم فى الخطيئة والدنس، أو يبررن سلوكهم بغطاء دينى، ناظرين إلى ممارستهم للبغاء الفكرى ككل العاهرات بإعتباره وعد ومكتوب عليهم، هكذا كان سلوك النخبة الإنتهازية للطبقة الوسطى.

وتشير متابعة أوضاع هذه النخبة إلى أن خداع الجماهير، وربما خداع أنفسهم أصبح غريزة لديهم، فقد صبغوا رؤسهم لينشروا الوهم أنهم ما زالوا شبابا، أقوياء ولم ترتعش أيديهم. وتشير متابعتهم الآن إلى تحرك أطقم أسنانهم فى أفواههم عند الحديث، ومع ذلك فهم ثابتون على المقاعد، يتسربلون بسرابيل الشباب والقوة والرغبة الشرهة فى البقاء. وإذا كان بعض المخلصين قد توقعوا زوالهم بعد إنتهاء عمرهم الإفتراضى، غير أنهم كانوا الأكثر ذكاءاً حينما نجدهم يتجهون الآن إلى تدريب دوائر جديدة من النخبة تحمل ذات خصائهم وقناعاتهم وقابلياتهم. كأنه أصبح مقدر علينا أن نتعايش مع إستمرار وجودهم، حتى يأتوا على الأخضر واليابس فى المجتمع. هذه النخبة تسعى لمصالحها حينا،

وتتداخل مع عناصر فاسدة فى القطاع الخاص احيانا، وغير قادرة على الدفاع عن مصالح الجماهير احيانا ثالثة. الأمر الذى يدفع هذه الجماهير إلى الإبتعاد عنها، كما إبتعدت سابقاً عن النظام السياسى، وهو ما يعنى أن وجود هذا النمط من النخب وإستمرارها يؤدى إلى مزيد من تفكيك المجتمع، ويساهم بإمتياز فى إنهيار التماسك الإجتماعى (٣٢).

يضاف إلى ذلك عجز الدولة عن إشباع الحاجات الأساسية للمواطنين فى المجتمع. حيث لم تطور الدولة السياسات الملائمة لإشباع الحاجات الأساسية للبشر، الأمر الذى دفع كثيراً من الفئات الإجتماعية إلى ساحات الإحتجاج والتظاهر الإجتماعى. إما للبحث عن مسكن أو عمل ، أو البحث عن دخول اكثر ملاءمة تكفى لإشباع الحاجات الأساسية، التى تكفى مجرد البقاء، بحيث يمكن القول بان العقد الأول من الألفية الثالثة يعد بحق عقد الأزمات والإحتجاجات. حيث شهد المجتمع المصرى عبر هذا العقد أزمات كثيرة، يسرت توفر مناخ لتفجر الإحتجاج الإجتماعى. حيث وجدنا فئات إجتماعية عديدة تشارك فى هذه الإحتجاجات، فى الغالب كانت الإحتجاجات لأسباب إقتصادية، وفى الأقل لأسباب سياسية أو إجتماعية أو ثقافية. غير أن الخاصية التى تميز هذه الإحتجاجات فى غالبها، أنها إحتجاجات منفصلة قامت لأهداف فئوية خاصة. وإذا كان الفكر النظرى يذهب إلى حتمية إتصال هذه الإحتجاجات الفئوية المنفصلة، لترتقى من كونها إحجاجات إجتماعية إلى كونها إحتجاج سياسى عام، فإن ذلك لم يتحقق (٣٣). ومن المعتقد أن ذلك يرجع إلى غياب الهدف العام والمصلحة العامة من مخيلة الجميع، بخاصة النخبة والجماهير الأولى عن فساد وإنتهازية، والثانية عن لا مبالاه وإفتقاد الأمل، أو إنتظاراً للفرج الذى قد يأتى من الله. الأمر الذى يشير إلى أن هذه الجماهير، قد كلت وأن المجتمع فقد تماسكه، فقد تفكك وتشرذم وغاب عنه الهدف العام الذى يحفظ أو يضمن له وحدته، وهو ما يعد مؤشراً صارخا على إنهيار التماسك الإجتماعى.

٥- إنهيار الطبقة الوسطى: الثابت فى التراث النظرى أن الطبقة الوسطى هى رمانة الميزان، وهى الحافظة للتوازن الإجتماعى. سواء بوجودها الذى يشير

إلى أن إتساع مساحتها فى المجتمع، يعنى إتساع المساحة التى تلتقى فى إطارها الأطراف المتعارضة أو المتناقضة فى نوع من المصالحة، وهو الأمر الذي يعني أن لهذه الطبقة وجودها الواضح الذى يفرض الإستقرار الإجتماعى. أو بأخلاقها النضالية التى تستهدف الحفاظ على الوطن، مستقلا يحافظ عليه كل أبنائه، ثم أنها الطبقة التى ترفض الصراع الإجتماعى كآلية لحل التناقضات الإجتماعية. وترى أن التغيير الإجتماعى لحل التناقضات الإجتماعية ينبغى أن يكون فى إطار حالة من النظام العام وأن يتحقق بصوره تدريجية وليس بصورة ردايكالية متطرفة. ولذلك فإن غياب الطبقة الوسطى، أو حتى ضعفها، أو تآكل قوتها الإجتماعية، أو معاناتها بسبب ظروف أو مآزق صعبة من شأنه أن يؤدى إلى تآكل دورها البنائى (٣٤). ومن ثم إحتمالية إنتشار الفوضى الإجتماعية، وربما الصراع الإجتماعى إذا كان للتناقضات الإجتماعية وجود، خاصة إذا كان ثمة وجود محتمل لأطراف الصراع الإجتماعى لبعض هذه التناقضات.

ونحن إذا تأملنا أوضاع الطبقة الوسطى فى النصف الثانى من القرن العشرين لوجدنا أن هذه الطبقة مرت بثلاث مراحل أساسية. فى المرحلة الأولى قامت نخبة ثورة يوليو بمنحها كثيراً من الإمتيازات، دون أن تقدم هذه الطبقة دعما للنظام السياسى الذى منحها هذه الإمتيازات، إعتماداً منها على رصيدها النضالى فى مرحلة ما قبل ثورة ١٩٥٢. تعلم أبناء هذه الطبقة وتسلقوا التنظيمات السياسية والبيروقراطية، وفى ظل شعارات تفضيل أهل الثقة على أهل الخبرة بدأوا فى تنشئة أنفسهم وفق منظومة قيم إنتهازية. فى هذه الفترة حصلت الطبقة الوسطى على إمتيازات لا حدود لها. وفى المرحلة الثانية وهى المرحلة التى بدأت مع بداية السبعينيات وإعلان الأيديولوجيا الليبرالية، والإتجاه نحو الإعتماد على القطاع الخاص فى قيادة عملية التنمية والتحديث، وتحالف النظام السياسي مع رجال الأعمال وكبار الملاك وهو ما عرف بتضافر السياسة والإقتصاد. فى هذه المرحلة لم تمنح الطبقة الوسطى آية إمتيازات جديدة، بل وبدأ النظام السياسى يسحب إمتيازاتها الواحد تلو الآخر، إضافة إلى تحرير الدولة من سيطرة هذه الطبقة. ونتيجة لهذه الظروف الجديدة بدأت الطبقة

الوسطى تواجه بعض الصعوبات التى تشير إلى أنها تعيش فى نطاق حالة أزمة. وإمتدت هذه المرحلة تقريبا حتى بداية التسعينيات. ونتيجة للضغوط الهائلة المفروضة على بنية الطبقة الوسطى تكسرت هذه البنية وتشظت وفقدت تماسكها وبدأت شظاياها تتصارع مع شظاياها الأخرى. صراع الإسلاميين مع الماركسيين والناصريين فى فترة، ثم صراع المسلمين والمسيحين فى فترة أخرى، إضافة إلى صراعات الولاء للنظام أو التناقض معه. إلى جانب ظهور تناقضات جديدة لم يكن لها وجود من قبل، كالتناقض «السيناوى» المصرى، أو النوبى المصرى. وفى هذه المرحلة الثالثة لم تفقد الطبقة الوسطى تماسك بنيتها فقط، بل إتجهت بعض قطع أو مكونات هذه البنية إتجاهات شتى ومتنوعة، بعضها قرر الهروب – إستناداً إلى أدراك مبكر بأن الأمور تتجه إلى خراب – إلى مجتمعات الخليج. بينما سعى البعض الآخر بإتجاه التكيف مع النظام الليبرالى الجديد، حيث التحق بعض أعضائه بخدمة نخبة النظام الجديد، فى محاولة للحصول على بعض الفتات أو المكاسب، فى حين سعى البعض الثالث إلى تبنى مواقف متطرفة إحتجاجاً على ما آلت إليه أوضاع الطبقة الوسطى. وتساقط البعض الأخير إلى حيث الطبقة الدنيا يشاركها حرماناتها، ويتأمل – حزينا - وردية الأيام الخوالى فى عقد الستينيات (٣٥). وعلى هذا النحو فلم يؤد تآكل الطبقة الوسطى إلى غياب التماسك الإجتماعى فقط، بل أد إلى إنهيارها وتشرذمها، إلى أن أصبحت هى ذاتها مصدراً لتمزيق النسيج الإجتماعى وتفكيك التماسك الإجتماعى بقسوة بالغة.

٦- الأسرة كمصدر لتفكيك التماسك الإجتماعى: الأسرة هى الوحدة المحورية فى المجتمع، وهى التى تقوم بعملية التنشئة الإجتماعية، لتنتقل بالأبناء من الإطار الأسرى الضيق إلى الإطار الواسع، إستناداً إلى ذلك تعد الأسرة أحد المؤسسات الأساسية لتأكيد التماسك الإجتماعى. ونستطيع القول بأنه قد حدثت مجموعة من التحولات الإجتماعية التى جعلت الأسرة عاجزة عن تأكيد التماسك الإجتماعى، إن لم تكن هى بذاتها أحد مصادر تفكيكه. ويمكن القول بأن تفكيك الحياة الأسرية كمدخل لتفكيك المجتمع مر بمراحل عديدة متتابعة،

ساعدت فى تراكم خبرات التفكيك على الساحة الأسرية. وتشكل عزلة الأسرة عن الجماعة القرابية الأوسع أول خطى التفكيك، حيث تفككت الأسرة الممتدة والجماعات العائلية الأوسع من الأسرة النووية إلى الأسرة النووية مسايرة لعملية التحديث. ومن الطبيعى أن يؤدى إنفصال الأسرة النووية وعزلتها عن سياقها القرابى الأوسع، إلى إعتباره أحد مصادر ومظاهر تفكيك التماسك الأوسع، وذلك لأن الفرد سوف يصبح محاطا بأطار الأسرة النووية الصغيرة على حساب إنفصالة أو عزلته عن شبكة العلاقات القرابية الأوسع، التى كانت تشكل الدائرة التى يرتبط بها، وتعده لتماسك إجتماعى أوسع (٣٦).

وحدث نفس الأمر بالنسبة لجيرة الطبقة الوسطى، فقد كانت الجيرة فى زمان سابق تلعب دوراً محوريا فى زيادة التماسك الإجتماعى. وإذا كانت الجيرة تشكل إطار أوسع للتماسك الإجتماعى، فإن تداخل الجيرة مع القرابة شكل إطاراً فعالا لترسيخ هذا التماسك. حيث يتجه الفرد من خلال الحياة فى ظل هذه العلاقات الجماعية إلى إعتياده للحياة فى ظلها وميله إلى ذلك. بحيث يصبح الميل فى المشاركة كطرف فى علاقات إجتماعية اوسع تعبيراً عن الجماعية التى إستوعبها من خلال الحياة فى تجمعات القرابة والجيرة. لقد تخلت أسرة الطبقة الوسطى عن دوائر الجيرة والقرابة كمرجعيات للقيم والعلاقات، وشاركت بدلا من ذلك فى تجمعات النوادى والرحلات والإطار المهنى. وجميعها تستند إلى علاقات ذات طبيعة فردية لا تشكل بأى حال مقدمة للتماسك الإجتماعى. ونتيجة للضعف الذى أصاب الأسرة بنائيا، وسلب الإعلام والتعليم لغالبية الوظائف الأسرية، وتغير نوعية الحياة الأسرية، تضاءلت قيمة الأسرة فى نظر غالبية أعضاء الطبقة الوسطى الأسرية، بخاصة فى المرحلة التى فقدت الطبقة الوسطى تماسكها الأخلاقى (٣٧). الأمر الذى نجد مؤشرات له فى حالة الفوضى التى إنتشرت على ساحة الحياة الأسرية، كظهور الزواج العرفى بكثافة عالية، وظهور زواج المسيار والمتعة من جديد،بل ومطالبة البعض بتعدد الزوجات، فى محاولة لإستخدام الحياة الأسرية كآلية لعلاج مشكلة العنوسة.

وبفعل عوامل كثيرة إنهارت اخلاق أسرة الطبقة الوسطى، أما بسبب

التحـولات الإجتماعيـة التـى مـر بهـا المجتمـع وأثـرت عـلى الأسرة، أو بسـبب الإختراق الثقـافى الذى أصـاب الحيـاة الأسريـة فى مقتـل. إضافـة إلى هجـرة الآبـاء وتأنيـث الأسرة المصرية لعقـود عديدة. تجليـا لذلـك الحديـث المتكـرر والممجـوج عـن العنف ضد المـرأة، والتأكيـد على حقوق المـرأة وفق مرجعيـة غربيـة عـلى ثقافتنـا. كأنمـا المـرأة هـى التـى تتعـرض للعنـت والعنـف وحدها، ثـم بداية الحديـث عـن الطفولـة والعنـف ضـد الطفولة إسـتناداً إلى ذات المرجعيـة. كأنما الرجل بلا مشـاعر إيجابيـة تجـاه المـرأة، وكأنمـا الأسرة ليسـت حاضنـة للطفـل. ونتيجـة لهـذا التركيز المغـرض والهدام مـن قبـل قـوى خارجيـة تقلصت قيمـة الأسرة، وبدأ إنهيارهـا وتفككها، حتى أن معـدلات الطلاق فى عـام ٢٠٠٩ فاقـت معـدلات الـزواج. بحيـث يمكـن إعتبار ذلـك مؤشراً واضحـاً على إنهيار التماسـك الإجتماعـى عـلى مسـتوى الأسرة والمجتمـع. ويرتبـط بذلك التناقضـات والصراعات التـى بدأت تجد طريقهـا إلى السـاحة الأسريـة، حيـث سـوء معاملـة الأبنـاء للأبناء إلى حـد العقوق والعنـف، وحيث عنـف الأبـاء مـع الأبنـاء إلى حـد الإعتـداء والقتـل، وكلهـا وقائـع يمكـن إعتبارها شـاهدا عـلى إنهيار التماسـك الأسرى والإجتماعى.

يضـاف إلى ذلـك نـشر الخلاف والبرودة بدلاً من الوحدة والدفئ على سـاحة الأسرة، إرتباطا بذلـك فقـد إنتـشر الخـلاف على السـاحة الأسرية بسـبب تنـوع منظومات القيـم التى تتـم وفقا لها التنشـئة داخـل نطـاق الحيـاة الأسريـة. إذ يتجـه الإعـلام وتكنولوجيـا المعلومات نحو تنشـئة الأبناء وفـق منظومـات قيـم تختلـف فى غالـب الأحيـان، عـن منظومـات القيـم التـى تؤكـد عليهـا الثقافة كمرجعيـة لتنشـئة الأبنـاء. إلى جانـب منظومـات قيميـة أخـرى قـد تكـون ذات طبيعـة دينيـة أو إكتسـبها الأبناء من خلال التفاعل مع رفاقهم فى المدرسـة أو في أى من سـاحات التفاعل الإجتماعى الأخـرى. ومـن الطبيعـى أن يـؤدى تنوع منظومات القيـم المنظمة لتفاعل الحيـاة الأسرية إلى تفجر صراعـات متنوعـة، وفى كل إتجـاه، بحيـث تؤدي جميعهـا فى النهاية إلى تفكيك غـير معلن فى الحياة الأسريـة، يـؤدى إنتشـاره بصـورة وبائيـة ليصبـح تفكيـكا لتماسـك المجتمـع. وفيـما يتعلـق بـبرودة الحيـاة الأسريـة، فإننـا نجـد أن الأسرة المصريـة أصبحـت تعيش فى ظل حالـة من العزلـة الإنفرادية،

فالأب يعود من العمل وكذلك الأم على حالة من الإنهاك، تجعلهما غير قادرين على تطوير مشاعر أو عواطف دافئه (٣٨). حتى لو شاهدوا أحد البرامج التليفزيزنية، فإن كل منهم يشاهد فى صمت وعلى مرجعية خبرة خاصة. الأبناء كذلك منعزلون عن الآباء، يتابعون ما يتدفق عبر شبكة المعلومات الدولية، من قيم متنوعة، سوية أو منحرفة، وفى هذا الإطار يتآكل الدفئ الأسرى تدريجيا، وتحل محله برودة بنفس القدر، ويتضافر مع ذلك تآكل الجماعية الأسرية التى كانت أحد المؤشرات البارزة للتماسك الإجتماعى.

وفى قلب مجتمع يعانى من التفكيك الإجتماعى، وتقليص شبكة العلاقات الإجتماعية داخل وبين جماعاته، تتآكل المرجعية المجتمعية العامة للتنشئة الإجتماعية، وتحل محلها مرجعية الجماعة الإثنية فى التنشئة. وفى هذا المناخ العدائى تبدأ كل جماعة تنشئ أبناءها وفق منظومتها القيمية، التى تطعمها أحيانا ببعض المشاعر العدائية للجماعة أو الجماعات الأخري في الوطن. وفى مقابل ذلك تتراجع التنشئة الإجتماعية وفق منظومة قيمية مشتركة [*1] لتصبح تنشئة وفق مرجعيات منفصلة. وإذا كانت عملية التفكيك الإجتماعى قد بلغت هذا الحد، فإن إنهيار التماسك الإجتماعى على صعيد المجتمع سوف يصبح متوقعا ووشيكا بطاقة هائلة. بدأ زخمها مع التنشئة الإجتماعية داخل الأسرة المصرية بتنوع جماعاتها ومرجعياتها (٣٩)، وإذا كنا قد تحدثنا عن الحالة الإسلامية المسيحية، فإن نفس التفاعلات تحدث داخل الأسرة «السيناوية» أو «النوبية». فى هذا الإطار تطرح تساؤلات عديدة، تتعلق بطبيعة قيم التنشئة

١ * أمام العزلة التى أصبحنا نشاهدها فى الجامعات المصرية، حيث عزلة الطلاب المسلمين والمسحيين عن بعضهم البعض، حاولت تشكيل أسرة تضمهما معا، لنتعرف على ما هو مشترك، وتقوم ببعض الأنشطة المشتركة التى أعتقدت أنها يمكن أن تساعد فى هذا الإتجاه، كأن أن نقوم بزيارة مشتركة لبعض الآثار الإسلامية والقبطية معا، بإعتبار أن هذا تراث مشترك وملك لنا كمواطنين مصريين، أو أن ندعو بعض المفكرين المسلمين والمسحيين وقادة الرأى ليتحدثون عن رموز مصرية، إسلامية وقبطية، لعبت دوراً اساسياً أرتقى بالحياة المصرية. وبرغم أنى أوضحت هذا الهدف للطلاب المسلمين والمسحيين على السواء، إلا أن الإستجابة كانت بطيئة للغاية ومحدودة، وقد عبرت عن ذلك طالبة مبررة هذا البطئ بقولها، أن هناك جداراً نفسيا قد تأسس بيننا، وما زلت أحاول، وأتمنى من الله التوفيق أن يسقط هذا الجدار، وقد تساقط خلال موجات ثورة ٢٥ يناير ٢٠١١، ٣٠ يوينو ٢٠١٤.

الإجتماعيـة التـى يتـم تطبيـع الأبنـاء وفقـا لهـا، وكذلـك طبيعـة نظرتهـم إلى الآخـر فى مـصر عامـة، حيـث تتـوازن إحتماليـة وجـود تطابـق، مـع إحتماليـة وجـود مسـاحة ولـو محـدودة مـن قابليـة الإختـلاف، أسـئلة تحتـاج إلى تأمل وبحـث، لأنها ذات علاقـة محورية بإحتمالات التماسـك والتفكك الإجتماعى.

وفى النهايـة تـأتى فاعليـة الظـروف الإقتصاديـة الصعبـة التـى أصبحت لضراوتهـا ذات علاقة بتـآكل التماسـك الإجتماعـى. فقـد أصبحـت الأسرة تعيش فى ظل ظـروف إقتصاديـة صعبة، بخاصة بالنسـبة لأسر الطبقـة الوسـطى والدنيـا. فـإلى جانـب منـاخ الأزمـات التـى تعيـش فى ظلهـا الأسرة المصريـة إبتـداء مـن أزمـة الخبـز وحتـى أزمـة البوتاجـاز مـروراً بأزمـة اللحوم. فـإن ضآلـة الدخول فى مواجهـة الـشره التـى إسـتنفرت طاقاتـه الثقافة الإسـتهلاكية دفـع الأسرة إلى الحيـاة فى ظل مأزق وجـودى. حيـث أدت الضغـوط الإقتصاديـة إلى جانب حالة الضعف الثقـافى أو «الأنومى الأخلاقية» إلى ظواهـر أسريـة دراميـة لم تكـن فى الحسـبان. مـن هذه الظواهـر إتجاه بعض الآبـاء تحت وطأة الظـروف الإقتصاديـة الصعبـة إلى هجـر الأسرة والتخـلى عنهـا، أو الإتجـاه إلى قتـل الأبنـاء تخلصـا منهـم، ومـن الظـروف الإقتصاديـة الصعبـة كذلـك. يدخل فى هـذا الإطـار أيضا بيع الأطفـال، حيث التخـلى عـن أحدهـم حتـى يمكـن إعاشـة أو أعالـة الآخريـن (٤٠). أو أن يظهـر نمـط مـن الـزواج المأجـور، حيـث يـأتى ثـرى عـربى خليجـى ليتـزوج فتـاة صغـيرة، يقضى معهـا فترة ليسـتمتع بهـا، ثم يطلقهـا لتتـزوج بآخـر، وتتـوالى هـذه العمليـة، ويحصـل الأب عـلى أجر هـذه الزيجـات، فى كل مرة عـلى هيئـة مهـر وهدايـا. يحدث ذلـك فى بعض المناطـق الفقيرة التى تشـكل قاع المجتمـع، أخلاقيا وإقتصاديـا عـلى السـواء. يضـاف إلى ذلـك أن الضغـوط الإقتصاديـة عـلى الأسرة أصبحـت صعبـة وتزايـد ضغطهـا عـلى بنـاء الأسرة الـذى بـدأ يتكـسر أحيانـا تحـت وطأتهـا. حيـث تتفـكك الأسرة، ويذهـب كل مـن الأب والأم إلى حـال سـبيلة، وينضـم الأطفـال إلى أطفـال الشـوارع، أو يسـلكون مبـاشرة طريـق الجريمـة والإنحراف. ومن الطبيعى ان تشـكل كل هذه الممارسـات الأسرية السـلبية إضرار بالتماسـك الإجتماعـى لـلأسرة، التـى تقـود فى ذات الوقـت إلى إضرار بالتماسـك الإجتماعـى للمجتمع(٤١).

٧- الإختراق الخارجى وتقويض أسس التماسك الإجتماعى: من المؤكد أننا نعيش فى عالمنا المعاصر المتماسك البناء، حقيقة أننا نعيش فى إطار قرية صغيرة واحدة. قلص الإعلام وتكنولوجيا المعلومات مساحاتها ومسافاتها الزمانية والمكانية على السواء، وقد ترتب على ذلك أن أصبحنا نعيش عصر الفضاءات والمساحات المفتوحة. فى هذا الإطار أعتبرت العولمة هى القوة التى فتحت كل الأبواب المجتمعية المغلقة، تارة بواسطة الإعلام وتكنولوجيا المعلومات، ونارة ثانية بواسطة آليات الإستثمار الإقتصادى وفاعلية الشركات المتعدية الجنسية، وتارة ثالثة بواسطة قهر القوى العالمية والمؤسسات الدولية التى تفرض عدم الإنغلاق. فى هذا الإطار تعد العولمة هى الطاقة السحرية التى إنطلقت بفاعلية عظمى مع بداية عقد التسعينيات. حيث سعت هذه الطاقة أو العملية إلى تأسيس تجانس ثقافى وإجتماعى على الصعيد العالمى، وفى ذات الوقت تعميق التباين الثقافى والإجتماعى على الصعيد القومى. ونتيجة لذلك نجد أن هذه العملية تعمل بإتجاه تقويض أسس التماسك الإجتماعى فى المجتمعات القومية، من خلال إختراق ثقافاتها تارة، وفرض التباين بل والتناقض على ساحتها تارة أخرى، أو من خلال تأليب بعض مكوناتها على البعض الآخر. ومن ثم تستنبت الحروب والصراعات على ساحاتها، حتى يتآكل تماسكها الإجتماعى ويذهب إلى غير رجعة، وتنجز العولمة ذلك بفعل آليات عديدة (٤٢).

وتتمثل الآلية الأولى فى ضرب التماسك الثقافى فى مقتل، وذلك لتفكيك أخلاق المجتمع وتقويض تماسكها. يحدث ذلك بأساليب عديدة، أول هذه الأساليب تشوية الدين، وذلك يرجع إلى أن الدين يلعب دوراً محوريا كقاعدة للتماسك الإجتماعى فى مجتمعاتنا. يقع ذلك من خلال نشر الفرقة والصراع بين أديان الأمة، وبرغم أن الكتب السماوية للأديان الكتابية تؤكد جميعا على معانى متقاربة وليست متناقضة. وإن مساحات الإختلاف محدودة فرضتها فى أحيان كثيرة متطلبات العصر والسياق. فإن القوى الخارجية تعمل على توسيع مساحات الإختلاف هذه لتحولها إلى تناقضات يتفجر الصراع على ضفافها بين أبناء الوطن الواحد المختلف الأديان. يحدث ذلك أحيانا، من خلال تحريف

المعانى الدينية وبلورتها على هيئة مضامين متناقضة، أو إذكاء روح التطرف والعنف على ساحات الأديان المختلفة. أو من خلال الفتاوى والتفسيرات الدينية، التى تتدفق عبر القنوات الإعلامية التى يقودها رجال دين متطرفون وغير عارفين بروح الدين السمحة، حيث يلعب هؤلاء القائمين بالفتوي والتفسير دورهم فى تمزيق النسيج الدينى المتماسك للأمة (٤٣). ينجزون ذلك فى أحيان كثيرة بدون عقاب أى من الحكومات القومية لهم، خشية إدانتها من قبل القوى العالمية والهيئات الدولية إذا هى قد فعلت ذلك.

ويتصل الأسلوب الثاني بالإختراق الثقافى والأخلاقى، حيث تعمل قوى العولمة بإتجاه إستغلال الفضاءات والحدود المفتوحة لكى تعمل على تمزيق نسيج التماسك الأخلاقى والإجتماعى. من خلال تأسيس مواضع للتناقض فى بنية الثقافة والأخلاق، والعمل على تصوير الأخيرة فى طابعها التقليدى بصورة مشوهة ومحرفة. من ذلك مثلاً فرض بعض الممارسات كمواضع للتناقض كالعلاقة بين الجنسين، أو ممارسة الإناث لبعض السلوكيات كالتدخين، وقدر اكبر من التحرر فى ظل إدعاء حقوق الإنسان. يتصل ذلك أيضا فرض عناصر غربية تتصل بثقافة المأكل والمشرب والعلاقات الإجتماعية. إضافة إلى فرض معانى جديدة للجنس، والعذرية ووسائل علاج العذرية. ذلك بالإضافة إلى نقل بعض المعانى الغربية المتعلقة بالنوع الإجتماعى، أو زواج المثل أو الشبية بين الرجال والنساء على السواء، حيث بدأ لهذه الممارسات وجود ولو محدود على ساحة الأخلاق العربية. وإذا كانت اللغة تشكل وعاء الثقافة والأخلاق، فإن هذه القوى عملت على تنحية اللغة العربية فى مجتمعاتها عن ساحة غالبية مختلف المراحل التعليمية، حتى تصبح اللغة الأجنبية هى وعاء الأخلاق والمعانى (٤٤). بحيث يفرض على الأخيرة أن تعدل من نفسها كمضامين عليها أن تتلاءم مع أوعيتها الجديدة. وبحيث تصبح الأخلاق القومية عارية من أى جدران لغوية قومية حامية.

ويشكل تأليب الفئات والجماعات المحلية أحد آليات فض التماسك الإجتماعى وفرض إنهياره. فى هذا الإطار فإننا نجد أن القوى العالمية هى التى

صـدرت إليهـا – مـن خـلال الإخـتراق المفـروض – دعـاوى حقـوق المـرأة. وظلـت تؤكـد على هذه المعـانى وتكـرر عليهـا، حتـى تضخمـت مسـاحة حقـوق المـرأة عـلى حسـاب حقـوق الأسرة، حقوق الفـرد عـلى حسـاب حقـوق الجماعـة. وقـد إنصاعـت الحكومـات القوميـة العربيـة مسـايرة لهـذه الرغبـات المفروضـة فأنشـأت مؤسسـات حكومية تتـولى الدفاع عن المرأة. وقـد كان من نتيجة ذلك، أن إنهـارت جماعـة الأسرة تحـت وطـأة التأكيـد عـلى أحـد أطرافها دون الأطـراف الأخـرى، والمتأمل لأوضـاع الأسرة المصريـة خـلال العقـد الأول والثـاني للألفيـة الثالثـة، لوجدنـا أن هنـاك إرتبـاط بـين متغـيرى تأسـيس المجلـس القومـى للمرأة وحتـى الآن، وبين إرتفـاع معدلات الطـلاق وإنهيار الأسرة فى ذات الوقـت، مـع الأخـذ فى الإعتبـار تثبيت المتغـيرات والعوامل الأخرى. ويعنى إنهيار التماسـك الأسرى بعـدا ومدخـلا أساسـيا لإنهيـار التماسـك الإجتماعى (٤٥).

بالإضافـة إلى ذلـك فقـد لعـب الإخـتراق الخارجـى دوره فى إسـتنفار الجماعـات الداخليـة ضـد بعضهـا البعـض، بتطويـر مشـاعر العـداء الإثنـى أو تربيـة التطـرف. حيـث نجـد أن بعـض القـوى الإقليميـة تلعـب دورهـا فى تنمية التطـرف الدينى، حقيقـة أن بعض أسـبابه داخلية، غير أن الدعـم الخارجـى مـن الممكـن أن يلعـب دوراً فى توسـيع الفجـوة بين أبنـاء الوطن الواحـد. وبنفس المنطـق نجـد أن بعـض القوى الخارجية إسـتهدفت إسـتنفار جماعات أخرى، وهكـذا تنتقل المطامع والمصالـح الخارجيـة إلى سـاحة الوطـن، وتنشـأ عـداوات بـين الجماعـات الدينيـة والعرقيـة وبعضها البعـض بفعـل الإخـتراق والتغذيـة الخارجيـة، بهـدف تفكيـك الكيـان القومـى (٤٦). بإعتبـار أن الدولـة القوميـة والثقافـة القومية تشـكل عقبـة كؤود أمام إنتشـار تحقيق العولمة لهـدف التجانس العالمـى، الـذى يمكـن أن يتحقـق عـبر مرحلـة مسـبقة تعمـل عـلى تفكيك تماسـك المجتمـع القومى ، حتـى تبتعـد مكوناتـه عـن بعضهـا البعـض. وقـد بـدأ بعض مـن ذلك يحـدث، بحيث يـؤدى ذلك إلى تـآكل التماسـك الإجتماعى.

ويتصــل بذلــك أن تعمــل القــوى الخارجيــة عــلى تعميــق التباينــات الداخليــة بــين المجتمعــات والثقافــات المحليــة التــى تشــكل فى تفاعلهــا كيــان المجتمــع القومــى. حيــث

تعمـل القـوى العالميـة فى البدايـة عـلى تعيـين حـدود الثقافـة الفرعيـة وملامحهـا، حـدث ذلـك من خـلال البحـوث والدراسـات المكثفـة التـى أجراهـا مركـز بحـوث الجامعـة الأمريكيـة عـلى مجتمـع النوبـة كمجتمـع وثقافـة محليـة فرعيـة عـلى مـدى عـدة عقـود. ثـم تـأتى مرحلـة تاليـة تتمثـل فى تحويـل هـذه الثقافـات الفرعيـة إلى ثقافـة مضـادة، فى هـذا الإطـار تسـتغل القـوى الخارجية بعض الممارسـات الداخليـة للدولـة القوميـة، لإسـتنفار بعـض المجتمعـات والثقافـات المحليـة (٤٧). ومـا حـدث فى النوبـة، يحـدث الأن عـلى صعيـد القبائل التى تسـكن سـيناء، ويحدث كذلـك فيما يتعلق بالعلاقـة بـين الجماعـة الإسـلامية والجماعـة المسـيحية، بحيـث تسـتهدف جميـع هـذه التحـركات والإختراقـات جميعـاً، هـز الإسـتقرار وتمزيـق التماسـك الإجتماعـى للمجتمـع القومى.

ثالثاً: مظاهر إنهيار التماسك الإجتماعى

لا شـك أن إنهيار التماسـك الإجتماعى يشـكل قاعدة لبروز ظواهر إجتماعية سـلبية عديدة، تطفـو عـلى سـطح المجتمـع وتعد تجليـا لهذا الإنهيار، أو هـى مؤشرات على وجـوده. فى هذا الإطار فإننـا نشـير إلى حقيقـة أن التماسـك الإجتماعـى ليـس صيغـة واحـدة منفـردة، ولكنـه يتحقـق عـبر مسـتويات أو دوائر عديدة، غير أنها تسـتند جميعها إلى سـقوط أو إنهيار صيغة التوقعات المتبادلة على كافة المسـتويات بصورة متتابعة. ونعنى بصيغة التوقعات المتبادلة أن كل فاعل يوجه سـلوكه نحـو الاخـر، ويتفاعـل معه، على أسـاس إدراكه لإسـتجابته المحتملة لفعله، نظـراً لأن تفاعلهما معا، يتـم بالنظـر إلى منظومـة قيميـة واحدة هى الضابطـة للتفاعل الإجتماعى بينهـما. وهو ما يعنى أن غيـاب منظومـة القيم المشـتركة والمتفق عليها ينشر حالة من الفـوضى فى التفاعل الإجتماعى، فيميل جنينيـا إلى عـدم التاكيـد على التماسـك الإجتماعى. فى نطاق ذلك يمكن أن تسـقط صيغة التوقعات المتبادلـة بـين الآنـا والآخـر داخـل الأسرة، فتؤسـس حالـة مـن العزلـة وربمـا العدائيـة داخـل الحياة الأسريـة، وقـد تحـدث بين الأسر وبعضهـا البعض. أو تحـدث بإمتياز بين الجماعات الإثنية المشـكلة لبنـاء المجتمـع (٤٨)، كـما قـد تحـدث بين الفئـات أو الطبقـات الإجتماعية المشـكلة لبنـاء المجتمع. بحيث يسـلم ذلك فى النهاية إلى إنهيار التماسـك الإجتماعى بإعتباره مشـكلة عامة يتسـاقط رذاذها

على مستويات أدنى هى ساحة الجماعات والأفراد. وهناك مظاهر كثيرة تعد مؤشرات على هذه الحالة.

ويعد ميل الشخصية المصرية إلى العنف أبرز مؤشرات هذه الحالة. وإذا كان المفكر المصرى العظيم جمال حمدان قد أشار إلى إعتدال الشخصية المصرية وسلاميتها. بإعتبار أن أخلاقها تعد إنعكاساً لأخلاق الوادى المعتدل فى تضاريسة، والنيل الذى يشق مجراه بهدوء عبره لتتدفق المياه فى تدرجية وبلا صخب. فإننا نلاحظ الأن أن الشخصية المصرية، قد إعتراها نوع من التغير. فقد أصبحت أكثر عنفا، حتى أصبحت البلطجة صيغة من التفاعل تميز أحوال الشارع المصرى. ويتجلى هذا العنف عبر متصل يبدأ من العنف اللفظى، الذى يشير إلى عدم تكامل الأنا والاخر فى التفاعل اليومى المحدود والمتكرر، إلى ما يمكن ان يسمى بالعنف الأنانى، حيث يتبنى صاحبة العنف لتحقيق مصالح أنانية مؤقتة. مثال على ذلك أننا إذا تأملنا الشارع المصرى، فإننا سوف نجد غالبية المتدفقين فيه يميلون إغتصاب حيز أكبر من هذا الشارع لأنفسهم. سواء كانوا من المشاة أو من راكبى السيارات أو حتى الذين أغتصبوا الأرصفة عنوه وحولوها إلى أسواق للتجارة. والعنف والبلطجة هى الآليات التى يتم اللجوء إليها عادة للحفاظ على منجزات العنف. فى هذا الإطار بلغ العنف منتهاه حينما يقتل شخص آخر لمجرد الإعتقاد أن لديه مال بحوزته ويمكن الحصول عليه. أو يقتل زوج أو زوجة رفيقة من أجل متعة عابرة توفرها الخيانة من خلال السلوك الحرام. أو يقتل شخص أبناءه خوفا عليهم من حاضر متخم بالمعاناه، ومستقبل غاب الأمل والتفاؤل عنه، أو أن يتفق البعض على إغتصاب زوجة أمام زوجها وأولادها إنتقاما لسلوك عابر (٤٩). ومن الطبيعى أن تؤدى هذه التفاعلات اليومية إلى إغتصاب التماسك الإجتماعى للمجتمع.

مؤشر آخر يتمثل فى أن الشخصية المصرية بسبب الظروف القهرية السلبية أصبحت أقل إلتزاما بالأخلاق، حقيقة أن أسباب ذلك يرجع إلى ضعف الأخلاق العامة للمجتمع، بسبب الظروف التى أشرنا إليها، وكذلك إلى الثقافة الإستهلاكية الطاغية التى إستنفرت بداخلنا شره الغرائز. غير ان هذه الظروف

دفعت الشخصية المصرية إلى السقوط فى سلوكيات غير اخلاقية عديدة، من هذه السلوكيات مثلاً عدم توقير كبار السن، الذين كانوا فيما مضى أكثر إحتراماً، وعدم بسط الحماية على المراة من قبل أفرد المجتمع، إضافة إلى الإلتزام بالقيم سواء كان الدين مصدرها أو الأخلاق العامة. يضاف إلى ذلك الإنحدار إلى ممارسات عارية من الأخلاق كالتحرش الجنسى بالإناث فى الشارع وفى وضح النهار وبرغم أنف الجميع، وعدم تدخل من الجميع كذلك. كأنما هى حالة عامة من عدم الأخلاق، بغض الطرف عن بعض ممارسات الأبناء، ما دام فى ذلك بعض عائد للأسرة. بالإضافة إلى ذلك يقع تبادل الزوجات من اجل متعة جنسية مركبة الحرام. ويستمر هذا الإنحدار الأخلاقى، حتى بدأنا نسمع همساً وبخوف عن زنا المحارم الذى يعد شاهدا على سقوط أشياء عديدة. ومن المؤكد أن ذلك ضار بالتماسك الإجتماعى، لأن الميل إلى التماسك بالأخر والالتقاء معه هو ميل إيجابى وإيثارى وخير، يتناقض مع حالة اللا أخلاق التى تحول البشر إلى كائنات أنانية ذات شره غريزى (٥٠).

من المؤشرات البارزه كذلك أن الشخصية المصرية كانت تعانى من مشاعر وعواطف تراجع المواطنة المشتركة المؤكدة على المساواة فى الفر، قبل ثوراتها الأخيرة،ص، والأخاء فى منطقة مشتركة للإسهام فى تقدم وطن واحد. يتبلور وجوده على حساب الإنتماءات والجماعات الإثنية دينية كانت أم ثقافية أم عرقية أم جغرافية. ومما لا شك فيه وجود أسباب مسئولة عن هذا التراجع، أبرزها الآداء المتردى للدولة والحكومة والنظام السياسى، بحيث وصل هذا التردى إلى العجز عن إشباع الحاجات الأساسية للبشر، الأمر الذى يشعرهم بعدم الأمان فى وطنهم. يضاف إلى ذلك ظواهر الفساد التى إتسعت مساحتها، حتى أحالت الوطن ضعيف يتسول بعض الفتات من على موائد اللئام، الذين أصبحوا يمنحونه المساعدات لقاء أن يعبثون بطموحاته، حتى يتآكل وجوده، يضاف إلى ذلك الإختراقات الإقليمية والعالمية الخارجية التى تعمل بإتجاه تمزيق الوطن القومى لحساب إحياء المحليات والطائفيات الإثنية المتطرفة. لذلك بدأ التراجع إلى الجماعات الإثنية الأقل من الوطن لكونها الجماعات التى بدأت

تنشط فى إشباع حاجات تابعيها ولو بحدود دنيا (٥١). بحيث اصبح المواطن يولى شطره شطر هذه الجماعات، حيث أصبحت هذه الجماعات فى منطقة الوعى المركزى للإنسان وتراجع الوطن إلى منطقة الهامش أو الوعى الثانوى. وهي جميعها ظواهر وسلوكيات قضت عليها الحالة الثورية التي مربها المجتمع.

وإستناداً أو إجمالاً لكل ما سبق أصبحت الشخصية المصرية أقل إنتماءاً وإرتباطا بمجتمعها. وإذا كان المفكر الراحل جمال حمدان قد رأى الشخصية المصرية مستقرة مرتبطة بواديها، تعشقة وترفض أن تهاجر منه أو تفارقه. فإننا نلاحظ أن الشخصية المصرية قد إفتقدت أو تآكلت لديها هذه الروابط التاريخية العميقة. ويشير تأمل هذا التآكل للروابط إلى أنه قد تحقق على أساس مرحلى، فى المرحلة الأولى بدأت الهجرة إلى مجتمعات الخليج بموجات عالية منذ بداية السبعينيات، بسبب الصعوبات التى بدأت تواجهها الطبقة المتوسطة والشرائح الدنيا. بعض موجات الهجرة إستهدف الحصول على بعض الفرص التى بدأ الوطن يعجز عن توفيرها. بينما وقعت بعض الموجات الأخرى لتحسين مستوى الحياة، ولحل مشكلات تعجز عن حلها فرص الحياة فى الوطن. وفى المرحلة الثانية، بخاصة إبتداء من الثمانينيات إنطلقت الهجرة بمعدلات عالية ومتسارعة، لأنه قد بات واضحاً أن الوطن، عاجز فى توجهاته الليبرالية الرثة، عن توفير القدر الملائم من الفرص لإعاشة مواطنية. ومع نهاية القرن العشرين ومع عقد البداية فى الألفية الثالثة تباطأت للغاية معدلات الهجرة إلى مجتمعات الخليج (٥٢). لأن هذه المجتمعات إمتلكت الكوادر الوطنية القادرة على تشغيل حركة الحياة فى إطارها، وفى ذات الوقت أصبح الوطن اكثر عجزا فى توفير فرص الحياة المتنوعة لمواطنية. ومن ثم بدأت المرحلة الثالثة حيث إنطلقت الهجرة غير المشروعة، مصريون يركبون قوارب الموت هربا من وطنهم إلى الشواطئ الأوربية. تغرق بهم القوارب أحيانا فى البحر، أو يقبض عليهم حرس السواحل الأوربية ليعيدونهم إلى وطنهم، ليبدأوا محاولة الهرب من جديد. وهو ما يشير إلى تحولات وقعت فى سلوك الشخصية المصرية من كون المصرى إنسانا مستقراً إلى كونه مهاجراً إلى كونه إنسانا هاربا. ومن المنطقى أن يعتبر

ذلك مؤشراً على تآكل عواطف المواطنة وضعف الإرتباط بالوطن والإنتماء له، وذلك إلى جانب جملة الظواهر السلبية السابقة التى تشير إلى إنهيار التماسك الإجتماعى. وإذا كانت هذه الحالة تشخص علاقة الإنسان المصري بالوطن فيما قبل ٢٠١١ /٢٠١٤ ، فإن الثورة التي قام بها الإنسان المصري خلال هذه الفترة، إعادة ارتباطه بوطنه الشامل، كما استعاد الوطن في إطارها تماسكه وشموخه وقدرته علي إشباع حاجات مواطنيه.

رابعاً: إستعادة التماسك الإجتماعى، بعض الأفكار الأساسية

من الواضح أن تيارات التفكيك اصبحت قوية فى نظامنا العالمى المعاصر، إما بسبب ضعف الدولة القومية التى أصبحت عاجزة عن إنتاج الفرص الازمة لنوعية حياة ملائمة. تلك التى يمكن أن توفر إشباعا لغالبية مواطنيها، بما يجعلهم أكثر إرتباطا بمجتمعهم ووطنهم. ويزيد الأمر درامية أن القطاع الخاص ما زال حديث العهد، لم يمتلك رشداً ملائماً بعد، وهو الرشد الذى يجعله قادر على الوفاء بمسئولياته الإجتماعية تجاه المجتمع. أو أن إضعاف التماسك كان يتم بسبب قوى خارجية تتدخل فى المجتمع فتؤلب مكوناته على بعضها البعض، الأمر الذى يساعد فى تطوير فجوات تتسع بين جماعات الأمة، حتى تصبح بعيدة عن بعضها البعض. ومن ثم تبدأ فى قيادة تطور خاص بها، وإن بقيت شكلا ضمن مكونات الدولة أو المجتمع. يضاف إلى ذلك أن الدولة القومية كانت دولة رخوة، لا تستطيع ضبط التفاعل بين مكوناتها بصورة رشيده حسب معايير التراث النظرى المتعلق بنشأة الدولة وتحديد وظائفها الأساسية(٥٣). فى مواجهة تفاعلات التفكيك وإنهيار التماسك الإجتماعى فإنه أصبح من الضرورى تطوير بعض الأفكار أو السياسات التى يمكن أن تساعد على إستعادة التماسك الإجتماعى.

ويتمثل البعد الأول لهذه السياسات فى ضرورة توفير الشروط التى تساعد فى إعادة عملية الإدماج الثقافى على صعيد المجتمع. وحتى يتحقق ذلك فإنه من الضرورى إدراك أن الدين يشكل قاعدة الثقافة، ونشير إلى الدين بإعتبار أن هناك جماعتين دينيتين فى المجتمع. فى هذا الإطار من الضرورى أن نغرس فى

الأبنـاء مـن خـلال التنشـئة الإجتماعيـة فى الأسرة والمدرسـة والإعـلام، تأكيـدا أن اللـه هـو مصـدر الأديـان جميعـا، وأنـه حـق مـن حقـوق الإنسـان أن يسـتوعب الإنسـان معتقـدات دينـه بإعتـدال ودون تطـرف. وأن تعمـل الأسرة عـلى تطويـر روح التسـامح مـع الآخـر المختلـف دينيـا، ومـن الـضرورى رفـع كل القيـود عـن حـق الجماعـات المختلفـة دينيا، حتـى ينطلـق تعبيرهـا الدينى حرا يسـعى للالتقـاء بالآخـر. وفى هـذا الإطـار نؤكـد عـلى فكرتـين، الأولى أنـه برغـم الإعـتراف بـأن ثمـة إختـلاف دينـى، فإنـه من الـضرورى تعليم أبناءنـا من خلال التعليـم جملة من الموضوعـات الدينية المشـتركة، والتـى تشـكل نقطـة إلتقـاء بين الأديـان جميعاً. ذلك كله يحدث بشـكل معتـدل وبدون تطـرف أو تصلـب. وتتصـل الفكـرة الثانيـة بأهميـة عـدم إسـتبدال مـادة الديـن بمـادة الأخـلاق المقترحـة، لأننـا سـوف نـترك تعليـم الديـن لبعـض المؤسسـات التـى تتطـرف بالدين إلى حـد تعميق مشـاعر التعصـب نحـو الآخـر (٥٤). وعلينـا أن نعمل عـلى إحياء الرمـوز الوطنية التـى لعبت دوراً تاريخيـا، مسـيحية كانـت أم إسـلامية، وأن نعتـبر إنجازات أو إخفاقـات هذه الرمـوز بإعتبارها ذات طبيعـة مصريـة بالأسـاس. كـما أن علينـا أن نـدرب أبناءنـا للتعـرف على تراثنا الإسـلامى والمسـيحى عـلى السـواء، لأنـه تـراث مـصرى وملـك لأبنائها.

فى إطـار البعـد الثـانى مـن الـضرورى أن نعمـل عـلى فتـح الطريـق لتعريـف الأبنـاء بالثقافـات الفرعيـة التـى طورتهـا مختلـف جماعـات الأمـة. لمـاذا لا نقيـم إحتفـالا سـنويا وطنيـا، فى العاصمـة والمحافظـات والمـدن الصغـيرة والقـرى إن أمكـن، نسـتعرض فيـه كل ثقافـات الأمـة بصـورة إحتفاليـة. الثقافـة النوبيـة فى الملبـس والرقـص والغنـاء، والثقافـة «السـيناوية» الصحراوية حـول ذات الموضوعـات، وكذلـك ثقافـات بعـض المحافظـات، ذلـك بالإضافـة إلى ثقافـة الغنـاء والملبـس وحتـى الرقصـات مـن العصـور المسـيحية التـى يمكـن أحياؤها. إضافـة إلى الغنـاء والرقص والإحتفـال الإسـلامى، وإذا كانـت بعـض المحافظـات لهـا هويـة ثقافيـة خاصـة فلتشـارك، بحيـث يسـاعد ذلـك عـلى الترويـج لهـا وإعتبارهـا ثقافـة مصريـة عامـة ومشـتركة. ويمكـن أن تعقـد بعض النـدوات فى الإعـلام تسـعى إلى إستكشـاف العنـاصر المشـتركة بـين هـذه الثقافـات الفرعيـة جميعا. وتصبـح هـذه المشـتركات هـى جوهـر الثقافـة المصريـة، علينـا تفعيـل مقولـة أن الـثراء فى التنوع،.

ويرتبط بذلك أن نسمح لكل جماعات المجتمع المختلفة دينيا وعرقيا وإجتماعيا وثقافيا، أن تعرض بعض تراثها ليتعرف عليه الجميع لأنه فى النهاية تراث وثقافة أمة مصرية خالصة(٥٥).

ويتصل البعد الثالث بالعمل على تحقيق الإندماج الإجتماعى بين كل جماعات المجتمع، أيا كانت متغيرات الأختلاف. وذلك من خلال الشروع الجاد فى التنمية، التى تعمل من ناحية على زيادة التماسك الإجتماعى، والتى تشكل من المجتمع وحدة عضوية متماسكة. هذه التنمية تستند قبل كل شئ إلى شبكة كثيفة من الطرق، يصبح من الصعب معها فرض العزلة على قطاع أو جماعة من جماعات المجتمع. شبكة طرق تساعد فى تعريف المجتمع على بعضه البعض، بحيث نجد أن تجانس كثافة العلاقات الإجتماعية على صعيد المجتمع واحد ومتقارب. بذلك تنتفى عزلة أى جماعة من الجماعات، ويصبح تداخلها مع الجماعات الأخرى واضحاً وقويا، وهو الأمر الذى ينعكس على زيادة قوة التماسك الإجتماعى. من الطبيعى أيضا أن تتوزع قواعد التنمية على صعيد المجتمع بصورة متوازنة، بحيث تعمل التنمية على تأسيس حالة من التجانس العام داخل المجتمع من حيث توفر فرص الحياة الملائمة. بحيث لا تشعر أى من الجماعات، مع تطور قدرات التنمية والمجتمع، بالغبن أو بالحرمان من الفرص(٥٦). كما ينبغى أن يتحقق توزيع عائد التنمية على أساس متوازن كذلك، بحيث تسعى التنمية فى هذا الإطار إلى تحقيق درجة عالية من التجانس الإجتماعى، وليس التباين أو التناقض الإجتماعى. فى هذا النطاق لا ينبغى أن تكون الفجوة واسعة بين قمة وقاع المجتمع، بذلك نضمن أن يشارك الجميع فى بناء مجتمعهم الواحد ويتعمق إنتمائهم له. ولا يعنى التأكيد على التجانس التنموى طمس التنوع والتميز، بل ينبغى أن تعمل التنمية بإتجاه الحفاظ على التنوع، لأن وجوده والإرتقاء به فيه حفاظ على المجتمع وإثراء له.

إلى جانب ذلك من الضرورى الشروع وفوراً فى تحقيق الإصلاح السياسى، لأن كا ما يسبق لن يؤتى ثماره بدون إصلاح سياسى قادر وفعال. ونقصد بالإصلاح السياسى، الذى يضم تلك الجهود التى تعمل على تنقية فضاء

المجتمع من كل ما يعوق المشاركة الجادة من المواطنين، وفق معايير سليمة وعلى قدم من المساواة. فى هذا السياق ينبغى أن يتجه الإصلاح السياسى إلى فتح الآفاق واسعة أمام التحول الديموقراطى، وهو ما أنجزته ثورة ٢٠١١ /٢٠١٤ إذ لا ينبغى أن يكون ثمة عبث على هذه الساحة. أول خطوة فى هذا الإصلاح التأكيد على تداول السلطة علي كل المستويات وفي كل القطاعات، وعلى قادة الرأى والنخب السياسية المخلصة دعم آداء الزعامة السياسية في هذا الاتجاه. التحول الديموقراطى يحتاج إلى ضغط من سكان القاع والوسط وقبول مريح ومبارك من الزعامة فى القمة. فالجميع يمتلك بلا شك إخلاص المواطنة، وعلينا أن نراجع أنفسنا، ونقف حتى فى مواجهة مشاعرنا الأنانية فى الأستمتاع بالتربع على القمة. القمة أينما كانت سواء كانت قمة الدولة أو المجتمع، أو قمة المؤسسة الإنتاجية والخدمية، فالدورة الدموية للمجتمع تحتاج إلى حركة وتنشيط (٥٧). إرتباطا بذلك علينا أن نحذف من حياتنا آية قضايا تحت أى مسمى أو فى ظل أى ذريعة أو تبرير، تضر بالتحول الديمقراطي فالديمقراطية إذا كانت شفافة وطاهرة، سوف تكون واعية وتمتلك إمكانية التصحيح الذاتى لمسارها، فتدفق ممارستها سوف يجرف أمامه كل ما هو معوق ومنحرف إلى ضفاف المجرى أو إلى حالة من الأهمال.

يعنى التحول الديموقراطى كذلك تخليص المجتمع من كل ممارسات الفساد، ومن الطعمة - ولا نقل النخبة – الفاسدة، فى هذا الإطار وحتى نعمق إرتباط الغالبية بمجتمعهم، علينا أن نعمل على تغيير دماء النخبة. فى هذا الإطار يذهب التنظير السياسى على أن النخبة لها دورات، دورة على المستوى الفردى، وتتمثل فى أن حياة الإنسان لها بداية ونهاية، وأن العطاء الحقيقى فى منطقة الوسط. فى مرحلة الشيخوخة تموت قدرات النخبة أو تفسد لأن البقاء طويلاً فى أماكنها يدفع إلى تطوير مصالح تعيث للحصول عليها فى الأرض فساداً. هناك كذلك الدورة على المستوى الجماعة، إذا ينبغى أن يعمل المجتمع على تغيير نخبته وتجديدها بأفراد من منطقة الوسط دائماً، إذا دخلوا مرحلة الكهولة أو الشيخوخة نستبدلهم بآخرين. ما نشاهده الآن مثير للألم والأسى،

حيث دائرة النخبة بكاملها تضم الشيخوخة نهاية دائرة الإنسان التى تتشبس بالحياة، وتفرض نفسها على المجتمع، وعلى إستعداد لأن تقاتل وتبطش بكل من يقترب أماكنها ومراكزها (٥٨). من غير المنطقى أن نجد أن متوسط عمر النخبة يتجاوز الستين عاما، بينما نسبة الشباب فى المجتمع تزيد على ٦٠٪ من سكانه، أى ما يزيد على ستون مليونا لا يمتلكون شيئا فى امر مجتمعهم، ولا يستطيعون تحريك ساكنا فيه.

الإصلاح السياسى ينبغى أن يضرب الفساد بيد من حديد، خاصة إذا تضافر فساد الإقتصاد مع فساد السياسة. ذلك يرجع إلى أن الفساد يدمر قدرات المجتمع وثرواته، التى هو أحوج ما يكون إليها. وأيضا لأن الفساد يعنى تأميم قدرات المجتمع لصالح شخص، ولأنه يقدم تلك القدوة السيئة والمنحرفة، فالفساد فى شرائح القمة سوف يتحول إلى رشوة بين شرائح القاع، والمواطن كائن مغلوب على أمره يسلب من أعلى ومن أسفل. وإذا كان للفساد صور عديدة كالإحتكار، أو الإختلاس، أو توزيع ثروات المجتمع على الكبار والأقارب وأصحاب الحظوة، أو الإستبداد بالرأى إستغلالاً للمنصب، أو الإنحراف بمعايير آداء الوظيفة العامة، أو خيان أمانة الأمة. فإن كل هذه الصور ينبغى أن تواجه، وتستأصل من جذورها، لأن الفساد يقضى أو يدمر أصول المجتمع، التى يتم إصلاحها من جيوب الفقراء دافعى الضرائب المتعبة. لذلك كان الفساد مهدداً للتماسك الإجتماعى، وأن القضاء عليه ومواجهته من شأنه أن يدعم هذا التماسك (٥٩).

الإصلاح السياسى يتطلب تطبيق القانون، الذى على الجميع أن يمتثلوا له، وعلى قدم من المساواه. القانون الصلب غير الرخو، والذى لا يقبل المرونة أو الالتواء. فالإحتكام إلى القانون يعنى العدل الذى ينبغى أن يعيش الجميع تحت مظلته بلا خوف من أى نوع، أو أى مصدر. ويعنى الإحتكام إلى القانون أننا نقفز إلى التحديث وإلى الأمام بعيداً عن الثقافة التقليدية والتكوينات الإرثية الرثة. لا يعنى ذلك أننا نغيب التراث، فالتراث دائماً مشرق طالما أنه قادر على التعامل مع الحداثة. ولكننا نقصد الثقافة التقليدية التى قد تميز بين البشر،

أو التـى تضـع الحواجـز بـين البـشر وتفصلهـم عـن بعضهـم البعـض. الإحتـكام إلى القانـون سـوف يجعـل التفاعـل بسـيطا ومريحـا للجميـع، ولنعطى مثالين، أن نحترم سـن الإحالـة إلى المعاش، فليس هنـاك مـن هـو فـوق القانـون إبتـداء مـن رئيـس الدولة وحتـى الموظـف الصغـير، والمثـال الثانى أن يطبـق القانـون عـلى كل منحـرف أو مجـرم. ولنتصـور أن الشـاب الـذى أغتصـب فتـاة «فرشـوط» طبـق عليـه القانـون فى التـو واللحظـة، وكذلك الذيـن إعتدوا فى نجـع حمادى عـلى مواطنين آخرين كامـلى المواطنـة (٦٠). أعتقـد أن العقـاب سـوف يكـون رادعـاً وقويـا يـؤدى وظيفتـة، فى تأكيـد الإسـتقرار والتماسـك الإجتماعـى، سـوف تنتفـى الحاجـة حينئذ إلى مواكـب الوزراء ونواب الشـعب والمجالـس العرفيـة، لأن فى مثـل هـذه الممارسـات تمييـع للمواقـف وضرب للمواطنـة فى الصميـم وتمزيـق التماسـك الإجتماعى.

فى هـذا السـياق مـن الـضرورى أن يلعـب المجتمـع المـدنى دوراً بـارزا يسـتهدف تحقيـق التماسـك الإجتماعـى وترسـيخ جـذوره. فى نطـاق ذلـك مـن الـضرورى أن يمتـد وجـود الأحـزاب إلى مواقـع بعيـدة، أن تكـون لهـا مقـار فى سـيناء والنوبـة وفى المحافظـات التـى تشـهد تـوازن سـكانى مسـيحى إسـلامى. وعليهـا أن تحـرص أن تضـم فى كوادرهـا أعضاء مـن كل الأطيـاف الإثنية للوطن. وأن تعاقـب التمييـز عـلى أسـاس إثنـى، وكذلـك أن تنتـشر الأحزاب جماهيريـا، ويكـون فى وعيها أن تعمـل بإتجـاه تحقيـق هـذا الدمـج الإجتماعى. نفـس الأمر يمكـن أن تفعله النقابـات أو المنظمات غـير الحكوميـة، التـى ينبغـى أن تعمـل على فض عزلـة بعض الجماعـات او حتى ميلهـا إلى الإنعزال (٦١). فى هـذا الإطـار فـإن عـلى جماعـة الأغلبيـة دائمـاً، سـواء إكتسـبت هـذه الصفـة عـلى أسـاس دينـى أو عرقـى أو جغـرافى أو حتـى ثقـافى، أن تتـصرف بسـيكلوجيا الأخ الأكـبر الـذى لا يغتصـب حقـوق الأخريـن. بـل الأخ الذى يسـتوعبهم فى نطاق عواطف الأخوة، وأن يسـعى لتأكيد حقوقهم المشروعـة، ففـى ذلـك تأكيد لوشـائج القـربى، وترسـيخ لقواعـد التماسـك الإجتماعى.

ويتسـق مـع مـا سـبق ضرورة أن يلعـب الإعـلام دوراً محوريـا فى التأكيـد عـلى قيـم التماسـك الإجتماعـى، وذلـك مـن خـلال آليـات عديـدة. أول هـذه الآليـات أن يؤكـد الإعـلام عـلى منظومـات القيـم المرتبطـة بترسـيخ المواطنـة التـى تفـترض المسـاواة بـين

المواطنـين فى الحصـول عـلى مختلـف الفـرص. وأن يسـلط الأضـواء بإتجـاه الإخـلال بتوزيـع الفرص بـين افـراد المجتمـع. بالإضافـة إلى ذلـك من الممكـن أن يلعب الإعـلام دوراً نقديا سـواء لبيروقراطية الدولـة المتحيـزة لصالـح أو ضـد أى مـن جماعـات أو نطاقـات المجتمـع. أو فيـما يتعلـق بتأسـيس التنميـة أو الإسـتفادة مـن منجزاتهـا، وفى ذات الوقـت عليهـا أن توجه النقد لأى فاعل، فـرداً كان أو جماعـة، يحـاول الحصـول عـلى فـرص أو إمتيـازات أكبر على حسـاب حرمـان الآخرين منهـا، أو على الأقـل إنتقـاص حقوقهم فيهـا (٦٢).

بالإضافـة إلى ذلـك فإنـه مـن الـضرورى أن يسـعى الإعـلام عـن موضوعيـة ووعـى بإتجـاه توضيـح بعـض الحقائق المتعلقة بسـلوكيات بعـض الأفـراد أو الجماعات الضارة بالمواطنة بالاسـاس. وأن يعقـد النـدوات المعلنـة لمناقشـة القضايـا الشـائكة، التـى تـضر بالمواطنـة على قاعدة المسـاواة. عـلى الإعـلام أيضـا أن يحمـى – عـن وعـى وإرادة – التماسـك الإجتماعـى مـن أى إخـتراق أو تهديد إقليمـى أو دولى لمجتمعنـا، وأن يفضـح بالأسـانيد أى إتصـال من الخارج بالداخل لـلإضرار بالمواطنة، حفاظـا عـلى التماسـك الإجتماعـى، ولا مانـع مـن تقديم هـذه التدخـلات إلى القضاء ليقـول كلمته. كـما أن عليـه أن يطـور وعيـا عامـا بأن مصر وطننـا جميعا، وليس مـن حق فرد أو طـرف أن يحصل عـلى حقـوق أو فـرص، بينـما يحـرم منهـا فـرد أو طـرف آخـر، وهـو مـا يعنـى أن يقف الإعـلام بكل إمكانياتـه حارسـاً يقظـاً يحافـظ على التماسـك الإجتماعى.

المراجــع

١- أنتونـر جدنـز: علـم الإجتـماع، ترجمة الدكتـور فايز الصبـاغ، المنظمة العربيـة للترجمة، مؤسسـة ترجـمان، توزيـع مركز دراسـات الوحدة العربيـة، الطبعة الأولى، بـيروت، ٢٠٠٥. ص ٣١١.

٢- نفس المرجع، ص ٣١٣، ص ٤١٣

٣- جمال حمدان: شخصية مصر، دراسة فى عبقرية المكان، عالم الكتب، ١٩٨٤، ص ٣١٢.

٤- أنتونى جدنز، مرجع سابق، ٣١٧.

٥- جمال حمدان: مرجع سابق، ص ٤١١.

٦- عـلى ليلـة: الأسـس النظريـة والمنهجيـة للاتجـاه الوظيفـى فى علـم الاجتـماع، مع دراسـة ميدانيـة لظاهـرة القرابـة فى مجتمـع محـلى، دراسـة ماجسـتير، بـإشراف أ.د أحمد الخشـاب، ١٩٧٣، ص ٦١٤.

٧- عـلى ليلـة: المجتمـع المـدنى العـربى، قضايـا المواطنـة وحقـوق الإنسـان، مكتبـة الأنجلـو المصريـة، القاهـرة، ٢٠٠٦، ص ٧٣.

٨- نفس المرجع، ص ٧٧.

٩- عـلى ليلـة، الأمـن القومـى العـربى فى عـصر العولمـة، تفكيـك المجتمـع وإضعـاف الدولة، الكتـاب الثـانى، مكتبـة الأنجلـو المصريـة، ٢٠١١، ص ١١٣.

١٠- عـلى ليلـة: الأمـن القومـى العـربى فى عـصر العولمـة، إخـتراق الثقافـة وتبديـد الهويـة، الكتـاب الأول، مكتبـة الأنجلـو المصريـة، ٢٠١١، ص ٣٧.

١١- نفس المرجع، ص ٣٩.

١٢- عـلى ليلـة، الأمـن القومـى العـربى، تفكيـك المجتمـع وإضعـاف الدولـة، الكتـاب الثانى، ص ١١٣.

١٣- نفس المرجع، ص ١١٧.

١٤- جـلال أمـين: مـصر والمصريـون فى عهـد مبـارك (١٩٨١-٢٠٠٨) دار ميريـت، القاهـرة، ٢٠٠٩، ص ٧٣.

١٥- نفس المرجع، ص ٧٦.

١٦- تشازار تلى: الحركات الاجتماعية (١٧٨٦-٢٠٠٤) ترجمة ربيع وهبة، المجلس الأعلى للثقافة (٥١) المشروع القومى للترجمة، ٢٠٠٥، ص ١٨٣.

١٧- نفس المرجع، ص ١٨٧.

١٨- على ليلة، الأمن القومى العربى فى عصر العولمة، تفكيك المجتمع وإضعاف الدولة، مرجع سابق، ص ١٢٣.

١٩- نفس المرجع، ص ١٢٥.

٢٠- نفس المرجع، ص ١٢٧.

٢١- تشازار تلى، مرجع سابق، ص ١٩١.

٢٢- على ليلة، الأمن القومى العربى فى عصر العولمة، تفكيك المجتمع وإضعاف الدولة، مرجع سابق، ص ١٩٣.

٢٣- نفس المرجع، ص ١٩٤.

٢٤- نفس المرجع، ص ٨٣.

٢٥- على ليلة، أمانى قنديل «تحرير» الادارة الرشيدة فى الحكم فى المنظمات الأهلية العربية، دراسة مقارنة، مصر، المغرب، اليمن، منشورات الشبكة العربية للمنظمات الأهلية، ٢٠٠٧، ص ٢٨٣.

٢٦- على ليلة، المجتمع المدنى العربى، قضايا المواطنة وحقوق الإنسان، مرجع سابق، ٧٣.

٢٧- على ليلة، الأمن القومى العربى فى عصر العولمة، تفكيك المجتمع وإضعاف الدولة، مرجع سابق، ص ٢٠١.

٢٨- نفس المرجع، ص ٢٠٣.

٢٩- نفس المرجع، ص ٢٠٤.

٣٠- على ليلة، محاضرات علم الاجتماع السياسى، غير منشورة، ٢٠١٤، ص ٩٣.

٣١- نفس المرجع، ص ٩٥.

٣٢- نفس المرجع، ص ١٣٧.

33- Institute of National Planninng, Egypt Human

Developmant Report, 1999, p. 69.

34 - Ibid, P. 12.

35 - Brenda M . Hoggett et all , the Family, Law and Society, London, Routtledge. Kegan.Pall, 2000, p. 63.

36 - Ibid, p. 81.

37 - Ibid, p. 83.

٣٨ - على ليلة، الأمن القومى العربى فى عصر العولمة، تفكيك المجتمع وإضعاف الدولة، مرجع سابق، ص ١٣٢.

٣٩- نفس المرجع، ص ٣٧.

٤٠- نفس المرجع، ص ١٤١.

٤١- أنتونى جدنز، مرجع سابق، ص ٤١١.

٤٢- عمر الشوبكى : (محرر) المواطنة فى مواجهة الطائفية، مركز الدراسات السياسية والإستراتيجية مؤسسة الأهرام، فريدريش إيبيرت، القاهرة ٢٠٠٩، ص ٦٣.

٤٣- على ليلة، الأمن القومى العربى فى عصر العولمة، تفكيك المجتمع وإضعاف الدولة، مرجع سابق، ١٤٧.

٤٤- حليم بركات، المجتمع العربى فى القرن العشرين، بحث فى تغير الأحوال والعلاقات، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ٢٠٠، ص ١٥٧.

٤٥- على ليلة، الأمن القومى العربى فى عصر العولمة، إضعاف المجتمع، وتفكيك الدولة، مرجع سابق، ص ١٦٣.

٤٦-على ليلة، المجتمع المدنى العربى، قضايا المواطنة وحقوق الإنسان، مرجع سابق، ص ١٧٣.

٤٧-نفس المرجع، ص ١٧٤.

48 - Parsons, Talcott, The Social Syetem, Cleonsce, 1921, p, 46.

٤٩-على ليلة، الأسرة والمجتمع، صراع الهوية والتغريب، قرطبة للنشر والتوزيع، ٢٠١٤، ص ٣٢.

٥٠- نفس المرجع، ص ٣٧.

٥١- نفس المرجع، ص ٣٨.

٥٢- نفس المرجع، ص ٣٩.

٥٣- جلال أمين، مرجع سابق، ص ١٢٤.

٥٤- على ليلة، الأمن القومى العربى فى عصر العولمة، تفكيك المجتمع وإضعاف الدولة، مرجع سابق، ص ٢٤٣.

٥٥- نفس المجع، ص ٢٤٦.

٥٦- نفس المرجع، ص ٢٤٧.

٥٧- على ليلة، الأسرة والمجتمع، صراع الهوية والتغريب، مرجع سابق، ص ٦٤.

٥٨- على ليلة، محاضرات فى علم الاجتماع السياسى، مرجع سابق، ص ١١٣.

٥٩- نفس المرجع، ص ١١٥.

٦٠- نفس المرجع، ص ١١٧.

٦١- نفس المرجع، ص ١١٨.

٦٢- على ليلة، الأمن القومى العربى فى عصر العولمة، تفكيك المجتمع، وإضعاف الدولة، مرجع سابق، ص ١٤٣.

الفصل الثاني

الرمزية الدينية كآلية فاعلة

في تحقيق التماسك الاجتماعي

الفصل الثاني

الرمزية الدينية كآلية فاعلة

في تحقيق التماسك الاجتماعي

تمهيد

يحتاج أى مجتمع من المجتمعات إلى مستوى ملائم من التماسك الإجتماعى، وذلك حتى يتمكن من تطوير النظم الاجتماعية، التى تسعى لإشباع الحاجات الأساسية للبشر أعضاء المجتمع، وهو ما يعنى أن التماسك الإجتماعى له وظيفة بنائية. بالإضافة إلى ذلك فإن للتماسك الاجتماعى وظيفة دينامية تتمثل فى تيسير الظروف التى تساعد على إنجاز العمليات الأساسية اللازمة لإستمرار المجتمع، كعمليات التنشئة الاجتماعية إضافة إلى عمليات التعاون والتكيف والإنتاج والتغير الاجتماعى. فى مقابل تقليص الظروف التى قد تساعد على تفجر الصراع وإنهيار التماسك الإجتماعى. وفى هذه الحالة فإننا ندرك التماسك الإجتماعى بإعتباره يعنى إمتلاك المجتمع لدرجة عالية من التكامل والإستقرار الاجتماعى، وإستمرار أو دوام هذه الحالة لفترة طويلة من الزمن.

وحتى يتحقق التماسك الاجتماعى فإن المجتمع يحتاج إلى فاعلية آليات أو متغيرات عديدة أبرزها الدين، الذى يتولى بإمتياز، إشباع حاجة المجتمع إلى التماسك الإجتماعى. سواء كان الدين صادراً عن قوى ما وراء الطبيعة، أى الله، ومن ثم نجده يعمل بإتجاه تشكيل مجتمع متماسك على قاعدة من المعانى الدينية، أو كان الدين – كم هى الحال فى الديانات البدائية - تعبيرا عن معانى طورها المجتمع، وأفرد لها مكانة سامية من خلال ربطها بالأسلاف والتواتم التى يقدسها المجتمع. وفى الحالتين نجد تطابقاً أو تماهيا متبادلا بين الدين والمجتمع، حيث يصبح الإثنان وجهين لعملة واحدة. تأكيداً لذلك انه إذا كان المجتمع له وجوده المادى الذى يجسد معانى الدين، فإن الدين له وجوده المعنوى

المجـرد الـذى يسـعى إلى تشـكيل التنظيـم الإجتماعـى للمجتمـع. وهـو مـا يعنـى أنه حينـما نؤكد عـلى حاجـة المجتمـع إلى الديـن فإننـا بذلـك نطلـب التقـاء المعنـوى المجرد، مـع الواقعى المتجسـد فى وحـدة واحدة.

إسـتناداً إلى ذلك فإننا نجد أن الدين يشـبع حاجة المجتمع إلى التماسـك الإجتماعى - حتى يصبـح المجتمـع قويـا يقـوم بوظائفـه الأخـرى – مـن خـلال أربعـة مسـتويات. فى نطـاق المسـتوى الأول، وهـو المسـتوى الرمـزى، حيـث نجـد أن الديـن يتشـكل فى جوانـب كثـيرة منه مـن الرموز، أو الأبنيـة الرمزيـة التـى تسـتنفر سـلوكيات البـشر وعواطفهـم ومشـاعرهم، تجاه تقديـس موضوعات معينـة يتعامـل معهـا البـشر بقـدر واضـح مـن التوقـير والتبجيـل. بحيـث نجـد أن هـذه الرمزيـة الدينيـة تلعـب دورهـا فى ضبـط التفاعـل الإجتماعـى فى مختلـف مجـالات الحيـاة الإجتماعيـة فى المجتمـع. فى هـذا الإطـار فإننـا نجـد أن المعـانى المتضمنة فى الرمزيـة الدينية تشـكل الخيوط القوية غـير المحسوسـة التـى تلعـب دوراً أساسـيا فى ربـط أجـزاء المجتمـع ببعضهـا البعـض. حتـى يتحقق التماسـك الاجتماعـى قويـا، إضافـة إلى ربـط المجتمـع الواقعـى بالقـوى العلوية أو السـماوية، حتى يصبـح التماسـك أقـوى بفاعليـة العواطـف المرتبطة بقوى مـا وراء الطبيعـة. وفى هذا النطـاق فإننا نجـد أنـه كلـما أصبـح البـشر أكثر إيمانـا كلـما أصبـح المجتمع أكثر تماسـكا.

ويتمثـل المسـتوى الثـانى الـذى يشـبع فيـه الدين حاجـة المجتمـع إلى التماسـك الإجتماعى، فى دور الديـن فى الحفـاظ عـلى هـذا التماسـك، بإعتبـار منظومـة القيـم الدينيـة التـى تتـسرب مـن خـلال ثقافـة المجتمـع، أو التـى تعمـل مبـاشرة عـلى ضبـط التفاعـل الإجتماعـى. وهـو مـا يعنـى أن الديـن يسـعى فى هـذه الحالـة إلى تأكيـد التكامـل والتماسـك الإجتماعـى. إمـا مـن خـلال الوجـود الرمـزى المبـاشر لقيـم الديـن والثقافـة فى فضـاء المجتمـع لتوجيـه سـلوكيات البـشر، أو تحـول هـذه القيـم إلى تقاليـد ومعايـير وأعـراف تراقـب هـذه السـلوكيات فى مختلـف المجـالات. إضافـة إلى إسـتيعاب البـشر أعضـاء المجتمـع لمنظومـات قيـم الديـن والثقافـة مـن خــلال عمليــة التنشــئة الاجتماعيــة، التــى تقــوم بهــا مؤسســات المجتمــع المختلفــة، إبتــداء مــن الأسرة وحتــى الجامعــة. وإذا كان الديــن يشــكل قاعــدة الثقافــة فــإن قيمــة ومبادئــه

تتسرب فى المجتمع من خلال الثقافة، بحيث تؤدى القيم الدينية فاعليتها فى ضبط التفاعل الإجتماعى لتأكيد التماسك الإجتماعى، وتجنيب المجتمع السقوط فى حالة الفوضى.

ويتصل المستوى الثالث لفاعلية الدين فى تأكيد التماسك الإجتماعى للمجتمع، من خلال تأكيد الدين على تكامل النظم الإجتماعية مع بعضها البعض. وذلك من خلال ربط الدين للنظم الإجتماعية ببعضها البعض، إضافة إلى أن منظومة المبادئ والقيم الدينية تشكل المواثيق المعيارية أو المعنوية التى تعمل وفقا لها النظم الإجتماعية. على هذا النحو تشكل قيم الدين والثقافة الموجهات الرمزية التى تضبط آداء النظم الإجتماعية، إضافة إلى توجيه وظائف النظم الإجتماعية بما يحقق التماسك الإجتماعى للمجتمع.

ويشير المستوى الرابع إلى دور الدين فى إشباع حاجة المجتمع إلى التماسك الإجتماعى من خلال الآداء الوظيفى المباشر، الذى ينجزه الدين لصالح بناء المجتمع، بحيث يؤدى إنجاز الدين لهذه الوظائف إلى تأكيد تماسكه. وتتمثل الوظيفة الأولى فى دعم الدين لتماسك المجتمع وتأكيده لذاته، من خلال تقديس المعانى والرموز، التى تجسد وجوده وتؤكد وحدته وتماسكه، سواء صدرت هذه المعانى من خارج المجتمع، ومن ثم فهى تسعى إلى تأكيد وحدته وتماسكه، أو أنها صدرت عن المجتمع لتأكيد وحدته وتماسكه. إلى جانب ذلك يؤدى الدين وظيفة تقديم الدعم والطاقة للمجتمع فى أوقات الأزمات، فإلى جانب أن الدين يتولى تصريف التوترات المختزنة فى بنية المجتمع. فإن منظومات القيم الدينية تؤكد لديه الإيجابية والخيرية التى تساعده فى الخروج من الأزمات قويا ومتماسكا. إضافة إلى ذلك فإنه فى حالة مواجهة المجتمع للإنهيار، فإن الدين يصبح آلية لتغيير المجتمع القائم، وتأسيس مجتمع جديد أكثر تماسكا وتكاملاً، ويمتلك إمكانيات الإستقرار.

وإذا كان الدين هو الذى يحفظ للمجتمع تماسكه، وهو الذى يساعد على إستقرار بنية الشخصية الإنسانية، فى المواقف أو المراحل التى تواجه فيها ازمة. فإن الدين بمعانية ومبادئة وقيمه يلعب دوراً أساسيا فى تشكيل رؤية

المجتمـع والإنسـان للعـالم المحيـط بدوائـرة المتتابعـة. ومـن ثم يسـاعد على إتسـاق رؤيـة المجتمع والفـرد، بإعتبـار أنهـا جميعهـا تصـدر عن جذر واحـد، وهو ما يدعم التماسـك الإجتماعـى بدرجات أو مسـتويات أعـلى، وسـوف نقـوم فيما يـلى بتحليل هـذه القضايا.

أولاً: موارد تأكيد التماسك الإجتماعى للمجتمع

يعـد التماسـك الإجتماعـى مـن الحـالات ذات الأهميـة المحوريـة بالنسـبة للمجتمـع. وذلـك بإعتبـار أن التماسـك الإجتماعـى يعتـبر مدخـلا لترسـيخ حالـة الإجتـماع، وهـى الحالـة التـى يسـعى البـشر فى إطارهـا لبنـاء العمـران البـشرى. فالإنسـان عـلى خـلاف الحيـوان تتشـكل ذاتـه وهويتـه مـن خـلال إجتماعـه بالآخريـن وتفاعلـه معهـم، وإنطلاقـا مـن هـذا التفاعـل تتأسـس العمليـات والنظـم الإجتماعيـة(١). وبـدون تعايـش البـشر مـن خـلال مسـتويات وأنمـاط مختلفـة مـن التجمعـات، لـن يتحقـق التفاعـل الإجتماعـى بينهـم، ولـن تتأسـس حالـة الإجتـماع والمجتمـع وظهـور الثقافـة وتبلـور الحضـارة. فى هـذا الإطـار تـبرز أهميـة التماسـك الإجتماعـى وحاجـة المجتمـع إليـه، إنطلاقـا مـن النظـر إلى المجتمـع باعتبـاره كائـن عضـوى، لا يمكـن أن يـؤدى وظائفـة الأساسـية إلا مـن خـلال تماسـك بنيتـه الأساسـية، وهـى الوظائـف التـى يمكـن أن نصنفهـا إلى ثلاثـة وظائـف. حيـث تتمثـل الوظيفـة الأولى فى سـعى المجتمـع بإتجـاه تأكيـد حالـة الإجتـماع التـى تعنـى إتفـاق البـشر وتعاونهـم مـع بعضهـم فى نـوع مـن التراحـم. إرتباطـا بذلـك يحتـاج المجتمـع إلى وظائـف وحداتـه المتنوعـة، بهـدف إنجـاز التنشـئة الإجتماعيـة للأجيـال الجديـدة، وفـق منظومـات قيـم الثقافـة السـائدة، وحسـب نوعيـة الحيـاة السـائدة فيـه فى إطـار مـن التماسـك الإجتماعـى، الـذى يسـتند إلى ثقافـة وقيـم مسـتقرة ومتماسـكة. بالإضافـة إلى ذلـك يحتـاج المجتمـع إلى عمليـات التعـاون والتكيـف، وهـى العمليـات التـى تسـاعد في إنجـاز التفاعـل الإجتماعـى السـوى، الـذى يـؤدى فى النهايـة إلى أنتـاج وتوفـير مـا يشـبع الحاجـات الأساسـية للبـشر أعضـاء المجتمـع. إذا لا يمكـن للمجتمـع أن ينجـز هـذه العمليـات، وهـو فى حالـة مـن الفـوضى وعـدم التماسـك، سـواء عـلى المسـتوى الإجتماعـى أو الثقـافى (٢).

وتتصـــل الوظيفـــة الثانيـــة بحاجـــة المجتمـــع إلى التماســـك الإجتماعـــى لتطويـــر

النظـم الإجتماعيـة التـى تشـكل بنـاؤه فى الإتجـاه الـذى يدعـم إسـتقراره. وفى هـذا الإطـار يعمـل المجتمـع بإتجـاه الحفـاظ عـلى النظـم الإجتماعيـة، مـن خـلال توجيـه التفاعـل المتراكـم فى نطاقهـا بمـا يؤكـد هويتـه. وحمايـة هـذه النظـم مـن آيـة إختراقـات قـد تـضر بهويـة المجتمـع، إضافـة إلى تطويرهـا بمـا يجعلهـا قـادرة عـلى التفاعـل مـع متغـيرات الواقـع المتجـدد. ولـكى يحقـق المجتمـع ذلـك مـن الـضرورى أن يمتلـك درجـة عالية مـن التماسـك، بإعتبـار أن الإختراقات تكون أكـثر نجاحاً فى حالـة التفكيـك الإجتماعـى، أي تفكيـك بنـاء المجتمـع. فى حـين تشـير الوظيفـة الثالثـة إلى حاجة المجتمـع إلى التماسـك والإسـتقرار الإجتماعـى النسـبى، حتـى يصبـح قادراً عـلى إسـتيعاب التغيرات التدريجيـة. التـى تزيـد مـن تماسـكه لكونها توفر لـه القدرة والطاقة، التى يسـتند إليهـا فى الإنتقال مـن الحـاضر إلى المسـتقبل، وهو ما يعنى أن التماسـك الإجتماعى يؤسـس فى بنيـة المجتمع، القابلية للتحـول والتجديـد، كـما أسـس لـه القابلية للإسـقرار والتماسـك (٣).

ذلـك يفـرض علينـا اهميـة إستكشـاف متغـيرات التماسـك الإجتماعـى، تلـك التـى تـؤدى إلى تكامـل المجتمـع وترابـط أعضائـه بحيـث يكـون قـادراً عـلى إنجـاز المهـام أو الوظائـف المشـار إليهـا. ولتحديـد هـذه المتغـيرات فإننـا نجـد أن البنـاء الإجتماعـى للمجتمـع، هـو الـذى يطـور هـذه المتغـيرات بصـوره تلقائيـه، وهـو الـذى يفعلهـا بإتجـاه تأكيـد وحدته، وفى هـذا النطـاق فإننا نعـرض لسـتة متغـيرات فاعلـة. ويتمثـل المتغـير الأول فى الديـن الـذى تفـرض مبادئـه الأساسـية ضرورة تعايـش وتفاعـل جماعـة المؤمنـين وعبادتهـم لالـه واحـد. وبغـض النظـر عـن كـون الديـن صـادر عـن السـماء كـما هـى الحـال فى الديانـات الكتابيـة، أو هـو إنعـكاس للأوضـاع الإجتماعيـة السـائدة فى المجتمـع، كـما هـى الحـال فى الديانات البدائيـة، أو كما تذهب بعـض المواقف النظرية. فـإن الديـن يلعـب دوراً أساسـيا فى تحقيـق التماسـك الإجتماعـى، وذلـك مـن خـلال قبـول جماعـة المؤمنـين لقيـم الديـن، بإعتبارهـا التـى توجـه سـلوكياتهم فى مختلـف المجـالات الإجتماعيـة. وإذا كانـت قيـم الديـن هـى الموجهـة لسـلوكيات البـشر فى الظـروف العاديـة، فـإن البـشر يلجـأون عـادة إلى التديـن وإلى اللـه، فى الأوقـات التـى يحتاجـون فيهـا إلى التماسـك. فرقصـه المطـر

التـى تمارسـها بعـض القبائـل البدائيـة، والتى تقـع مع بداية فصل الشـتاء، تؤدى إلى تجمع العشـائر والأفخـاذ التـى تشـتتت فى فصـل الصيـف، ومـن ثـم تعيـد القبيلـة تأكيـد وحدتهـا وتماسـكها مـن جديـد (٤). ويحـدث نفـس الأمـر حينـما تسـتخدم الشـعارات الدينيـة لزيـادة جـذوة العواطـف الدينيـة فى أوقـات الحـروب، حيـث اللجـوء إلى الإلـه الواحـد الـذى يمنـح البركـة للمجتمـع، وتعمل قوتـه عـلى تحقيق تماسـكه.

ويؤدى الدين دورة فى تحقيق التماسـك والإسـتقرار الإجتماعى، بإعتبار أن الدين فى قسـمى العبـادات والمعامـلات يتشـكل مـن المبـادئ والقيـم، الصـادرة عـن السـماء فى الديانـات السـماوية، والتـى تسـتهدف تنظيـم سـلوكيات البـشر. سـواء تجاه خالقهـم، أو تجـاه بعضهم البعـض، أو تجاه مجتمعهم. ويلعب الدين دوراً أساسيا فى ضبط سلوك أعضاء المجتمع، بما يؤكد التماسك والإستقرار الإجتماعـى. ويحقـق الديـن ذلـك مـن خلال عـدة أبعاد أساسـية، ويتمثـل البعد الأول فى أنـه نظراً لأن الأديـان موحـى بهـا مـن اللـه، فإن المعـانى التى يفـترض أن يسـتوعبها البشر وتوجه سـلوكياتهم، تكـون عـادة مغلفـة بمشـاعر التقـوى. التـى هى مزيـج من الخـوف والحـب والتقديـس والإحترام، ومـن ثـم فالطاعـة واجبـة لهـا، وليس هنـاك مجال للخـلاف معها أو رفضهـا، وهو الأمـر الذى يمنح هـذه المعـانى قـدراً واضحـاً من القوة. ويشـير البعد الثانى إلى أن المعانى الدينيـة الصادرة عن الغيب، تشـكل فى الغالـب قاعـدة الثقافة، فالحـلال والحرام الدينـى يتجلى غالبا من خـلال الصواب والخطأ الثقـافى. وهـو مـا يعنى أن الدين يسـاهم بنسـبة غالبـة فى تشـكيل منظومات قيم الثقافـة، وبذلك فهـو يضبـط ويوجه سـلوكيات البشر من خلال ذات أبعـاد الثقافة، يضاف إلى ذلك أن المعانى الدينية لهـا سـموها بطبيعـة الحـال. ويتصـل البعـد الثالـث، فى أن الدين يدفـع البشر إلى عمـران المجتمع، ومـن ثـم تحقيـق إسـتقراره، بإعتبار أن ذلك واجبا دينيا سـوف يكافأ عليه المؤمـن فى الدنيا والأخرة. وفى هـذا الإطـار فـإن الديـن يعتـبر أقـوى الآليـات التـى تـم التأكيـد عليهـا، بإعتبـاره يدعـو ويعمل بإتجـاه إسـتقرار المجتمع وتماسـكه، إسـتناداً إلى سـلوك البشر الإيجـابى والخير تجـاه بعضهم البعض. ويؤكـد البعـد الرابـع عـلى دور الدين فى إسـتقرار المجتمع وتماسـكه – بخاصة الإسـلام – إسـتناداً إلى

العمل وفق المقاصد الشرعية الخمس، التى تؤكد الوثائق الأساسية للدين أهمية تبنى معانيها، كموجهات لبناء العمران البشرى. وهى الحفاظ على الدين والنفس والعقل والنسل والمال، لكونها لزوميات ضرورية للوجود الإنسانى والإجتماعى، حيث يؤدى تفعيلها إلى تحقيق الرخاء الإنسانى، ومن ثم إستقرار المجتمع وتماسكه، إستناداً إلى مراعاة طبيعة ومتطلبات الفطرة الإنسانية.

وتشكل الثقافة ومنظومات القيم المتغير الثانى لتحقيق التماسك الإجتماعى للمجتمع، حيث يؤدى إستيعاب الأفراد لقيم الثقافة والإتفاق عليها، إلى توجيه سلوكياتهم وفق مضامين هذه القيم، بحيث تجعل الثقافة والقيم سلوكيات البشر فى المواقف المتشابهة ذات طبيعة نمطية متكرره. وفى هذا السياق تحتوى قيم الثقافة على ثلاثة منظومات من القيم، التى توجه سلوكيات البشر فى المجال الإجتماعى. القيم الإدراكية المستنده إلى المعرفة العقلانية، والقيم الوجدانية ذات المضامين العاطفية التى ترتبط بموضوعات معينة، ثم القيم التفضيلية التى توجه إختيارات الإنسان فى مختلف مجالات المجتمع، وجميعها منظومات قيم موجودة فى بناء الدين (٥). وإلى جانب أن الإتفاق بين أعضاء المجتمع هو مصدر فاعلية القيم فى تأكيد التماسك الإجتماعى، فإن هذه القيم تتسلل من خلال التنشئة الإجتماعية لتشكل الضمير الفردى. بحيث تسيطر الثقافة على سلوكيات البشر من خلال وجودها الرمزى فى فضاء المجتمع، وكذلك من خلال تشكيلها للضمائر الفردية، لتدفع الفرد بإتجاه إنجاز سلوكيات تؤكد التماسك الإجتماعى ولا تضر به.

ويعتبر إميل دوركيم وتالكوت بارسونز من أبرز علماء الإجتماع الذى أكدوا على الإتفاق القيمى كقاعدة لتحقيق للتماسك والإستقرار الإجتماعى (٦). حيث يروا أن الثقافة ومنظومات القيم المتضمنة فيها هى التى تتولى ضبط وتنظيم التفاعل الإجتماعى، الذى يتدفق بإتجاه تأكيد التماسك والإستقرار الإجتماعى. وذلك من خلال أربعة أبعاد أساسية. حيث يتمثل البعد الأول فى دور وفاعلية منظومات القيم بإعتبارها تكوينات رمزية قائمة فى فضاء المجتمع، تحدد للبشر الصواب والخطأ فى مختلف المواقف الإجتماعية. وبهذا المعنى فهى

تشـكل الموجهـات، التـى توجـه سـلوكيات البـشر فى مختلـف المجـالات الإجتماعيـة، كقيـم الأمانـة والـشرف والخـير والإيجابيـة. ويتحـدد البعـد الثـانى مـن خـلال تحـول القيـم إلى معايـير وتقاليـد وأعـراف تتـولى تنظيـم وضبـط التفاعـل الإجتماعـى فى مختلـف مجـالات المجتمـع، بحيـث نجدهـا تشـكل الرقيـب الإجتماعـى عـلى السـلوكيات الفرديـة. ومـن خـلال البعـد الثالـث تتـولى الثقافـة ومنظومـات القيـم ضبـط التفاعـل بـين البـشر فى المجتمع، إسـتناداً إلى ما يسـمى بصيغـة التوقعات المتبادلـة، حيـث يتوقـع كل فـرد أن يتفاعـل مـع فعل الآخر أو الاسـتجابة له، إسـتناداً إلى إشـتراكهما فى الثقافـة المشـتركة التـى توجـه تفاعلاتهـما معـا. فى حـين يـؤدى البعـد الرابـع فاعليتـه مـن خلال إسـتيعاب الشـخصية فى المجتمـع لمنظومـات قيـم الثقافـة مـن خـلال عمليـة التنشـئة الإجتماعيـة. بحيـث تشـكل هـذه القيـم الضمـير الفـردى الداخـلى، والـذى يتـولى توجيـه سـلوكيات الإنسـان فى المجتمـع. عـلى هـذا النحـو تؤكـد الثقافـة ومنظومـات القيـم عـلى التماسـك الإجتماعـى من خلال ضبـط وتوجيـه سـلوكيات البـشر مـن زوايـا عديـدة. منهـا أن سـلوكيات البـشر محكومـة برمزيـة الثقافـة، التـى توجـد قيمهـا الموجهـة فى فضـاء المجتمـع، ثـم أن سـلوكيات البـشر مراقبـة بواسـطة الثقافـة، مـن خـلال تحولهـا إلى تقاليـد ومعايـير وأعـراف. إضافـة إلى تفاعـل البـشر مـع بعضهـم البعـض بالنظـر إلى قيـم الثقافة، على أسـاس من صيغـة التوقعات المتبادلة. إلى جانـب الضبط الذى تمارسـه مضامـين الثقافـة مـن خـلال الضمـير الفـردى، بحيث يصبح سـلوك الفـرد منضبطاً بمـا يؤكد التماسـك والإسـتقرار الإجتماعـى.

ويعتـبر التكامـل بـين النظـم الإجتماعيـة المتغـير الثالـث الـذى يـؤدى إلى تحقيـق التكامـل والتماسـك الإجتماعـى، وفى هـذا الإطـار فإننـا إذا تأملنـا بنـاء المجتمـع، فسـوف نجـد أنـه يتشـكل مـن مجموعـة النظـم والوحـدات الإجتماعيـة، التـى تـؤدى وظائـف يكـون مـن نتيجتهـا تحقيـق التماسـك الإجتماعـى. حيـث نجـد أن كل نظـام مـن النظـم الإجتماعيـة يـؤدى وظيفتة عـلى أربعة مسـتويات. فى نطـاق المسـتوى الأول يعمـل النظـام الإجتماعى بإتجاه إشـباع بعـض حاجات البشر، التـى تقـع فى نطـاق فاعليتـه وإهتمامـه. وفى نطاق المسـتوى الثانى فإننـا نجد أن النظـام الإجتماعى

يـؤدى بعـض الوظائـف، التـى يضمـن بواسـطتها إسـتمرار وتأكيـد فاعليتـه. ومـن خـلال المسـتوى الثالـث ينجـز النظـام الإجتماعـى وظائـف لصالح إسـتمرار النظـم الإجتماعية الأخـرى، فى مقابل انه يحصـل منهـا عـلى مـا يؤكـد إسـتمراره وزيـادة فاعليتـه. ويعـد الآداء الوظيفـى للنظـام الإجتماعى الـذى يسـهم فى إسـتمرار المجتمـع هـو المسـتوى الرابـع لفاعليـة النظـم. وفى داخـل كل نظـام إجتماعـى، فإننـا سـوف نجـد أن الوحـدات والعمليـات تـؤدى إنجازهـا لأدوارهـا، لضـمان إسـتمرار بقـاء النظـام وزيـادة فاعليتـه. عـلى هـذا النحـو نجـد أن النظـم الإجتماعيـة بوحداتهـا وعملياتهـا الفرعيـة، تـؤدى أدوارا أو تنجـز إسـهاما وظيفيـا لصالـح إسـتمرار ودعـم التماسـك الإجتماعـى لبناء المجتمـع (٧)، خاصـة إذا أدركنا أن مبـادئ وقيـم الثقافـة هـى التـى تشـكل الموجهـات الرمزية لآداء النظـم الاجتماعيـة لوظائفهـا.

ويعتـبر سـلوك الشـخص فى المجتمـع أحـد المتغـيرات الأساسـية لتحقيـق التماسـك. ونحـن إذا تأملنـا بنـاء الشـخصية الإنسـانية فسـوف نجـد أنهـا تتشـكل من ثلاثـة مكونات أساسـية المكون البيلوجـى الغريـزى، الـذى يتجـلى مـن خـلال مجموعـة مـن الإحتياجـات الأساسـية، التـى تتطلـب إشـباعاً يوفـره المجتمـع. والمكـون الإجتماعـى، الـذى يتجـلى مـن خـلال ميـل الإنسـان للإرتبـاط بالآخريـن والتفاعـل معهـم، بالنظـر إلى المضامـين المعنويـة للمكـون الثالـث الـذى يتشـكل مـن منظومـات القيـم والمعـانى التـى تشـتق مـن الديـن والثقافة. تلـك التى يسـتوعبها الفـرد من خلال عمليـات التنشـئة الإجتماعيـة المتتابعـة، والتـى تلعب دوراً اساسـيا فى تنظيم إشـباع الفـرد لحاجاتة الأساسـية بمـا لا يـضر إشـباع الآخريـن، إضافـة إلى أنهـا تتـولى تنظيم التفاعـل الإجتماعى بـين البشر.

إسـتنادا إلى ذلـك تفـرض مصالـح البـشر وعيشـهم المشـترك فى المجتمـع، حسـبما يذهـب المذهـب النفعـى، ضرورة أن يحافظـوا عـلى ترسـيخ حالة التماسـك والنظام الإجتماعـى فى المجتمع، وذلـك حتـى يتمكنـوا مـن تحقيق مصالحهم الأساسـية. وهـم يرون أنه إذا كان التماسـك الإجتماعى يعـد حالـة لازمـة وضروريـه للمجتمـع، فـإن هذا التماسـك تشـتد الحاجة إليـه كلما تقـدم المجتمع وأصبـح أكـثر تعقيـداً. فى هـذا الإطـار يصبـح التماسـك الإجتماعـى سـاحة للتفاعـل الإجتماعـى

المستقر، الذى تتحقق فى نطاقه مصالح الآنا والآخر، بعيداً عن حالة الفوضى «الهوبزية» التى قد تهدد المجتمع، والتى قد تؤدى إلى عجز البشر عن تحقيق مصالحهم. وبذلك يؤكد هذا المدخل على تضافر جهود البشر لتحقيق التماسك والإستقرار الإجتماعى، كمدخل لتحقيق المنافع والمصالح الفردية، إلا أنها تنتهى إلى تحقيق خير ومصالح الجماعة أو المجتمع (٨).

وتشكل الموارد الأساسية التى يمتلكها المجتمع المتغير الرابع لتحقيق للتماسك الإجتماعى، ونقصد بالموارد حالة الطبيعة والثروات الطبيعية إضافة إلى القوى البشرية للمجتمع وكذلك مخزون القيم والمعانى التى لديه. حيث يساعد توفر هذه الموارد فى إشباع الحاجات الأساسية لأعضاء المجتمع، ومن ثم إستقرارهم وتركزهم وزيادة قوة تماسكهم الإجتماعى. فى مقابل ذلك فإن نقص الموارد يؤدى عادة إلى الإضرار بالتماسك الإجتماعى، فنقص الموارد فى المجتمعات البدوية أو الصحراوية يؤدى إلى تفرق القبائل بحثا عن الماء والكلأ. بينما تؤدى زيادتها إلى التركز السكانى، وزيادة عدد ومساحة المدن والحواضر. وإذا إنخفضت الموارد البشرية للمجتمع أو كانت غير مؤهله أو لم يعمل المجتمع على تنمية خصائصها وقدراتها. فإن ذلك يؤثر على تماسكه، لأن البشر فى المجتمع سوف يكونوا عاجزين حينئذ عن إستغلال موارد المجتمع لإشباع حاجاتهم، ومن شأن ذلك أن يؤدى إلى إضعاف التماسك الإجتماعى. ولا تقتصر موارد المجتمع على الثروات التى يمتلكها المجتمع أو القوى البشرية المؤهلة التى لديه. ولكن الموارد المعنوية أصبحت لها أهميتها كذلك، فإمتلاك المجتمع لحضارة متكاملة، وثقافات متضمنه فيها، ودين عقلانى تستند إليه الحضارة والثقافة. من شأنه أن يزيد القدرة التكيفية للمجتمع، ويطور إمكانياته على إستيعاب متغيرات الواقع المتجددة. ويدخل فى هذا النطاق المخزون المعرفى للمجتمع فى عالم أصبحت المعرفة فيه رأسمال، قادر على التحول إلى أشكال رؤوس الأموال الأخرى، كما هو قادر على تقدم المجتمع وشغله مكانة عالمية مرموقة وفاعلة.

فإذا تأملنا المتغيرات السابقة التى تلعب دوراً فى تأكيد التماسك

الإجتماعى، فسوف نجد أنها تتدرج هرميا من حيث قدرتها فى الحفاظ على هذا التماسك. فالمتغير من المستوى الأعلى كالدين يكون عادة هو الأقوى فى الحفاظ على التماسك الإجتماعى، ومن ثم يؤدى ضعفه إلى إهتزاز التماسك الإجتماعى. فإذا كان المتغير من المستوى الأدنى فى التدرج الهرمى لآليات التماسك الإجتماعى، فإنه يمكن تحييد تأثيره فى تأكيد التماسك الإجتماعى أو أضعافه. وإستناداً إلى ذلك يصبح الدين هو المتغير الأقوى للتماسك الإجتماعى، تليه الثقافة التى تكتسب طبيعتها من طبيعة الدين، وهما معا يضبطان آداء جملة المتغيرات الأخرى فى تحقيق التماسك الاجتماعى.

ويتحدد المتغير الأخير لتحقيق التماسك الإجتماعى، فى تبنى الأساليب القهرية أو القسرية، حيث يؤكد هذا المتغير على القوة القهرية والسيطرة لتحقيق التماسك الإجتماعى. وهى السيطرة التى قد تكون ذات طبيعة عسكرية أو قانونية أو إقتصادية أو إجتماعية أو ثقافية، أو روحية، كما هى الحال فى دور القيادات الروحية فى بعض المجتمعات البدائية. حيث يمتلك البعض هذه القدرات التى تمكنهم من فرض النظام والتماسك الإجتماعى بالقوة المادية أو المعنوية. وإلى جانب أن هذا النمط من التماسك المفروض ينتشر فى إطار المجتمعات البدائية، إلا أنه ينتشر كذلك فى بعض الدكتاتوريات التى ما زالت قائمة فى نظامنا العالمى المعاصر (٩).

ثانياً: الدين، مرجعية لتأكيد التماسك الإجتماعى

عرضنا فى الفقرة السابقة لطبيعة التماسك الاجتماعى والمتغيرات المحددة له، وفى هذه الفقرة نعرض لبعض الحقائق الأساسية المتعلقة بطبيعة وبنية الدين، تمهيداً لإستكشاف دوره فى إشباع حاجة المجتمع إلى التماسك الإجتماعى. بداية لتعريف الدين، فإننا سوف نحاول إستكشاف معنى الكلمة لغويا، حيث نجد أن كلمة الدين فى اللغات الغربية مشتقة من الكلمة اللاتينية Religare التى تعنى وحدة الجماعة وهويتها، ومن الكلمة Religere التى تعنى الممارسة بخاصة ممارسة طقوس التعبد الخاصة بالجماعة. أما فى اللغة العربية فتشير كلمة دين إلى المحاسبة، أى مواجهة الله «يوم الحساب أو يوم الدينونة». أو

المحاسبة تجاه المجتمع بفاعلية أصحاب «السيرة الصالحة والشأن الحسن» ولذا يسمى الله» الديان، كما أنها تسمية للحاكم أو القاضى» (١٠). وهو ما يعنى تاكيد هذا التحديد اللغوى للدين على ثلاثة أبعاد أو عناصر أساسية. الأول أن الله هو الذى يصدر عنه الدين والذى يعقد الحساب – العنصرالثانى- فى وقت معين يختاره ويعينه لإثابة أو عقاب الإنسان، حول موقفه من الوفاء بفروض الدين. والثالث أن ممارسة طقوس دينية تحدد مدى وفاء الإنسان بفروض الدين. بالإضافة إلى ذلك يعرف أنتونى جدنز الدين «بأنه الإيمان بقوة علوية سامية تأمر الناس بقيم أخلاقية وأنماط سلوكية معينة، وتبشرهم أو تنذرهم بحياة أخرى» (١١). بحيث يصنف هذا التعريف عناصر الحياة «الآخرة» بإعتبارها عنصراً حاضراً فى الدين، بخاصة الأديان الكتابية، وهو ما يعنى أن هذا التعريف ينطبق على أديان معينة دون أخرى، أى ينطبق على الأديان الكتابية بالأساس. إلى جانب ذلك يعرف برايـن تيرنر Bryan s. Turner الدين بإعتباره نسقا من الرموز والقيم، التى تربط البشر ببعضهم البعض، بواسطة تأثيرها العاطفى. بإعتبارهم ينتمون إلى جماعة أو مجتمع مقدس، إضافة إلى أنه يعمل على تأكيد إلتزامهم المعيارى والإيثارى، بالسعى لتحقيق غايات جمعية مشتركة (١٢). بحيث يحدد هذا التعريف الرمزية الدينية، التى تلعب دوراً أساسياً فى تأسيس مجتمع المؤمنين فى الدين، الذين يسعون لتحقيق غايات مشتركة يحددها الدين فى وثائقة الأساسية. على هذا النحو يؤسس الدين مجتمعاً يستند إلى الممارسات الطقوسية الجمعية، إضافة إلى الإرتباط بعقيدة مشتركة. وبذلك فإن الدين يتضمن رموزاً قوية ذات علاقة بالحياة الإجتماعية للبشر والوجود الإنسانى، بذلك يؤسس الدين خبرة مشتركة بين اعضاء الجماعة. يضاف إلى ذلك تعريف هارى جونسون Harry M. Johnson للدين بإعتباره نسقا يمتلك درجة من التماسك بين المعتقدات والممارسات، المتعلقة بالمكانة السامية لبعض الكائنات والقوى والأماكن والذوات الأخرى. وأن هـــذا النسق يتضمن معانى عديدة، على إتبـــاع الديـــانة ضرورة الوفاء بها فى حياتهم الخاصة والعامة(١٣).

بالإضافـة إلى ذلـك يعـرف عالم الأنثروبولوجيا الشـهير رادكليـف براون الديـن بإعتباره يعنى «التعبـير عـن الأحسـاس بالإعتـماد عـلى قـوة خـارج ذواتنـا، ويمكـن وصفهـا بإعتبارهـا ذات طبيعة روحيـة وأخلاقيـة. ويتـم التعبـير عن الإعتـماد على القوى الغيبيـة من خلال الطقـوس الدينية، التى يتـم مـن خلالهـا تقديـس هـذه القـوى وتأكيـد الخضـوع لهـا والتوسـل إليها، طلبـا للعفـو والمغفرة أو النجـاح والسـداد، أو البركـة والدعـم» (١٤). بحيـث يؤكـد هـذا التعريـف عـلى تبجيـل المؤمنين بديانـه معينـة للقـوى المقدسـة التـى تعيـش خـارج ذواتنـا، وأن الطقوس هـى وسـيلتنا للتقرب من هـذه القـوى للإسـتجابة لمطالبنـا. كـما يعـرف عالم الإجتـماع الفرنسى إميـل دوركيم الديـن بإعتباره «نسـقا متماسـكا مـن المعتقـدات والممارسـات المتصلـة بالموضوعـات المقدسـة البعيده عنـا، بحيث تشـكل هـذه المعتقـدات والممارسـات مـن المؤمنـين بهـا، جماعـة أخلاقيـة أو دينيـة واحـدة»(١٥). حيـث يـبرز هـذا التعريـف دور الديـن فى تأكيـد هويـة الجماعـة المؤمنة بالديـن بإعتبارهـا جماعة دينيـة وأخلاقيـة متماسـكة. بالإضافـة إلى ذلـك يذهـب عالم الإجتـماع ماكس فيـبر إلى تحديد الدين بإعتبـاره بنـاء تلعـب فيه المعانى الصادرة عن القوى الغيبية، دوراً اساسـياً فى تشـكيل العالم الإنسـانى وتنظيمـه، وأن النبـوة وجماعـة المؤمنـين هـم الوسـيلة لتجسـيد معانى الديـن واقعيـا (١٦). بحيث يـبرز هـذا التعريـف مكانـة النبـوة فى الديـن، إضافـة إلى أن الديـن يتـولى تغيـير المجتمـع وإعـادة تشـكيلة، ليصبـح مجتمعـا دينيا وأخلاقيـا فاعلاً.

إسـتناداً إلى ذلـك فإننـا إذا تأملنـا جملـة التعريفـات السـابقة فسـوف نجـد أنهـا تؤكد على الديـن بإعتبـاره بنـاء أو نسـقا يحتـوى عـلى جملـة مـن المكونـات الرمزيـة المتدرجـة والمتكاملـة. حيـث يتمثـل المكـون الأول فى اللـه، القـوة الأعظـم فى الوجـود، والـذى خلـق هذا الكـون، وصدرت عنـه فى ذات الوقـت معـانى الديـن. كـما أنـه يمتلـك القـدرة عـلى حسـاب البـشر فى الدنيـا والآخـرة لفـرض عـدم الإنحـراف أو الخـروج عـلى تعاليمـه. ويتشـكل المكـون الثـانى مـن الكـون الـذى خلقـه اللـه، والـذى ينقسـم بداخلـه إلى عالمـين، عـالم مـا وراء الطبيعـة الـذى يضـم فى إطـاره جملة القـوى الغيبيـة التـى نعلـم بوجودهـا، غـير اننـا لا ندركهـا بحواسـنا إلا إذا تكشـفت لنـا. وعـالم

الطبيعـة التـى يوجـد فيـه الإنسـان وكل المخلوقـات الأخـرى، التـى ندركهـا بصـورة مبـاشرة وغـير مبـاشرة، والتـى تضـم المجتمـع الـذى يؤسسـه ويعمـره الإنسـان. وتعد النبـوة هى المكـون الثالث، حيـث يختـار اللـه بعـض البـشر الـذى يمتلكـون قـدرات كارزميـة محـددة، بواسـطتها يسـتطيعون إسـتقبال معـانى ووحـى السـماء. وفى مقابل الحياة الدنيـا التى توجد فى عالم الطبيعـة، توجد الحياة الآخـرة التـى تشـكل المكـون الرابـع فى بنـاء الديـن، وهى سـاحة الحسـاب الـذى يـؤدى إلى إثابة أو عقـاب الإنسـان فى الحيـاة الدنيـا. ويتشـكل المكـون الخامـس مـن البنيـة الرمزيـة التـى إرتضاهـا الديـن، وتتشـكل مـن مجموعـة الرمـوز التـى ترمـز إلى موضوعـات مقدسـة فى الدين، والتـى تعمل عـلى إسـتنفار عواطـف المؤمنـين وتقوى حالة التديـن لديهم. وهـى تضم الله والملائكة والشـياطين والجنـة والنـار ومواطـن الحـج، إضافـة إلى الأماكـن المقدسـة، والأوليـاء والقديسـيين، وكل مـا هـو مقـدس ويعامـل بالإحـترام والتبجيـل. ويحدد المكون السـادس الجماعة المؤمنـة أو المجتمع المؤمن بالديـن، الـذى يلعـب الديـن دوراً اساسـياً فى تماسـكه وتكاملـة. والـذى يقـوم أعضـاؤه بالطقـوس والممارسـات، التـى تشـير إلى تبنيهـم للمعـانى الدينيـة، التـى تؤكـد عـلى طاعتهـم لله، الـذى صدرت عنـه هـذه المعـانى الدينيـة، والذين تسـتنفر فيهـم الرمزية الدينيـة معانى وعواطف ومشـاعر دينية تجـاه موضوعـات دينيـة مقدسـة. وفى هـذا الإطـار فإننـا نلاحـظ بعديـن أساسـيين. الأول تماسـك بنـاء النسـق الدينـى ذاتـه، بحيـث نجـد أن لـكل مكـون مـن مكوناتـه وظيفـة أساسـية تدعـم هذا التماسـك. بينـما يشـير البعـد الثـانى إلى إنعـكاس تماسـك نسـق الديـن عـلى تماسـك بنـاء المجتمـع الواقعـى الـذى يضـم الأعضـاء المؤمنـين. وربـط هـذا المجتمـع بقـوى مـا وراء الطبيعـة مـن خـلال بعديـن، البعـد الأول يتمثـل فى العبـادات التى على أساسـها يتـم التعامل مع قوى مـا وراء الطبيعة، ويتحـدد البعـد الثـانى بالمعامـلات التـى تنظـم حياة البـشر فى نطـاق الطبيعـة والمجتمع.

ثالثاً: الدين، بعض الحقائق الأساسية

بالإضافـة إلى ذلـك فـإن تأمـل بنـاء النسـق الدينـى فى جوانبـة الأساسـية، الثابتـة والفاعلـة، يسـاعد فى إدراك مجموعـة مـن الحقائـق الأساسـية المتعلقـة ببنـاء

الديـن أو بـدوره، أو دور بعـض عنـاصره فى تنظيـم التفاعـل الحـادث فى مختلـف مجـالات مجتمـع المؤمنـين. إرتباطـا بذلـك تتحـدد الحقيقـة الأولى فى أن الإيمـان بقـوة علوية سـامية يشـكل مسـألة محوريـة فى غالـب الأديـان، حيـث تسـتند محوريـة هـذه القـوة إلى المعانى التـى تصدر عنهـا، ليعاد بواسـطتها تشـكيل الواقـع الإجتماعـى على أساسـها. وأن هذه القـوة العلوية تمتلك القـدرة الفائقة عـلى الثـواب والعقـاب. ونظـراً لأن الكـون ينقسـم إلى عالمين عـالم مـا وراء الطبيعة وعـالم الطبيعة، فـإن بنـاء المجتمـع وعمرانـه مقـدر عـلى الإنسـان أن يقـوم بـه فى عـالم الطبيعـة. وفقـا للأوامـر وحسـب المعـانى التـى صـدرت عـن اللـه، وأبلغـت للإنسـان مـن خـلال الوحـى أو وثائـق الديـن. ولإنجـاز ذلـك جعـل اللـه الفطـرة الإنسـانية ذات طبيعـة خيريـة، إيجابيـة وإيثاريـة بالأسـاس، وأن الإسـتثناء هـو الـشر والسـلب بمسـاحة محـدودة. إضافـة إلى أن اللـه قـد خلـق الإنسـان لتحقيـق مجـده، بعمـران المجتمـع وفـق التعاليـم الإلهيـة. وحتـى يتمكـن الإنسـان مـن بنـاء العمـران وفقا للتصـور الإلهـى، فقـد فـرض اللـه تعاليـم محـددة، يميـز بهـا الإنسـان طبيعـة أفعالـة. مؤشراتهـا فى البروتسـتنتية المسـيحية نجـاح الإنسـان فى مشروعاتـه وأعمالـة الدينويـة، وهـى فى الإسـلام الحفـاظ عـلى مضامـين المقاصـد الشرعيـة الخمسـة، التـى يـؤدى تفعيلهـا إلى بنـاء عمـران بـشرى متماسـك ومسـتقر، تشـبع فى نطاقـه الحاجـات الأساسـية للبشر. وتشـير الحقيقـة الثانية، إلى أنه نظـراً لتعالى اللـه بإعتبـاره القـوة السـامية، وطابعهـا المجـرد - بخاصة فى الديانـات الكتابية - ومـا يرتبط بها من قـوى، ينظـر إليهـا بإعتبارهـا وسـيلة إليها، فإن البـشر يبدعون مجموعـة من الرموز لمحاولة الإشـارة إلى هـذه القـوى. وهـى الرمـوز التـى تعتبر مؤشرات عـلى وجودها وهويتها، حيـث يقترب البشر - مـن خـلال الطقـوس المرتبطـة بهذه الرمـوز - من هـذه القوى بإظهـار التوقير والتبجيـل والتقديس لهـا. وقـد تكـون هـذه الرمـوز ذات طبيعـة معنويـة كالاعتقاد فى بعـض المعانى التى تجسـد عظمة هـذه القـوة أو ماديـة كـدور العبـادة، أو الحـج إلى أماكـن معينـة، أو الإمتنـاع عـن إرتـداء أشـياء معينـة، والإمتنـاع عـن تنـاول اطعمـة معينـة فى أوقـات محـددة (١٧). وفى العـادة تتصـل الرمزيـة بقـوة بنيـة الديـن ومسـتوى تطورهـا، حيـث نجـد أن الديانـات البدائيـة أو التقليديـة ذات رمزيـة

محـدودة وبسـيطة. بينـما نجد أن الأديان الكتابية أو السـماوية تتميز بالرمزيـة الكثيفة، إضافة إلى أن مراعـاة الطقـوس المرتبطـة بالرموز، تعكس عادة مسـتوى الإيمان فى المجتمـع وفاعليته فى إطاره.

وتذهـب الحقيقـة الثالثـة إلى أن هـذه المعـانى الصـادرة عن القـوة العلوية السـامية «الله» تتبلـور عـادة عـلى هيئـة مجموعـة مـن المعتقـدات، التـى تحدد طبيعـة العلاقـة بين الإنسـان والله بإعتبـاره قـوة سـامية. أو التـى تنظـم تفاعـل البـشر مع بعضهـم البعـض، بحيث يشـكلون جماعة، ومجتمعـا دينيـا متآخيـا، يخضـع لهذه القوة العليـا ويعبدها. بإعتبار أن ذلك هدفـا فى حد ذاته، فى ذلـك قـال اللـه تعـالى «ومـا خلقت الجـن والإنـس إلا ليعبدون. سـورة الذاريات الآيـة ٥٦». يضاف إلى ذلـك المعتقـدات التـى تعـرف بالمعامـلات والتى تنظم علاقـة البشر ببعضهم البعـض فى مختلف مجـالات المجتمـع، عائليـة كانـت أم إقتصاديـة أم سياسـية. وفى هـذه الحالـة فإن المعتقـدات تؤكد عـلى التماسـك الـرأسى، حيث خضـوع جماعة المؤمنـين لإرادة «الله» وهـو ما يعنى إرتبـاط التفاعل فى المجتمـع بمضامـين ومعـانى الغيـب. إضافة إلى التماسـك الأفقى، الذى يشـير إلى تفاعل البشر مع بعضهـم البعـض وفق معـانى أو مضامين خيريـة وإيجابية.

ويتصـل بذلـك الحقيقـة الرابعـة التـى تؤكـد عـلى تضمـن الديـن لمجموعـة الطقـوس التى ينجزهـا البـشر فى المجتمـع تقربـا إلى اللـه، أو مـا يرتبـط بالديـن كالأنبيـاء والصالحـين، إضافـة إلى الأوليـاء والقديسـين فى التديـن الشـعبى. حيـث تفـترض هـذه الطقـوس ضرورة التقـرب مـما هـو مقـدس وتجنـب مـا هـو مدنس أو دنيـوى محرم. وبغض النظر عن ممارسـة هـذه الطقوس بصورة فرديـة أو جماعيـة، إلا أنهـا تـؤدى فى جملتهـا - بخاصة تلـك التى تنجز بصورة جماعيـة - إلى تأكيد التماسـك الإجتماعـى. الـذى تكـون الجماعـة فى حاجـة إليه فى مرحلـة معينة، كالطقـوس والرقصات المتعلقـة برجـاء نـزول المطـر، كـما هـى الحـال عنـد بعـض القبائـل البدائيـة، أو طقـوس صـلاة الإستسـقاء فى المجتمـع الإسـلامى. وفى هـذه الحالـة تؤدى الطقـوس دورها فى ربط الفـرد بالجماعة مـن خـلال المعتقـدات والرموز التى تشـير إلى «اللـه» بإعتباره القوة أو الرمز الأعظـم (١٨). وهو ما

يعنى تأكيد التماسك ليس فى المجتمع فقط، ولكن بين قطاعات أو طبقات الكون بكاملة.

وتؤكد الحقيقة الخامسة على أن الدين يحتوى على المعانى والمعايير - التى قد تأخذ شكل المعتقدات والمعاملات - التى يفترض الالتزام بها طاعة لإرادة الله خالق هذا الكون. والذى وضع الإنسان فيه لتحقيق مجدة، من خلال العمل بإتجاه عمران الأرض، الذى يؤدى بمرور الزمن والتاريخ إلى عمران المجتمع. ولما كان العمران يعنى البناء، فإن ذلك يعنى الإيجابية اللازمة لبذل الجهود الإيثارية لبناء المجتمع، من خلال تعاون البشر مع بعضهم البعض. وذلك يرجع إلى أن الإنسان حسبما يذهب العلامة العربى بن خلدون «مدنى بالطبع، أى لا بد له من حالة الإجتماع، فهو المخلوق المعنى ببناء العمران. وبيانه أن الله سبحانه وتعالى خلق الإنسان وركبة على صورة لا يصح حياتها وبقاؤها إلا بالغذاء وهداه إلى إلتماسه بفطرته، وبما ركب فيه من القدرة على تحصيلة. إلا أن قدرة الواحد من البشر قاصرة عن تحصيل حاجته من ذلك الغذاء، غير موفيه له بمادة حياته منه. ولو فرضنا منه أقل ما يمكن فرضه وهو قوت يوم من الحنطة مثلاً، فلا يحصل إلا بعلاج كثير من الطحن والعجن والطبخ، وكل واحد من هذه الأعمال الثلاثة، يحتاج إلى مواعين وآلات لا تتم إلا بصناعات متعددة من حداد ونجار وفاخورى» (١٩). بالإضافة إلى ذلك فإن تشكيل الله للفطرة الإنسانية ذاتها، وإن ضمنها الميل إلى فعل الخير والشر معاً، غير أن الميل إلى الخير يشغل المساحة الأوسع فى هذه الفطرة، مقارنة بمساحة الشر المحدودة ذات الطبيعة الإستثنائية. وإنطلاقا من طبيعة فطرته، تميل الذات الإنسانية إلى الخير، الذى يعنى الإرتقاء بالآخر، وتوسيعا لذلك الإرتقاء بالمجتمع، وبذلك تصبح إيجابية القيم والمعايير الدينية هى المسئولة عن تأسيس حالة العمران ونمو أو تطور هذه الحالة (٢٠).

وتتصل الحقيقة السادسة بطبيعة العلاقة بين الدين والمجتمع حيث توجد علاقة أساسية متبادلة بينهما، بالإضافة إلى وجود تصورات متباينة حول طبيعة هذه العلاقة. فمن ناحية نجد أن هناك بعض منظرى علم الإجتماع مثل كارل

ماركس وإميل دوركيم، الذين يؤكدون على الأصول المادية أو الواقعية للدين. حيث يرى الأول أن الدين هو إنعكاس للظروف المادية والإقتصادية للمجتمع، بينما يرى الثانى أن رمزية الدين وطقوسه ترتبط بصورة أساسية بالمجتمع فى جملته. حيث نجده يؤكد فى مؤلفه «الأشكال الأولية للحياة الدينية على «أن الأساطير والقوى المتخيلة التى يبدعها الإنسان وترتبط بالدين، هى فى الحقيقة نتيجة للعواطف الجمعية والأخلاقية المشتركة بين أعضاء المجتمع. حيث يتوجه الفرد فى المجتمع بالتبجيل والتقديس للنظام الأخلاقى للمجتمع وليس لأى إله غيبى. وبرغم أن البشر فى المجتمع يعتقدون أنهم يعبدون الله، إلا أنهم فى الحقيقة يعبدون المجتمع، الذى يعتبر فى الحقيقة الكيان الوحيد الذى يسمو على الأفراد، من حيث دوامه وتفوق قدراته. ذلك يعنى أن الدين يربط الأفراد ببعضهم فى نطاق المجتمع، من خلال حقيقة العلاقات الإجتماعية بينهم، إضافة إلى تفاعلهم وتواصلهم مع بعضهم البعض إستناداً إلى قيم ورموز المجتمع. إلى جانب تأسيس الالتزامات المتبادلة بينهم والوفاء بهذه الإلتزامات، وهى العلاقات والتفاعلات والالتزامات التى يفرضها المجتمع عليهم (٢١).

فى مقابل ذلك نجد موقفا مقابلاً يقودة ماكس فيبر، الذى يؤكد فى إطاره على أن الدين سابق على وجود التنظيم الإجتماعى. وهو يرى الدين كشجرة تضرب بجذورها إلى بداية تشكل المجتمع الإنسانى، وأن ظهور أى دين جديد ما هو إلا فرع جديد فى تطور شجرة الدين المتنامية. حيث يتضمن كل فرع جديد يظهر أو ينمو أبداع أو فرض تصورات جديدة للتنظيم الإجتماعى، الذى يعيش فى نطاقة البشر، وأن على البشر إعادة صياغة وتعديل مجتمعهم وفقا للتنظيم المتضمن فى هذا الدين الجديد. بالإضافة إلى ذلك فإنه يرى أن المعانى الدينية، هى التى تشكل تصور الدين عن «الله» أو عن ما وراء الطبيعة، وكذلك عالم الطبيعة والمجتمع. كما أكد على أن أنبياء الدين الجديد بسبب قدراتهم الكارزمية التى لديهم، يكونوا قادرين على إلتقاط وإدراك الإشارات والمعانى الصادرة عن السماء. وهم بوسائلهم الأرضية والإنسانية يعملون على إعادة تشكيل المجتمع الجديد وفق هذه المعانى الموحى بها إليهم، وتنجح جهودهم إذا

توفـرت ثلاثـة شروط أساسـية. الأول أن يعـانى المجتمـع الواقعى الـذى جاءه الديـن الجديد بمعانية مـن حالـة مـن الإنهيـار الأخلاقـى، إضافـة إلى قـدرة الديـن الجديـد عـلى تقديـم المعـانى الأخلاقيـة الجديـدة، التـى يمكـن أن تحـل محـل المعـانى الأخلاقية القائمـة والمنهـارة. إلى جانب إمتـلاك الدين الجديـد لقـوة إجتماعيـة تفرضـه عـلى المجتمع، وتعيـد تشـكيله وفقا لطبيعـة هذه المعـانى الدينية الجديـدة (٢٢) شريطـة أن تكـون هـذه القـوة قادرة عـلى التطـور والتنامى.

وتتصـل الحقيقـة السـابعة بالثنائيـة التـى تحتويهـا بنيـة الديـن، وهـى الثنائيـة التـى تميـز بـين المقـدس Sacred والمدنـس Profane. وفيـما يتعلـق بهـذه القضيـة يـرى إميـل دوركيـم أن الديـن لا يتشـكل فقـط مـن الآلهـه Gods والأرواح Spirits والمعتقـدات Belifs . ولكنـه - أى الديـن - يؤكـد فى معانيـة عـلى التمييـز بـين العـالم المقـدس Sacred World فى مقابـل العـالم الدنيـوى المدنـس Profane realm. وبرغـم أنـه مـن الممكـن الإقتنـاع بوجـود ديانـات تنكـر وجود الكيانـات السـامية، كـما فى البوذيـة Buddism مثـلاً، فإننـا نجـد أن كل الديانـات تتميـز بوجـود ثنائيـة المقـدس والمدنـس، حيـث تعتـبر هـذه الثنائيـة الخاصيـة المميـزة للديـن. إرتباطـا بذلك تعد المعتقـدات والمبـادئ والمعجـزات تجليـات أو أبنيـة مـن التجليـات الرمزيـة، التـى تعـبر عـن طبيعة القـوى أو الـذوات المقدسـة، والقيـم والقـدرات التـى تنسـب لهـا، أو إلى علاقاتهـا ببعضهـا البعـض، وكذلـك بالموضوعـات الدنيويـة المدنسـة Profane(٢٣). وفى هذا الإطار تـدرك الطقوس التى يؤديها أعضـاء المجتمـع، بصـورة رمزيـة، فرديـة كانـت أم جماعيـة، بإعتبارهـا طقـوس وممارسـات للتقرب مـن هـذه الـذوات المقدسـة طلبـا لخيرهـا، أو تجنبـا لشرهـا.

وتتصـل الحقيقـة الثامنـة بفكـرة الخلاص مـن الخطيئـة الأولى والرموز والمعـانى أو الطقوس المرتبطـة بهـا، بإعتبارهـا مكونـا دينيـا بـارزا لـه وجـوده فى غالبيـة الأديـان. حيـث تؤكـد هـذه الحقيقـة عـلى ضرورة إفـتراض أن يسـعى البـشر إلى تحقيـق الخـلاص فى فـترة وجودهـم فى هـذا «العـالم» أو فى الحيـاة الدنيـا، حيـث نجـد أن هـذه الكلمـة تـتردد كثـيراً فى الخطاب الدينـى لغالبية الأديـان. ويشـير معناهـا إلى أن الحيـاة التى نعيشـها فى هـذه الدنيـا، والقيم التى تضبط سـلوكياتنا

فى بحثنا عن الثروة أو عن المكانة الإجتماعية، فى هذا العالم الدنيوى الذى نعيش فيه، هو عالم أو حياة ثانوية وغير هامة، كما تنظر إليه الأديان الكتابية. فى هذا العالم فإننا نسعى فى كل مجالات الحياة، نبذل جهودنا فى مجال الأسرة والإقتصاد والسياسة، ونتفاعل مع الآخرين، وأثناء ذلك قد نرتكب ذنوبا وأخطاءً، فتظل الإدانة معلقة برقابنا، وقد نأتى الأعمال الصالحه فنتخلص من الخطيئة وتكتب لنا الجنة (٢٤). إرتباطا بذلك فالبحث عن الخلاص يتم بأسلوبين، الأول الأسلوب الإيجابى، والذى يبذل الإنسان من خلاله جهوده وسلوكياته داخل العالم الذى يعيش فيه. وهو الأسلوب الذى أكد عليه عالم الإجتماع ماكس فيبر فى تشخيصه للأسلوب الذى إستطاع بواسطته المؤمن البروتستنتى - إستناداً إلى قيمة البروتستنتية كالعمل الدؤوب والتقشف - القيام بالأنشطة التجارية والصناعية لتحقيق مجد «الله» فى الأرض، حيث يعد نجاحه فى مشروعاته مؤشراً على مباركة «الله» له، ومن ثم إقترابه من تحقيق الخلاص.

ويشكل التصوف الأسلوب الثانى فى البحث عن الخلاص، وهو أسلوب شائع فى غالبية أديان الشرق الأقصى كالهندوكية Hinduism والبوذية Buddhism والتاوية Taoism، إضافة إلى وجود أساليب للتصوف فى غالبية الديانات الكتابية. حيث يميل المتصوف إلى الإتحاد «بالله»، إذ نجده يتصرف وكأنه خارج هذا العالم الذى نعيش فيه، لا يشارك فى أنشطته أو يبذل جهوده فى إطاره. وفى هذا الإطار نجده يتبع طقوس عديدة، تؤكد عزلته عن هذا العالم الذى يعيش فيه، برغم وجوده بداخلة كالصوم والصلاة وتجنب ملذات الحياة الدنيا، والسعى لقهر غرائز البدن بداخلة. فى هذا الإطار من النادر ان يرتبط التصوف بسلوكيات وأنشطة أو ممارسات تشير إلى الإرتباط بالحياة الدنيا. ولا يعنى ذلك إستبعاد أساليب الخلاص لبعضها البعض، حيث نجد بينها قدر من الإرتباط فى بعض الأحيان. مثال على ذلك لا تختلف النزعة إلى التقشف التى تعنى رفض الإشباعات المباشرة، كمدخل لتحقيق الأهداف الدينية. وهى الممارسة التى يتبعها الفاعل البروتستنتى، عن سلوك الرهبان اللاترابيون

Trappists[١] الذين يفضلون الجهود التقشفية المرتبطة بالعزوف عن ملذات هذا العالم، ويرنون بدلا من ذلك إلى حالة من العزله السيكلوجية والإجتماعية عن هذا العالم برغم الوجود فيه.

وتشير الحقيقة التاسعة إلى وجود نطاق غيبى فى كل الأديان وهو النطاق الذى يحتوى على مجموعة المعانى أو المضامين، وكذلك الذوات المقدسة التى قد لا تدرك عقليا. وإن كان على مجتمع المؤمنين التصديق بها، وهو ما تتميز به المعرفة الدينية، التى نجدها تستعصى على الإختبار أو القياس المنطقى أو الواقعى. قد يسميها البعض أساطير إذا كانت الديانة ذات علاقة بمجتمعات بدائية، وهى معجزات كما ندركها فى الديانات السماوية (٢٥). ومثال على هذه المعانى فى الديانة الهندوكية ، حيث «كركشنا Krishna» تتقمص روح الإله «فشنو Vishnu». بالإضافة إلى الخطابات التى تتعلق بإنجازات البراهانيون بسبب القوى السحرية التى يمتلكونها. وفى الديانة البوذية توجد الأساطير التى تؤكد أنه بعد حياة إستمرت لآلاف السنين، بينما كان «جوتاما Gautama يجلس فى حالة من الإسترخاء فى ظل شجرة التين إذا به يصبح بوذا Buddha الرابع تاريخيا. وفى اليهودية يدور هذا النمط من المعانى حول «الله» الذى خلق السماء والأرض، وكلم موسى بالوصايا العشر. وأن موسى هو الذى شق البحر، وفرض عليه التراجع حتى يمكن للعبرانيين أن يعبرونه فى آمان. وفى المسيحية الكاثوليكية أن سيدنا عيسى ولدته مريم العذراء، دون خطيئة البغاء، وأن سيدنا عيسى هو الذى أشفى المرضى وأحيا الموتى، إضافة إلى كثير من المعجزات التى قدمها سيدنا عيسى والقديسون من بعده. إرتباطا بذلك نجد أن المسيحية البروتستنتية توافق بعض الجماعات على هذه المعجزات بإعتبارها صحيحة، بينما تترك جماعات أخرى حرية الإعتقاد فى ذلك للفرد ذاته. وفى الإسلام أن سيدنا محمد إستقبل الوحى من «الله» من خلال الملاك جبريل (٢٦)، كما أسرى إلى المسجد الأقصى ممتطيا البراق فى قيمة زمن ليلة واحدة. حيث نجد أن هذه المعانى تصور معجزات تزدهر فى عيون وإدراك البشر حينما يتعرضون

---

١ * اللاترابى، أحد رهبان دير «لاتراب»، ويسموا بالممتنعين عن الكلام

لهـا، ومـن ثـم تـؤدى إلى إشـتعال جـذوة عواطفهـم الدينيـة. وبسـبب الإعتقـاد الجمعى بهـا، فإنها تـؤدى إلى تأكيـد تماسـك المجتمـع فى إتجاهـين، الأول تكامـل المجتمـع الواقعـى مع المعـانى الصادرة عـن السـماء. لأن هـذه المعـانى تشـكل سـاحة للتأمـل والتصديـق، وهـى السـاحة التـى تـؤدى إلى تدفـق المعـانى الدينيـة الأخـرى متضافـرة مـع هـذه المعـانى ذات القيمـة الرمزيـة القويـة، ومـن ثم تتـولى عمليـا ضبـط وتنظيـم التفاعل الواقعى. والثانى تماسـك أعضـاء المجتمع الواقعـى مع بعضهم البعـض إسـتناداً إلى إشـتراكهم فى الإتفـاق حـول هذه المعـانى، وشـعورهم بالعواطف التـى تثيرها فى نفوسـهم، بإعتبارهـم جماعـة دينيـة واحـدة، أى جماعـة مـن المؤمنين.

وتذهـب الحقيقـة العـاشرة إلى أن الديـن الواحـد يشـكل مظلة شـاملة من المعـانى الرمزية، التـى يمكـن أن تنتـشر فى فضـاء عديـد مـن السـياقات الإجتماعيـة المتباينـة، غـير انهـا برغـم ذلـك، ومـن خـلال تشـكلات نسـبية، تؤسـس مـن هـذه السـياقات المتباينـة مجتمـع إيمـانى واحـد. حيث تتبايـن هـذه السـياقات الإجتماعيـة إمـا عـلى أسـاس حضـارى أو ثقـافى او جغـرافى أو حتى بسـبب أحـداث تاريخيـة محـددة، الأمـر الـذى يـؤدى إلى أن هـذه التباينـات تلعـب دوراً فى تأويـل بعـض المعـانى الدينيـة الشـاملة. وفى هـذا الإطـار فإنـه إذا كانـت المعـانى الدينيـة ذات طبيعـة مطلقـة وشـاملة، والواقـع نسـبى بطبيعتـه، فإننـا نجـد أن المزواجـة بينهـما تـؤدى إلى تكوينـات دينيـة جديـدة، ترتبـط بهـا جماعـات واقعيـة تتـولى تأويـل النصـوص والمعـانى الدينيـة بحسـب واقعهـا المتبايـن. مثـال عـلى ذلـك أننـا نجـد مثـلاً أن إنقسـام المسـيحية إلى المذهـب الكاثوليـكى والمذهب البروتسـتنتى وقـع بسـبب جمـود الكنيسـة الكاثوليكيـة فى القـرن الثالـث عـشر والرابـع عـشر. فى مقابـل النزعـة التمرديـة للبروتسـتنتية، الأمـر الـذى أصبح يعنى تمسـك الكاثوليك الحـرفى بالنصوص الدينيـة، حتـى تحريـف معانيهـا، فى مقابـل التأويـل والقـراءة البروتسـتنتية المتحـررة لـذات النصـوص. وفى الإسـلام ظهـرت المذهبيـة السـنية والشـيعية إنطلاقـا مـن واقعـة تاريخيـة تمثلت فى الـصراع الـذى تفجـر بـين سـيدنا عـلى ومعاويـة بن إبى سـفيان، وإسـتمرارا، بين سـيدنا الحسـين إبن عـلى ويزيـد إبـن معاويـة. غـير أنهـا كانـت تعكـس في ذات الوقـت تباينـا حضاريـا بـين الحضـارة

الفارسية والحضارة العربية، حيث تمسك غالبية أهل الحضارة العربية بالنص وأقتفوا سنة الرسول صلى الله عليه وسلم. بينما قام أبناء الحضارة الفارسية بتأويل النص والتعامل مع معانيه، فنشأت المذهبية بسبب تباين حضارى. وفى ظل هذه المذهبية أو إلى جانبها تظهر طوائف دينية عديدة، يختلف كل منها عن الآخر فى فهم الدين وتأويل معانيه بحسب واقعها المتباين. وإن كانت جملة المذاهب والطوائف داخل الدين الواحد تتفق حول الأصول الأساسية للدين. وهو ما يجعل المؤمنون بدين واحد يشكلون جماعة دينية واحدة ومتماسكة، مع إمكانية أن تتشكل فى ذات الوقت جماعات مذهبية وطائفية فرعية لذات الدين الواحد متماسكة فى بنيتها.

رابعاً: مكانة ودور الرمزية فى بناء الدين

تشغل الرموز مكانة هامة فى بناء الأديان، سواء كانت أديانا أولية أو تقليدية أو كانت كتابية متطورة، لكونها تشكل معانى أو تجسيدات تشير إلى موضوعات أو ذوات مقدسة. حيث يستنفر وجود الرمز عواطف البشر فيقومون بأداء بعض الممارسات والطقوس، التى تشير إلى توقيرهم وتبجيلهم للرمز، وربما خوفهم منه. فى هذا الإطار يعد الرمز إشارة أو علامة أو مفهوما أو كيانا ماديا يشير إلى شئ أو موضوع محدد ويعبر عنه. وتتجلى أهمية الرموز لكونها تستنفر وتنشط، وكذلك تنشر بصورة عامة المشاعر والعواطف تجاه موضوعات معينة، ذات أهمية تصل إلى حد القداسة، بالنسبة لأعضاء المجتمع. ومن ثم فهى تلعب دوراً محوريا فى تأكيد التزام البشر بطقوس وسلوكيات معينة نحوها، وهو ما يعد مدخلاً لتأكيد التماسك الإجتماعى (٢٧). فى بعض الأحيان يمكن أن تؤدى هذه الرموز إلى إنهيار التماسك الإجتماعى، إذا إنتشرت ظواهر صراع الرموز فى فضاء المجتمع، أو بين مذاهبة أو فئاتة المختلفة.

ويتسق تحديد الرموز الدينية مع تحديد الرمزية العامة، وإن كانت الأولى فى مجال الدين، فى هذا الإطار من الضرورى أن نميز بين وظيفتين للرمزية الدينية. فى نطاق الوظيفة الأولى فإننا نجد أن الرموز الدينية، تعمل على تجسيد وتكثيف المشاعر والقيم المتصلة بموضوع الرمز. وفى نطاق الوظيفة

الثانيـة فإننـا نجـد أن الرمـوز قـد تشـير إلى اماكـن محـددة أو أشـخاص أو حتـى أحـداث تاريخيـة. مثـال عـلى ذلـك أننـا نجـد أن إشـارة الصليـب تشـير فى المسـيحية إلى مشـاعر وعواطـف التضحيـة، غـير أنهـا تشـير أيضـا إلى السـيد المسـيح. فى هـذا الإطار يؤكـد «بيـلا Bellah وبيرجـر Berger على إمكانيـة النظـر إلى الرمـوز الدينيـة بإعتبارهـا ذات طبيعـة تكثيفيـة. أى تكثف المشـاعر والعواطف والإنفعـالات المرتبطـة بموضـوع الرمـز، أكـثر مـن كونهـا ذات طبيعـة مرجعيـة، أى يسـتند إليهـا فى تحديـد سـلوكيات البـشر (٢٨). وإذا كانـت الرمـوز ذات طبيعـة تكثيفيـة فإنهـا تنجـح عـادة فى إسـتنفار ذات المشـاعر والعواطـف عنـد المؤمنـين بهـا، ومـن ثـم تدفعهـم إلى ممارسـات وطقـوس تتضمـن هـذه المشـاعر والعواطـف تجـاه موضـوع الرمز.

وبسـبب أهميـة الرمـوز بالنسـبة للديـن والمجتمـع، فقـد إهتـم الفلاسـفة والمفكـرون بهـا، وبمصادرهـا المختلفـة والمتنوعـة. فى هـذا الإطـار يـرى الفيلسـوف الألمـانى هيجـل، أن الأفـكار والرمـوز والمعـانى هـى التـى تحـدد السـلوك الإنسـانى، «فاللـه» هـو الرمـز الأول الذى أدركـه، ومنه تدفقـت رمـوز دينيـة عديـدة، هـى التى أصبحـت تنظـم التفاعل الإنسـانى والإجتماعى. ويسـتطرد هيجـل بتأكيـدة عـلى أن الأفـكار والرمـوز تنتج أفـكاراً ورمـوزاً، وفى ذات الوقـت تعيد إنتـاج الواقع والتفاعـلات الواقعيـة بصـورة دائمـة على هيئـة هذه الرموز أو الأفكار. وإسـتمرار لذلـك اكد ماكس فيـبر عـلى أولويـة القيـم والمعتقـدات – بإعتبارها تكوينات رمزيـة – من حيث قدرتها على إسـتنفار سـلوكيات البـشر ودفعهـا فى إتجاهـات ومسـارات محـددة. مثـال على ذلـك تأكيده عـلى أن القيم والأخـلاق البروتسـتنتية هـى التى دفعت إلى ممارسـات وسـلوكيات معينة أدت فى النهاية إلى نشـأة الرأسـمالية المعاصرة (٢٩).

عـــلى خـــلاف ذلـــك نجـــد مفكريـــن آخريـــن يـــرون أن المجتمـــع يكـــون عـــادة مصـــدر رمزيتـــه، وبخاصـــة الرمزيـــة الدينيـــة، فى نطـــاق هـــذه الرؤيـــة يؤكـــد جـــورج زيمـــل George Simmel أســـبقية المجتمـــع عـــلى الديـــن. وهـــو يـــرى أن أنمـــاط التفاعـــل الإجتماعـــى والقيـــم الإجتماعيـــة المتصلـــة بهـــا، برغـــم كونهـــا غـــير دينيـــة إلا أنهـــا تركـــت

آثارهـا العميقـة فى الديـن، بـل إن الكثـير مـن التعبيرات التى تنسـب للدين هـى فى الحقيقة عناصر جوهريـة مـن عنـاصر التفاعـل الإجتماعـى. فالتأليـة والالتـزام والعبـادة والمحبـة أمـور مشـتركة فى كل أشـكال التجـارب والعلاقـات الإنسـانية، فى مختلـف العصـور والمجتمعـات قبـل ظهـور الأديـان وبعدهـا. فى هـذا الإطـار يؤكـد زيمل أن المشـاعر والتعبـيرات والمعتقدات الدينية كافـة، قد وجدت فى المجتمـع ومـن ثـم فقـد كانت سـابقة على الديـن (٣٠)، وهو مـا يعنى التأكيد عـلى دور المجتمع وفاعليتـه، سـواء فيـما يتعلق بنشـأة الديـن أو الرمـوز الدينية.

إسـتمراراً لذلـك يؤكـد إميـل دوركيـم عـلى أن الديـن يعنـى تعبير المجتمـع عن ذاتـه، وهو يـرى أن الديـن رمـز مـن رمـوز المجتمـع، ويعبر عن وحدته وتماسـكه. وأن إله العشـيرة ليس سـوى العشـيرة نفسـها مشـخصة أو ممثله بالاله بحسـب التصور الإنسـانى. وبذلك تكون عبادة الإله هى فى الواقـع عبـادة المجتمـع، وتكـون وظيفـة الديـن الأساسـية هـى تعزيـز وحـدة المجتمع وتماسـكه ومنـح الشرعيـة لقيـم المجتمـع ومعايـيره بإضفاء القداسـة عليها، وذلـك من خلال تجميـع الناس فى هوية موحدة، من خلال ممارسـة الشـعائر والطقوس الدينية. ويؤكد دوركيم أن ما نسـمية «الله» هـو المجتمـع نفسـه. وإذا كان دوركيـم يرى ان الأديان فى المجتمعـات البدائية تحتوى على العناصر الأساسـية للأديـان. فإنـه يـرى أن التوتـم فى الديانـة البدائيـة هـو جسـم محسـوس، قـد يكـون رمزاً لـلأب أو الجـد فى عبـادة الأسـلاف، الذيـن ينظـر إليهم بإحترام وخشـوع نظـرا لإنحدار افـراد القبيلة مـن صلبـة. أو قـد يكـون هـذا «التوتم» تجسـيداً لحيـوان أو نبات هـو مصدر خير وعيـش للقبيلة، ومـن الـضرورى تبجيلـة وتوقـيرة بطقـوس محـددة، حفاظـا على خـير وحيـاة الجماعة. وقـد يكون التوتـم ضـار بالنسـبة للجماعـة كوحش مفترس أو ثعبان سـام قد يضر بحيوانـات الجماعة وأفرادها، ومـن ثـم فـإن ممارسـة طقوس التوقـير والتبجيل فى هذه الحالـة تكون إتقاء لـشره (٣١). ونحن إذا تأملنـا الأمـر فسـوف نجـد أن التوتـم بذاتـه ليـس هامـا، غـير أن أهميتـه تنبع مـن كونه رمـز لروح الجماعـة وإسـتمرارها، والمعـبر عـن شـخصيتها وهويتهـا، أو هـو رمـز يتصـل محوريـا ببنيتهـا. وهو مـا يعنـى أن المجتمـع المتجسـد فى التوتـم، يكون هـو الإله موضـوع العبادة، وذلـك لحاجة المجتمع

إلى أن يؤكـد ذاتـه بذاتـه، ويرسـخ شرعيتـه وقيمـة برمـوزه وطقوسـه، وبحسـب هذه الرؤيـة يكون «اللـه» هـو صـورة للمجتمـع وليـس المجتمـع صـورة «اللـه» (٣٢). على هـذا النحو يلعـب التوتم كرمـز، إضافـة إلى الشـعائر والطقـوس المرتبطـة بـه، دوراً محوريـا فى تأكيـد التماسـك الإجتماعى.

ويذهـب بعـض الباحثـين إلى أن الأسـاطير والحضـارات القديمـة تشـكل مصـدر أسـاسي مـن مصـادر الرمزيـة الدينيـة، يوضـح ذلـك فـراس السـواح، مـن خـلال تأكيـده «أنـه لمـا كانـت السـماء أسـمى مـا فى الكـون واكـثر تعبـيراً عـن عظمـة «اللـه» الصانـع لهـا، فقـد صـارت مسـكنا لـه ورمـزاً. ومنهـا إسـتمد أسـمه فى معظـم أسـاطير الشـعوب... غـير أن قيـام الإلـه الأكبر بسـكنى السـماء بعد إنتهائـه مـن فعـل الخلـق، قـد جعلـه بعيداً جـداً عما يجـرى فى الأرض. وأخـذ تدريجيـا فى الإختفاء مـن الطقـوس والعبـادات مفسـحاً المجـال لآلهـه أصغـر وأقـل شـأنا فى الأصـل، ولكنهـا اكـثر التصاقا بالنـاس وحياتهـم وأمـور معاشـهم». وهـذا مـا حـدث للعبرانيـين فـما أن تـم «إسـتقرارهم فى أرض كنعـان الخصبـة وتخليهـم عـن الحيـاة الرعويـة القديمـة، تركوا «يهـوه» وإتجهـوا إلى آلهـة الخصب الكنعانيـة فعبـدوا «البعليـم» و «العشـتاروت» كـما حدثنـا العهـد القديـم... ونجدهـم لا يتذكرون إلاههـم الكبـير إلا إبـان المحـن العظيمـة والكـوارث الفاجعة التى تحـل بهم، فنقرأ فى سـفر صمويل الأول ١٠:١٢ ... «فصرخـوا إلى الـرب وقالـوا أخطأنـا لأننـا تركنـا الـرب وعبدنـا البعليم والعشـتاروت، فـالأن أنقذنـا مـن يد أعدائنـا فنعبـدك» (٣٣).

ويؤمـن العلويـون بـأن أسـم «الخـضر» هـو الأسـم المقـدس الأكـبر، وأن الأنبيـاء جميعـا هـم فيـض منـه، فيكرمونـه أكـثر مـن أى ولى آخـر. وأن القديسـين البعليـون الثلاثـة يرمـزون إلى الإسـتمرار فى العيـش إمـا عـبر حيـاة لا متناهيـة «الياس الحى والخـضر» أو عـبر دورة الحياة والموت «جرجـس». وإنـه فى أيـام الجفـاف تكـثر الزيـارات لمقامـات الأوليـاء، وفى الحكايـات الشـعبية كـما فى «ألـف ليلـة وليلـة» و «حمـزة البهلـوان» و «سـيف بـن زى يـزن» تقـدم أوصـاف شـعرية، للولى الـذى «يسـاوى الفصـول، ويكلـل الأشـجار بالخـضرة، ويفـك عقـال الإنهـار وبنـشر بسـاط العشـب

عـلى التـلال، ويعلـق عباءته الخضراء فى المسـاء ليلون السـماء بعد غياب الشـمس. وأن الفلاحون فى فلسـطين يسـتنزلون المطـر بالصلاة (٣٤) كما تسـتنزل القبائـل البدائية المطر برقصة المطر، ويسـعى المسـلمون إلى «اللـه» بصلاة الإستقسـاء يدعون «الله» رجاءً أن ينزل المطر ليرتـوى الحيوان والنبات.

ويعتـبر السـياق الإجتماعـى احـد مصادر الرمزيـة الدينية حيث تتباين السـياقات من حيث قدرتها على إنتاج الرمزية الدينية. فى هذا الإطار فإننا نجد أن هناك ثلاثة شروط لكى يتحول السياق الإجتماعـى إلى سـياق منتـج للرمزيـة الدينيـة. حيـث يتمثـل الـشرط الأول فى أنه كلما كان السـياق الإجتماعـى أقـرب إلى الثقافـة التقليديـة، وهى الثقافة التـى يتضافر فى إطارها إنخفاض المسـتويات التعليميـة، مـع إنتشـار حالـة من اللاعقلانيـة فإننا نجد أن هذا السـياق يكون أكثر قـدرة على أنتاج الرمزيـة الدينيـة مقارنة بالسـياقات التى تخلت عـن الثقافة التقليدية وتبنت قيـم الثقافة الحديثة. ويتمثـل الـشرط الثـانى فى قـدرة أعضـاء المجتمـع عـلى التجريـد، حيـث نجـد أن بعـض السـياقات الإجتماعيـة تكـون قـدرة أعضائهـا عـلى التجريـد أقـل. ومـن ثـم فهـى لا تميـل إلى الرمزيـة المجردة، وتسـتبدلها عـادة بالرمزيـة الماديـة القريبـة مـن الواقـع إلى حد كبـير. فالحضرى المتعلـم، قادر على إدراك اللـه المتعـالى والمجـرد، ولذلـك يضعـف فى إطاره وجود الأوليـاء كرموز مادية متجسـده. على عكـس الريـف الـذى يميـل إلى إنتـاج الأوليـاء، لأن الإدراك المجـرد «للـه» يصبح صعبا أحيانا بسـبب ثقافتـه التقليديـة، ومـن ثـم مـن الـضرورى اللجـوء إلى وسـائل رمزيـة تسـاعد فى الوصـول إلى الرمز الأكـبر. ويتصـل الـشرط الثالـث بأن إبـداع الرمزية الدينية يتحقـق دائما فى أوقات الأزمـة. وفى هذا الإطـار تختلـف السـياقات الإجتماعيـة عـن بعضهـا البعض مـن حيث مواجهتهـا لحالـة الأزمة. وفى نطاق ذلك يبدع الفلاحون وسـكان الأحياء الشـعبية الأولياء، حتى يلجأون إليها فى سـياق إجتماعى متـأزم دائمـاً، بسـبب الفقـر وإنخفـاض مسـتويات المعيشـة وتـردى الأوضـاع الإقتصاديـة والعزلـة. يضـاف إلى ذلـك أن زيـارة الأوليـاء كرمـوز دينيـة، تتزايـد حينـما يواجـه البـشر أزمـات فى حياتهـم اليوميـة. يؤكـد ذلـك أننـا إذا قرأنا دراسـة سـيد عويس حول الرسـائل المرسـلة إلى الإمام الشـافعى،

فسوف نجدها رسائل تطلب عونه فى مواجهة أزمات يومية، يعانى منها البسطاء كسرقة ماشية، أو إعتداء ظالم، أو عدم تقدم عريس لفتاة على وشك أن تدركها حالة العنوسة.

تأكيداً لذلك يشير أحد الباحثين إلى الرمزية الدينية، كما تتمثل فى إنتشار الأولياء فى الريف التونسى، حيث يشير إلى تضخم عدد الأولياء الذين يخشاهم الناس، ويستمدون منهم البركة. حيث يقول «فإمتلآت قرى الجنوب بقبابهم وأضرحتهم وزواياهم، فلا تكاد تدخل قرية حتى تظهر قباب أضرحتهم، صغيرة وكبيرة، إلى جانب علامات تتمثل فى دوائر وفى زوايا وأركان، تجمعت فيها قناديل عتيقة. وكأنها ترشد إلى أماكن تيمنت بحلول أولياء صالحين وصالحات ودراويش ومتدينين ومجاذيب، كان لهم وجود فى يوم من الأيام، وبقيت مزاراً للسذج من السكان .. ولكل قرية أو قبيلة جد صالح يزار ويمنح البركة للزوار(٣٥)... إرتباطا بذلك يتناقل الناس عشرات القصص عن كرامات الأولياء، منها من ضاع جملة فنادى على الولى ونذر له نذراً فوجده فى الحال، ومن ظلمه ظالم فنادى جده الولى فإنتقم له من ظالمه، ومنهم من ضل طريقة فأستنجد بأحد الأولياء فحضر الوالى فى صورة رجل عادى ودله على الطريق ثم إختفى.. ويا يويل من يشك فى كرامات الأولياء ... فيتهم بالكفر أو الالحاد فى الدين ... وإذا حاولت أن تقنعهم بأنه لا تأثير إلا «لله»... أجابوك بأن الولى مقبول عند «الله»، وأن «الله» يغضب لغضبه، ولا يرد له طلبا طلبه، وأنه لا حجاب بينه وبين ربه، وأن الدعاء فى ضريحة مستجاب» (٣٦).

ومن الطبيعى أن تلعب رمزية الأولياء دوراً بارزاً فى الحفاظ على تماسك المجتمعات المحلية الريفية، التى يكون فيها دور الضبط الرسمى محدوداً. ويكون «الله» أكثر تجريداً وبعيداً عن إدراك هؤلاء البسطاء، ومن ثم يلعب الأولياء دورهم فى دفع المظالم وحل المشكلات، بما يفرغ بناء المجتمع الصغير من آية توترات. يضاف إلى ذلك إستعادة أعضاء المجتمع الذين لديهم بعض المطالب لتوازنهم وتماسكهم بعد أن سمعها الولى الصالح منهم، وأن صمته يعنى حل هذه المشكلات إنشاء الله. إذا فوجود الأولياء فى القرى الصغيرة ليتولوا حل

هذه الأزمات، سواء على المستوى الفردى أو مستوى الجماعة، وبعد سماع المطالب او الشكاوى، من شأنه أن يعيد الفرد والمجتمع متماسكا كما كان.

إبداع الرمزية الدينية قد يكون مصدره الدين الرسمى والقائمين عليه كذلك فى الإسلام، مثال على ذلك أن الصلاة كرمز إدركها سيدنا عمر بن الخطاب وصحابى آخر فى الحلم، ثم أقرها النبى صلى الله عليه وسلم. وفى المسيحية نجد الرموز التى نراها وندركها تشير إلى حقائق غيبية وغير واقعية. وهو ما يعنى أننا بإدراكنا للرمز، فإن ذلك يعنى بث الحيوية فى القوى الغيبية المرموز لها، لتشغل مكانة بارزة فى خيالنا، وتعمل بذلك على تأكيد إعتقادنا فيها. وإذا كان «الله» والملائكة بعيدين عنا ولا نراهم، حتى أننا لا ننطق بأسمائهم تبجيلا لهم، غير أننا يمكن أن نجسد إيقونة ترمز إليهم ونضئ الشموع لهم، وفى العادة نجد أن هناك علاقة بين الرمز والشئ أو الموضوع الذى يرمز له. على هذا النحو نجد الخنزير رمز لطقوس الخصوبة، والجمل رمز للحج والحصول على البركة، والثعبان رمز للخطورة مثل روح الموتى. وتلعب رمزية القداس Holy Mass والعشاء الربانى Holy Communion بالنسبة للمسيحيين دوراً إعتقاديا وإيمانيا هاما. ففى القربان المقدس نجد أن السيد المسيح عليه السلام حاضر وراء التعامل الإحتفالى مع الخبز والنبيد، وفى هذا الإطار نجد أن المواد المنزلية ملائمة لهذه المناسبة الدينية. إذ يرمز الخبز إلى لحم السيد المسيح، كما يرمز النبيذ إلى دمه، ولما كان الخبز والنبيذ مواد للتغذية البدنية، فإن هذا القربان المقدس ينجز من أجل التغذية الروحية بالنسبة لمن يحضرون العشاء الربانى. وفى الأساس يكون الخبز غير مختمر لكونه يرمز إلى جسد السيد المسيح الطاهر والمنزه من أى أذى. وأثناء العشاء الربانى يخلط النبيذ بالماء فى العاده، حتى يرمز لحقيقة تدفق الدم والماء من جسد السيد المسيح أثناء صلبه على الصليب، وذلك حتى يختلط دم السيد المسيح بماء البشر أثناء العشاء الربانى. ولما كان القمح يطحن والنبيذ يعصر بعد أن يقاوم كل تقلبات الجو، فإن ذلك يرمز إلى معاناه السيد المسيح من أجل البشر. ولما كان الخبز يصنع من حبوب كثيرة كما يصنع النبيذ من حبات عناقيد العنب الكثيرة، فإن

جسد السيد المسيح بنفس المنطق متشكل من كثير من البشر هم شعب الكنيسة. وبنفس المعنى فإننا إذا كنا نجد أن المعبد أو الكنيسة أو المسجد يشبه أى بناء آخر، فإنه يختلف عن أى بناء آخر، لأنه لا يقتصر على أنه له أغراض نفعية فقط. وإنما هو «رمز» بالأساس، فهو فضاء فاضل، أو بالأصح نطاق تنجز فى إطاره أنشطة وقيم ثقافية ودينية نمطية ومتطهرة، لذلك تصبح الجوانب الرمزية لدور العبادة أكثر بروزاً ووضوحا مقارنة بآية بناية أخرى(٣٧).

خامساً: حقائق حول الرمزية الدينية

ويشير تأمل الدور الذى تلعبه الرمزية بالنسبة لحضور وإستدعاء العواطف والمشاعر الدينية، ومن ثم إستدعاء فاعلية الدين فى حياة البشر، أو الدور الذى يلعبه الدين فى تأكيد التماسك الإجتماعى، إلى بروز مجموعة من الحقائق الأساسية. وتتمثل الحقيقة الأولى فى أن الرمزية الدينية تشكل بطبيعتها بنية متماسكة تنعكس على تماسك المجتمع، يتضح ذلك إننا إذا تأملنا الرموز الدينية فسوف نجدها تنقسم إلى ثلاثة طبقات أو مراتب. فى الطبقة أو المرتبة الأولى توجد الرموز الدينية العليا أو الحاكمة، وهى التى تحدد هوية الدين وطبيعته. فى نطاق هذه المرتبة نجد رموز «كالله» و «الملائكة» , «الجنة» و «النار» و»السماء» و»العرش» و»الحساب» و»الخير» و»الشر»، و»الأنبياء والرسل»، حيث ترتبط هذه الرمزية عادة بالسماء، و«الله» هو الذى يحدد طبيعتها ومعانيها وأدوارها. وتحت هذه المرتبة أو الطبقة توجد رمزية ثانية، أو لنقل هى رمزية وسطى، وهى محدودة فى نطاقها من الرمزية الأولى ذات الطبيعة العامة، أو الشاملة. يدخل فى نطاق هذه الرمزية كل الرمزيات المذهبية والطائفية، كالنبى صلى الله عليه وسلم، وسيدنا على وسيدنا الحسين رضى الله عنهما، والإمام الغائب، ومكة والمدينة وكربلاء وعاشوراء والنجف وقم. فهى رموز بشرية ومكانية يحتفى بها المذهب الشيعى، وتستنفر عواطف وسلوكيات عديدة تجاه موضوعات الرموز. فى مقابل ذلك توجد رموز سنية كالنبى صلى الله عليه وسلم والصحابة المبشرين بالجنة وصلاح الدين الأيوبى والأئمة العظام، ورحلة البراق ومكة والمسجد الأقصى والمسجد النبوى، كرموز بشرية ومكانية. وفى المرتبة والطبقة الثالثة

يوجـد الأوليـاء ذوى الكرامـات، المنتشريـن فى الريـف والأحيـاء الشـعبية للمـدن، حيـث يتـبرك بهم الفقـراء تقربـا إلى «اللـه»، ووسـيلة لتحقيـق المطالـب منـه. ومـن الطبيعـى أن تكـون رمـوز المرتبة الأعـلى هـى التـى تلقـى إعترافـا عاما، مقارنـة بالإعتراف الأقـل الذى قد تنالـه رموز المسـتوى الأدنى. ويرتبـط بذلـك أن هـذه الرمزيـة متماسـكة فى مسـتوياتها الثلاث، وهـى فى مجموعها تعمـل بإتجاه تأكيـد تماسـك المجتمـع، لأن كل سـياقاته وأعضائـه سـوف يجـدون الرمزيـة المناسـبة التـى تسـتنفر عواطفهـم ومن ثـم ممارسـاتهم وطقوسـهم نحوها.

وتشـير الحقيقـة الثانيـة إلى تنوع الرمزيـة الدينية، إلى رمزية ذات طبيعـة معنوية متجددة، فى مقابـل رمـوز ذات طبيعـة ماديـة. ونقصـد بالرمـوز المعنويـة تلـك التـى تشـير إلى موضوعـات لا نراهـا «كاللـه» والملائكـة والشـياطين والجنـة والنـار، والشـهادة والإيمـان والتضحيـة والخـير والـشر. بينـما تشـير الرمـوز الماديـة إلى الكعبـة والمسـجد والكنيسـة والأماكـن المقدسـة، وغـير ذلـك مـن الموضوعـات المتجسـدة ماديـا. فى هـذا الإطـار فإننا نجـد أن السـياقات الأكثر حداثـة والأكثر تعليما وعقلانيـة تميـل إلى التعامـل مع الرمزيـة المعنوية، أو على الأقـل إدراك الموضوعات التـى ترمز إليها، وإدراك الممارسـات والطقـوس الواجبـة نحوهـا. بينـما الرمزيـة الماديـة تسـود عـادة فى المجتمعـات البدائيـة والتقليديـة، كأنتشـار الرمـوز «التوتميـة» مثـلاً، أو أنتشـار زوايـا وقباب وأضرحـة الأولياء فى الريـف والأحيـاء الشـعبية. حيـث تترسـخ الثقافـة التقليديـة، وتـتردى الأوضـاع المعيشـية، وتغيـب العقلانيـة، ومـن ثـم تتـآكل القـدرة عـلى التجريـد او إدراك المعانى.

وتشـير الحقيقـة الثالثـة إلى تحـول أو حـراك الرمزيـة الدينيـة، حيث يتجلى ذلـك من خلال تحـول الرمـوز مـن الإشـارة إلى موضوعـات بعينهـا، إلى الإشـارة إلى موضوعـات أخـرى. فالكعبـة كانـت رمـزاً دينـا فى مرحلـة الجاهليـة توجـد بداخلهـا الأصنـام التـى كان تعبدهـا قبائـل العـرب، إذا بهـا تتحـول رمـزا للإسـلام يحـج المسـلمون إليهـا كل عـام أو يعتمـروا. والأزهـر الشريـف الـذى كان رمـزاً شـيعيا أبـان مرحلـة الخلافـة الفاطميـة، أصبـح رمـز سـنيا منـذ فتـح صـلاح الديـن الأيـوبى لمـصر. «والخـروف» الـذى كان رمـزاً للتضحيـة فـداء لسـيدنا إسـماعليل أصبـح رمـزا

للذبح والتضحية فى عيد الضحى. وعاشوراء التى تشير إلى مناسبة شيعية حزينة لمقتل سيدنا الحسين رضى الله عنه، إذا بها تتحول فى بعض المجتمعات إلى مناسبة يسعد فيها الأطفال لأنهم يتناولوا بمناسبتها الحلوى. وبرغم تحول الرموز وحراكيتها إلا أن ذلك يحدث ببطئ وبصورة نادرة، لأن موضوعات الرمز تتصل بقيم وعواطف إيمانية غير قابلة بسهولة للتبديل والتعديل.

وتؤكد الحقيقة الرابعة على الدور الذى تلعبه الرموز فى إحياء العواطف وإعادة شحنها وتعميقها، إحياءً لذكرى موضوعات هذه الرموز، بحيث يؤدى الإحتفال بالرمز وتطوير الطقوس لتبجيله وتوقيره إلى إختزال الزمان والمكان. فالحج إلى الكعبة المشرفة كرمز يعيد إحياء ذكريات إسلامية كثيرة فى نفس المؤمن، برغم بعد الشقة التاريخية بين الرمز والإنسان الذى يبجل هذا الرمز. والإحتفالات السنية بالمولد النبى تعيد أحياء ما يتعلق به كرمز يعمق الإيمان بين المسلمين. وفى إحتفالات العزاء فى عاشوراء بكربلاء، يحيى إتباع المذهب الشيعى السيرة العطرة لسيدنا الحسين رضى الله عنه، كما يعملون على احياء جهاد الحسين وإستشهاده فى سبيل المثل، كأنما إستشهاده كان بالأمس، وهو الأمر الذي يثير فى المحتفلين العواطف التى تفرض جهاد الظلم والخروج على السلطان. بحيث تنعكس هذه الإحتفالات الرمزية إيجابيا على التماسك الإجتماعى بين أبناء المذهب الشيعى، فتؤكد تمسكهم بالقيم والمعانى التى إستشهد من أجلها الأمام الحسين رضى الله عنه.

وتذهب الحقيقة الخامسة إلى أن الرمزية الدينية تزدهر فى سياقات الأزمة وأوقات الأزمة، وتنسق الرمزية فى ذلك مع التدين والسلوك الدينى عموما. فكما أن عواطف الدين وممارساته تزدهر عادة فى أوقات الأزمات، فإن الرموز تدور فى هذا الفلك، حيث تقوى الرمزية أثناء الأزمات، لأن الإنسان يكون عادة ضعيفاً فى مواجهتها. ومن ثم نجده يلجأ مباشرة إلى إستدعاء القوى الدينية، لتقف إلى جانبة فى هذه الأوقات، تأكيداً لذلك الوعد والوفاء بالنذور إذا إستطاع الإنسان، لمساعده القوى التى تشير إليها الرموز له فى تحقيق إنجازات معينة، كان يزور الكعبة المشرفة حاجاً أو معتمراً أو يقدم مالا أو هدايا عينية للأولياء.

يضـاف إلى ذلـك فإننـا نجـد أن الرموز الدينية لها علاقة بالسـياق الطبقى كسـياق إجتماعى. تأكيدا لذلـك أننـا إذا نظرنـا إلى الرمزيـة الدينيـة مـن منظـور طبقـى، فإننـا سـوف نجـد أن الطبقـة العليـا لا تنتـج الرمـوز، ولا تعـول كثـيرا عـلى الإرتبـاط بهـا، لأنهـا تعيـش حيـاة مسـترخية بعيدة عـن حياة الأزمـة. عـلى خـلاف ذلـك نجد أن الفقراء الذين يعيشـون فى حالـة أزمة دائمة وشـاملة، هم منتجوا الرمـوز، وهـم الأكـثر إرتباطـا بهـا. إرتباطـا بذلك فإننا نجـد الفقراء بسـبب ظروف التعاسـة والظلم التـى يعيشـون فى إطارهـا، أقـرب مـا يكونـوا إلى تبنـى الرمـوز الشـيعية، لأنهـا الرمـوز التـى تجسـد معـانى التضحيـة والإستشـهاد ورفض الظلـم والمعاناة.

بالإضافـة إلى ذلـك تذهـب الحقيقـة السادسـة إلى ظهـور ما يمكن أن يسـمى بـصراع الرموز الدينيـة. ففـى المجتمعـات التـى تشـهد التعدديـة الدينيـة أو المذهبيـة أو الطائفيـة. فـإن الفترات التـى تصبـح فيهـا العلاقـة فيهـا بـين أبنـاء المذاهـب أو الطوائـف الدينيـة المختلفـة ذات طبيعـة سـلبية، فـإن ذلـك قـد يـؤدى بطبيعـة الحـال إلى ظهـور مـا يمكـن أن يسـمى بظاهـرة صراع الرموز. حيـث تعمـل كل جماعـة دينيـة أو مذهبية أو طائفية، بإتجـاه إحياء الرموز الخاصة بها، ومن شـأن ذلـك أن يدفـع الجماعـات المتباينـة دينيـا، إلى سـلوكيات صراعية بـين الجماعات المتصارعـة وبعضها البعـض، تسـتخدم فيهـا الرمـوز المتباينـة أو المتضـادة. مثـال عـلى ذلـك أن المجتمعات التى تشـهد إحتقـان العلاقـة بـين الجماعـات الدينيـة، فإننـا نجـد أن كل جماعة تتجـه إلى تكثيف إبـراز رموزها، الأمـر الـذى يدفـع الجماعـة المقابلـة إلى القيام بذات السـلوك. وهـو ما يـؤدى فى النهاية إلى تفجير الـصراع، إذا قامـت إحـدى الجماعـات بـالإضرار برمـوز جماعـة اخـرى، الأمـر الـذى يـؤدى فى نهايـة الأمـر إلى تفجـر الـصراع بـين هذه الجماعـات، وتهديد التماسـك الاجتماعى للمجتمـع فى كليته. وفى هـذه الحـال يمكـن تجـاوز حالـة الـصراع أو التغلـب عليهـا، إذا دفـع عقـلاء الأمـة الجماعـات ذات الرمزيـات المحـددة بحدودهـا، إلى أعـلى، بإتجـاه التعلـق برمزيـة من مسـتوى أعلى تلقـى الإعتراف العـام، والمشـترك مـن قبل مختلـف الجماعـات المتصارعة.

يضـــاف إلى ذلـــك الحقيقـــة الســـابعة التـــى تذهـــب إلى أننـــا إذا تأملنـــا توزيـــع

مخـزون الرمزيـة الدينيـة عـلى سـياقات المجتمـع فسـوف نجـد أن هـذا التوزيـع متبايـن إسـتنادا إلى بعـد التقليديـة الحداثـة. فى هـذا الإطـار فإنـه مـن الناحيـة البنائيـة فسـوف نجـد أن لدينـا الطبقـات العليـا التـى تسـود لديهـا الثقافـة الحديثـة فى مقابـل الطبقـات الدنيـا التـى تسـود لديهـا ثقافـة تقليديـة. إلى جانـب ذلـك فإنـه مـن الناحيـة الحضريـة - الريفيـة، فسـوف نجـد أن الحـضر تسـوده الثقافـة الحديثـة فى مقابـل الريـف التـى تسـوده الثقافـة التقليديـة. إسـتناداً إلى ذلـك فسـوف نجـد أن سـياق الطبقـة العليـا يناظـر السـياقات الحضريـة التـى تنتـشر فيهـما الثقافـة الحديثـة وتتضـاءل فيهـا الرمزيـة الدينيـة لتقتـصر عـلى الرمزيـة الأساسـية للديـن، أو بالأصـح الرمزيـة العليـا، وهـى الرمزيـة التـى تتصـل بجوهـر الديـن بالأسـاس. عـلى خـلاف ذلـك نجـد الطبقـات الدنيـا تناظـر الريـف حيـث تسـودها الثقافـة التقليديـة عـادة، وهـى الثقافـة المنتجـة لرمزيـة الصالحـين والأوليـاء والقديسـين، حيـث توجـد فى هـذه السـياقات المسـتويات الثـلاث التـى أشرنـا إليهـا للرمزيـة الدينيـة. وبـين مسـتوى الطبقـة العليـا والحـضر مـن ناحيـة والريـف والطبقـة الدنيـا مـن ناحيـة ثانيـة، توجـد الطبقـة الوسـطى والسـياق الاجتماعـى نصـف الحـضرى. الـذى يضـم المـدن الصغـيرة المتاخمـة للريـف، حيـث يسـود هـذه السـياقات الاجتماعيـة الوسـيطة، ثقافـة نصـف تقليديـة ونصـف حديثـة، أي ثقافـة إنتقاليـة. وفى هـذا الإطـار تطـور هـذه السـياقات والثقافـات مسـتوى متوسـط مـن كثافـة الرمزيـة، لا هـو بالأعلى ولا هـو بـالأدنى. إرتباطـا بذلـك نؤكـد عـلى ثـلاث حقائـق. حيـث تتمثـل الحقيقـة الأولى في أنـه كلـما هبطنـا مـن أعـلى إلى أسـفل، أى مـن السـياقات الأكـثر حداثـة فى ثقافتهـا إلى السـياقات التقليديـة، فـإن الرمزيـة تـزداد كثافـة. والثانيـة أن هنـاك علاقـة بـين كثافـة الصعوبـات والأزمـات فى نوعيـة الحيـاة فى سـياق إجتماعـى معـين، وبـين إرتفـاع مسـتوى كثافـة الرمزيـة فى هـذا السـياق. إلى جانـب الحقيقـة الثالثـة التـى تؤكـد أنـه كلـما زادت كثافـة الرمزيـة فى السـياق، كلـما كان السـياق أكـثر تماسـكا، وكلـما سـيطرت الصيغـة الجماعيـة عـلى الحيـاة فيـه.

إسـتنادا إلى مـا سـبق تلعـب الرمزيـة دوراً محوريـا فى تحقيـق التماسـك والتكامـل الإجتماعـى. إرتباطـا بذلـك يـرى «هـارى جونسـون» أن الموضوعـات

المقدسـة تصبـح كذلـك بسـبب قيمتهـا الرمزيـة، وليـس بسـبب طبيعتهـا أو خصائصهـا الجوهريـة، لأنهـا برمزيتهـا تيـسر العباده وتقـوى الإيمان. قد تعنـى الصياغات الكلامية للعقيـدة معانى مختلفة بالنسـبة لمختلـف البـشر، غـير أن الرمـوز التى تشـير إلى موضوعات مقدسـة تطـور ذات المعانى عند الجميـع. وفى حـين أننـا نجد أن الإشـتراك فى المعتقدات ليسـت طريقا قويا لتحقيـق وحدة الجماعة او المجتمـع، فإننـا نجـد أن آداء طقوس أو ممارسـات معينة تجاه رموز الموضوعات المقدسـة، تكون أقـدر عـلى تحقيـق وتعميق وحدة الجماعة (٣٨). ذلك أن المشـاركة الجمعيـة فى الطقوس المتعلقة برمـوز معينـة مـن شـأنها أن تؤسـس شـبكة مـن الروابـط التـى تضـم أعضـاء الجماعـة إلى بعضهـم البعـض، وهـو الـدور الـذى تقوم بـه الرمزية الدينيـة فى تحقيق التماسـك الاجتماعى.

المراجـــــــــع

1. Turner, B. S: "Chass Solidarity and Sytem Integration, Sociological anlysis, Vol, 38,Pp. 342-358.

2. Durkheim, E: The Elementary forms of Religious Life, New York, 1961, P. 73.

3. B. Turner, Op, Cit, o, 347.

4. E. Durkheim, Op, Cit, p,83.

5. Parsons, T: The Social System, New York, Glencoe, 1921, P. 46.

6. Ibid, p. 92.

7. Bellah, R. N: Beyond Belief In a Post-Traditional World, New York, Evanston and London, 1970, P. 132.

8.T. Parsons, Op, Cit, P.57.

٩. علي ليلة، العولمة والأن القومي العربي، الأبعاد الثقافية والإجتماعية، إختراق الثقافة وتهديد الهـــوية الكتاب الأول ، مكتبة الأنجلو المصرية، ٢٠١١، ص ٣٢.

١٠. حليم بركات، المجتمع العربى فى القرن العشرين، بحث فى تغير الأحوال والعلاقات، مركز دراسات الوحدة العربية، الطبعة الأولى، ٢٠٠٠، ص ٤٢٩.

١١. أنتونى جدنز، علم الإجتماع، ترجمة فايز الصياغ، المنظمة العربية للترجمة، مؤسسة ترجمان، الطبعة الرابعة ٢٠٠٥، ص ٥٦٩.

12. B. Turner, Op, Cit, p. xi.

13. Johnson, H. M, Sociology, A Systematic Introduction, Routledge & Kegan Paul, London 1964, P. 392.

14. H.M. Johnson, Ibid, p, 396.

15. Bilton, Tony & Others: Introductory Sociology, Macmillam, 1981,p. 514.

١٦. عـلى ليلـة، النظريـة الإجتماعيـة الحديثة، الإنسـاق الكلاسـيكية، المكتبـة المصرية للطبع والنـشر والتوزيـع، الطبعة الرابعـة ٢٠٠٥، ص ٢٦١.

17. Abercrombie, N & Others: The Penguin Dictionary of Sociology, Third Edition, Benguin Books, 1994, P 423.

١٨. أنتونى جدنز، مرجع سابق، ص ٥٧٢.

١٩. عبـد الرحمـن بـن خلـدون، مقدمـة بـن خلـدون، تحقيـق حامـد احمـد الطاهـر، دار الفجـر للـتراث، ٢٠٠٤، ص ٦٥.

٢٠. عـلى ليلـة، النظريـة الإجتماعية من منظور إسـلامى، مركز الدراسـات المعرفية بالقاهرة، ٢٠٠٤ بحـث مقـدم لنـدوة (علم الإجتماع من منظور إسـلامى، ص ٣٢.

21. Toniy Bilton, Op, Cit, p. 525

٢٢. على ليلة، النظرية الإجتماعية الحديثة، مرجع سابق، ص ٢٧٣.

23. E. Durkheim, Op, Cit, P. 84.

24. H. E. Johnson, Op, Cit, Pp. 404-405.

25. Ibid, P. 403.

26. Nicholos Abercrombie, Op, Cit, P. 421.

27. B. Turner, Op, Cit, P. 327.

٢٨. حليم بركات، مرجع سابق، ص ٤٢٦.

٢٩. نفس المرجع، ص ٤٢٨.

30. E. Durkheim, Op, Cit, p. 581.

٣١. أنتونى جدنز، مرجع سابق، ص ٥٨١.

٣٢. حليم بركات، مرجع سابق، ص ٤٥٢.

٣٣. نفس المرجع، ص ٤٥٣.

٣٤. نفس المرجع، ص ٤٥٤.

٣٥. نفس المرجع، ص ٤٥٤.

36. H. E. Johnson, Op, Cit, p. 10.

37. Ibid, p. 10.

38. Ibid, p, 408.

الفصل الثالث

دور الدين فى تشكيل رؤية الإنسان للعالم

«إستمرار»

الفصل الثالث

دور الدين فى تشكيل رؤية الإنسان للعالم

«إستمرار»

تمهيد

عرضت فى الفصل السابق لبعض الحقائق التى تتصل بالدين بإعتباره أحد متغيرات التماسك الاجتماعى، وفى هذا الإطار أبرزت بعض الحقائق الأساسية المتعلقة ببناء وعلاقته بالمجتمع. إضافة إلى إبراز مكانة ودور الرمزية فى بناء الدين عموما، وكيف تشكل هذه الرمزية حلقة بين المعانى الدينية من ناحية، وبين التفاعل الاجتمعى الحادث فى المجتمع من ناحية ثانية. ونستكمل فى هذا الفصل إبراز دور الدين فى علاقته بتكامل وتماسك المجتمع، وكذلك فى علاقته بتماسك وتكامل الشخصية الإنسانية، أو تشكيل رؤية الإنسان للعالم. وهو ما يعنى أنه إذا كان الدين يتشكل من مجموعة من المعانى المتكاملة، فإن تكامل هذه المعانى ينعكس على هيئة تأكيد تكامل المجتمع، وكذلك تكامل بناء الشخصية، إضافة إلى التكامل بين هذه الطبقات الثلاث، بما يؤدى إلى تأكيد التماسك والاستقرار الاجتماعى فى المجتمع.

وحتى يتحقق دور الدين فى تأكيد التماسك والاستقرار الاجتماعى للمجتمع، فإننا نجد أن الدين يؤدى هذا الدور من زوايا عديدة. فهو يعمل على تكامل مختلف النظم الاجتماعية مع بعضها البعض، من خلال كونه يشكل مرجعية لهذه النظم. إذ يؤكد الدين من ناحية على النظام القرابى لترسيخ تماسكه الداخلى، كما أنه ينظم بعض التفاعلات فى نطاق النظام الاقتصادى، إضافة إلى أنه يشكل مرجعية المعانى التى ينطلق بالنظر إليها التفاعل داخل مختلف النظم الاجتماعية أو فى علاقتها ببعضها البعض. بالإضافة إلى ذلك فإن الدين يمكن أن يلعب دورة فى تشكيل التفاعل داخل البناء الطبقى للمجتمع، إذ يأمر الدين الطبقات العليا والثرية، إلى الترفق بأبناء الطبقات الأدنى، بخاصة الطبقات الدنيا. حتى تتحمل عذاباتها فى الحياة الدنيا، بإعتبار أنها سوف تحصل على التعويض فى الحياة الآخره، يضاف إلى ذلك أن الدين هو الذى

يشكل فى الغالب أخلاق الطبقة الوسطى التى تعد الوعاء الأخلاقى للمجتمع.

بالإضافة إلى ذلك يلعب الدين دوراً محوريا فيما يتعلق بالأزمات التى يمر بها المجتمع، وإذا كان التباين الدينى يؤدى فى بعض الأحيان إلى صراع الأديان بما يسبب فى الغالب أزمات للمجتمع. إلا أننا إذا تأملنا الأمر، فسوف نجد أن الدين – إستنادا إلى مضامينه الأساسية – يعمل بإتجاه نشر عواطف التقارب والتسامح مع الآخر الدينى أو المذهبى. خاصة بين الأديان الكتابية المنزلة والموحى بها، بإعتبارها أبنية من القيم والمبادئ الايثارية التى تنشر التسامح فى المجتمع. وإرتباطا بذلك فإننا نجد أن الدين له حضوره الدائم فى فترات الأزمات الاجتماعية، حيث نجد أن المجتمع يستدعى الدين حينما يمر الدين بأزمة. تأكيدا لذلك أنه حينما تواجه القبيلة البدائية حالات الجفاف وغياب المياه، فإن المجتمع إبتدع رقصة المطر، حيث تعتقد القبيلة أن هذه الرقصات الطقوسية هى التى تعمل بإتجاه إستدعاء المطر، وشبيه بذلك فى الاسلام، كدين كتابى، حيث تمارس صلاة الاستسقاء فى فترات الجفاف كى يسقط المطر.

كما يلعب الدين دوراً أساسياً فى تحقيق تماسك بناء الشخصية الإنسانية، يتضح ذلك أنه حينما تواجه الشخصية ببعض الأزمات، فإن الدعاء يصبح وسيلتها لتجاوز هذه الأزمات. بل أننا نجد أن غالب الأديان الكتابية تطلب من البشر اللجوء إلى الله والدعاء له، حين مواجهة الأزمات، حتى ينتهى الكرب وتذهب الغمة. ومن الطبيعى أن يؤدى اللجوء إلى الله، فى إطار الدين، فى أوقات الأزمات، سواء على مستوى المجتمع أو الفرد، إلى محاولة إستعادة القوة التى يحافظ بها المجتمع والفرد على الاستقرار والتوازن الذى يساعده فى آداء وظائفه أخرى. تأكيدا لذلك إرتفاع وتيرة التدين – حتى ولو كان شكليا – حينما يواجه المجتمع الفرد أزمة، تهدد وجود وإستقرار المجتمع ، وفى أوقات الأزمات يزداد حضور الدين بين البشر، الذين تمتلئ دور العبادة بهم، حيث الالتزام بآداء الفرائض الدينية، وفى بعض الأحيان قد يتطور الأمر ليتم اللجوء إلى الأولياء بحثا عن الشفاعة عند الله، القوة الأقوى والمنظمة لهذا الكون.

يضاف إلى ذلك أن الدين يلعب دوراً اساسياً فى تشكيل رؤية الإنسان

للعالم الذى يعيش، هل هو عالم خير ينبغى أن نرسخ اسس الخير فيه، أم هو عالم شرير ينبغى أن نعمل بإتجاه تقليص مساحة الشر فى إطاره. بالإضافة إلى ذلك يحدد لنا الدين مكانة الإنسان فى هذا العالم، والمهمة التى من أجلها خلقه الله ووضعه فى هذا العالم. يضاف إلى ذلك الدور الذى يمكن أن يلعبه الإنسان فى نطاق المجتمع موجها بالدين، إلى جانب أن الدين يحدد طبيعة العلاقات مع الآخر فى المجتمع، سواء الأخر المختلف مذهبيا أو دينيا، حيث يأمرنا الدين دائما بضرورة التعامل بإيثارية مع الأخر، لأن الأديان جميعها فروع فى شجرة متنامية، نبتت من جذر واحد، وهى الحقائق التى نعرض لها فى الصفحات التالية.

أولاً: دور الدين فى تحقيق تكامل النظم الاجتماعية

إذا كانت الرمزية هى المستوى الأول الذى يؤدى الدين دوره من خلالها فى تأكيد التماسك الإجتماعى، بإعتبار أن الرموز، أى القيم والأفكار والمبادئ والعانى، هى الضابط للتفاعل الإجتماعى، سواء بين البشر وبعضهم البعض، أو بينهم وبين قوى ما وراء الطبيعة، التى يشكل «الله» مركزها. فإننا نعالج فى هذه الفقرة دور الدين فى تأكيد التماسك والتكامل الإجتماعى، لكونه يشكل مرجعية لآداء النظم الإجتماعية. بإعتبار أن الدين يشكل إطار المعانى التى توجه سلوكيات البشر فى إطار مختلف النظم الإجتماعية، وكذلك العمليات التى تشكل بناء هذه النظم. وهو ما يعنى أن الدين فى هذه الحالة يؤدى وظيفتين، الأولى توجيه التفاعل داخل النظم الإجتماعية المختلفة، والثانية أنه يشكل المعانى التى تربط هذه النظم ببعضها البعض، أى أنه يشغل مكانة ويؤدى دور القاعدة الخرسانية التى ترتفع فوقها هذه النظم.

وتعد العلاقة بين الدين والقرابة من أقدم العلاقات وأكثرها قوة وفاعلية. وتنشأ علاقة الدين بالقرابة والعائلة، بإعتبار أنهما يشكلان معاً آليات قوية لتحقيق التوازن والتماسك الإجتماعى. ولذلك أكدت الديانات الأولى على عبادة الآباء والأسلاف، بل أننا نجد أن صورة الأب ورمزيته فى نطاق العائلة هى تكرار أو مصغر «الله» إله الكون والمجتمع. ونحن إذا تأملنا الديانات البدائية

الأولى فسوف نجد أن عبادة الأسلاف هى العبادة التى إزدهرت فى البداية، وهى كما يؤكد دوركيم كانت تعبر من خلال رمزيتها عن عبادة الجماعة القرابية لذاتها، أو عبادة الإنسان للبشر العظام من أسلافة. وحتى فى المرحلة التوتمية عبدت بعض القبائل التواتم، سواء كانت تواتم ترمز لحيوان أو نبات، لإعتقاد أسطورى لدى أبناء القبيلة بأنها منحدرة من هذا الحيوان أو النبات (١). وفى بعض الأحيان، وفى نطاق هذه المرحلة البدائية، كان هناك تداخل بين توتم القبيلة وتواتم فرعية للأفخاذ والمعاشر. بحيث إنعكست شبكة العلاقات الدينية بين التواتم على العلاقات القرابية الواقعية وتوازنت معها، ومن ثم لعبت دوراً محوريا فى تحقيق حالة من التماسك الإجتماعى للمجتمع. وقد وقعت ظاهرة مماثلة فى الجزيرة العربية فى الفترة السابقة على الإسلام حيث كانت «الكعبة تحظى بعدد كبير من الأصنام يزيد على ٣٠٠ صنم. وكان توزيع هذه الأصنام منسجما مع التوزيع القبلى، مثال على ذلك أن قريش وكنانة كانتا تعبدان «هبل» وصنمه إنسان مصنوع من عقيق أحمر. والأوس والخزرج «مناه» التى اجمع العرب على تعظيمها، ويتكون صنمها الذى تعبده من حجر أسود، وبنو ثقيف وأهل مكة جميعهم كان يعبدون «اللات»، وبنوسليم «العزى» التى كان صنمها أعظم الأصنام عند قريش، وهو عبارة عن ثلاث شجرات» (٢).

وفى التطور الدينى اللاحق والأحدث لبعض الحضارات القديمة، برزت أيضا حالة التداخل بين الدين والقرابة، وحتى الطبيعة، بإعتبارها جميعا تكوينات طبيعية أو تتصل بالطبيعة. وتعد الديانة الكنفوشيوسية من هذا النمط، حيث تؤكد على أهمية تكيف الحياة البشرية الخارجية، وإنسجامها مع عالم الطبيعة الداخلى للإنسان، إضافة إلي التأكيد على إجلال الآباء والأقدمين (٣). بحيث يشير ذلك إلى تماسك المكونات التى تشكل أساس المجتمع، الذى ينتشر فيه التماسك بدوره، لأن عباده الأسلاف فى هذه الديانة تؤدى وظيفة توحيد العائلات الممتدة والبطون. وفى هذه الحالة فإننا نجد أن تماسك القبيلة يعتمد بدون شك على عبادة السلف كرمز يؤكد هذا التماسك بين الأفخاذ والعشائر. وبإستقراء تاريخ الشعب الصينى نجد أن المعتقدات الدينية تنسب لأرواح

الأسـلاف قوة، وبصورة أساسـية لسـلف الشـخص نفسـه. حيث تتولد لديه قناعة بضرورة أن يشـبع أرواح الأسـلاف، وأن يكتسـب رضاهـم بما يقدمه من طقـوس وأضحيـات(٤). وإلى جانب أن عبادة الأسـلاف تؤكـد عـلى تماسـك الجماعـات القرابيـة فى المـكان الواحـد، فإنهـا تسـاعد أيضـا فى تأسـيس الروابـط القويـة فى ذات المـكان الواحـد. مثـال عـلى ذلـك أننـا نجدهـا تسـاعد فى تأسـيس الروابط القويـة بـين أعضـاء العشـيرة فى القريـة، إضافـة إلى تقويـة الروابـط مـع الأعضـاء الذين هاجـروا إلى المـدن الصينيـة الأخـرى والبعيـدة. حيـث نجـد أن المهاجرين يسـتمرون فى الإعتماد على العشـيرة، لأن العشـيرة يمكـن أن تقـدم لهـم الأمـوال لتمويـل دراسـتهم، أو تدعمهـم ماليـا أثنـاء تدريبهـم عـلى حرفـة معينـة. إرتباطـا بذلـك يتأكـد الإهتـمام والثقـة المتبادلـة بينهـم، مـن ناحيـة بواسـطة الدعـم العاطفـى الـذى يتحقـق بواسـطة الطقوس الدينيـة، التى تجـرى على فـترات فى معبد عبادة الأسـلاف. ومـن ناحيـة ثانيـة بواسـطة الإتجاهـات والعواطـف التـى تنتـج عـن ذلـك، والتـى تقـوى الروابـط القرابيـة بواسـطة الدين (٥).

وإذا إنتقلنـا مـن الحضـارة الصينيـة القديمة إلى الحضارة الإسـلامية، فسـوف نجـد أن الدين فى علاقتـة بالقرابـة قـد لعـب نفـس الـدور. يتضـح ذلـك أننـا إذا تأملنـا أوضـاع الجزيـرة العربيـة قبـل الإسـلام فسـوف نجـد أن التـوازن القبـلى والعلاقـات والقيم العربيـة هى التـى أحتفظت بقدر مـن تماسـك البنيـات القبليـة. فى مواجهـة الإمبراطوريـات المحيطـة بهـا كالإمبراطوريـة الفارسـية والرومانيـة. غـير أنـه حينـما ظهـر الإسـلام فإننـا نجـده قـد إسـتبدل الـولاء القبـلى بالـولاء الدينـى، ودمـج القبائـل المتنازعـة فى أمـة موحـدة الرؤيـة والمصير. وفى ذات الوقـت أكـد عـلى الأهميـة القصـوى لـلأسرة كنـواة للمجتمـع وحـض عـلى طاعـة الأهـل وإكرامهـم، ولا غرابـة فالأفـراد يرثون دينهـم وينشـأون عـلى تعاليمـه فى العائلـة. فى مقابـل ذلك تكـون المحافظة على العائلة، والتمسـك بهـا وتقديسـها بحـد ذاتهـا، محافظـة عـلى الإنتـماء الدينـى ذاتـه (٦). تأكيـداً لذلـك أن ديـن اللـه فى وثائقـة الأساسـية يؤكـد دائمـاً عـلى القرابـة بإعتبارهـا تشـكل جوهـراً دينيـا، وهـو مـا ندركـه من قولـه تعـالى «إن اللـه يأمـر بالعـدل والإحسـان وإيتـائ ذى القـربى وينهـى عـن الفحشـاء والمنكـر

والبغـى يعظكـم لعلكـم تذكـرون. سـورة النحـل الأيـة ٩٠». وقولـه تعـالى «وإذ أخذنـا ميثـاق بنى إسرائيـل لا تعبـدون إلا اللـه وبالوالديـن إحسـانا وذى القـربى واليتامـى والمسـاكين وقولـوا للنـاس حسـنا وأقيمـوا الصـلاة وآتـوا الـزكاة ثـم توليتـم إلا قليـلاً منكـم وأنتم معرضون. سـورة البقـرة الآية ٨٣».

بالإضافـة إلى ذلـك فإننـا نجـد أن الديـن هـو الـذى ينظـم كثـيراً مـن الشـئون القرابيـة والزواجيـة، بحيـث نجـد أنـه إذا تبنـى أو إختـار الفـرد ديانـه جديـدة غـير التـى كان يديـن بهـا، فـإن ذلـك قـد يفـرض عليـه تغيـير شـكل الـزواج أو الأسرة التـى يعيـش فى إطارهـا. مثـال على ذلك أننـا نجـد المسـيحية فرضـت الـزواج بواحـدة حينما أديـن بهـا فى المجتمعـات التى كان ينتـشر فيها تعـدد الزوجـات. مثـال آخـر يشـير إلى أنـه حينـما إعتنقـت قبائـل «الكبابـش Kababish الأفريقية الإسـلام وحينـما إعتنـق الأكراد Kurd فى آسـيا الإسـلام، فقـد تبنو أشـكال الزواج والعلاقـات العائلية والقرابيـة التـى يوحـى بهـا الإسـلام. وحتـى يسـتكملوا إعتناقهـم للإسـلام فإنـه كان عليهـم أن يغـيروا بعـض جوانـب بنائهـم القـرابى السـابق، فقـد كان لديهـم أصهـار داخـل بنياتهـم العائليـة. أصبحـوا بعـد إعتناقهـم الإسـلام مـن خـارج العائلـة بحيث يمكن الـزواج بهـم، لأنهم أصبحـوا غربـاء عـلى العائلـة، بينـما لم يكونـوا كذلـك قبـل إعتنـاق الإسـلام (٧). ولتوضيـح دور الديـن فى تحقيـق التماسـك الاجتماعـى تؤكـد دراسـات كثـيرة عـلى أن الالتـزام الدينـى مـن شـأنه أن يقلـص نسـبة الطـلاق، كـما أوضحـت ذلـك بعـض الدراسـات، حيـث أوضحـت إحـدى الدراسـات التـى أجريـت عـلى نحـو ٢٥,٠٠٠ زيجـة أن الذيـن ليسـت لديهـم التزامـات دينيـة قويـة يسـود بينهـم الطـلاق ثلاثـة أضعـاف الذيـن لديهـم إلتزامـات دينيـة قويـة، مع التأكيـد على أن كافـة الزيجـات تنتمى إلى ديانـة واحـدة. إضافـة إلى ذلـك فقـد إتضـح أن الديـن يلعـب دوراً أساسـيا فى وقـوع الطـلاق بـين الأشـخاص الذيـن ينتمـون إلى ديانـات مختلفـة، كـما أن نسـبة إنهيـار الزيجـات ترتفع بـين الأزواج الذيـن ليـس لديهـم أى إلتـزام دينـى. وإرتباطـا بذلـك نجـد نسـبة الطـلاق آخـذه فى التزايـد بـين الكاثوليـك، وأن المتدينـين الكاثوليـك لديهـم نسـبة هجر أعلى مـن المتدينين البروتسـتنت. فى مقابل ذلـك نجـد أن اليهـود تسـود بينهـم معـدلات طـلاق وهجـر أقـل مقارنـة بـكل مـن البروتسـتانت

والكاثوليك (٨). ذلك يعنى أن الدين حاضر فى الحفاظ على التماسك الأسرى أو العائلى وتأكيده، كما هو حاضر فى تأكيد التماسك الإجتماعى داخل السياق القرابى. يضاف إلى ذلك أن الدين يتضافر مع التكوينات القرابية، سواء إتخذت شكل القبيلة فى المجتمعات البدوية والرعوية، أو إتخذت شكل البدنة فى المجتمعات الزراعية، فى تأكيده على التماسك الإجتماعى للمجتمع فى كليته .

وإذا كان الدين قد تضافر مع العائلة أو القرابة ليشكل هوية المجتمع فى بعض أنماط المجتمعات، فإن علاقة الدين بالنظام الإقتصادى للمجتمع ذات أهمية إستثنائية كذلك. بإعتبار أن النظام الإقتصادى يشكل أبرز النظم محورية فى مختلف أنماط المجتمعات، كما أنه المسئول عن توفير الموارد الأساسية، التى بواسطتها تشبع الحاجات الأساسية للبشر وهى مسألة أساسية. لأن الإشباع إذا لم يتحقق، فإن مصادر ضخ التوتر فى بناء المجتمع سوف تنشط، الأمر الذى يهدد فى النهاية الإستقرار والتماسك الإجتماعى للمجتمع. ويشير تأمل علاقة الدين بالإقتصاد (٩) إلى أن هذه العلاقة ذات أهمية محورية دائماً فى مختلف أنماط المجتمعات، منذ نشأة المجتمعات الأولية وحتى الآن. وإذا كانت المجتمعات البدائية تعد أول أنماط المجتمعات، فإننا سوف نجد تضافر الدين والإقتصاد ليشكلا نوعية الحياة فى هذه المجتمعات. ففى الديانة التوتمية، يعبد التوتم، حيوانا كان أم نباتا كرمز، لزيادة الخير الصادر عنه، ولأنه يشكل مصدر نفع للجماعة، أو لإتقاء شره إذا كان فى وجوده ضرر للجماعة. حيث حماية الاقتصاد بالدين، إضافة إلى أن القرابين التى تقدم للتوتم، هى فى الغالب ذات طبيعة أقتصادية بالأساس. إلى جانب أنه بواسطة المواد الاقتصادية، فى كثير من الحضارات والمجتمعات، تنجز الطقوس الدينية، مثال على ذلك أن الرحلة الطقوسية لقوارب الكولا، فى جزر التروبرياند التى درسها برنسلاو مالينوفيسكى، يمولها الزعيم، الذى يحصل على ثروته من نصيب زوجاته فى محاصيل عائلاتهم. وهى الثروة التى تدعم طقوس هذه الرحلات البحرية، إبتداء من صناعة القوارب، مرورا بالسحر الذى ينجز لها، حتى إكتمال الرحلة وعودتها. حيث نلاحظ تداخل تلقائى مدهش بين الرمزية الدينية والإقتصاد، يسهم بصورة

اساسية فى تأكيد حالة من التماسك الإجتماعى الدائم والتلقائى(١٠).

وقد وجدت ممارسات مناظره فى الجزيرة العربية قبل الإسلام، حيث كان الحج إلى مكة مقصدا لقبائل العرب. فى هذا الإطار كانت العرب تنتهز فترة شهور الأهلة لتقصد مكة للحج فى أى شهر من شهور السنة. وحتى يصبح الحج كطقس دينى مفيد لأهل مكة والعرب، رأى حكماء العرب أن يقع الحج فى زمان واحد لا يتغير. وهو وقت إدراك الفواكة والغلال وإعتدال الزمن فى الحر والبرد، إرتباطا بذلك قال لهم خطيبهم «ليأت حجكم وقت إدراك الفواكة والغلال، فتقصدوننا بما معكم منها، فوافقت العرب على ذلك (١١). وبعد إستقرار الإسلام وفى العصر الحديث، يتحدث عبد الرحمن مناف عن صلاة وطقوس الإستقساء. فيؤكد أنه حينما تنقضى التشاريق ولا يأتى المطر، يصبح الأمر خطيراً، يستنفر العواطف الدينية للمجتمع طلبا للمياه من السماء. فى هذه الفترة تظهر طقوس دينية عديدة ذات طبيعة رمزية هدفها تحقيق مصالح إقتصادية، من بينها أن يطوف الأطفال فى الشوارع مرددين «ياربنا ياربنا، ياربنا أغث زرعنا. إذا كان الكبار قد أذنبوا، فنحن صغار ما ذنبنا». «أما الكبار فكانوا يصعدون إلى الجبال، بعد صلاة الجمعة، وهناك يجرى دعاء صلاة الإستقساء. يرفع الرجال، وبخاصة المسنون، أيديهم فى ضراعة حزينة أقرب إلى الإستغاثة. بعد أن ينزعوا أغطية الرأس عن رؤوسهم، ويبدأون دعاءً فيه بعض العتاب، ولا يخلو من إستغفار كثير، طالبين من الله أن يبعث المطر... كان الله يستجيب فى بعض الأحيان، وكان لا تسجيب فى أحيان أخرى، غير أن الناس لا يكفون عن الإنتظار والتضرع»(١٢).

بل إننا نجد أن الإقتصاد حاضر بصورة دائمه فى بنيه الدين وفى ممارسات التدين الشعبى، مثال على ذلك أننا نجد أن قوانين التوريث فى الشريعة الإسلامية تلعب دوراً أساسياً فى التماسك الأفقى للعائلة فى المجتمع العربى الإسلامى. حيث تتحدد الأنصبة بصورة دقيقة، إضافة إلى أنها تحقق التماسك الجيلى، بإعتبار أن هذه القواعد الشرعية تحدد إنتقال الثروة من الجيل إلى الجيل الذى يليه، حسب أنصبة متوازنة تراعى درجة القرابة من ناحية،

وحجم المشاركة والأعباء الإقتصادية من ناحية ثانية. يضاف إلى ذلك أننا إذا تأملنا التدين الشعبى والنذور التى تقدم للأولياء الصالحين، الذين يعتقد الناس فى بركاتهم ووساطتهم إلى الله لقضاء المصالح، فسوف نجد أنه يتضمن نقلا لقيم إقتصادية، من ساحة الإقتصاد إلى ساحة الدين. بل إننا إذا نظرنا إلى نظام الوقف، سواء فى المسيحية أو الإسلام، فسوف نجد أنه يتضمن تخصيص قيم إقتصادية لتحقيق أغراض دينية بالأساس. أو تقديم قيم إقتصادية مقابل الحصول على ثواب وحسنات أخروية، اليس الله هو القائل «وماذا عليهم لو آمنوا بالله واليوم الآخر وأنفقوا مما رزقهم الله وكان الله بهم عليما. وإن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه اجراً عظيما» النساء، الآيات ٣٩،٤٠» وقوله تعالى «يسألونك ماذا ينفقون قل ما أنفقتم من خير فللوالدين والأقربين واليتامى والمساكين وأبن السبيل وما تفعلوا من خير فإن الله به عليم. البقرة ٢١٥» وقوله تعالى «مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم. البقرة ٢٦١» حيث نلاحظ التداخل بين الدين والإقتصاد والقرابة لتقليص مساحة التهميش الإجتماعى، ومن ثم تأكيد التماسك الإجتماعى.

ولا تقتصر العلاقة بين قيم الدين كمعانى رمزية والإقتصاد لدعم التماسك الإجتماعى على المجتمعات الأولية او المجتمعات التقليدية والحضاريةفقط، ولكنها تشغل مكانة قوية كذلك فى إطار المجتمعات الحديثة. حيث تصور نظرية ماكس فيبر بإمتياز طبيعة العلاقة بين الدين والإقتصاد، والأسلوب الذى أدت به القيم البروتستنتية إلى إنجاز التطور الاقتصادى الرأسمالى. حيث درس فيبر طبيعة العلاقة المتبادلة بين الدين وأهداف او أشكال الحياة الإقتصادية، فى دراسته للمتغيرات المسئولة عن نشأة الرأسمالية الحديثة. التى تميزت بأساليبها العقلانية الرافضة لقيود الثقافة التقليدية، والتى تقبل التجديد وتعمل على توسيع الأسواق. والتى تقودها طبقة رأسمالية مزودة بروح أخلاقية جديدة. تشعر فى إطارها أن نجاح مشروعاتها يمنحها الكبرياء، والتى تدرك أن نجاحها يرمز إلى أنها إختيرت لتكون فى خدمة «الله»، وعليها إنجاز وصاياه بالنسبة للبشر، وقد

عبرت البروتستنتية، وبخاصة أتباع كالفن عن هذه الروح الجديدة بإمتياز (١٣).

فى هـذا الإطـار أوضـح ماكس فيبر الأسـلوب الذى أدت به الأفكار والممارسـات البروتسـتنتية كابنيـة رمزيـة ومعنويـة، إلى تطـور النظـام الرأسـمالى، وكيف تلاء مـت هذه الأفكار والممارسـات مع روح الرأسـمالية المعـاصرة. التـى تؤكـد عـلى الرغبـة الدائمـة فى الإنتـاج وتراكـم الثروة، وهـى الروح التـى تلتقـى مـع الأخلاق البروتسـتنتية التى تؤكد على الإسـتثمار والعمل الشـاق، والسـعى لتحقيق التراكـم المسـتمر. بإعتبـار أن هـذه الأنشـطة هـى الملائمـة للبـشر الخيريـن، فى مقابل إدانـة البطالة والـثراء الموجـه للإسـتهلاك المفـرط. وعـلى هـذا النحـو يصبـح التراكـم المسـتمر الناتـج عـن العمـل المنظـم والمنضبـط شرطـا ضروريـا لنمـو الإقتصاد الرأسـمالى. بذلك تسـاعد الأخلاق البروتسـتنتية فى تعبيراتهـا الكالفنيـة البـشر عـلى تبنـى هـذه الـروح الملائمة لنمـو الإقتصاد الرأسـمالى. حيث تشـتق هـذه الأخـلاق مـن فهـم وتأويـل كالفـن للعقيـدة المسـيحية، التـى تؤكـد عـلى الإعتقـاد فى القدرية Predestination. والتـى تعنـى أن «اللـه» يختـار البـشر الذيـن كتـب لهم الخـلاص والذين قدرت عليهـم الادانـه، ولا أحـد يعـرف مـن قـد أختـير ليقـدر لـه الخـلاص أو تفـرض عليـه الإدانـة، كـما لا يمكـن للإنسـان أن يغـير قـدر اللـه بـأى أسـلوب. ومن ثم فـإن الخلاص يعطـى أو يمنح مـن الله ولا يسـعى الإنسـان للحصـول عليـه، ولذلـك نجد أن هـؤلاء الذين يؤمنـون بالقدرية يميلـون إلى معاناه خـبرة «رعـب الخـلاص»، حيـث يدفع القلق المتعلـق بإختيار الخلاص للإنسـان، إلى معانـاة حالة من عـدم الإسـتقرار السـيكلوجى. وفى هـذا الإطـار يصبـح الأسـلوب الوحيـد للتغلـب عـلى هـذا القلق، هـو القناعـة بتأويـل المذهـب الكالفنـى بصـورة محـددة، تلـك القناعـة التـي تؤكـد عـلى مقولة أن الشـجرة الطيبـة لا تثمـر ثمـارا شريرة. فإذا تصرف الإنسـان بطريقة مسـيحية طيبـة، وأنجز الأعمال الخـيرة، وكان معتـدلا دائمـاً، فـإن هـذه تصبح مـؤشرات خلاصة.

وإرتباطـا بذلـك يتأكـد للمؤمــن أن كل شــئ يفعلــه هــو مــن أجــل تحقيــق مجــد اللــه، كــما يتأكــد لــه أنــه قــد حصــل عــلى الخــلاص، وأن أى خطــأ أو ســلوك منحــرف يوضــح للإنســان أنــه لم يعــد مختــاراً للخــلاص، ومــن ثــم ســوف تقــع عليــه الإدانــة

الدائمـة. ونتيجـة لذلـك تنشـأ ضغـوط تؤكـد عـلى ضرورة أن يكـون الإنسـان مسـتقيما ومنظـماً فى كل أنشـطته اليوميـة، وهـو مـا يعنـى أن الأخـلاق البروتسـتنتية المشـتقة مـن مذهـب القدريـة، تؤكـد عـلى الإتقـان Deligent والتنظيـم، وآداء الإلتزامـات الدنيويـة كاملـة. وإرتباطـا بذلـك تؤكد روح الرأسـمالية عـلى أن العمـل الجـاد هـو فى حـد ذاتـه جهد خـير، أو هـو جهد ينبغـى أن نعجب بإعتبـاره جهـد شريـف ونافـع. وعلى هذا النحو يوجـد التقاء هنا بـين الأفكار الدينية للبروتسـتنتية الكالفنيـة وروح الرأسـمالية، وهـى علاقـة متبادلـة لا توجـد إلا فى مجتمعـات أوربـا الغربيـة (١٤). بحيـث يـؤدى التضافـر بـين الديـن والإقتصـاد إلى تأسـيس الرأسـمالية الحديثـة، التـى تتميـز بالثراء الـذى يوجـه إلى إشـباع الحاجـات الإنسـانية للبـشر، ويكـون مـن نتائجـه تحقيـق درجـة عاليـة من التماسـك الإجتماعى.

ثانياً: علاقة الدين بالطبقات والفئات الاجتماعية

بالإضافـة إلى ذلـك يـؤدى الديـن مـن خـلال مضامينـه ورمـوزه، فى علاقتـة بالطبقـات الإجتماعيـة كنظـام إجتماعـى، دوراً أساسـياً فى تأكيـد التماسـك الإجتماعـى، فى مقابـل الحديـث عـن الـدور الصراعـى الـذى أكـدت عليـه بعـض النظريـات الغربيـة. عـلى أى حـال كان الديـن حـاضراً دائمـاً عـلى سـاحة المسـألة الطبقيـة، تأكيـداً لذلـك أننـا نجـد أن كلا مـن كارل ماركـس وماكـس فيـبر قـد ناقشـا المسـألة الطبقيـة عـلى خلفيـة الديـن. حيـث رأى ماركـس أن الديـن يعـد مـن مكونـات البنـاء الفوقـى، وهـو إلى جانـب الأيديولوجيـا والدولـة، يعـد آليـة للسـيطرة عـلى الطبقـة العاملـة، وتوسـيعا الطبقـات الفقـيرة عمومـا. حيـث يلعـب الديـن دوراً أساسـيا كـما تذهـب النظريـة الماركسـية، فى نـشر نـوع مـن الوعـى الزائـف، الـذى تعمـل الطبقـة العاملـة وفقـا لمضامينـه، بإتجـاه تحقيـق مصالـح الطبقـة البرجوازيـة المسـتغلة لهـا. فمـن خـلال المصـادر الدينيـة يتـم تزويـد الطبقـة العاملـة بايديولوجيـا، تتناقض مـع الأيديولوجيـا التى ينبغـى أن تعمل وفقـا لهـا لتحقيـق مصالحهـا (١٥). فى مقابـل ذلـك يقـدم ماكـس فيـبر مناقشـة للمسـألة الطبقيـة عـلى خلفيـة الديـن، وحسـبما عرضنـا يذهـب ماكـس فيـبر إلى أنـه «إذا كانـت القيـم البروتسـتنتية فى مذهبهـا الكالفنـى، هـى التـى شـكلت أساسـاً لنمـو وتطـور النظـام الرأسـمالى. فـإن توزيـع

إسـتيعاب القيـم الدينيـة كان متبايـن بـين الطبقـات الاجتماعيـة، حيث نجـد أن الطبقـة البرجوازية قـد إعتنقـت القيم المؤيدة لنشـأة وتطـور النظام الرأسـمالى، ونظرت إلى نجاحها بإعتبـار أن أفرادها أصبحـوا مـن المختاريـين الذيـن قدر لهـم «الله» الخـلاص. بينما نجـد أن الطبقة العاملـة فى المقابل لم تسـاهم بإيجابية فى تطوير المشروع الرأسـمالى، وذلك نظراً لأنها لم تسـتوعب القيم البروتسـتنتية المتصلـة بنشـأة وتطـور هـذا النظام. لذلك ظلـت تبيع قوة عملها مقابل إشـباع حاجاتها الأساسـية، لـكى تبقـى عـلى قيـد الحيـاة، دون أن تمتلـك إمكانيـة تأسـيس المشروعـات الرأسـمالية، التـى تعـد مـؤشراً عـلى مباركـة اللـه لجهودهـا، ولذلـك فهـى الطبقـة التى قـدرت عليهـا الإدانـة (١٦). وبرغم أن الديـن فى التصـور الماركـسى يـؤدى إلى تأكيـد ونـشر الوعـى الزائـف على سـاحة الطبقـة العاملة، إلا أنـه – برغـم ذلـك - يسـاعد فى تحقيـق التماسـك والإسـتقرار الإجتماعى بما ييـسر تحقيق الطبقة البرجوازيـة لمصالحهـا. ذلـك فى حـين أن الديـن فى تصـور ماكـس فيـبر، وإن أدى إلى عـدم مشـاركة الطبقـة العاملـة فى إمتـلاك ثـروة المجتمـع - بسـبب ضعـف قيمهـا البروتسـتنتية – إلا أنـه يؤسـس حالـة مـن تبايـن المعـانى بـين الطبقتـين، وهـو التبايـن الـذى أدى التكامـل والتماسـك الإجتماعـى لحاجـة كل طبقـة إلى الأخـرى، وكذلـك إلى النظام الرأسـمالى.

وإلى جانـب مناقشـة علاقـة الديـن بالنظـام الطبقـى للمجتمـع عـلى الصعيـد النظـرى، فإننـا نجـد أن الديـن يلعـب دوراً واقعيـا لـه علاقـة بالتكويـن الطبقـى للمجتمـع، مثـال عـلى ذلـك أنـه قـد تنشـأ تكوينـات طبقيـة تربـط بـين الديـن والإقتصـاد. تأكيـدا لذلـك مـا ذهـب إليـه أحـد الباحثـين عـن «أن عائـلات التجـار الكـبرى فى نابلـس حرصـت عـلى تنميـة مكانتهـا الدينيـة. مـن خـلال مصاهـرة عائـلات علـماء الديـن والمعروفـة ، إضافـة إلي الخدمـة فى المسـاجد، والتصـدق عـلى المؤسسـات الدينيـة، والإنخـراط فى بعـض الطـرق الصوفيـة. حتـى أصبـح الجمـع بـين الإشـتغال بالعلـوم الدينيـة والإشـتغال بالتجـارة عميـق التأصـل، إلى درجـة أن لغـة طبقـة التجـار كثـيراً مـا تشـحن بعبـارات دينيـة. فى محاولـة لتعزيـز شـعبيتها وترسـيخ مكانتهـا، وبنـاء سـمعة قوامهـا التقـوى والموثوقيـة والإسـتقامة ... ولا تختلـف الطبقـة الحاكمـة عـن

طبقـة التجـار مـن هـذه الناحيـة. حيـث تعمـل هـى أيضـا عـلى الإسـتفادة مـن الديـن فى ترسـيخ شرعيتهـا وتثبيـت سـمعتها فى التقـوى والإسـتقامة، وهـو الأمـر الـذى قـد يقنـع الفقـراء، ومـن ثـم يـؤدى إلى تحقيـق التماسـك والاسـتقرار الإجتماعـى.

بالإضافـة إلى ذلـك فإننـا نجـد أن الديـن يـؤدى وظائف متناقضة بالنسـبة للبنـاء الطبقى فى المجتمـع إن لم يكـن لبنـاء المجتمـع بكاملـة، ذلـك يعتمـد عـلى طبيعة التفاعـل الحادث فى السـياق الاجتماعـى. فى هـذه الحالـة مـن الممكـن أن يقـوم الدين بوظيفة تسـكين الفقراء، كآليـة تؤكد على التماسـك الإجتماعـى فى بعـض الفـترات والظـروف التاريخيـة. وقـد يدفـع إلى الثورة ورفـض الظلم الطبقـى فى ظـروف أو فـترات تاريخيـة أخـرى بحثـا عن مسـتقبل ينتفـى فيه الظلم، ومـن ثم يقوم بإلغـاء الاوضـاع الحـاضرة ومظاهر الفـوضى والظلم القائمه فيها. ليؤسـس أوضعـا إجتماعية جديدة فى المسـتقبل تسـتند إلى درجـة عاليـة مـن التماسـك الإجتماعـى. وفيـما يتعلـق بتسـكين الفقـراء وتبريـر التبايـن الطبقـى، نجـد أن الديـن يـؤدى هـذه الوظيفـة بإمتياز، فتأكيـد الـتراث الدينى على الزهـد، يعنـى تجـاوز الجـور الناتـج عـن تباين الغنـى والفقر. فقد ورد على لسـان الإمـام أبى حامد الغـزالى بعـض الأحاديـث منهـا «يدخل فقـراء أمتى الجنة قبل أغنيائها بخمسـمائة عـام» و«أن لكل شـئ مفتاحـاً ومفتـاح الجنة حب المسـاكين والفقراء لصبرهـم. وأن الفقراء هم جلسـاء «الله» تعالى يـوم القيامـة «أحـب العبـاد إلى اللـه الفقـير القانـع برزقـه» ، «الجوع عنـد الله فى خزانـة، لا يعطية إلا لمـن أحبـه» ،«إذا رأيـت الفقـير مقبـلا، فقـل مرحبا بشـعار الصالحين» (١٧). بحيـث تلعب هذه المعـانى دورهـا فى منـح الفقـراء مكانـة معنوية عالية فى مقابل الـثراء المادى الذى يتمتـع به الأغنياء، وهـو مـا يعنـى تحقيـق توازن إجتماعى وسـيكلوجى، يسـلم فى النهايـة إلى تحقيق درجـة عالية من التماسك والإسـتقرار الإجتماعى.

بـل إننـا نجـد أن هنـاك مـن يسـعى إلى تفسـير الديـن بمـا يسـاعد فى إضفـاء المشروعيـة عـلى البنـاء الطبقـى، تأكيـدا لذلـك تفسـير الشـيخ فيصـل المولـوى لمعنـى الآيـة ٢٣ مـن سـورة الزخـرف «. أهـم يقسـمون رحمـة ربـك نحـن قسـمنا بينهـم معيشـتهم فى الحيـاة الدنيـا ورفعنـا بعضهـم فـوق بعـض درجـات ليتخـذ بعضهـم

بعضا سخريا ورحمة ربك خير مما يجمعون» حيث رأى أن الآية تشير إلى سنه ثابتة من سنن الله عز وجل، وهى تفاوت الرزق بين الناس... والتسخير ظاهرة بشرية إقتضتها حكمة الله عز وجل فى تعمير الأرض. عن طريق إختلاف المواهب والطاقات البشرية التى تؤدى إلى تفاوت الرزق... وطبيعة هذه الحياة البشرية قائمة على أساس التفاوت فى مواهب الأفراد (١٨).

ثالثاً: تهديد الطائفية الدينية للتماسك الاجتماعى

وفى مقابل وظيفة الدين فى تأكيد التماسك الإجتماعى حاضراً، يلعب الدين دور المحرض على الثورة والتغيير، بحثا عن تماسك اكثر متانة للمجتمع، بدلا من حالة عدم الإستقرار التى يعيشها فى الحاضر، بسبب غياب العدالة بين الطبقات. ويعد عالم الإجتماع ماكس فيبر هو اول من اكد على هذا الدور الذى ينبغى أن يلعبه الدين، حيث رأى أن الدين من الممكن أن يلعب دوراً ثوريا فى تغيير المجتمع، إذا كانت الأخلاق فى المجتمع القائم منهارة. وفى هذه الحالة ينجح الدين فى تحقيق التغيير، إذا جاء بمعانى وأخلاق جديدة، وإذا أمتلك قوة إجتماعية تفرضة، وتسعى من خلال نشر معانية إلى تثوير الواقع بهدف إنجاز هذا التغيير (١٩). بالإضافة إلى ذلك فإننا إذا تأملنا دور الإسلام فسوف نجد أنه لعب دوراً تحريريا كبيراً لمختلف المجتمعات الإسلامية وما زال يلعب هذا الدور التحريرى، فقد رفعت جملة حركات التحرير والإستقلال فى المغرب العربى راية الإسلام، من أجل التحرير فى المغرب وتونس والجزائر. إضافة إلى الثورة الإسلامية فى إيران (٢٠). وما زالت حركات المقاومة التى تقودها الجماعات الجهادية فى شرق آسيا تؤدى دورها فى هذا الإتجاه وإن حادت بعض هذه الحركات الآن عن روح الاسلام السمحة والمعتدلة فى بعض المجتمعات. بحيث نجد أن الدين قد رفع رايات التحرر والإستقلال لتجاوز الأوضاع الظالمه غير الملائمة، بحثا عن أوضاع تشهد على تحقق إستقرار وتماسك مكونات المجتمع.

بالإضافة إلى ذلك فإنه ينبغى الوعى بأنه إذا كانت الطائفية تعد آلية من آليات التفكيك الإجتماعى، فإن الدين فى المواجهة يصبح آلية من آليات التماسك الإجتماعى، وهو ما يقع فى ظروف تاريخية وإجتماعية عديدة. ولتوضيح ذلك

مـن الـضرورى أن نسـعى إلى التعـرف اولاً عـلى طبيعـة الطائفـة، من حيـث مفهومها العـام قبل أن نتحـرك إلى فهـم الطائفـة بالمعنـى الدينـى. الطائفـة فى تعريفهـا الأسـاسى هـى جماعـة مـن النـاس يشـكلون تنظيـم إجتماعـى محكـوم بثقافـة واحـدة. تسـعى للحفـاظ عليهـا وتنقلها مـن جيل إلى جيـل، ولديهـا إحسـاس بالتجانـس القوى بداخلها، فى مقابـل تميزها أو بالأصح إنفصالها النسـبى عن مـا حولهـا (٢١). وهنـاك تعريفـات أخـرى تسـتند فى تعريـف الطائفـة إلى متغير الديـن. مثال على ذلـك تعريـف يشـير إلى الطائفـة بإعتبارها «كيان إجتماعى لـه عضويته ومؤسسـاته وأبنيتة وأوقافه وشـعاراته وعاداتـه». أو بتعريـف أخـر هى «إهتمام مجموعة دينية بممارسـة عقائدها وشـعائرها وتنظيـم كيانهـا العائـلى والإجتماعـى» (٢٢). عـلى هذا النحـو يطلق مفهوم الطائفـة على تجمعات عديـدة، لتشـير إلى الطوائـف الحرفيـة كالأسـاكفة، والحـدادون والحلاقـون والقصابـون والعطـارون. أو قـد تكـون الطوائـف ذات طبيعـة دينية كالطوائف الشـيعية والسـنية والدرزية وطائفـة اليهود، وطائفـة الكاثوليـك وطائفـة الأرثوذكـس، وطائفـة البروتسـتنت. أو قـد تكون الطائفـة ذات طبيعة إجتماعيـة كطائفـة المغاربـة فى مـصر وفلسـطين فى القـرن التاسـع عـشر، أو قـد تكـون ذات طبيعـة عرقيـة كطائفـة الأكـراد، والبربـر والزنـج. بيـد أن الطوائـف الأكثر بروزاً هـى الطوائـف الدينية، لأن إنفصـال الطائفـة عـن ما عداها يسـتند إلى أصـول وعواطف عقيديـة، تلقى تأكيداً كل يوم وسـاعة، وقـد تظهـر الطوائـف الدينيـة داخل الديـن الواحـد، أو داخل المجتمـع الواحد بـين الأديان.

وإسـتناداً إلى دراسـات عديـدة، فـإن بـروز هويـة الطوائـف يـؤدى عـادة إلى إضعـاف التماسـك الإجتماعـى وأحيانـا يكـون نتيجـة لإنهيـاره، وهـو التماسـك الإجتماعـى الـذى يتـم رعايته بواسـطة ثلاثـة آليـات أساسـية. الأولى هـى الدولـة، بإعتبارهـا المسـئوله عـن ضبـط وإسـتقرار المجتمـع، وتشـكل المواطنـة الآليـة الثانيـة بإعتبارهـا تسـعى إلى نـشر حالـة مـن التجانـس عـبر المجتمـع عـلى قاعـدة المسـاواة فى الحقـوق والواجبـات. والثالثـة هـى الديـن بإعتباره يتشـكل من القيـم والمبـادئ الرمزيـة الدينيـة العليـا التـى ينبغـى أن يكـون لهـا الأولويـة عـلى آيـة تكوينـات عقيديـة أو رمزيـة أقـل أو أدنى (٢٣). فـإذا تأملنـا الأوضـاع الطائفيـة فى أى مجتمـع مـن

المجتمعات، فسوف نجد أننا أمام أحدى حالتين، الحالة الأولى أن يكون لدى الطوائف التى يتشكل منها المجتمع وعى بالذات والتحدد فى مواجهة الجماعات الأخرى. بسبب تعرضها لإضطهاد أو تمييز إلى أدنى أو أعلى، بمعنى شغلها لمكانة متميزة، إقتصادية أو إجتماعية أو سياسية، تفصلها عن ما عداها، ومن ثم تتجه إلى تأكيد تنظيمها الداخلى. وتطوير رموزها التى تستنفر عواطف أتباعها، حتى تشكل منهم كتلة واحدة فى مواجهة الجماعات الأخرى، أو المجتمع. بينما تشير الحالة الثانية إلى أوضاع تتناقض مع الحالة الأولى، حيثما تتجانس الطوائف التى يتشكل منها المجتمع من حيث خضوعها لظروف واحدة ومتجانسة. ومن حيث تعرضها لظروف سلبية كالقهر السياسى، أو للأوضاع الإقتصادية المتردية، أو تعرضها لظروف إيجابية متجانسة أيضا كإمتلاك القدرة على التعبير، أو الحياة فى ظل حالة من الرفاهية الإقتصادية والعدل الإجتماعى والسياسى والثقافى. الحالة الأولى تؤدى إلى تفكيك المجتمع، بينما تدفع الثانية إلى مزيد من تماسكه، الذى يستند إلى تداخل مساحات الطوائف إقتصاديا وإجتماعيا وسياسياً وثقافيا.

ذلك يدفعنا إلى محاولة التعرف على الظروف او المتغيرات المسئولة عن بروز الطائفية وتهديدها للتماسك الإجتماعى. حيث يتحدد المتغير الأول لبروز التكوين الطائفى فى المجتمع، فى إرتباط هذا التكوين بضعف الدولة أو السلطة المركزية للدولة، وهو الضعف الذى يجعلها إما تتحالف مع إحدي الطوائف على حساب الطوائف الأخرى، أو بالعمل على البقاء مستنده إلى التوازن الصراعى بين الطوائف. وينشأ ضعف الدولة عادة إما لأن الفساد قد أستشرى فى أوصالها، أو لأنها أصبحت دولة عبئ على كاهل المجتمع منفصلة عنه. لا تلعب دور الدولة فى فرض تماسك المجتمع وتكامل وحدة، كما لا تؤدى وظائفها فى إشباع الحاجات الأساسية للبشر، من خلال التأكيد على حالة من العدل الإجتماعى والإقتصادى بين البشر والجماعات والطوائف. ويتصل المتغير الثانى بالأول ويعد إستمرار له، حينما يشير إلى أن أحساس أحدى الجماعات بتحيز الدولة أو جماعة الأغلبية ضدها، من شأنه أن يدفعها إلى تطوير علاقاتها الداخلية حتى

تشكل كتلة فى مواجهة ما هو خارج عنها. ومن الطبيعى أن يستمر ذلك حتى أننا نجدها تؤكد على رمزيتها، وتسعى إلى إبرازها، كتعيين لحدودها من ناحية، وإبراز وجودها فى مواجهة الجماعات الأخرى من ناحية ثانية. الأمر الذى يؤدى إلى أحياء الرمزية الدينية الطائفية، على حساب الإنسحاب من الرمزية الدينية أو الإجتماعية المشتركة. كما هى الحال فى التطور الرمزى بين السنة والشيعة، أو بين الكاثوليك والبروتستنت، أو بين المسلمين والمسحيين داخل الوطن الواحد.

ويشكل المتغير الإقتصادى العامل الثالث المسئول عن بروز الطائفية وتهديدها بتفكيك التماسك الإجتماعى، حيث يسهم المتغير الإقتصادى فى عملية التفكيك الطائفى من زوايا عديدة. الأولى أن حالة العسر الإقتصادى التى قد تفرض على المجتمع، ومعاناته من مشكلات إقتصادية عديدة، كالبطالة وإرتفاع تكاليف المعيشة، وإرتفاع نسبة السكان تحت خط الفقر، والعجز عن إشباع الحاجات الأساسية. من شأنه أن يلعب دوراً محوريا فى زيادة تراكم التوتر فى فضاء المجتمع، وميله إلى الإنفجار فى المناطق البنائية الضعيفة، كالحدود الفاصلة بين الطوائف أو الجماعات المتباينة، ثم يتطور الأمر إلى التطوير الرمزى العدائي المتبادل الذى يقود إلى الصدام. وتتمثل الزاوية الثانية فى التباين الإقتصادى بين الجماعات فى المجتمع، حيث نجد تميز بعض الجماعات إقتصاديا، فى مقابل تردى الأوضاع الإجتماعية لجماعات أو طوائف أخرى. الأمر الذى يقود الجماعات المتردية إقتصاديا إلى الإحتماء بدينها فى مواجهة صعوبات الحياة(٢٤). وقد يتضافر ذلك مع مشاعر الحقد على نوعية الحياة المترفة، التى تعيشها الجماعة أو الطائفة المقابلة، وزيادة نصيبها من الكعكة الإجتماعية. الأمر الذى يؤدى إلى تولد مشاعر سلبية بين الجماعات والطوائف، تقود فى النهاية أحيانا، إلى الصدام والصراع، بعد المرور بمرحلة الأحياء الرمزى المتبادل بطبيعة الحال.

ويلعب المتغير التاريخى دوراً بارزاً فى أحياء الطائفية الدينية على حساب التماسك الإجتماعى للمجتمع، ويتحدد ذلك بطبيعة العلاقة التاريخية بين الطوائف المشكلة للمجتمع، بخاصة الطوائف الدينية، ومدى توفر خبرة توحيدية أو تجانسية

مشـتركة. يضـاف إلى ذلـك مـدى كـون الفضـاء التاريخـى ناتـج عـن نسـيج كثيـف مـن العلاقـات المتداخلـة بـين الطوائـف، إلى جانب وجود خـبرات صدامات أو صرعات تاريخيـة، ومدى كونها ذات طبيعـة إسـتثنائية أو دائمـة. ذلـك بالإضافـة إلى مـدى وجـود نبـع دينـى وتاريخـى مشـترك، أو على الأقـل إعـتراف تاريخـى متبـادل بالرمزيـة الدينيـة أو الطائفيـة المتبادلـة (٢٥). بحيـث يمكـن لهذه الخـبرات التاريخيـة أن تحكـم طبيعـة العلاقـة بين الطوائـف المختلفـة، فى الزمن الحـاضر والمعاصر، ومـن ثـم يجعـل شـق أحـدى الطوائـف لوحـدة التماسـك الإجتماعـى، مجرد حالـة إسـتثنائية يمكن تجاوزهـا، مـن خلال إسـتدعاء الخـبرات التاريخية المشـتركة.

ويشـكل التدخـل الخارجـى متغـيرا هامـا فى عمليـة التفكيـك الطائفـى للمجتمـع، حيـث يلعـب التدخـل الخارجـى دوره فى أحيـاء النزعـات الطائفيـة، إرتباطـا بذلـك يؤدى المتغـير الخارجى دوره فى هـذا الإتجـاه عـبر ثلاثـة مراحـل. فى المرحلـة الأولى يتـم تأسـيس الطائفيـة المتمايـزة عـلى الخريطـة السـكانية المتجانسـة للمجتمـع، حيث تبذل القـوى الخارجية الجهـود لتعريف كل طائفة بحدودهـا، ومواضـع إختلافهـا عـن الطوائـف الأخـرى. وفى المرحلـة الثانيـة، تبـدأ فى الوقيعـة بـين طوائـف الوطـن الواحـد، كـما فعـل الإسـتعمار البريطـانى فى مـصر، حيـث التمييـز بـين المسـيحيين والمسـلمين، (٢٦) أو كـما فعلـت الولايـات المتحـدة فى العـراق بتمييز الشـيعة والأكراد على حسـاب السـنة العـرب. وفى هـذه المرحلـة تبـدأ الجماعـات الطائفيـة بتطويـر وعيهـا بذاتهـا، وقـد تبـدأ فى هـذه المرحلـة بتطويـر رموزهـا. وفى المرحلـة الثالثـة والأخـيرة تدعـى القـوى الخارجيـة المتدخلة أو الخارجيـة، بأنهـا تبسـط حمايتهـا على طائفـة دون أخرى، ومن ثـم تقوى أو تدعم أحـدى الطوائف لترفـع سـقف مطالبهـا. وبذلـك تعمـق الضغينـة فى قلـب الطائفـة أو الطوائـف الأخـرى، بحيـث يسـاعد فى تأسـيس هـذه الحالة، تولد مشـاعر سـلبية كثيفة تـؤدى إلى أحياء الرمزيـة الطائفية، على حسـاب الرمزيـة الجامعـة للمجتمع.

فى هــذا الســياق يــبرز دور الديــن ليحافــظ عــلى التماســك الإجتماعــى للمجتمــع فى مواجهــة التفتيــت أو التقيــم مــن خــلال ثلاثــة آليــات أساســية. حيــث يعمــل مــن خــلال الآليــة الأولى عــلى احيــاء الرمــوز المشــتركة بــين الطوائــف المتباينــة، بحيــث

تصبح هـى المرجعيـة موضـع تأكيد من الدولة وكل الطوائف والجماعات (٢٧). إذ يشـترك الشـيعة والسـنة فى رموز عديدة، كما يشـترك الكاثوليك والبروتسـتنت فى رموز عديدة، كذلك يشـترك اليهود والمسـلمين والمسـيحيين فى رموز دينية كذلك. ولا مانع فى هذه الحالة أن يعمل الإعلام ومؤسسـات التنشـئة الإجتماعية، فى الترويج للرموز الدينية المشـتركة، وغرسـها فى نفوس الأبناء، فمن شـأن ذلك أن يؤسـس مسـاحات رمزيـة مشـتركة بـين الطوائف. ذلـك بالإضافـة إلى ضرورة القبـول بالإختلافات بـين الطوائـف وعـدم المسـاس برمزيتهـا. وتتصـل الآليـة الثانيـة بـضرورة أن يحـدث تسـليم كامـل ومتبـادل بالإختلافـات الدينيـة والرمزيـة بـين الطوائـف، وإرتباطـا بذلـك تسـلم كل طائفـة مـن الطوائـف بالمعـانى والرمـوز الدينيـة الخاصـة بـكل طائفـة أخـرى، دون المسـاس المتبـادل بالمعانى أو الرمـوز الدينيـة بـأى طائفـة من الطوائف (٢٨). عمـلا بقوله تعالى « لا إكراه فى الديـن، البقرة الآية ٥٦» ، «وقـل الحـق مـن ربكـم فمـن شـاء فليؤمـن ومـن شـاء فليكفـر، الكهـف الآيـة ٢٩» ، «ولكل منكـم شرعـة ومنهجـاً ولـو شـاء اللـه لجعلكـم أمـة واحـدة، المائـدة، الآيـة ٤٨. وفى هـذا الإطار من الممكـن للإعـلام أن يلعـب دوراً اساسـيا فى إتاحـة الفـرص المناسـبة لكى تعـبر الطوائـف المختلفة عن معانيهـا ورموزهـا الدينيـة. غـير أنـه من الـضرورى أن يتحقـق ذلك، دون المسـاس بالرمزيـة الدينية العامـة للمجتمـع، أو التراجـع عـن متطلبـات المواطنة إلى متطلبـات الطائفة.

وتتمثـل الآليـة الدينيـة الثالثـة فى قولـه تعـالى «وإن طائفتـان مـن المؤمنـين إقتتلـوا فأصلحـوا بينهـما فـإن بغـت إحداهـما عـلى الأخـرى فقاتلـوا التـى تبغـى حتـى تفـئ إلى أمـر اللـه فـإن فـاءت فأصلحـوا بينهـما بالعـدل وأقسـطوا إن اللـه يحـب المقسـطين. وإنمـا المؤمنـون أخـوة فأصلحـوا بـين أخويكـم وإتقـوا اللـه لعلكـم ترحمـون. الحجـرات الآيـات ٩،١٠» . فى إطـار هـذه الآليـة يمكـن أن تكـون الدولـة الفاعلـة والعادلـة هـى الحكـم بـين الطوائـف المختلفـة، فـإذا جـارت أحـدى الطوائـف عـلى حقـوق إحـدى الطوائـف الأخـرى، فالمفـترض أن تقـوم الدولـة بالإصـلاح بينهـما، ورد الحقـوق المجـار عليهـا. وإذا بغـت أحداهـما ورفضـت الصلـح، فـإن الدولـة هـى الجهـة المنوطـة بعقـاب الطائفـة الباغيـة، حتـى تعـود إلى رشـدها. فـإن تجـاوزت

إحـدى الطوائـف وإعتدت على سـيادة الدولة إسـتقواء بقـوى خارجية، فالردع واجـب، لأن الطائفة فى هـذه الحالـة تكـون قـد أضرت بالدولة التى هى تعبـير عن مختلف طوائـف وتكوينات المجتمع، ومـن ثم تكـون قد أضرت بحقـوق الآخرين.

وتعـد العلاقـة بـين الدين والسياسـة مـن العلاقات التى تشـهد على إسـتفادة بعض الأنظمة السياسـية مـن الديـن فى فـرض الإسـتقرار الإجتماعـى، الـذى يسـتند إلى تماسـك مكوناتـه. وتتجـلى إسـتفادة السياسـة مـن الديـن مـن خـلال صـور عديـدة. أول هـذه الصـور تتمثـل فى دعـوة المعانى الدينيـة فى فـترات تاريخيـة معينـة، حينـما يتهـدد الأمـة الخطـر بهدف الخـروج من الأزمـة. تأكيدا لذلـك أفتـى الأمـام بـن حنبل والأمـام بن تيمية بـأن الخليفة أو السـلطان «هو حامـى حمى الله فى بـلاده وظلـه الممـدود عـلى عبـادة» ، «وأمـام عادل غير مـن مطر وابل، وإمام غشـوم خـير من فتنة تـدوم». وأن «طاعـة الأئمـة مـن طاعة الله وعصيانهم مـن عصيان الله»، وأن «الإمـام العادل كالأب الحـانى عـلى ولـده»، وأنـه «إذا كان الإمـام عـادلاً لـه الأجـر وعليـك الشـكر، وإذا كان الإمـام جائـراً فلـه الـوزر وعليـك الصـبر» (٢٩). وهناك تبريـرات كثيرة لهـذه المواقف تذهـب إلى أن «الحاكم هو وسـيلة اللـه فى عملـه»، « ولـو كان ظالمـا خـير مـن الفتنـة وإنحـلال المجتمـع» بإعتبـار أن السـلطة مـن اللـه» ويجـب أن تطـاع. و «أن الطاعـة واجبـة... خوفا من إنقسـام الأمة... وإضطـراب الأمور» ومـن ثـم ينصـح الرعايـا «بـأن يـؤدوا للحـكام حقهـم وأسـألوا اللـه حقكـم»(٣٠). وهـو مـا يعنـى تخويـف العامـة مـن الفتنـة والفـوضى، للحفـاظ على تماسـك إجتماعى، وسـياسى لغـير صالحهم، بل هـو لصالح الطبقـات الحاكمة والمسـيطرة.

ويشـير الموقـف الثـانى إلى إسـتفادة الدولـة مـن الديـن لتأكيـد شرعيتهـا، توضيحـا لذلـك أنـه حينـما إحتـل الملـك عبـد العزيـز مدينـة الريـاض عمـل عـلى تنشـيط دعـوة السـلف وتطبيـق الشريعـة الإسـلامية نصـا وروحـا بـكل الوسـائل التـى فى خدمـة الدولـة، عـلى أن يكـون هـو إمـام الدعـوة (٣١). وفى المرحلـة الناصريـة فى مـصر إسـتخدم الدين لتبرير الأيديولوجية الإشـتراكية حيث نظـر إلى الرسـول صـلى اللـه عليـه وسـلم بإعتبـاره إشـتراكيا «الإشـتراكيون أنـت أمامهم لـولا دعاوى

القـوم والغلـواء». كذلـك لجـأ الرئيـس السـادات إلى التيار الدينـى لتصفية معارضية مـن الناصريين والماركسـيين، إضافـة إلى إعـلان دولتـه بأنهـا دولـة العلم والإيمان، وأسـس فترة من العلاقـة الإيجابية مـع التيـار الإسـلامى، بخاصـة جماعـة الأخـوان المسـلمين (٣٢). ومـا زالـت إحـدى ألقـاب الملـك محمـد السـادس فى المغـرب تصفـه بأنـه «أمـير المؤمنـين» ويعامل على هـذا النحو. ولجـوء الأنظمة السياسـية إلى الديـن لتأكيـد شرعيتهـا، ينطلـق من كونهـا تعرف مسـبقا بالقبول الجماهـيرى للدين، ومـن ثـم الإسـتناد إلى ذلـك فى تحقيق الإسـتقرار والتماسـك الإجتماعى.

ويتصـل الموقـف الثالـث للإسـتفادة مـن الدين فى تأكيـد الشرعية السياسـية، فى إدعاء بعض الأسر الحاكمـة الإنتسـاب لأهـل بيـت الرسـول، فقـد شـهد الإسـلام المعـاصر صعود بعض السـلالات العائليـة الحاكمـة التـى يلجـا بعضهـا إلى إدعـاء نسـب نبـوى شريـف. ويصبـح عـلى الفقهـاء أن يتكفلوا بتبرير إنتسـاب هذه السـلطات إسـلاميا لآل البيت، مثال على ذلك إدعاء العائلة السـعدية والعلويـة فى المغـرب والعائلـة الهاشـمية فى الـشرق العـربى بـأن لهـا شرف هـذا النسـب(٣٣). ومن الطبيعـى أن يكـون ذلـك مدخـلاً للإسـتقرار والتماسـك الإجتماعـى، لأن المدخـل إلى الجماهـير كان مـن بـاب الديـن، وهـى الجماهـير التـى تخضع لعواطـف دينية جياشـة تؤكد عـلى المكانة والسـيرة العطـرة لأهـل البيت.

فى نهايـة هـذه الفقـرة يتجلى التماسـك الإجتماعـى بـين النظـم الإجتماعية، وهو التماسـك الـذى يـترادف فى بعـض الجوانـب مـع تماسـك المجتمـع. ومـن الواضـح أن الديـن يشـغل مركـز الدائـرة فى شـبكة علاقـات النظـم الإجتماعيـة ببعضهـا البعـض. ويتجـلى ذلـك الـدور الـذى يلعبـه الديـن فى تماسـك النظـم الإجتماعيـة مـن خـلال أربعـة مسـتويات. فى إطـار المسـتوى الأول نجـد أن للديـن علاقـة بـكل نظـام مـن النظـم الإجتماعيـة عـلى نحـو مـا أوضحـت فى الصفحـات السـابقة، ومـن ثـم يشـكل الديـن المحـور الـذى ترتبـط بـه هـذه النظـم مـن زوايـاه المختلفـة. وفى إطـار المسـتوى الثـانى تشـكل منظومـات القيـم الدينيـة القاسـم المشـترك بـين مختلـف النظـم الإجتماعيـة، لأن القيـم الدينيـة توفـر التوجيـة والتنظيـم المعيـارى الـذى يضبـط التفاعـل داخـل كل نظـام مـن النظـم الإجتماعيـة. ويشـير المسـتوى الثالـث إلى أن الديـن يعمـل عـلى تصريـف

التوتـرات التـى قـد تظهـر نتيجـة لفاعليـة وآداء بعـض النظـم الإجتماعيـة. فالدين هو الـذى يواسى الفقـراء والمهمشـين إقتصاديـا وسياسـيا وإجتماعيـا، حتـى يصبحـوا قـوى إجتماعية مسـتقرة لا تميل إلى التمـرد والثـورة، وهو ما يسـاعد على تحقيق التماسـك والإسـتقرار الإجتماعى. ثـم أن الدين هو الـذى يلعـب دوراً أساسـيا فى تصريـف التوتـرات بـين مختلـف الجماعـات أو الطوائـف الدينية. بل ويدفعهـا أحيانـا إلى التقـارب فى إطـار مـن العيش المشـترك تحقيقا للتماسـك الإجتماعـى. وفى إطار المسـتوى الرابـع نجـد أنـه إذا تـردت الأوضـاع، فالعواطـف والمشـاعر الدينيـة الجهاديـة، هـى التى تقـود عـادة المجتمـع بإتجـاه التغيـير بهدف تحقيق تماسـك إجتماعـى جديد.

رابعاً: دور الدين فى حماية المجتمع من التفكيك

تناولنـا فى الفـترة السـابقة حالـة التكامـل بـين الديـن ومختلـف النظـم الإجتماعيـة، وهـو التكامـل الـذى يـؤدى إلى تحقيـق حالـة مـن التماسـك الإجتماعـى، إسـتنادا إلى تداخـل النظـم الإجتماعيـة مـع بعضهـا البعـض. هذا التماسـك يحققـه الدين من خلال مسـتويين، المسـتوى الأول أن ثمـة علاقـة وظيفيـة متبادلـة بـين الديـن وكل نظـام مـن النظم الإجتماعيـة، بحيث يصبـح الدين هـو العنـصر الـذى تلتقـى عـلى ساحته النظـم الإجتماعيـة المختلفـة. ومن ثـم فاللدين هنـا علاقة ثنائيـة متبادلـة بـكل نظـام مـن النظـم الإجتماعيـة، بينما يشـير المسـتوى الثـانى إلى علاقـة ثلاثية أو رباعيـة يكـون الديـن فيهـا دائمـا هـو المتغـير الدائـم الحـاضر عـلى سـاحتها. كالعلاقـة بـين الديـن والقرابـة، وبـين القرابـة والإقتصـاد أو السياسـة، بحيـث تصبح رمزيـة الدين ومعانيـة مرجعية الآداء داخـل كل نظـام عـلى حـدة، فهـو الـذى ينظـم سـاحة التفاعـل داخـل القرابـة أو داخـل الإقتصـاد. إضافـة إلى أن العلاقـة بـين كل نظـام وآخـر تتنظـم فى جـزء كبير منهـا بالنظر إلى معانى وقيـم الدين، بحيـث يصبـح الديـن فى هـذه الحالـة مصـدراً لشـبكة كثيفة مـن العلاقـات الإجتماعية التى تسـلم إلى درجـة عاليـة مـن التماسـك الإجتماعـى (٣٤).

وإلى جانــب تأكيــد الديــن عــلى التماســك الإجتماعــى مــن خــلال علاقاتــه المتبادلــة مــع مختلــف النظــم الإجتماعيــة، فــإن للديــن وظيفــة مــن مســتوى أعــلى،

تتمثل فى تحقيق التكامل الإجتماعى. وهو المستوى الذى يسهم فيه الدين فى تحقيق التكامل بالنسبة للمجتمع بإعتباره «كلا» وذلك إستنادا إلى الصياغة الدوركيمية التى ترى أن المجتمع هو مستوى اعلى من مجموع مكوناته. وفى هذه الحالة سوف نتناول الوظائف التى يؤديها الدين مباشرة فى دعم تماسك المجتمع فى وجوده الكلى. ذلك يدفعنا إلى تحديد الظروف التى تؤدى عادة إلى إنهيار التماسك الإجتماعى. فى هذا الإطار نستطيع رصد عدة ظروف، حيث يتمثل الظرف الأول فى بروز ما يمكن أن يسمى بالطائفية الإنقسامية، والتى تقع حينما تؤدى بعض الظروف إلى إضعاف متغيرات التماسك الإجتماعى، ومن ثم تراجع الطوائف الدينية فى المجتمع إلى حدود هويتها ورمزيتها، ومن ثم تنسحب من حالة التماسك الإجتماعى أو تتراجع عنها بإتجاه حالة من التماسك الطائفى التى تتأكد على حساب التماسك الإجتماعى (٣٥). وتشير الحالة الثانية التى يتأثر فيها التماسك الإجتماعى سلبيا إلى حالة الأزمة التى قد يمر بها المجتمع، والتى تتصل بأسس وجوده. كمواجهة المجتمع لهزيمة عسكرية مثلاً، أو تعرض المجتمع لبعض الكوارث الطبيعية، التى تتجاوز قدرات البشر أعضاء المجتمع، أو حتى حالات الأزمات المحدودة، التى تتدفق فى مجرى الحياة اليومية، كالموت والمرض، وكل الأفعال الشريرة والمنحرفة (٣٦).

بالإضافة إلى ذلك توجد بعض الأزمات التى تعيشها بعض المجتمعات المعاصرة، والتى قد تؤدى إلى إنهيار هذه المجتمعات، من ذلك مثلاً إنتشار الفساد فى المجتمع. بحيث يؤدى ذلك – إذا إتسعت مساحته ومعدلاته – إلى عجز المجتمع عن إشباع الحاجات الأساسية للبشر، ومن ثم إلى زيادة مخزون التوتر فى المجتمع. وهو التوتر الذى إذا تجاوز مستويات محددة، فإنه يؤدى إلى تهتك النسيج الإجتماعى، كما يؤدى إلى إنهيار التماسك الإجتماعى لضعف كثافة العلاقات الإجتماعية التى تضم جماعات المجتمع فى إطار وحدة كلية واحدة متماسكة (٣٧). فى هذا الإطار يمكن النظر إلى الإنهيارات التى تواجهها مجتمعاتنا العربية، والتى تقود إلى تشتت أجزاء وجماعات أو فئات المجتمع، بإعتبار أن ذلك نتيجة لفشل النخب الحاكمة فى تنمية هذه المجتمعات،

أو عجزهـا عـن مواجهـة الفسـاد الـذى أصبـح بأشـكالة المتنوعـة يلـون طبيعة الحيـاة اليوميـة فيها (٣٨). أو أن التماسـك الإجتماعـى قـد يقـع لأن الديـن بحكـم التطـور الإجتماعـى الـذى حـدث فى بعـض المجتمعـات، قـد أصبـح أضعـف مـن أن يشـكل آلية مـن آليـات التماسـك الإجتماعـى، مثال عـلى ذلـك إنسـحاب الديـن عن أن يشـكل آلية الضبـط والتماسـك الإجتماعى فى بعـض المجتمعات الصناعيـة المتقدمة (٣٩).

ذلـك يعنـى أن إنهيـار التماسـك الإجتماعـى يمثـل حالـة إسـتثنائية لحالـة أصليـة وقاعديـة هـى حالـة التماسـك الإجتماعـى الـذى يتأكـد دائمـاً إلى جانـب فاعليـة متغـيرات اخـرى بواسـطة الديـن، إبتـداء مـن الديانـات البدائية، وحتى الديانـات الكتابية المتقدمة والمتطـورة. إذ نجد أنه فى المجتمعـات البدائيـة يلعـب الديـن دوراً أساسـيا فى تحقيق التماسـك أو التضامـن الإجتماعى، يصور هـذه الحالـة إميـل دوركيـم فى «مؤلفـة الأشـكال الأوليـة للحيـاة الدينيـة» بتأكيـده «أن موضـوع العبـادة هـو المجتمـع نفسـه الـذى يسـعى إلى أن يؤكـد ذاتـه بذاتـه، ويرسـخ شرعيتـه وقيمـة، من هنـا فـإن «اللـه» فى هـذه الحالة يكـون هو صـورة المجتمع، وليـس المجتمع صورة «الله». ويشـدد دوركيـم عـلى أن الديانـات لا تنحـصر فى المعتقـدات فحسـب، بـل تتجاوزهـا لتتنـاول الأنشـطة الطقوسـية والإحتفاليـة الدوريـة التـى يتجمع فيهـا المؤمنون ويلتقون سـويا. وفى هـذه الإحتفالات الجمعيـة، يتأكـد ويترسـخ الأحسـاس بالتضامـن الإجتماعـى، وفى مثـل هـذه التجمعات، ينـأى أفراد الجماعـة بأنفسـهم عـن المشـاغل اليوميـة للحيـاة الإجتماعيـة. ويرتقـون بأنفسـهم إلى مرتبـة عليا يشـعرون معهـا بالتواصـل مع قـوة علوية، هذه القوة العلوية المنسـوبة إلى التوتـم أو الآلهة، يكون لهـا وجودهـا الطاغـى والحـاضر عـلى النزعـة الفرديـة»(٤٠). ومـن وجهـة نظـر دوركيم فـإن هذه الشـعائر والإحتفـالات هـى التـى تربـط أفـراد الجماعـة مـع بعضهـم البعـض. ولا يتمثـل ذلـك فى تجمعـات العبـادة المنتظمـة فحسـب، بـل يتجـلى أيضا فى مراحـل الإنتقـال والأزمات، التـى قد تقع فى حيـاة الأفـراد والجماعـات مثـل الميـلاد والـزواج والموت.

وقــد ســبق العــالم العــربى عبــد الرحمــن بــن خلــدون إميــل دوركيــم فى تأكيــد أهميــة الديــن فى تحقيــق التماســك الإجتماعــى، بإعتبــاره أحــد متغيراتــه المحوريــة

إلى جانب دور التعاون الإقتصادى وسياسة الملك. إذ نجده يشير إلى «تزايد الفلاسفة حول هذا الرهان حيث يحاولون إثبات النبوة بالدليل العقلى، وأنها خاصة طبيعية فى الإنسان فيقررون هذا البرهان إلى غايته وأنه لا بد للبشر من الحكم الوازع. وذلك الحكم يكون بشرع مفروض من عند الله يأتى به واحد من البشر، وأنه لا بد أن يكون متميزا عنهم بما يودع الله فيه من خواص هدائية ليقع التسليم له والقبول منه، حتى يتم له الحكم فيهم من غير أنكار ولا تزييف. وهذه القضية للحكماء غير برهانية، إذ الوجود وحياة البشر قد تتم من دون ذلك، بما يفرضه الحاكم نفسه أو بالعصبية التى يقتدر بها على قهرهم وحملهم على جادته. فأهل الكتاب والمتبعون للأنبياء قليلون بالنسبة إلى المجوس الذين ليس لهم كتاب، فإنهم أكثر أهل العالم، ومع ذلك فقد دانت لهم الدول والآثار فضلا عن الحياة(٤١). وهو ما يعنى ان الدين يقوى الأمة بتأكيد لحمة تماسكها ومن ثم تكون لها الغلبة، وفى ذلك يقول بن خلدون ثانية «وذلك لأن الملك إنما يحصل بالتغلب أو «الغلب» إنما يكون بالعصبية وإتفاق الأهواء على المطالبة. وجمع القلوب وتأليفها، إنما يكون بمعونة من «الله» فى إقامة دينه، قال الله تعالى «لو أنفقت ما فى الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم. الأنفال، الآية ٦٣». وسره أن القلوب إذا تداعت إلى أهواء الباطل والميل إلى الدنيا حصل التنافس وفشا الخلاف. وإذا إنصرفت إلى الحق ورفضت الدنيا والباطل وأقبلت على «الله» إتحدت وجهتها، فذهب التنافس وقل الخلاف، وحسن التعاون والتعاضد، وإتسع نطاق الكلمة لذلك، فعظمت الدولة كما تبين لك، إن شاء الله سبحانة وتعالى... والسبب فى ذلك أن الصيغة الدينية تذهب بالتنافس والتحاسد الذى فى أهل العصبية وتفرد الوجهة إلى الحق، فإذا حصل لهم الإستبصار فى أمرهم لم يقف لهم شئ، لأن الوجهة واحدة والمطلوب متساو « عند جميعهم» وهم مستميتون عليه. وأهل الدولة التى هم طالبوها – وإن كانوا أضعافهم فأغراضهم متباينة بالباطل، وتخاذلهم لتقية الموت حاصل، فلا يقاومونهم – وإن كانوا اكثر منهم – بل يغلبون عليهم ويعالجهم الفناء بما فيهم من الترف والذل كما قدمنا»(٤٢). ويقدم بن خلدون، أمثلة على أن تأكيد الدين للتماسك الإجتماعى يسبب القوة

والغلبـة بقولـه، فقـد غلبـت جيوش المسـلمين بأعدادهـم القليلة جيـوش فارس والروم فى القادسـية واليرمـوك» لأن الإجتـماع الدينـى ضاعف قوة عصبيتهم بالإسـتبصار والإسـتماتة. كـما قلنا فلم يقف لهـم شـئ» ثـم يسـتمر قائـلاً «وأعتبر هـذا فى الموحدين مع زناته لمـا كانت زناته أبدى مـن الصامدة وأشـد توحشـاً، وكان للمصامـدة الدعـوة الدينيـة بإتبـاع المهـدى. فلبسـوا صبغتهـا وتضاعفـت قوة عصبيتهـم بهـا، فغلبـوا عـلى زناتـه أولا وإسـتتبعوهم، وإن كانـوا فى البـداوة والعصبيـة أشـد منهـم، فلـما «حالـوا» عـن تلـك الصيغـة الدينية إنتقضـت عليهم زناته مـن كل جانب وغلبوهـم على الأمر وإننزعـوه منهـم. واللـه غالب على أمـره (٤٣).

كـما تتضـح النزعـة إلى التماسـك والتكامـل فى ديانات الشرق الأقـصى كالهندوكيـة والبوذية، والكونفوسيوسـية والتاويـة. ويتضـح التماسـك والإسـتقرار مـن إعتقـاد الهندوكيـة - التـى يديـن بهـا نحـو ٧٥٠ مليـون هنـدوسى يعيـش أغلبهـم فى شـبه القـارة الهنديـة - فى مبـدأ التناسـخ والمبدأ الطائفـى Cast . ومـن خـلال مبدأ التناسـخ تـرى البوذية أن جميـع الكائنات الحية تمثـل جانبا من سـيرورة دائريـة أبديـه تعـبر مراحـل الميلاد والموت والميـلاد المتجـدد. ويتطابق هذا المبـدأ مع نظام الطائفـة Caste Systemالـذى يعتقـد البـشر فى إطـاره أن الأفـراد يولـودون فى نطاقه منتسـبين إلى شريحـة إجتماعيـة محـددة. وفى نسـق طقـوسى معـين وفقـا لطبيعـة الأنشـطة التى كانـوا يقومون بهـا فى مرحلـة أو دورة سـابقة. ولـكل شريحـة إجتماعية محـددة منظومة من الواجبات والشـعائر الـذى يحـدد أداؤهـا مصـير الشـخص فى الحيـاة المقبلـة (٤٤). وتحافـظ البوذيـة - التـى تنتـشر فى بلـدان الـشرق الأقـصى، مثـل تايلانـد وبورمـا، أو سـيريلانكا والصين واليابـان وكوريا - على الإسـتقرار والتماسـك الإجتماعـى مـن خـلال نزعـة إنسـحابية. تـرى أن بوسـع البـشر أن يتخلصـوا مـن دائرة التناسـخ المفرغـة عـن طريـق نبـذ شـهواتهم، حيث يتمثـل الخلاص لديهـم فى ضبط النفـس والتأمل بعيـداً عـن مشـاغل العـالم اليومية. وتسـعى البوذية إلى الوصـول إلى مرحلة «النيرفانـا» أى الذوبان الروحـى الكامـل فى الـكل سـواء كانـت الطبيعـة أو المجتمـع أو الجماعـة. وحتـى تحقـق البوذيـة

الإسـتقرار والتماسـك الكامل فى واقعهم الإجتماعى، فإنها تؤكد على التسـامح، وهى تماثل الهندوسية فى ذلـك، مـع التنـوع فى العقائـد المحليـة، بمـا فيهـا تعدد الآلهـة. ويتسـق تأكيد الكونفوشيوسـية – التـى تنتـشر فى الصـين بالأسـاس – عـلى التماسـك والإسـتقرار الإجتماعـى، مـن خلالهـا تأكيدها على ضرورة تكيـف الحيـاة البشريـة وإنسـجامها مـع عـالم الطبيعـة الداخـلى، مـع التشـديد عـلى إحلال الآبـاء والأجـداد الأقدمـين. إذ يشـكل التكيـف مـع الطبيعـة مـن ناحيـة ومـع الأجيال السـابقة من ناحيـة ثانية، المتغيرات المحددة للإسـتقرار والتماسـك الإجتماعى. ولا تختلـف «الطاوية» فى مبادئها كثـيراً عـن الكنفوشيوسـية، بـل تضيف إليها الدعـوة إلى عدم اللجـوء إلى العنف لتحقيق مسـتويات عاليـة مـن الحيـاة (٤٥). وهـو مـا يعنـى رفـض الشـقاق والـصراع الإجتماعـى وتفضيـل التماسـك والإسـتقرار عليه.

نسـتخلص مـما سـبق أن وظيفـة الديـن تتحـدد بالأسـاس فى الحفـاظ عـلى تكامل وتماسـك وإسـتقرار المجتمـع، بحيـث نسـتطيع إستكشـاف ذلـك من خـلال مظاهر عديـدة. ويتمثـل المظهر الأول فى إسـهام الديـن مـن خـلال دور الإحتفـالات الدينيـة فى تأكيـد روح التضامـن والتماسـك الإجتماعـى، حيـث يصـدر ذلـك عـن حاجـة أى مجتمـع إلى جملـة مـن العواطـف. التـى تعيـد تأكيـد أفـكار الديـن وعواطفـة الجمعيـة لديـه بصورة دوريـة ورتيبة، بحيـث تؤكد هـذه العواطف وحدتـه وتماسـكة وتمنحـه هويتـه. وذلـك لـن يتحقـق إلا مـن خـلال الإجتماعـات الطقوسـية والإحتفاليـة، التـى تعيـد تأكيـد عواطفهـم المشـتركة. فليـس هنـاك مجتمـع حديـث أو قديم يمكن أن يسـتمر بـدون مجموعـة مـن الطقـوس المشـتركة التـى تؤكـد معتقداتـه ووحدتـه(٤٦). مثـال عـلى ذلـك رقصـات المطـر التـى تقـوم بهـا بعـض القبائـل البدائيـة فى وقـف معـين مـن العـام – فى الغالـب فى فصـل الشـتاء - والتـى تعيـد تأكيـد التماسـك بـين وحـدات القبيلـة المشـتتة بسـبب البحـث عـن مواطـن لرعـى الماشـية طيلـة العـام وبخاصـة فى فصـل الصيـف(٤٧). كـما يمكـن أن يدخـل فى ذلـك الإحتفـالات التـى تقيمهـا الشرائـح الشـعبية لمقامـات الأوليـاء، والتـى تلعـب دوراً أساسـيا فى التاكيـد عـلى المعتقـدات المشـتركة بينهـم. إضافـة إلى تكثيـف العلاقـات المتنوعـة بينهـم بمـا ينعكـس عـلى تأكيـد تماسـكهم الإجتماعـى. كذلـك طقـوس الحـج فى الإسـلام، حيـث

يجتمع المسلمين فى مكان واحد كل عام، ليعيدوا التأكيد على معتقداتهم، ومن ثم على تماسكهم ووحدة أمتهم.

خامساً: دور الدين فى مواجهة أزمات المجتمع

إلى جانب أن الدين يحافظ على التماسك الإجتماعى من خلال المناسبات الإحتفالية، فإنه يحافظ على ذات التماسك فى اوقات الأزمات الإجتماعية التى يمر بها المجتمع. حيث نجد أن الدين يؤدى هذه الوظيفة الهامة فى أوقات الأزمات، سواء على مستوى الفرد او المجتمع. ذلك يرجع إلى أنه حينما يواجه الفرد أو المجتمع أزمة فإنه يحتاج إلى دعم من خلال ثلاث أبعاد فى مواجهة الأزمة. الأول أن يستجمع المعانى الدينية فى ذاته، وهى المعانى التى تؤكد القوة بداخلة، طالما أنه مؤمن ملتزم بالعقائد والطقوس الدينية، التى تشكل قيمة او قوة مضافة إلى قوته. ومن خلال البعد الثانى يحدث إلتحام بين الفرد والجماعة التى ينتمى إليها عبر المناسبة الدينية، التى تهدد وجود الجماعة او أحد أفرادها. ومن ثم يشكل التماسك الذى تفرضه أو تتطلبه المناسبة قوة مضافة تدعم الفرد أو الجماعة فى مواجهة الأزمة. ومن خلال البعد الثالث فهو يلجأ إلى القوى السماوية، التى يعتقد أنها سوف تقف إلى جانبه، ومن ثم سوف تدعم قدراته أو قدرات الجماعة فى مواجهة الأزمة (٤٨). إرتباطا بذلك يؤكد «براين تيرنر» أن التهديدات والأزمات التى تتعرض لها الجماعة أو المجتمع، تفرض إستدعاء المعانى الدينية المرتبطة بأفعال البشر. تأكيدا لذلك أن الكوارث والأزمات الطبيعية التى تقع فى المجتمعات الأولية أو التقليدية كالزلازل، ونوبات الجفاف وغياب الأمطار والأوبئة الفتاكة، والتى تشكل تهديدات أساسية لحياة الجماعة والأفراد، فإنه نظرا لأنه لا يمكن مواجهتها أو إصلاحها بسهولة، فإن الحاجة تبرز فى هذه الحالة إلى مواجهة هذه الأزمات من خلال التصالح مع القوى السماوية والغيبية. حيث تتأسس أفكار يقرأ من خلالها الإنسان الكوارث الطبيعية بإعتبارها إنعكاس لحالات فوضى وكوارث فى المجتمع. بذلك ينظر إلى الكوارث والإنهيارات الإجتماعية كالحروب، والصراعات الداخلية التى تنتشر على ساحة الجماعة، والقسوة أو الفظاظة غير الإنسانية بإعتبارها

تحديات لحالة الإعتياد والإستمرار. وفى هذا السياق يدفع عدم اليقين بإمكانية تحقق نتائج الفعل الإجتماعى، الذى تقوم به الجماعة فى مواجهة الحدث، وكذلك ما يترتب على إحتمال قيامها بالمخاطرة فى مواجهته، إضافة إلى عدم التنبؤ بمستقبل الظروف، إلى الإستجابة الجماعية فى مواجهة الحقيقة الطبيعية الطارئة، وغير المحددة. وبذلك تعتبر المخاطرة، والشك فى المجهول، والمعانى غير اليقينية، تهديدات للأمان الوجودى للجماعة، أى تهديد للمعانى العاطفية المرتبطة بإستمرار الجماعة والذات والهوية (٤٩). وفى هذه الحالة يتمثل أحد جهود مواجهة مخاطر الإنهيار والفوضى، فى إستدعاء الدين بإعتباره نسقا من القيم والرموز، التى تعمل من خلال تأثيرها العاطفى بإتجاه تجميع البشر وربطهم ببعضهم البعض. حتى يشكلوا جماعة دينية، لها ذات طبيعة مقدسة، بل ويعمل على تزويدها بالتزام معيارى وإيثارى لتحقيق غايات جمعية تتجسد فى مواجهة التهديد. وفى هذه الحالة يعمل الدين بإتجاه تأسيس جبهة أو جماعة متماسكة فى مواجهة الأزمة أو الكارثة، نتيجة للممارسات الطقوسية المشتركة والإشتراك فى معتقدات واحدة. وعلى هذا النحو يؤسس الدين رمزية قوية لتماسك الحياة الإجتماعية والوجود الإنسانى، كما يولد الخبرات المشتركة والقوية للعضوية الإجتماعية المتماسكة والمتكاملة (٥٠). وبتعبير إميل دوركيم يعتبر الدين خاصية أساسية للحياة الجمعية على هذا النحو، لأن الدين يعد فكر إجتماعى جمعى.

وتعتبر الوفاة أحدى الأزمات التى تواجه الجماعة، لكونها تشكل إنتقاصا لأحد أعضائها، وكلما كان الشخص المتوفى يشغل مكانة هامة كلما كان لذلك تأثير كبير على الجماعة. بحيث نجد أن هناك توازنا بين مكانة الشخص الذى توفى، وإتساع نطاق الطقوس الجنائزية التى تؤدى له، حتى أنها قد تشمل المجتمع بكاملة. حيث تعمل هذه الطقوس على إستعادة الشخص المرتبط «بالمتوفى» وكذلك الجماعة التى ينتمى إليها، لحالتها الأساسية، حتى يتحقق الخروج من أزمة الموت بصورة كاملة. فى هذا الإطار فإننا نجد أن الشخص المحزون يستريح من أزمة الموت بسبب المواساة التى تصدر عن المواسين أو

المحزونـين الآخريـن، بحيـث يشـعر بـأن ثقـل الحـزن قـد خـف عنـه بسـبب مشـاركة الأصدقـاء له. بالإضافـة إلى أن التعزيـة التـى تصـدر عـن القـوى الغيبية له، والتـى تصبح مقنعة لـه لأنها أصبحت جـزء مـن الثقافـة، ولكونهـا تتكـرر دائمـاً، فإنهـا تولـد قناعـة بصدقهـا. مثـال عـلى ذلـك أن المعـانى الدينيـة لـدى المحـزون تعـبر عـن إعتقـاد بأن الشـخص الذى تـوفى لم يمت ولكنـه إنتقل إلى السـماء (٥١) يؤكـد ذلـك فى الإسـلام قـول اللـه تعـالى فى القـرآن الكريـم «ولا تحسـبن الذين قتلوا فى سـبيل اللـه أمواتـا بـل أحيـاء عنـد ربهـم يرزقـون» آل عمـران. الآيـة ١٦٩. وقوله تعـالى «كل نفـس ذائقة المـوت وإنمـا توفـون أجوركـم يـوم القيامـة فمن زحـزح عن النـار ودخل الجنـة فقد فاز ومـا الحياة الدنيـا إلا متـاع الغـرور» آل عمـران، الآيـة ١٨٥. ، حيـث نجـد ذلـك يتسـق ورغبـة المحـزون فى أن «اللـه» سـوف يُبقـى لـه الشـخص الذى توفى حيـا فى الحياة الآخـرة». ذلك يعنـى أن الدعم المعنوى والمـادى الـذى يقدمـة أفـراد الجماعـة إلى أسرة المتـوفى – وهـو مـا يحـض عليـه الديـن - يسـاعد فى التأكيـد عـلى وحـدة وتماسـك الجماعـة. عن طريـق بث الحيويـة فى العلاقات الإجتماعيـة، فى نطاق المجتمـع المحـلى، إضافـة إلى أنـه يعيـد إحيـاء العواطـف الدينيـة فى نفـوس أفـراد الجماعة، بسـبب وجودهـم فى مواجهـة واقعـة المـوت، وذلـك يعنـى أن العواطـف الجمعيـة تلقـى فى هـذه الظروف قـدراً مـن الدعـم والتأكيد.

وإستمرار لتأكيد الدين على تماسك المجتمع، نجد أن التدين الشعبى الذى يؤكد على التقرب لأوليـاء اللـه الصالحـين والتـبرك أو التوسـل إليهم، يلعب دوراً أساسـياً، فى تأكيد التماسـك الإجتماعى مـن خـلال تقويـة شـبكة العلاقـات الإجتماعيـة (٥٢). إذ أنه حينما تقـام للولى إحتفاليـة فإن الناس يتجمعـون بالمـكان المحيـط بـه، بحيث يتضاعف عدد البـشر فى المكان اضعاف كثـيرة، للتبرك وتبادل السـلع والخدمات، والمشـاركة والإثارة بوسـائل التسـلية والسـحر. بحيث يؤدى ذلك تعزيز علاقات القـربى وغيرهـا من العلاقات والروابط الاجتماعية، التى تؤسـس شـبكات علاقـات جديدة بين البشر، الذين جاؤا من أماكن ومناطق متباينة التباعد. بحيث يؤدى غيابها إلى وقوع فراغ إجتماعى وثقافى، لأن هـذه الظـروف الإحتفاليـة إلى جانـب أنها تعمل عـلى تفريغ التوتر الإجتماعى المختزن سـواء فى

بنيـة البـشر أو فى حيـاة المجتمـع المحلى. فإن الأناشـيد والأهازيـج والقصائد والإيقاعـات والرقصات التـى ترتبـط بالممارسـات والطقـوس، التـى تثـير الطـرب فى النفـوس، مـن شـأنها أن تنـشر حالة من الإيجابيـة والتـواد داخـل بنـاء الجماعـة. ثـم أن هـذه الإحتفـالات تعد مناسـبات فريدة مـن نوعها «للإتصـال الإجتماعـى، خصوصـا بالنسـبة لأهـل الباديـة الذيـن يعيشـون منعزلـين فى دواويرهـم الصغـيرة حيـاة رتيبـة ذات أفـق محـدود». بحيـث تمتلـك الجماعات فى هـذه الإحتفالات المناسـبية شـبكة علاقـات إجتماعيـة أكـثر كثافـة عـن ذى قبل، ومـن الطبيعى أن تصبـح الجماعة أكثر تماسـكا عـن ذى قبـل» (٥٣). فقـد أضيفـت إليها قيـما جديدة، تتمثل فى تأسـيس علاقات جديـدة، وتفريغ توتـرات مختزنـة ومكتومـة، إضافة إلى إحياء وتنشـيط العواطـف الدينية، وتفعيـل دورها فى توجيه سـلوكيات الجماعة.

بالإضافـة إلى ذلـك فإنـه نظـراً لأن المجتمعـات المعـاصرة وحتـى التقليديـة مـن النـادر أن تسـودها حالـة دينيـة متجانسـة، حيـث نجـد أن غالبيـة هـذه المجتمعـات تضـم جماعـات دينيـة متنوعـة عـلى أسـاس مـن التبايـن الدينـى والمذهبـى. فى هـذه الحالـة فإننـا نجـد أن الإختلافـات الدينيـة، تـؤدى عـادة إلى التوتـر والـصراع بين الجماعـات الدينية. ومن ثم تكـون ذات تأثير تفكيكى بـدلاً مـن أن تـؤدى إلى التماسـك والتكامل الإجتماعى بالنسـبة للمجتمع ككل. ويتبـدى هذا الدور التفكيـكى، لأن المعتقـدات الدينيـة لـكل جماعـة تعمـل على تأكيـد هويتهـا ورؤيتها للعالم، إسـتناداً إلى مبادئهـا الدينيـة. ومـن ثـم تصبـح الحـدود بـين الجماعـات الدينيـة واضحـة والعلاقـات بـين الجماعـات أو الأفـراد، الذيـن ينتمـون إلى جماعـات متباينـة ليسـت كثيفـة. بحيـث تصبـح أبـواب كل جماعـة دينيـة مغلقـة فى مواجهـة الجماعـات الأخـرى، كـما تبـدأ الجماعـات فى أحيـاء هويتهـا ورموزهـا الدينيـة بصـورة متبادلـة، بالإضافـة إلى ذلـك تبدأ كل جماعـة فى بحث نصيبهـا من الفرص الإجتماعيـة. فـإذا إتسـعت الفجـوة بـين الإسـتحقاق والواقـع بالنسـبة لأى جماعـة، فإن ذلـك يقود بطبيعـة الحـال إلى التوتـر والـصراع، سـواء مـع الجماعات الأخرى أو مع سـلطة المجتمـع. وفى هذه الحالـة يصبـح الديـن ذو طبيعـة تكامليـة بالنسـبة لأحـدى الجماعـات، غـير انـه قد يصبـح تفكيكيا بالنسـبة للمجتمـع ككل أو الجماعـات الأخـرى (٥٤).

فى مواجهـة هـذه الأوضـاع التفكيكيـة التى تسـببها التعدديـة الدينية يطرح إميـل دوركيم، مفهـوم الديانـة المدنيـة Civil Religion. حيـث نجده يذهب إلى أنه إذا كان التماسـك الإجتماعى مسـتحيلاً فى المجتمـع المتبايـن دينيـا، فإننـا نجـده يؤكـد عـلى فكـرة الطقـوس أو الشـعائر الجمعية ذات الطبيعـة القوميـة، والتـى تشـكل فى هـذه الحالـة مصـدراً للتأكيـد عـلى العواطـف المشـتركة. ففـى حالـة غيـاب المعتقـدات والشـعائر الدينيـة التقليديـة، التـى تلقـى إتفاقـا مـن كل أعضـاء المجتمـع. يؤكـد إميـل دوركيـم عـلى أهميـة تطويـر عواطـف قوميـة وشـعائر قوميـة، لـكى تشـكل أساسـاً للتماسـك الإجتماعـى. وفى هـذه الحالـة يبـدو أن دوركيـم قـد تحرك بإتجـاه الديانـة المدنية كحـل للعلاقـة بـين الجماعـات وبعضهـا البعـض أو بين الفـرد والمجتمـع(٥٥).

غـير أننـا إذا تأملنـا فكرة الديانة المدنية التى يمكن أن تشـكل قاعـدة للتضامن الإجتماعى - فى حالـة غيـاب الضمـير الجمعـى الدينى – وتقوم بإحياء وتقوية العواطف المشـتركة. والتى تشـكل آليه التماسـك فى المجتمع، لوجدنا أن الفكرة لا ترجع إلى دوركيم وحده، فقد أشـار إليها الفيلسـوف جـان جـاك روسـو فى كتابـه «العقد الإجتماعى». وتجسـيدا لذلك يمكـن النظر إلى ديانـة المهاجرين الذيـن إسـتقروا فى المجتمـع الأمريكى، بإعتبارها ديانه جمهورية وديموقراطية(٥٦). فبسـبب ظروف تاريخيـة طارئـة تشـكلت الديانة المسـيحية فى أمريكا حـول بناء من السياسـات العلمانية التى تؤكد عـلى الإنفصـال بـين الدولة والكنيسـة. وعلى غيـاب الديانه الواحـدة والكاملة التأسـيس، إضافة إلى التأكيـد عـلي حريـة الضمـير الفـردى، إلى جانب الإعـتراف القومـى بالحريات الدينيـة. وهى الأفكار التـى نتـج عنهـا عدد لا حصر له مـن الطوائف والمذاهـب الدينية فى المجال الدينـى، تناظر التنافس الديموقراطـى بـين الأحـزاب السياسـية. بحيـث أدى إنسـحاب الديـن مـن المشـاركة فى الصراعـات السياسـية الصريحـة، إضافـة إلى إتاحـة الفرصـة للتعدديـة الدينيـة. الأمـر الـذى أدى إلى تأسـيس قاعـدة مـن المعتقدات والأسـاليب، التى يسرت للمسـيحية أن تـؤدى وظيفة الديانـة المدنية بصورة منقطعـة النظـير، بالنسـبة للولايـات المتحـدة، حيث يسـتمر الحماس الدينـى متضافرا بصـورة دائمة

مع آداء واجبات المواطنة. حيث أصبح التناظر بين التباين البنائى للمجتمع الأمريكى وسياساته الديموقراطية من ناحية، والأفكار والمعتقدات الدينية من ناحية ثانية، أساس لجملة التحليلات التى تناولت الديانة المدنية الأمريكية فى نطاق علم الإجتماع الدينى (٥٧). وهو ما يعنى تداخل الدين والسياسة لتأكيد تماسك المجتمع الأمريكى.

ويشكل ظهور الأصولية الدينية آلية من آليات التماسك الإجتماعى على قاعدة من الدين. ويقع ذلك حينما تعانى بعض المجتمعات التى تتبنى الأيديولوجيات العلمانية، من بعض الظواهر التى تشير إلى إنهيار تماسكها، بسبب الفساد الإقتصادى والسياسى والإنهيار القيمى والأخلاقى. بحيث يصبح المجتمع على شفا أزمة طاحنة، كما فى كثير من مجتمعات الجنوب المتخلفة. أو أن تقوم بعض المجتمعات العلمانية على الصعيد العالمى - التى من المفترض أن تدافع عن شعارات الحرية والمساواه والأخاء الإنسانى - بإرتكاب بعض السلوكيات اللا أخلاقية على الصعيد العالمى فى ظل غطرسة القوة. المجتمعات الأولى تعيش حالة أزمة على الصعيد القومى، والثانية تفرض على العالم أن يعيش حالة أزمة أو أزمات (٥٨)، وكلاهما يؤدى إلى نشر حالة من التفكيك الإجتماعى. الأمر الذى يفرض الحاجة إلى التماسك القومى فى النمط الأول، والأستقرار والتكامل على الصعيد العالمى فى نطاق النمط الثانى. حيث تؤدى هذه الأوضاع إلى نشأة الحركات الأصولية الدينية، التى تستدعى الدين كروح لهذا العالم الذى لا روح له، فى محاولة لإستعادة الإستقرار والتماسك الإجتماعى، لتجاوز واقع الأزمة.

ذلك يفسر إنتشار كثير من الحركات الدينية الأصولية فى بعض المجتمعات العاجزة عن تحديث مجتمعاتها، بعيداً عن الفساد والقهر. كما يفسر إنتشار النزعات الدينية الأصولية، فى أوساط الكثير من المجتمعات العلمانية المتقدمة. كأنتشار الأصولية المسيحية فى الولايات المتحدة، بإعتبارها ردا على القيم العلمانية، أو على ما يوصف بالأزمة الأخلاقية للمجتمع الأمريكى (٥٩). كما يفسر ذلك ايضا ظهور الجماعات الأصولية الدينية فى كثير من المجتمعات

الإسلامية، التى أصبحت تعانى من إنتشار الفساد والقهر الأبوى، وفشل سياسات التحديث. حيث يصبح السعى إلى الدين حينئذ بحث عن اليقين، أو بحث عن قاعدة جديدة للتماسك الإجتماعى، الذى تنتفى فى إطاره كل السلبيات.

سادساً: دور الدين فى تماسك بناء الشخصية الإنسانية

وإذا كنا قد عالجنا دور الدين فى تاكيد تماسك المجتمع فى كليته فإن الشخصية الإنسانية تشكل هى الأخرى كلا، غير أنها كلا مصغراً مقارنة بكلية المجتمع الشاملة. وإذا كان الإنسان يؤدى فعلاً أو سلوكا فى موقف معين، فإن هذا الفعل او السلوك يحتوى على العناصر الأساسية، التى تشكل بنية المجتمع، ذلك لأن الإنسان قد إستوعب معنويا المجتمع بداخله. والمجتمع من داخله هو الذى يفرض فعله، ويحدد الشروط التى تنجز فى إطارها الفعل، لذلك تتماثل علاقة الإنسان بالدين مع علاقة المجتمع به. وفى مقابل وجهة النظر التى تؤكد على أن المجتمع يعبر عن ذاته من خلال سلوكيات الإنسان وأفعاله، فإن ثمة وجهة نظر مقابلة تؤكد أن السلوك الدينى للمجتمع، توجد جذوره الجنينية فى شخصية الفرد. وإذا كنا قد عرضنا فى الصفحات السابقة للأسلوب الذى يعمل به المؤمن البروتستنتى، بإتجاه تأسيس النظام الرأسمالى إستناداً إلى قيمة، فإننا نرى أن موقف الإسلام شبيه بذلك. حيث نجد أن خلق «الله» للفطره الإنسانية التى فطر الناس عليها، يشكل بداية تأسيس المجتمع الإنسانى. فى هذا الإطار تحتوى الفطره الإنسانية على مساحات الخير والشر اللذان يوجدان فى المجتمع. ونظراً لأن الخير إيجابى بطبيعته والشر سلبى بطبيعته كذلك، فإننا نجد أن مساحة الخير والإيجابية أوسع فى الفطرة الإنسانية، من مساحة الشر والسلب. ونظراً لإمتلاك الإنسان لهذه الفطرة فقد إختارت المشيئة الالهية الإنسان خليفة «الله» فى الأرض، يتولى إعمارها وتطوير عمرانها. وحتى يصبح العمران سليما ودائماً، ويلبى الحاجات الإنسانية بالأساس، فقد قدم «الله» فى القرآن، بإعتباره الكتاب المقدس والالهى، المقاصد الشرعية الخمسة التى تشكل البوصلة التى على أساسها يؤسس الإنسان خرائط العمران البشرى، وهى الحفاظ على الدين والنفس والعقل والنسل والمال. وهى المقاصد التى يمكن

تكثيفها فى عناصر ثلاثة هى الدين والإنسان والمال، إذا توفرت بإيجابية فإن العمران يزدهر (٦٠). فإذا تأملنا المقاصد الشرعية فسوف نجد أن الدين فى المرتبة الأولى فيها، لأنه من ناحية الأكثر أهمية، ومن ناحية ثانية لأنه الذى يتولى تفعيل المقاصد الأخرى التالية له، ويوجهها تجاه بناء العمران السوى والسليم.

على هذا النحو يؤدى الدين وظائف عديدة لتحقيق تماسك بناء الشخصية فى علاقتها بالمجتمع والوجود المحيط. من هذه الوظائف أن الدين يساعد الإنسان على التكيف فى أوقات الأزمات، ومن ثم يساعد فى إستعاده الشخصية لتوازنها وإستقرارها. ويتحقق ذلك فى الظروف التى تكون فيها الذات الإنسانية محاصرة فى أوقات الأزمات، تبحث عن وسائل للفكاك منها، أو البحث عن حل لها، أو إمتلاك القدرة للتغلب على هذه الأزمات. فى حالة الأزمة «يقدم الدين للإنسان المعنى النهائى الذى ينظم الحياة والكون، ويساعد على تقوية الشعور بتجاوز الذات والمكان الضيق والأونة المحدودة. فالدين قلعة يُحتمى بها الفرد في مواجهة اليأس، أو أنه - أي الدين - يقدم نوع من التسامى تعويضا عن الفشل فى تحقيق رغبات إنسانية ملحة (٦١). حيث يزود الدين الإنسان بالطاقة والقيمة المضافة، وبذلك تصغر الأزمة وتهون فى عين المؤمن، ويستدعى بذلك القول الدينى المأثور «لو كانت الدنيا تساوى جناح بعوضه ما سقى «الله» الكافر منها جرعة ماء»، وحينما تصغر الأزمة، وتتعاظم قدرة الإنسان، ومن ثم يصبح تجاوز الأزمة ممكنا ولو بمجرد الصبر عليها.

تأكيداً لذلك أن أوقات الأزمات هى فى نفس الوقت أوقات إزدهار التدين عند البشر. فالعجز عن الفعل يشكل ازمة تواجه الإنسان، سواء كان الفعل الذى يرد الظلم أو الإعتداء ويواجهه، أو الفعل الذى يتوسل به إلى «الله» ويرجو منه الحصول على ما يستحق. وقد إتضح ذلك من دراسة سيد عويس عن الرسائل التى يرسلها الفقراء والضعفاء إلى الأمام الشافعى، صاحبة إحدى هذه الرسائل قارب أن يفوتها قطار الزواج وتطلب من الإمام الشافعى أن يدبر لها زوجاً. أو فلاح يطلب فى رسالته معاقبة من أحرق زرعة أو يرجع له – جاموسته – التى سرقت منه. أو الزوجة العقيم التى تطلب من الإمام الشافعى فى رسالتها أن

يساعدها فى إنجاب ولد (٦٢). جميعها رسائل تعبر عن حالة العجز وإفتقاد القدرة، التى تؤدى إلى وضع الإنسان فى حالة أزمة، فى مواجهتها يلجأ الإنسان إلى «الله»، متبركاً بأوليائه الصالحين كوسيلة إليه، ليساعده على تجاوز هذه الأزمة أو على الأقل إمتلاك القدرة لمواجهتها.

بالإضافة إلى ذلك فقد يساعد الدين الإنسان على التكيف من خلال التغلب على القلق الذى قد يواجهه فى بعض فترات حياته. وتتجلى هذه الحالة التى يصبح الدين فيها آليه للتغلب على القلق من خلال أمثلة كثيرة. مثال على ذلك أن فترة الشباب تكون هى عادة الفترة التى يطرح فيها الشباب أسئلة دينية كثيرة تبحث عن معانى أشياء كثيرة فى عالمه وتحيط به، أو بالأصح تبحث عن يقين. حيث تزدهر هذه التساؤلات بسبب التحولات التى تخضع لها الشخصية الشابة فى مرحلة المراهقة، التى تشكل بداية الشباب، فى هذه المرحلة تقع تحولات فى البنية البيلوجية والفسيولوجية لا يدرك الشاب معناها. إضافة إلى تحولات فى البيئة الإجتماعية المحيطة به، تقع فيها صدامات جيلية عديدة، بسبب طلب الشاب الإعتراف به بالغا عاقلاً، وهو الإعتراف الذى لا يمنح إياه بسهولة. ومن ثم فمثلما تعيش بنيته البيلوجية ازمة تحول، فإن علاقته بالسياق الإجتماعى تعيش هى الأخرى أزمة تحول كذلك (٦٣). ويصبح الدين هو الساحة التى يسعى إليها الشباب طلبا للعون والطاقة، التى تساعده فى التغلب على مسببات أزماته. والطاقة مصدرها «الله» الذى قد يمد الإنسان بالعون، وبذلك يصبح تعميق معتقدات الدين فى الذات وممارسة طقوسه، وسيلة إلى طلب العون والمساعدة من «الله». يؤكد ذلك أيضا تزايد التدين كلما أدرك الإنسان عجزه فى مواجهة السياق الطبيعى والإجتماعى المحيط. مثال على ذلك أن الفلاح الذى يزرع أرضه، يدرك ضعفه أمام الطبيعة التى تحدد له، إلى جانب عمله، المحصول الذى سوف يحصل عليه. لذلك فهو يلجأ إلى «الله» لمساعدته فى التغلب على الطبيعة، أو فرض أن تعمل الطبيعة لصالحه، ونظراً لعدم قدرته على التجريد، فإنه يتوسل إلى «الله» بالأولياء، يقدم لهم النذور طلبا لمساعدتهم ومساعدة «الله» العظيم له.

ويتسق مع ذلك إننا إذا تأملنا حركات الجهاد التى قاومت الإستعمار فى العالم الإسلامى طلبا للتحرير والإستقرار، فسوف نجد أنها كانت تعيش حالة إزمة، بسبب ضعفها وقلة حيلتها. فى مواجهة قوة القوى المستعمرة لمجتمعاتها والمتفوقه عليها عددا وعدة، وحتى تتغلب عليها فإنها ترفع راية الدين لتجاوز أزمة عدم التكافؤ. تأكيدا لذلك أن مقاومة المستعمر فى العالم الإسلامى، وطرد القوى المستعمرة قامت بها الجماعات الدينية الجهادية بالأساس (٦٤). فهى تلجأ إلى «الله» وتستمد الطاقة من التدين، ليشكل قيمه مضافة تساعدها فى التغلب على عدوها، حتى قهرة.

ويشكل التغير الإجتماعى بفاعلية رمزية الدين ومعانية الأسلوب الثالث، الذى يستطيع بواسطته الإنسان تأسيس عالم يساعد في إشباع حاجاته، ويوفر له الوجود الملائم. ذلك يرجع إلى أنه فى بعض الفترات التاريخية يدرك الإنسان أن السياق الإجتماعى الذى يعيش فيه يخضع لحالة من الفوضى. ومن الضرورى إعادة صياغته وفق معانى جديدة، حتى يصبح عالم ملائماً للإنسان ومؤهلا لإشباع حاجاته الأساسية. تأكيداً لذلك ما ذكره عالم الإجتماع ماكس فيبر، ويتعلق بالفاعل المسيحى الذى شرع فى بناء النظام الرأسمالى إستناداً إلى قيمة البروتستنتية، حيث تجاوز الواقع المحيط به، والذى تسوده رأسمالية تقليدية، كما يسود فيه قهر الكنيسة الكاثوليكية وسطوتها. كذلك الدور الذى تلعبه كل حركات المقاومة الدينية، والتى تستلهم المعانى الإنسانية النبيلة المتضمنة فى الأديان، والتى تسعى من خلالها بإتجاه تأسيس عالم إنسانى بلا ظلم أو معاناه. عالم آمن إستنادا إلى معانى دينية متجددة تتلاءم ومتغيرات العصر الذى نعيش فيه. أو من خلال إستدعاء المعانى الدينية للسلف، بإعتبارها المعانى التى أسست مجتمعات عظيمة، وكانت حارسة لتحقق الإيمان والخير والعدل فى أرض أصبحت ممتلئة جورا.

سابعاً: دور الدين فى تشكيل رؤية الإنسان للعالم

يشير الحديث عن التماسك الإجتماعى إلى إمكانية تناوله على ثلاثة مستويات، مستوى المجتمع ومستوى الجماعة ومستوى الشخصية، بإعتبارها

عضواً فى الجماعة والمجتمع، وأيضا بإعتبار أن الشخصية هى نتاج لهما معا. ونحن إذا قمنا بتحليل بنية الشخصية فسوف نجد أن كل العناصر القائمة فى المجتمع والجماعة، تعبر عن ذاتها من خلال فعل او سلوك الشخصية، الذى يشكل وحدة التفاعل الحادث فى المجتمع. بالإضافة إلى ذلك فإن التماسك الإجتماعى على أى من المستويات الثلاثة السابقة له علاقة برؤية الشخصية للعالم المحيط بها، بغض النظر عن تتابع إتساع دوائره. وذلك يرجع إلى أن الدين يشكل المتغير الرئيسى الفاعل فى تحقيق التماسك الإجتماعى على المستويات الثلاثة التى أشرت إليها، وفى ذلك الوقت فإن الدين يلعب دوراً أساسياً فى تشكيل رؤية الإنسان أو الشخصية أو الذات للعالم المحيط به، إضافة إلى كونه المرجعية التى تساعد فى تفسير بعض أحداثه.

ذلك يدفعنا إلى محاولة تعريف مفهوم رؤية العالم، إرتباطا بذلك فإننا سوف نواجه بتعريفات عديدة. أحد هذه التعريفات يرى أن مفهوم رؤية العالم «يعنى بوجه خاص الطريقة التى يرى بها الشخص فى مجتمع معين، نفسه فى علاقته بكل ماعداه. أى ان المصطلح يعنى إدراك خصائص الوجود ومقوماته، من حيث تمايزها عن الذات وإرتباطها فى الوقت نفسه بهذه الذات. إنها بإختصار فكرة الشخص عن الكون، أو منظومة الأفكار التى تجيبه عن تساؤلاته حول موقفه من الوجود، والأشياء التى تحيط به، وعلاقته بالأشياء». فكأن مفهوم رؤية العالم يقصد به – فى أحد أبعاده على الأقل – كل الأفكار والتصورات التى تقوم على أساس الإفتراضات التى يسلم بها أعضاء مجتمع من المجتمعات. عن طبيعة العالم، وأسس وجوده، وموقف الإنسان من ذلك العالم وهذا الإدراك، ليس من وجهة نظر الباحث، ولكن حسب تصورات أعضاء ذلك المجتمع أنفسهم(٦٥). وفى موضع آخر تعرف رؤية العالم بإعتبارها «تؤلف نسق الفكر أو نسق المعتقدات أو حتى نسق الرموز التى تكمن وراء العلاقات والنظم والأنساق، وتساعد على قيامها، حتى وإن كان أعضاء المجتمع لا يدركون وجودها»(٦٦). إلى جانب ذلك يعرف دلتاى رؤية العالم بإعتبارها الصورة الكونية Cosmic Picture التى تؤلف النواة الأساسية أو على الأصح «الكتلة

الأساسية للمعتقدات والمسلمات الإفتراضية عن العالم الحقيقى الواقعى. والتى يمكن فى ضوئها، أو بالنظر إليها، الوصول إلى إجابات شافية عن التساؤلات حول مغزى الكون» (٦٧).

ويقدم مالينوفسكى تعريفه لمفهوم رؤية العالم بقوله «إن ما يهمنا حقا فى دراسة الإنسان البدائى هو نظرته إلى الأشياء ورؤية العالم لديه وروح الحياة والواقع الحقيقى... فكل ثقافة من الثقافات الإنسانية تزود أعضاءها برؤية محددة للعالم وبمذاق خاص ومحدد للحياة. ففى تجوالى وتطوافى عبر التاريخ الإنسانى، وفى رحلتى وإنتقالى فوق سطح الأرض، وجدت إمكانية رؤية الحياة والعالم من مختلف الزوايا، التى تتميز بها كل ثقافة على حده، الأمر الذى كان يملك علىّ أمرى، ويملأنى بالرغبة الحقيقية فى التغلغل والغوص إلى أعماق تلك الثقافات وفهم أنماط الحياة بمختلف أشكالها (٦٨) فإذا كنا قد أشرنا إلى أن الدين يشكل قاعدة الثقافة، فإن ذلك يعنى أن الدين يلعب دوراً محوريا فى تأسيس رؤية الشخصية للعالم. بالإضافة إلى ذلك فإن مفهوم رؤية العالم يعنى عند روبرت ريدفيلد «الطريقة التى يرى بها الإنسان نفسه فى علاقته بكل شئ آخر، أو فى علاقته بكل ما عداه، وهذا يقتضى ترتيب الأشياء والأمور الموجودة بالفعل فى هذا الكون، أو التى نعتبرها موجوده او نتصور وجودها، وذلك حسب أولويات معينة يقتضى البحث فى تحديدها» (٦٩).

على هذا النحو فإننا إذا تأملنا الكتابات المتعلقة برؤية العالم فسوف نجد أنها تتفق حول مجموعة من العناصر الأساسية التى تشكل بنية رؤية العالم. حيث يشير العنصر الأول إلى تشكل رؤية العالم من مجموعة من الإفتراضات الأساسية التى يدرك المجتمع أو الفرد طبيعة العالم المحيط به بالإستناد إليها، وهو العالم الذى يتشكل من دوائر عديدة، تبدأ من الآخر المغاير للفرد. وتستمر عبر الجماعة والمجتمع وحتى الكون، وأن هذه الإفتراضات وإن كانت موضع تسليم من المجتمع فإن الفرد يستوعبها من خلال التنشئة الإجتماعية والحياة الإجتماعية فى المجتمع، ولذلك نجد أن هذه الإفتراضات تشكل النواة الصلبة لرؤية العالم (٧٠). ويؤكد البعد الثانى لرؤية العالم أن هناك متغيرات جوهرية

تلعب دوراً أساسيا فى تشكيل رؤية الإنسان للعالم، حيث تضم هذه المتغيرات مستوى تحديث المجتمع. حيث نجد أنه كلما كان المجتمع اكثر أولية، كلما إمتلك رؤية واحدة متماسكة للعالم، على عكس المجتمع الحديث الذى يمكن أن يضم عدة رؤى، تختلف بإختلاف تباين الأطر والسياقات الإجتماعية بداخله. وذلك يعنى إمكانية وجود دوائر متتابعة لرؤى العالم، فهناك رؤى العالم التى تشكل رؤية المجتمع فى كليته، إلى جانب إمكانية وجود رؤى فرعية للعالم تختلف بإختلاف السياقات الإجتماعية داخل المجتمع العام. وكلما كانت هذه السياقات أكثر تباينا، كالبداوة والريف والحضر، كلما أصبح الإختلاف واضحا بين رؤى العالم التى يطورها الإنسان في هذه السياقات (٧١).

ويذهب البعد الثالث إلى تحديد المرجعية التى تتشكل منها رؤية العالم سواء على مستوى المجتمع او الجماعة أو الفرد، حيث تتشكل رؤية العالم من نسق المعتقدات والأفكار والرموز والمعانى، التى لدى المجتمع أو الإنسان. والتى تشكل المرجعية التى يدير بالنظر إليها علاقاته بمكونات الكون المختلفة، وهى المكونات التى تتدرج إبتداء من قوى ما وراء الطبيعة، مروراً بالقوى الفاعلة فى الطبيعة، إنتهاءً بالقوى الفاعلة فى المجتمع أو فى السياق الإجتماعى المباشر للفرد. بيد أنه برغم تباين المستويات التى يدركها المجتمع أو الفرد، فإن رؤية المجتمع أو الفرد تتميز بالتجانس، لكونها تشكل كتلة متماسكة من المعانى التى طورها المجتمع من خلال تفاعل عناصر عديدة. العنصر الأول يتمثل فى البنية المعنوية وهى البنية التى تضم التراث الحضارى والثقافى للمجتمع، وكذلك الحالة الذهنية للمجتمع، أو ما يمكن أن يسمى بالعقل الجمعى، إذا إستخدمنا اللغة الدروكيمية. يضاف إلى ذلك عنصر آخر يتمثل فى الخبرة التاريخية أو التراث التاريخى للمجتمع، وكذلك طبيعة نوعية الحياة التى يقودها المجتمع. إلى جانب العناصر المادية التى تلعب دوراً محوريا فى تشكيل رؤية المجتمع، وكذلك الإنسان للعالم. يضاف إلى ذلك السياق الجغرافى والمادى للمجتمع، ويتصل بذلك نمط الإنتاج الإقتصادى بطبيعة الحال، بحيث يؤدى تفاعل وإمتزاج هذه العناصر جميعاً إلى تشكيل رؤية الإنسان والمجتمع للعالم (٧٢).

بيـد أننـا إذا تأملنـا غالبيـة الدراسـات التـى تناولـت مبحـث رؤيـة الإنسـان للعـالم وكذلـك فاعليـة العنـاصر السـابقة فى تشـكيل هـذه الرؤيـة فسـوف نجـد أن الدين حاضر بمسـاحة واسـعة، بإعتبـاره متغـير محـورى فى تشـكيل رؤية المجتمع والإنسـان للعالم. حيث يؤكد دوركيم على سـبيل المثـال أن الديـن حـاضر بصورة واضحة فى المجتمعـات البدائية، وأن عبادة الأسـلاف أو عبادة التوتم ليسـت سـوى عبـادة المجتمـع لذاتـه. وإذا كان المجتمـع له أسـبقيته على الوجود الفـردى، فإنه من الطبيعـى أن يلعـب دوراً محوريـا فى تشـكيل الوعـى الفردى بالأسـاس، فالمجتمع هو «الذى يشـكل رؤيـة العـالم التـى عـلى الفـرد أن ينظـر مـن خلالهـا إلى الكـون المحيـط (٧٣). إرتباطـا بذلـك أطلق دوركيـم عـلى نسـق الأفـكار والرمـوز التى تـدور حـول تفسـير الطبيعة أو الكـون إسـم «التصورات الجمعيـة Collective Representations. حيـث تسـعى التصورات الجمعية فى إساسـها إلى تقديم تصـور شـامل عـن العـالم. وتعتـبر التوتميـة مثل سـائر الأديـان الأخرى فى هـذا الصدد، تأكيـدا لذلك ان هـذه الأديـان، وإن كانـت بدائيـة أو أوليـة، إلا أنهـا تطـور نسـق فكـرى يقـدم صـورة Image أو تصـور عـن الكـون أو العـالم الـذى يعيشـون فيه، وعـن مركز الأفـراد فى ذلـك الكون وعـن علاقاتهم الإجتماعيـة المحكومـة بهـذا التصـور (٧٤). وفى هـذا الإطـار يميـز دوركيم بـين العـالم الواقعى Real World والعـالم المثـالى Ideal World،ويذهـب إلى أن الإنسـان قـد وضـع فـوق العـالم الطبيعـى، الـذى تتحقـق فيـه حياتـه العاديـة الدنيويـة، عالمـا آخـر مثـالى لا يوجـد إلا فى الفكـر أو الذهـن. وهـذه الصفـات أو الخصائـص المثاليـة لا يتصـف بهـا العالم الواقعـى فى حد ذاته، وليسـت داخلة فى تركيبـه، بـل هـى مـن خلق الإنسـان الـذى أضافهـا وفرضهـا عليـه، وأن التفكـير بواسـطة التصورات لا يحقـق فقـط رؤيـة للواقـع فى منظـور عـام، بـل يعمل عـلى تحويل ذلـك الواقع وتغيـيره (٧٥).

بالإضافـة إلى ذلـك فقـد قـدم ماكـس فيـبر تصـوراً لرؤيـة العـالم تؤكـد دور الديـن فى تشـكيل هـذه الرؤيـة. حيـث نجـد أن الفاعـل البروتسـتنتى لديـة مجموعـة مـن الأفـكار التـى أسـتوعبها مـن البروتسـتنتية فى صورتهـا الكالفنيـة، والتـى يمكـن أن تقـدم فى مجموعهـا رؤيـة للعـالم تسـتند إلى مجموعـة مـن الإفتراضـات الأساسـية.

الأول «أن هنـاك «الاهـا» متعاليـا خلـق هـذا الكـون وهـو الـذى يحكمة ويسـيطر عليـه، «والثانى» أن «اللـه» قـدر عـلى البـشر إمـا الخـلاص الكامـل أو الإدانـة الكاملـة ولا دخـل للإنسـان فى ذلـك. والثالـث أن «اللـه» خلـق هـذا العـالم ووضـع الإنسـان فيـه لتحقيـق مجـده، وعليه إعـمار المجتمع خدمـة «للـه» وتحقيقـا لمجـده. والرابـع أن «الله» قدر على الإنسـان أن يعمل بصـورة دائمة لإعمار المجتمـع تحقيقـا لمجـد «اللـه». والخامـس أنه لكى يحقق الإنسـان ذلـك، فإن عليـه أن يترك ملذات هـذا العـالم الجسـدية أو الحسـية إلى غـير رجعـه (٧٦). لذلـك شـكل المتغـير الدينـى جوهـر رؤيـة الإنسـان للعـالم، وهـى الرؤيـة التـى حـددت طبيعـة نظرتـه لمكونـات الكـون المحيط، بـل ووجهت سـلوكياته نحـو هـذه المكونات.

وإلى جانـب أن الديـن قـد يلعـب دوره فى تحديـد رؤيـة الإنسـان والمجتمـع للعـالم بصـورة مبـاشرة، فإنـه ينجـز هـذه المهمـة بصـورة غـير مبـاشرة كذلـك. وهـو ينجـز هـذه المهمـة مـن خـلال الحضـارة والثقافـة، وذلـك يرجـع إلى أن الديـن يشـكل قاعـدة الحضـارة والثقافـة. فالحضـارات العظيمـة التـى شـهدها العـالم هـى التـى إسـتندت إلى الديـن بالأسـاس. فالحضـارة الفرعونيـة والحضـارة الصينيـة والهنديـة وكذلـك الحضـارة الغربيـة المعـاصره، إسـتندت إلى الديـن بصـورة أساسـية، وأن الديـن هـو الـذى كان يشـكل طبيعـة هـذه الحضـارات (٧٧). وإذا كانـت الحضـارة تحتـوى عـلى جملـة مـن الثقافـات المتتابعـة تاريخيـا أو المتنوعـة جغرافيـا، فإننـا نجـد أن أى ثقافـة مـن الثقافـات تسـتند إلى قاعـدة الديـن بالأسـاس، فالحـلال والحـرام الدينـى، هـو فى غالبـه الصـواب والخطـأ الثقـافى. وهـو مـا يؤكـد عليـه عـالم الإجتـماع الأمريـكى تالكـوت بارسـونز، الـذى يـرى أن الديـن يحـدد طبيعـة الثقافـة، وبدورهـا فـإن الثقافـة هـى التـى تشـكل المعـانى الحاكمـة فى المجتمـع، كـما أنهـا التـى تتـولى تنظيـم التفاعـل الإجتماعـى فى مختلـف المجـالات. إلى جانـب ذلـك فـإن الثقافـة هـى التـي توجـه سـلوكيات الفـرد فى مختلـف المجـالات، وتجـاه مختلـف الموضوعـات. ولذلـك نجـد أن الديـن بصـورة مبـاشرة أو غـير مبـاشرة، مـن خـلال الثقافـة ، هـو الـذى يحـدد تصـورات البـشر تجـاه عالمهـم المحيـط. وفى هـذا الإطـار يشـغل الدين مسـاحة

كبيرة أو يلعب دورا محوريا، فهو بالأصح الذى يحدد الإفتراضات الأساسية لرؤية الإنسان للعالم.

ذلك يعنى أن الدين حاضر عبر تكوينات متتابعة تؤكد محوريته، فهو الذى يؤكد تماسك المجتمع سواء من خلال رمزيته، أو من خلال الوظائف المباشرة التى يؤديها فى إتجاه تحقيق التماسك، إضافة إلى أن الدين هو الذى يؤكد تماسك الشخصية الإنسانية وإستقرارها، ونقصد بذلك تماسك بنيتها، ثم إرتباطها بالمجتمع. بحيث تصبح رؤية العالم تعبيراً عن أنساق متماسكه تضم المجتمع والجماعة والشخصية، سواء كان هذا التماسك واقعيا أو من خلال تشكيلات الرمزية الدينية.

المراجـــع

1. E. Durkheim, Op, Cit, p. 113

٢. حليم بركات، مرجع سابق، ص ٤٦٦ .

3. Bailay, E, I, Implicit Religion in Contemporary Societies, Kampen: KoK Pharos, 1997, p. 211.

4. Weber, Max, The Religion of China, Confucianism and Taoism, Trans. By, H. H. Gerth, Free Press, 1921, Pp 439-442.

5. H.E.Johnson, Op, Cit, P 440

٦. حليم بركات، مرجع سابقن ص ٤٦٧.

7. H. E. Johnson, Op, Cit, P. 443.

8. Ibid, P 443.

9. Turner, B. S, Religion and Social Theory, Sage Publications, Seeand Edition, London, 1991, P, 47.

١٠ . على ليلة: البنائية الوظيفية فى علم الإجتماع والأنثروبولوجيا، الرواد والقضايا، المكتبة المصرية للطباعة والنشر والتوزيع، الإسكندرية، الطبعة الثالثة، ٢٠٠٧، ص ٣١٢ .

١١ . حليم بركات، مرجع سابق، ص ٤٣١.

١٢. نفس المرجع، ص ٤٣٢.

13. H. E. Johnson, Op, Cit, P.444.

14. Tong Bilton, Op, Cit, Pp. 528-529.

١٥. على ليلة، النظرية الإجتماعية الحديثة، الإنساق الكلاسيكية، مرجع سابق، ص ٢١١.

١٦. نفس المرجع، ٤٣٢.

١٧. حليم بركات، مرجع سابق، ص ٤٨٢.

١٨. نفس المرجع، ص ٤٨٣.

١٩. على ليلة، النظرية الإجتماعية الحديثة، مرجع سابق، ص ٢٢٣.

٢٠. على ليلة، العالم الثالث، مشكلات وقضايا، دار الثقافة للنشر والتوزيع، ١٩٨١ .

21. Tony Bilton, Op, Cit, P. 231.

22. Mclood, Hugh: Religion and The people of Western Europe, Ox Ford, Oxford University Press, 1997, P. 94.

23. B. S. Turner: Religion and Social Theory, Op, Cit, p, 56.

24. Ibid, P. 57.

25. Hugh Mclood, Op, Cit, p. 112.

٢٦. على ليلة، العالم الثالث، مشكلات وقضايا، مرجع سابقن ص ٣٦١.

27. B. S. Turner, Religion and Social Theory, Op, cit, p. 48.

28. Ibid, p, 52.

٢٩. حليم بركات، مرجع سابقن ص ٤٨٥.

٣٠. نفس المرجع، ص ٤٨٩.

٣١. نفس المرجع، ص ٤٨٩.

٣٢. على ليلة، العالم الثالث، مشكلات وقضايا، مرجع سابق، ص ٣١٢.

٣٣. حليم بركات، مرجع سابق ٤٨٨.

34. Barker, E & Others: New Religions and New Religiosity, Aarhus: Aarhus University Press, 1997, p, 36.

35. Ibid, 47.

36. Ibid, p. 81.

37. Ibid, P, 83.

٣٨. على ليلة، العالم الثالث، مشكلات وقضايا، مرجع سابق، ص ٩٣.

39. E. Durkheim, Op, Cit, p, 75.

40. Ibid, P, 86.

٤١. عبد الرحمن بن خلدون، مرجع سابق، ص ص 48-43.

٤٢. نفس المرجع، ص ٢٠٥.

٤٣. نفس المرجع، ص ٢٠٦.

٤٤. أنتونى جدنز، مرجع سابق، ص ٥٧٣.

٤٥. نفس المرجع، ص ٥٧٤.

46. B. S. Turner: Religion and Social Theory, Op, Cit, p, 50.

47. E. Durkheim, Op, Cit, P. 73.

48. Ibid, P, 76.

49. B. S. Turner, Religion and Social Theory, Op, Cit, p. 54.

50. Ibid, pp. x-xi.

51. H. E. Johnson, Op, Cit, p. 399.

٥٢. على ليلة، التدين الشعبى عند المصريين، بحث تحت النشر، مركز البحوث الإجتماعية، كلية الآداب، جامعة القاهرة ص ٧٣.

٥٣. حليم بركات، مرجع سابق، ص ص ٤٥٥-٤٥٦.

54. H. E. Johnson, Op, Cit, p. 460.

55. B. S. Turner, Religion and Social Theory, Op, Cit, P. 52.

56. Ibid, p. 52.

57. Ibid, pp. 52-53.

58. Ibid, p, 54.

٥٩. أنتونى جدنز، مرجع سابق، ص ص ٥٩٥- ٥٩٦.

٦٠. على ليلة، المقاصد الكلية الخمسة، مرجعية لتفسير بناء العمران البشرى، "بحث مقدم" لمؤتمر علم الإجتماع فى مجتمعاتنا، مجتمع واحد

ومرجعيات بديلة، 8-6 مارس ٢٠١٠، المؤتمر السنوى لقسم الإجتماع بجامعة عين شمس، بالمشاركة مع مركز الدراسات المعرفية بالقاهرة، ص ٣٢.

٦١. حليم بركات، مرجع سابق، ص ص ٤٣٢-٤٣٣.

٦٢. سيد عويس، من ملامح المجتمع المصرى المعاصر، ظاهرة إرسال الرسائل إلى ضريح الأمام الشافعى، منشورات المركز القومى للبحوث الإجتماعية والجنائية، ١٩٦٥ الرسائل من ١-٨٦.

٦٣. على ليلة، الشباب العربى، تأملات فى ظواهر الأحياء الدينى والعنف، دار المعارف، ١٩٩٢، ص ٧٣.

٦٤. على ليلة، العالم الثالث، مشكلات وقضايا، مرجع سابق، ص ٣١٢.

٦٥. أحمد أبو زيد، "الذات وما عداها" مدخل لدراسة رؤى العالم (فى) أحمد أبو زيد رؤى العالم تمهيدات نظرية (مشرفا)، المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية، برنامج تقويم السياسات الاجتماعية، القاهرة، ١٩٩٣، ص ٥٠.

٦٦. نفس المرجع، ص ٥٤.

٦٧. نفس المرجع، ص ٦٢.

٦٨. نفس المرجع، ص ٧٥.

٦٩. زكى الميلاد، المسألة الحضارية، كيف نبتكر مستقبلنا فى عالم متغير، مركز الحضارة لقيمة الفكر الإسلامى، سلسلة الدراسات الحضارية "٢٩"، ٢٠٠٨، ص ٧٥.

٧٠. نفس المرجع، ص ٦٣.

٧١. نفس المرجع، ص ٦٧.

٧٢. على ليلة، علم إجتماع المعرفة، المكتبة المصرية للطبع والنشر والتوزيع الإسكندرية، ٢٠٠٧، ص ٤٣.

٧٣. نفس المرجع، ص ٤٦.

٧٤. السيد حافظ الأسود، تصور رؤية العالم فى الدراسات الأنثروبولوجية (فى) أحمد أبو زيد "مشرفا" رؤى العالم، تمهيدات نظرية مرجع سابق ص ٤.

٧٥. نفس المرجع، ص ٥.

٧٦. على ليلة، النظرية الإجتماعية الحديثة، مرجع سابق ص ص ٢٣٨-٢٣٩.

٧٧. عـلى ليلـة، تفاعـل الحضـارات بـين إمكانيـة الالتقـاء وإحتـمالات الـصراع، مركز دراسـة الحضـارات المعـاصرة، كليـة الآداب، جامعـة عـين شـمس، ٢٠٠٦، ص ٦٣.

الفصل الرابع

دور رأس المال الديني

في دعم الفعل الإنساني

الفصل الرابع
دور رأس المال الديني
في دعم الفعل الإنساني

تمهيد:

من المؤكد أن التنظير الاجتماعي المتعلق بالدين يحتاج إلي مراجعة أساسية في عصر أصبحت المعاني تشكل فيه رأسمال ، بحيث أصبحنا نتحدث عن رأس المال الثقافي ورأس المال المعرفي ورأس المال الاجتماعي وأخيرا رأس المال الديني ، وهو ما نتعرض له بالتحليل في هذا الفصل. وإذا كان الدين يعرف بإعتباره «نظام متكامل من المعتقدات والمعاملات التي تشكل قاعدة لأسلوب حياة وشعائر ومؤسسات تساعد الأفراد علي أن يدركوا معني لحياتهم من خلال التوجه إلي ما يرونه مقدسا وله قيمة نهائية والإلتزام بذلك». فإننا قبل أن نتحدث عن الدين كأحد أنماط رأس المال نري ضرورة التعرض لمكانة الدين في المجتمع ، وطبيعة الدور الذي يلعبه الدين في صياغة التفاعلات الاجتماعية أو ما يمكن أن يسمي بوظيفة الدين ، ولكى نحقق ذلك نرى ضرورة طرح مجموعة من التساؤلات الضرورية، منها هل الدين يؤدي وظيفة إيجابية لصالح المجتمع ، ومن ثم فهو يشكل قيمة مضافة له، أم أن الدين يؤدي وظيفة سلبية تعوق حركة المجتمع كما أشارت إلى ذلك بعض نماذج التنظير الاجتماعى. هل يمكن أن يتم تحديث المجتمع بتحديث التراث وإعادة قراءة نصوص الدين لإستكشاف طبقات المعانى التى تتضمن نسبية الواقع فى مطلق النص الدينى، وتساعد على قراءة تنوعات الزمان والمكان وحالة الاجتماع فى إطاره، أم أن التحديث الغربى سوف يظل الأيقونة المقدسة التى تدور حولها؟. هل يمكن أن يشكل الدين والمعانى الدينية قيمة مضافة لرأس المال المجتمعى بإمكانها التحول إلى قيم إنسانية وإجتماعية وإقتصادية وسياسية تساعد الإنسان على مزيد تكييف واقعة لمتطالباته وإرادته؟ هل يمكن أن يكون للمعانى الدينية القدرة على إستنفار الفعل الإنسانى القادر على تغيير الواقع ومدخلاً إليه، عملاً بقوله تعالى «إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم» سورة الرعد الآية١١ ، هل يمكن أن

تجعـل المعـانى الدينيـة الإنسـان فاعـلاً ثوريـا قـادراً عـلى تغيـير واقعـة وإعـادة تشـكيلة بمـا يجعله ملائـم لإشـباع حاجاتـه، بأعتبـار أن الإنسـان «خليفـة اللـه فى الأرض عمـلاً بقولـه تعـالى «وإذ قـال ربـك للملئكـة إنى جاعـل فى الأرض خليفـة قالـوا أتجعـل فيها من يفسـد فيها ويسـفك الدماء ونحن نسـبح بحمـدك ونقـدس لـك قـال إنى أعلم مـالا تعلمون الآيـة ٣٠ من سـورة البقرة» ومـن ثم عليه أن يعيـد بنـاء واقعـة بمـا يجعلـه ملائمـاً لإشـباع حاجاتـه الماديـة والمعنوية، ومن ثـم جديـراً بالحياة فيـه؟. هـل نحتـاج إلى مراجعـة أفكارنـا وتصوراتنـا فيما يتعلـق بالدين، كاسـاس للثقافـة والحضارة وكذلـك كمدخـل للتحديـث؟ مـا نطرحة هو من نوع الأسـئلة الكبـيرة التى تحتاج لقـدر من التأمل الإنسـانى، يشـكل محاولتنـا ، في محاولـة للإقـتراب العلمـي مـن قضية العلاقـة بين الديـن والمجتمع ، حيـث تعرضـت هـذه العلاقـة في الفـترة الأخـيرة لقـدر كبـير من الجـدل حتـي أصابها قـدر من عدم التحديـد الأمـر، الـذي يفـرض علينـا التعـرض العلمي لها مـن خلال تنـاول القضايـا التاليه.

أولا: مسلمات منهجية لفهم مكانة الدين في المجتمع

تأثـر الحـوار الدائـر في إطـار الجماعـة الثقافيـة فيـما يتعلـق بمكانـة الديـن في المجتمـع، والـدور الـذي يمكـن أن يلعبـه في إطـاره أن سـلبيا أو إيجابيـا، بمجموعـة مـن الأفـكار النمطيـة التي إنتقلـت إلينـا مـن الحضـارة الغربيـة. نقلها البعض مـن ذوي التوجهـات العلمانية المتطرفـة ، الأمر الـذي يفـرض علينـا بدايـة إلقـاء الضـوء عـلي هذه الأفـكار من خـلال تطويـر مجموعة مـن القضايا التـي يمكـن أن تشـكل مقدمـة منهجيـة لمناقشـة مكانـة الديـن في مجتمعاتنـا، وهـي القضايـا التي نعـرض بإيجـاز لبعضهـا فيـما يلي.

وتـدور القضيـة الأولي حـول الموقـف السـلبي للتراث الغربي مـن الدين ، حيـث ، تم تجريد غالبيـة أفـكار هـذا الـتراث عـن فـترة أو حالة إسـتثنائية مرت بهـا المجتمعـات الغربية. وهـي الفترة التـي شـهدت إنحـراف الكنيسـة الكاثوليكيـة في القـرن الرابـع عـشر، إضافـة إلي الحـروب الدينيـة والسياسـية التي إندلعت في اوربا في فترة القرن السـادس عشر والسـابع عشر، وهي فترة إسـتثنائية في التاريـخ الأوربي ، ثـم شـكل الإسـتثناء - عـن خطـأ - الأسـاس والقاعـدة. فمـن غـير المنطقـي

أن تكـون ثلاثـة أو أربعـة قـرون بديـلا لسـته عـشر قرنـا مـن تاريـخ أوربـا الـذي بلـغ عشريـن قرنا منـذ مـيلاد السـيد المسـيح عليـه السـلام (١)، فمـن غـير المنطقـي كذلـك أن يتحـول الإسـتثناء إلي قاعـدة ، والقاعـدة إلي إسـتثناء. ويرتبـط بذلـك أنـه لا يصبـح تفكيرا سـليما أن نعمـم التفاعل الذي سـاد هـذه الفـترة فيـما يتعلـق بالدين ليصبـح رؤيـة أو موقفا عاما مـن الدين . والأدهـي أن تعتمد وجهـة النظـر هـذه التـى تعبر عن وجهة نظـر البعض فيما يتعلـق بالدين، أو عـن وجهة نظر بعض النـماذج النظريـة كـما لـو أنهـا تعـبر عـن تيـار كامـل مـن التنظـير الاجتماعـى، فى محاولـة لتوسـيع مسـاحة الأسـتثناء – مـرة ثانيـة – ليصبـح القاعـدة. ذلـك يعنـى أن الأمـر يحتـاج حقـا وبموضوعية إلي مراجعة.

إرتباطـا بذلـك تذهـب القضية الثانيـة إلي أنـه إذا كان للموقف العلـماني الأوربي مشروعيته بالنظـر إلي أحـداث تاريخيـه - حتـي ولـو كان غـير منطقـي حسـبما أشرنـا في الفقرة السـابقة – فإن ذلـك لا يكـون مشروعـا إذا تـم توسـيع هـذه المواقـف ليشـمل ديانـات أو حضـارات أخـري هـذه التفاعـلات المتعلقـة بالمعـاني الدينيـة ، وإن كانـت لم تشـهد حروبـا دينيـة كذلـك. بـل إننـا نجد أن الديـن عـلي العكـس مـن ذلـك قـد لعـب دوراً تحريريا في كثـير هذه مـن المجتمعـات والحضارات ، سـواءً فيـما يتعلـق بمواجهـة القـوي الاسـتعمارية أو في تأمين إسـتقلال هـذه المجتمعـات. مثال علي ذلـك الـدور الـذي لعبتـه المعـاني الدينيـة في تعبئـه المقاومـة ضـد الاسـتعمار في عالمنا كـما حدث في عديـد مـن الـدول العربيـة والاسـلامية. وهـو الـدور الـذي رصـده بكفـاءة وإمتياز مؤلف جانسـن G.H. Jansen عـن الإسـلام المناضـل Militent Islam (٢). أو مؤلـف «سوسـيولوجية ثـورة الـذى كتبـة المفكـر فرانـز قانون الفرنسى الجنسـية الجزائرى المولـد، والذى رأى فى الحجاب الإسـلامى رمزاً ثوريـا سـاهم فى إشـعال جـذوة النضـال الجزائـرى مـن أجـل الاسـتقلال. وترتيبـا علي ذلـك فإننا إذا تبنينـا الموقـف الغـربي مـن الديـن فإننـا قـد فرضنا علي أنفسـنا التفكـير بعقليـة التابع.

إرتباطــا بذلــك تشــير القضيــة الثالثــة إلي أن ثمــة موقفــين يتضمنــان إهــداراً للمعــاني الدينيــة برغــم تناقــض هذيــن الموقفــين مــع بعضهــما البعــض. حيــث يشــكل

التطـرف الدينـي موقفـا يسـقط إعتداليـة الديـن وسـماحته فى محاولـة إسـتغلال الديـن لتبريـر سـلوكيات يصـل إنحرافهـا إلي حـد تناقضهـا مـع مصلحـة المجتمـع. بحيـث نجـد أن هـذا الموقـف المتطـرف بالديـن يسـقط فاعليـة الديـن في تكوينة الأسـاسي كما يضعـف قدرته على التعبئـة العامة الشـاملة، ويبقـي بديـلا لذلـك عـلي بعـض الممارسـات أو المعتقـدات ذات الطبيعـة المتعصبـة غـير السـمحة التـى تختـزل جوهـر معـانى الدين إلي معـاني تتناقض مـع طبيعته ، وفي ذلك إهـدار لمكانة الديـن ودورة في المجتمـع ، كـما هـو إنحـراف عـن نيـة مبيتـه بمضامـين الديـن ومقاصـدة(٣)[١*]. في مقابـل ذلـك يوجـد التطـرف العلماني الـذي يري في الديـن زائدة دوديـة ينبغي إسـتئصالها من بنية المجتمـع، متجاهـلا بذلـك الـدور الذي لعبتـه الأديان في بناء حضـارات وأيضا في تعبئـة البشر للقيام بأعـمال تتجـاوز أحيانـا القـدرات الإنسـانية المعتـادة(٤). إضافـة إلي عـدم إدراك أن المجتمعـات الإنسـانية إبتدعـت الأديـان قبـل أن يكـون للديـن مصـدره الإلهـي. الأمـر الـذي يشـير إلي أن ثمـة حاجـة في بنـاء المجتمـع إلي الديـن الـذي يـؤدي وظائـف أساسـية سـواء بالنسـبة لبنـاء المجتمـع أو للبـشر الذيـن يعيشـون في إطـاره (٥). وهـو ما يعنـي إتفاق الموقفـين – الديني المتطـرف والعلماني المتطـرف – في إهـدار الديـن بإعتبـاره قيمة مضافة بالنسـبة للبـشر والمجتمع. وإرتباطـا بذلك فإننا نحتـاج إلى تفكـير هـادئ وموضوعـى، معتـدل ومنطقـــى وغـير موجـه بمقـولات وتحيـزات مسـبقه بشـأن الديـن ودوره الممكـن فى إثـراء الحيـاة الاجتماعيـة للبـشر، والارتقـاء بهـا، إسـتناداً إلى نـشر معانية.

وفي نطـــاق القضيـــة الرابعـــة فإننـــا إذا تأملنـــا واقـــع المجتمعـــات الغربيـــة المعـــاصرة فســـوف نلاحـــظ أنهـــا تشـــهد الآن عمليـــة مراجعـــة شـــاملة وجذريـــة ، تســـتند إلي إدراك أن غيـــاب المعـــاني الروحيـــة مـــن الممكـــن أن يشـــكل العنـــصر الـــذي ينفـــي بنيـــة الحضـــارة. يؤكـــد ذلـــك مـــؤشرات عديـــدة. أول هـــذه المـــؤشرات يتمثـــل في الحديـــث

١* *فى أثناء توزيع الرسول «صلى الله عليه وسلم» للغنائم فى أعقاب إحدى الغزوات، صاح أعرابى قائلاً «أعدل يا محمد» فرد عليه الرسول أن لم أعدل أنا فمن يعدل. فهم سيدنا عمر بن الخطاب بضرب عنق الأعرابى بسيفه، فمنعه الرسول قائلاً «أتركه فسوف يكون له قوم يتطرفون بالدين حتى يخرجون منه كما تخرج السهم من الرمية».

المتكـرر الـذى يذهـب إلى التأكيـد عـلي ضرورة العـودة إلي تعميق القيـم والأخـلاق فى نفوس البشر ، بسـبب الانهيـارات التـي أصابـت الأسرة ، الوحـدة المحوريـة في بنـاء المجتمـع ، بحيـث اعجزتهـا هـذه الانهيـارات عـن القيـام بوظائفهـا الأساسـية. إضافة إلي الاشـارات المتكـررة إلي أن غياب القيم الروحيـة عـن الحضـارة مـن الممكـن أن يشـكل معـول إنهيارهـا ونفيهـا مـن الداخـل ، حيـث نجـد المضامـين التـي تؤكـد ذلـك في مؤلـف فرنسـيس فوكويامـا «نهايـة نظـام The End of Order» ، حيـث المطالبـة بالعـودة إلي القيـم والآخـلاق ، التـي بدأ غيابها يلعـب دورا هاما في تـآكل رأس المال الاجتماعـي داخـل الحضـارة الغربيـة ، مـما قـد يـؤدي إلي تـآكل أشـكال رأس المـال الأخـري بصـورة تدريجيـة (٦). مـن المـؤشرات التـي تشـير إلي ذلـك أيضـا الحديـث المتكـرر الآن عـن نظريـة الخلق الإلهـي التـي بـدأ البعـض يطرحهـا لتحـل محل نظرية التطـور ، حيث يـدور بشـأنها الآن جدل كبير في جامعـة هارفـارد وهـي أعـرق الجامعـات الأمريكيـة. الأمـر الـذي يشـير في مجملـة إلي رغبـة في تلمـس السـبيل نحـو إسـتدعاء المعتقـدات الروحية ، التي تؤكـد قناعة وجود قوي في نطـاق ما وراء الطبيعـة هـي التـي خلقـت هـذا العـالم ، وهـي التي تتـولي تسـييره وتنظيمـة وفق قوانـين محدده.

وفي إطـار القضيـة الخامسـة فإننـا نفهـم الديـن بإعتبـاره مجموعـة مـن المعـاني التـي يمكن أن تشـكل رأسـمال ، لـه كل خصائـص رأس المـال ، وأول هـذه الخصائـص أن المعـاني الدينيـة تعيـد إنتـاج نفسـها. وإعـادة إنتـاج المعـاني يمكـن أن يتخـذ شـكلين، الأول أن تنتـشر المعاني بـين عدد أكبر مـن البـشر. وفي هـذا الإطـار فإننـا نجـد أنه كلـما كانت المعـاني الدينيـة ذات طابع إنسـاني ، وخيرة وسـمحة ، وتقبـل إيجابيـا الآخـر مع إحترام معانيـة ، كلما كان من الأيسر أن تنتقـل هذه المعاني بين أكـبر عـدد مـن البـشر ، وهو مـا يعني تراكم المعاني عن طريق الاتسـاع. ذلك بالإضافـة إلي أن المعاني قـد تعيـد إنتـاج ذاتهـا من خلال التجـدد، حيث نجد أن إنتشـار المعـاني الدينية السـمحة والواضحة بـدون حرفيـة أو تعنـت، مـن شـأنه أن يفتـح آفـاق الإبـداع في إطارها. من خـلال قراءتهـا وتأويلها لتوليـد معـاني جديـدة كانـت كامنـة فيهـا بمـا يلائـم أوضاعـاً إجتماعيـة متجـددة ، علي هـذا النحو

تتكشف المعاني عن مضامين جديدة بما يلائم أحوال الواقع المتغيره. بالإضافة إلي ذلك فإن إنتشار المعاني الدينية يتيح إمكانية ان يصبح الأقتناع بها أكثر عمقا ، بحيث يصبح عمق المعاني الدينية في حد ذاته قيمة مضافة. يضاف إلي ذلك فإن إنتشار المعاني الدينية بين مجموعة من البشر من شأنه أن يوحد بينهم، ويؤسس بينهم حالة من التكافل أو التماسك الاجتماعي ، التي يمكن أن تتراكم حتي تكون قادرة علي دفعهم لإنجاز فعل مشترك. وهو ما يجسد احد معاني رأس المال الديني (٧).

بالإضافة إلي ذلك فإننا نجد أن الدين كرأسمال قابل للتحول إلي أشكال أخري من رأس المال. فمثلا نجده قابل للتحول إلي رأس المال الاقتصادي حينما تتحول القيم والمعاني الدينية إلي إنتاج رأس المال الاقتصادي. وتصف نظرية عالم الإجتماع الألماني ماكس فيبر هذا التحول بإمتياز ، حينما أشار إلي تحول المعاني الدينية المتضمنة في قيم العمل الدؤوب والتقشف وعدم إهدار الزمن والادخار بإعتبارها أخلاقا بروتستنتية إلي روح دفعت إلي نشأة النظام الرأسمالي. وإستشهد علي ذلك بإستكشاف ملامح الانتشار الرأسمالي في أوربا ، حيث أكد أن المناطق التي إنتشرت فيها البروتستنية هي ذاتها مناطق الغني في أوربا ، وأن مناطق الفقر هي المناطق التي إنتشرت فيها الديانة الكاثوليكية(٨). إضافة إلي أننا إذا تأملنا جملة المعاني القرآنية المتعلقة بالتوريث والزكاة والاحسان ، فإننا سوف ندرك أنها تعمل علي إعادة توزيع الثروة عبر عدة أجيال أو علي صعيد المجتمع داخل إطار الجيل الواحد.

علي هذا النحو فإنه إذا حدث تطرف بالدين أو جمود به بعدم الإقدام على إعادة تأويله بحسب الواقع المتجدد، لإستكشاف المعانى الكامنة والمتعلقة بمختلف جوانب هذا الواقع، فإن ذلك من شأنه أن يجمد المعاني الدينية ، فيجعلها غير قادرة علي التجدد وإعادة إنتاج ذاتها. يحدث ذلك أحيانا من ناحية لأن الموقف المتطرف يتمسك عادة بحرفية النص دون محاولة إعادة قراءته في ضوء الواقع المتجدد، الأمر الذي يؤدي إلي عدم إنتاج النص لذاته مع توليد قيمة مضافة. بالإضافة إلي ذلك فإن التطرف يورث المعاني الدينية حالة من

التصلب والجمود وعدم السماحة أو المرونة حسب مقتضيات الموقف. الأمر الذي يعوقها عن الانتشار في دوائر أوسع من دائرة المتطرفين أنفسهم ، وهو ما يؤدي إلي عدم إعادة إنتاجها من خلال دائرة أوسع جماهيريا. وبطبيعة الحال فإن التطرف العلماني من شانه أن يثبت المعاني الدينية ، بإعتبارها معاني مرفوض أن توجه أو تضبط التفاعل في المجتمع. في هذا الإطار نجد أن بعض المواقف تطالب بإجتثاث الدين من جذوره ، بينما تطالب مواقف علمانية أخري بحصار الدين في حدود الضمير الفردي ، وهو ما يعني أن الموقف العلماني المتطرف يسعي إما إلي تبديد الفاعلية الدينية كلية أو علي الأقل تقليصها متبعا فى ذلك بصورة حرفية ذات منطق التفكير الغربى.

ثانياً: عناصر بناء رأس المال الدينى.

يشكل أى نمط من أنماط رأس المال كائنا أو بناء عضويا بطبيعتة، ونقصد بالبناء العضوى لرأس المال، أنه كالكائن الحى ينشأ، ويتشكل من مجموعة من العناصر، ثم أنه يمتلك القدرة على الاستمرار والتراكم، أو يتعرض للهدر وقانون تناقص معدلات النمو والموت. وفى هذا الإطار فإننا أذا تأملنا بناء رأس المال الدينى فسوف نجد أنه، على غرار رأس المال الاجتماعى، يتشكل من بعض المكونات الأساسية، وإن زادت بعض المكونات فى الأول على الثانى. ويشير تأمل هذه المكونات إلى أنها تضم المعانى، ثم الثقة، والالتزامات المتبادلة، والشبكات والترابطات، إضافة إلى الهدف الذى يؤدى تحقيقه إلى تعميق المعانى وتأكيد فاعليتها لتبدأ الدائرة من جديد ونعرض فيما يلى لهذه المكونات.

١- المعانى كطاقة رمزية دافعة للفعل: تحتوى الأديان على كثير من المعانى التى تحدد مغزى خلق الله للكون ووضع الإنسان فيه، لإعماره وتحقيق مجد الله فيه، حسبما يذهب العالم العربى عبد الرحمن بن خلدون فى مقدمته، وكذلك عالم الاجتماع ماكس فيبر. ومن شأن هذه المعانى أنها تخاطب كل البشر وليست مقصورة على فئة من البشر. ومن ثم يصبح الدين على ما يذهب ماكس فيبر مصدراً لتجديدات وأبداعات كثيرة تسهم على المدى البعيد فى تأسيس تكامل المجتمع (٩)، ومن ثم تصبح الديانة فى بعض المجتمعات أساساً للتنظيم الاجتماعى، وليست احد تجلياته أو مظاهره فقط (١٠). وفى هذا الإطار فإننا

نجـد أن هـذه المعـانى تضم عادة القيـم والأفكار والمبادئ التى تشـكل محور الدين، والتفسـيرات او التأويـلات التـى تتعلـق بذلـك. وتتغلغـل هذه المعـانى فى واقع البشر فتشـكل مرجعية لسـلوكياتهم الاجتماعيـة فى مختلف المجالات.

وتتواجـد هـذه المعـانى فى السـياق الاجتماعـى من خلال ثلاثـة صيغ، فى إطـار الصيغة الأولى يتـم إسـتيعاب هـذه المعـانى مـن خـلال مؤسسـات التنشـئة الاجتماعيـة المختلفـة فتشـكل جوهـر الضمـير الأخلاقـى للفـرد، يحـدد لـه سـلوكياته، ومـا هـو الصـواب والخطـأ فى مختلـف المجـالات الإجتماعيـة. وفى العـادة تكـون هـذه المعـانى موزعة بصـورة متباينة بـين البشر، وهـو التوزيع الذى يوضـح درجـة الالتـزام بهـا مـن خـلال إبـراز قدرتهـا عـلي توجيـة الفعـل الإنسـانى. وتوجـد المعـانى الدينيـة مـن خـلال الصيغـة الثانيـة متضمنـة فى ثقافـة المجتمـع، وتؤثـر بالتحديـد عـلى منظومـات القيـم الوجدانيـة والتفضيلية. ومـن خـلال هـذه الصيغـة أيضـا تتبايـن الثقافات من حيـث درجة الالتـزام فى قيمهـا وبنتهـا المعياريـة بمضامـين المعـانى الدينيـة. ومـن خـلال الصيغـة الثالثـة تشـكل المعـانى الدينيـة صيغـة للتوقعـات المتبادلـة، وهـى التوقعـات التـى تعمق الالتـزام بالمعـانى الدينية ومـن ثـم تطـور نوعـاً من الثقـة المتبادلـة، بل وتسـاعد على تـآزر الأفعال الإنسـانية بإتجـاه تحقيق النفـع المتبـادل، أو إنجـاز الأهـداف المشـتركة. وقبـل ذلـك فهـى تضفى عـلى الشـبكات والترابطات قـوة وتماسـكا وفاعليـة بحيـث لا تقتـصر هـذه الفاعليـة عـلى أعضـاء هـذه الترابطات، وإنمـا تفيض عـلى مـا حولهـا حتـى تصل إلى حـدود ثقافـة وحضـارة المجتمـع (١١).

وفى هـذا الإطـار فـإن المعـانى كأحـد مكونـات رأس المـال الدينـى تحتـاج إلى تأسـيس الظـروف الملائمـة حتـى يتحقـق تراكمهـا، وهـو التراكـم الـذى يتحقـق مـن خـلال أسـاليب عديدة. أولهـا أن يعـاد تأويـل النصـوص الدينيـة لإستكشـاف طبقـات المعـانى فى النـص، بمـا يلائـم القضايـا والظـروف المتغـيرة المتحـددة، وهـو الجهـد الـذى ينجـزه تجديـد الخطـاب الدينـى، حيـث يـؤدى هـذا الجهـد إلى تأسـيس قابليـة الفاعليـة في بنيـة المعـاني الدينيـة. ويتصـل الأسـلوب الثـانى بتعميـق المعـانى الدينيـة عنـد البـشر فى المجتمـع، إلى حـد تأسـيس النـواة الصلبـة التـى تتـولى نـشر هـذه المعـانى، وهـو مـا يعنـى تجذيـر الفاعليـة فى العمـق. ومـن خـلال الأسـلوب الثالـث يتم

نـشر هـذه المعـانى فى الاتسـاع بحيـث تصبـح هـذه المعـانى حـاضرة وفعالـة وموجهـة لأفعـال البشر فى مختلـف المجـالات الاجتماعيـة، خاصـة إذا كانـت هـذه المعانى وسـطية ومعتدلة تسـعى لتحقيق تماسـك الأمـة، مـن خـلال التأكيـد على قيـم التسـامح مع الاخـر (١٢).

غـير أن التفاعـل قـد يسـير فى إتجـاه عكـسي، حيث قـد تعمل الظـروف فى إتجـاه هدر رأس المـال الدينـى. وذلـك بـأن تعمـل المؤسسـة والنخبـة الدينيـة إتجـاه فـرض الجمـود عـلى رأس المال الدينـى، بحيـث تجعلـه محافظاً غير قابـل للتداول عبر التفاعـلات اليومية، ومن ثم فاقـداً للفاعلية. أو حينـما تتجـة الأنظمـة السياسـية لإسـتغلال الديـن فى فرض خضـوع العامة، حيـث لا يدركون من الديـن سـوى الخضـوع لـولى الأمـر، ومـن ثـم تفـرض حالـة مـن الإفقـار الدينى عـلى العامـة، حيث يلعـب الديـن دورة فى حـدودة الدنيـا فى توجيـه أفعـال البشر، بل يحـدث أحيانا إزاحـة الدين كلية مـن السـاحة الإجتماعيـة إلى نطـاق الضمائر الفردية، وأحيانا مشـوها. يضاف إلى ذلـك فإن التطرف بالديـن، وتأويلـه بمـا يجعلـه دعـوة بإتجـاه التعصب والعـداء للآخر، إنما هـو نوع من إنقـاص قيمة الديـن، بـل وتشـوية مضامينة، بـل ودفعة فى إتجـاه التـأكل والتناقص (١٣).

٢- دور المعـانى الدينيـة فى بنـاء الثقـة: يعـد مفهـوم الثقـة مـن المفاهيم الأساسـية فى تراث رأس المـال الاجتماعـى والدينـى عـلى السـواء. وإذا كانـت المعـانى الدينيـة فى غالبهـا تدعـوا إلى التعـاون والتراحـم، فـإن قيام هذه العمليات والسـلوكيات يسـاعد في توسـيع إشـعاع الثقة Radius of Trust، وهـو مـا يعنـى إتسـاع حـدود الثقـة لتتجـاور الجماعـة إلى خارجهـا. ويذهـب فرنسـيس فوكويامـا إلى أن حـدود الثقـة يعـد مـن الأبعـاد الأساسـية لتأسـيس التماسـك الإجتماعـى، كما يؤكد عـلى قـدرة أعضـاء الجماعـة على التعـاون مع أعضـاء الجماعـات الأخـرى(١٤). وإذا كان التعاون – وفقـا للمعـانى – يعـد أحـد العوامل الحاسـمة فى عملية الإنجـاز. فإن هذا التعـاون والتفاعلات التى تشـكل بيئتـه يمكـن يلعب أن دوراً فى تأسـيس الفضائـل الدينية، التى تؤدى بدورهـا إلى التأكيد على مزيـد مـن التعـاون. وفى هذا الصدد يؤكد «بوتنام Putnam» أنـه إذا وثق الناس فى بعضهم البعض

ووثقوا فى أنفسهم، فإن ذلك من شانه أن يؤدى إلى حدوث نمو إقتصادى.

ويرى «بوتنام» أن نقطة البداية فى تأسيس رأس المال الدينى إنما تكمن فى الثقة المتراكمة Accumulated Trust، التى يتم تنميتها من خلال القناعة بالمعانى الدينية، التى تفرض التوجه الإيجابى والمتراحم مع الآخر. كما يكمن تنميتها من خلال العلاقات الفعالة بين الناس من خلال العمل الجمعى فى مختلف الجماعات الأهلية الطوعية التى لا تبحث عن الربح، أو من خلال تعميق المعانى الدينية لديهم، وإعادة الإنتاج المتجدد لهذه المعانى. وهو ما يجدد الثقة ويوسع نطاقها ويؤكد فاعليتها. وفى ذلك يقول «بوتنام» أن الثقة تعد معين لا ينضب، فهى تزيد ولا تنقص بالإستخدام الإيجابى. فكلما عمل الناس سويا، فى بيئات تشجع التفاعل والتعاون، كلما زادت ثقتهم فى بعضهم، ومن ثم فإن رأس المال الاجتماعى والدينى يتزايد بالإستخدام، وينضب بسبب غياب الثقة (١٥).

ذلك يعنى أن الثقة تنمو إستناداً إلى مصدرين، الأول المعانى الدينية المشتركة التى تفرض من ناحية السلوك الإيثارى، أى السلوك الذى يسعى إلى تحقيق مصلحة الجماعة بالأساس ويسلك إيجابيا ومتسامحا مع الآخر. بينما يتشكل المصدر الثانى من طبيعة العلاقات والتفاعلات مع الآخرين إستناداً إلى صيغة التوقعات المتبادلة. وفى هذا الإطار نجد أن «كوليمان» قد نظر إلى الثقة بإعتبارها مسألة محورية فى نظرية الإختيار الرشيد. كما رأى أن وجود الثقة يتنافى مع الإنتهازية الناجمة عن تعظيم الأفراد لمصلحتهم الشخصية. وعلى الرغم من أن الباحثين فى نظرية الإختيار الرشيد قد حاولوا تفسير الثقة من خلال منظور تطورى، بإعتبار أنها تتطور نتيجة التفاعلات المتكررة بين إثنين من الفاعلين المعنيين فى علاقة ثنائية، إلا أن وجود مزيد من الثقة المنتشرة فى النسق الاجتماعى الأشمل يظل بمثابة إشكالية. وقد لاحظ «كوليمان» أن طبيعة الشبكات الاجتماعية قد تؤثر على مستويات الثقة بين الأفراد فى تلك الشبكات(١٦) – خاصة إذا كانت المعانى الدينية تتدفق عبر خطوطها – فى مقابل أنه يمكن إعتبار وجود وإنتشار الثقة والتوقعات العامة المتبادلة (١٧) من شأنه أن يقوى الشبكات المتبادلة ويوسع حدودها، وفى هذا الإطار فإن الثقة من

شـأنها أن تلعـب دور الآليـة التـى تؤكـد التماسـك الاجتماعى مـن جهة وتعبـئ الجهود من أجـل الفعـل المشـترك ذو الطبيعة الإيثارية بالأسـاس.

٣- النزعـة إلى التبـادل لتحقيـق مصالـح الجماعـة والفرد: تعـد النزعة الإنسـانية إلى التبادل والتفاعـل مـع الآخـر، نتيجـة للفطـرة الإنسـانية التـى يتركـب فيهـا عنـصر التأكيـد عـلى المصلحـة الذاتيـة، حيـث يسـعى الإنسـان إلى تحقيـق إشـباع لحاجاته الأساسـية تحـت تأثير الضغـط الغريزى البيلوجـى، أو ضغـط الإهتمامـات الثقافيـة، كـما يسـعى فى ذات الوقـت إلى المشـاركة فى الفعـل الجمعـى مـن خـلال التفاعـل الاجتماعـى بهـدف تحقيـق غايـات او أهـداف مشـتركة تخـدم وجود الجماعـة بالأسـاس (١٨). ونتيجـة لذلـك فإننـا نجد أن عملية التبـادل التى تدور حـول قيم معنوية أو ماديـة تكـون فى العـادة محكومـة بواسـطة ثلاثـة أبعـاد أساسـية. أولهـا الفطـرة الإنسـانية فى تشـكلها الأسـاسي وهـى الفطـرة التـى تحتـوى عـلى إتجـاه إيجـابى نحـو الآخر. وهـو الاتجـاه الذى تؤكـده معـانى تسـتند إلى قيـم وأفـكار ومبـادئ دينيـة، ويصبـح جـزاء الفعـل أو مكافأتـه متصـل بالحـلال والحـرام الدينـى. ونظـراً لأن البـشر إيجابيون بطبيعتهـم نحو بعضهم البعض فـإن التبادل مـن شـأنه أن يدعـم صيغـة التعـاون بينهم. وهى الصيغـة التى تسـتند إلى تكامل أفعالهم إسـتناداً إلى صيغـة التوقعـات المتبادلـة عـلى الصعيـد الثقـافى، بإعتبـار أن الثقافـة تنتـج عـن المعـانى الدينية مـن ناحيـة، كـما تنتـج عـن التفاعـل الاجتماعـى بـين البشر مـن ناحيـة أخرى.

وإذا كان جـورج هومانـز قـد تنـاول مفهـوم التبـادل فى إطـار الجماعـات الصغـيرة التـى يهتـم بهـا علـم النفـس الاجتماعـى، فـإن بيـتر بـلاو نحـي نحـي لمفهوم منحـى إجتماعـى بنـائى ذو طبيعة دوركيميـة بالأسـاس. حيـث لم يـرى فى التبـادل علاقـة ذات طبيعـة فرديـة بحتـه حسـبما ذهـب جـورج هومانـز. بـل رأى التبـادل عمليـة أو علاقـة بنائيـة، حيـث تتجـه علاقـة التبـادل أفقيـا بـين الأنـا والآخـر مـن ناحيـة، غير أنهـا تظل محكومـة بالقيم والمعايـير الثقافيـة للمجتمع. وهـى القيم والمعايـير التـى تشـكل المعـانى الدينيـة قاعـدة لهـا. ويـؤدى حضـور المعـانى الدينيـة والاجتماعيـة إلى إضفـاء الطابـع الإيثـارى عـلى تبـادلات البـشر، بخاصـة فى نطـاق الجماعـات الصغـيرة ذات

العلاقـات الحميميـة أو فى نطـاق المجتمـع المحـلى، غـير أن التأكيد عـلى العلاقات الإيثاريـة لا يعنى إغفـال المصالـح أو المنافـع الفرديـة، ولكنـه يضعهـا فى المرتبـة الثانية أو أنها سـوف تتحقـق فى الأمد البعيـد. وفى عمليـة التبـادل فى نطـاق رأس المـال الدينى، يصبـح وجود الله المالك لكل شـئ والمالك لمضامـين التبـادل هوالرمـز الـذى يدعـم هـذا التبـادل العـادل والـذى من المفضـل أن يكـون إيثاريا (١٩)، يجسـد ذلـك قـول اللـه تعـالى «ويـل للمطففـين، الذيـن إذا إكتالـوا عـلى النـاس يسـتوفون. وإذا كالوهـم او وزنوهـم يخـسرون ألا يظـن أولئـك أنهـم مبعوثـون ليـوم عظيـم. يوم يقـوم الناس لـرب العالمـين. سـورة المطففـين، الآيـة « كـما تعمل المعـانى الدينية عـلى دعم هـذه الايثارية عند الإنسـان المؤمـن او المعتقـد بآليـة الجزاء فى الأخرة سـواء بالاثابـة أو العقاب، وهو مـا يعنى تضمن المصلحـة الذاتيـة الفرديـة فى نطـاق الرؤيـة الإيثارية للمعـانى الدينية.

عـلى هـذا النحـو تصبـح النزعـة إلى التبـادل ليسـت ذات طبيعـة نفعيـة فرديـة أو تجاريـة فقـط، ولكنهـا تشـكل قاعـدة لعلاقـات معقـدة، ذات أبعـاد متعـددة تؤكـد التعـاون بـين البـشر وتماسـكهم فى نطـاق بنيـة إجتماعية متماسـكة. يجسـد ذلك معنـى الحديث الشريـف «مثل المؤمن للمؤمـن كالبنيـان المرصـوص يشـد بعضـه بعضـا». وذلك يعنـي أن عمليـة التبادل تكـون في العادة موجهـة بالمعـانى الدينيـة ، لأن هـذه العمليـة أساسـية بالنسـبة للتفاعـل الاجتماعـى الـذى يطـرد تبلـوره إلى عمليـات ونظـم وأنسـاق إجتماعـى وحتى البنـاء الاجتماعـى. ولأن النزعـة الايثارية هي التـى تحقـق المنافـع والإشـباعات الفرديـة المتبادلـة للمشـاركين فيهـا، وهـو مـا ينعكـس عـلى تبلور فعـل جمعـي يهـدف إلي تحقيـق غرض او هدف مشـترك. وهو ما يعنى أن هيئـة رأس المال الدينى إذا كان قويـا فى مجتمـع معـين، فإنه يتجاوز الإنقسـامات والصراعات الاجتماعيـة الحادة، كما يكون مدخـلاً لتقويـة حالـة الاجـماع وتأكيـد التمكين الاجتماعـى (٢٠).

٤- تأسـيس الشـبكات والارتباطـات وتبلـور الأبنيـة: تـدور الفكرة المحورية لقيام الشـبكات والارتباطات الاجتماعية التى تتبلور على هيئة أبنية وتنظيمات تستلهم المعانى الدينية بالأساس، فإننا نجد أن المعانى تؤسس جملة من الإلتزامات فى إتجاهين الاتجاه الأول، إلتزام الأفراد نحو بعضهم البعض،

إضافـة إلى تأسـيس تعبئتهـم فى حالة تطويـر إرتباطاتهم وعلاقاتهم كجماعة فى إتجاه هدف مشـترك. الأمـر الـذى يدعـم فى النهايـة النسـيج الاجتماعـى للجماعـة، ويؤكـد إنتمائهـا للمعانى وينـشر الثقة والتسـامح عـلى سـاحة الجماعـة، وفى هـذا الإطـار فإننـا نجـد أن المعـانى الدينيـة تلعـب دورهـا فى تأسـيس الترابطـات عـبر أربعة دوائـر متتابعة.

فى إطـار الدائـرة الأولى تعمـل المعـانى الدينيـة فى إتجاه تشـكيل مـا يمكن أن يشـكل «النواة الصلبـة» حيـث الجماعـة الصغـيرة الأكثر إرتباطـا بالمعـانى الدينية فى أصولهـا الصحيحة، ونظـراً لأنها الجماعـة العارفـة بالأصـول الصحيحـة، فإننا نجدها الأكـثر إدراكا لرمزيتها، والأكثر قـدرة على تحديد معانيهـا (٢١). وفى العـادة تلعـب الجماعـة الأساسـية الصغـيرة، أو «النـواة الصلبـة» دوراً محوريـا إمـا فى تحويـل المعـانى الدينيـة إلى نسـق مغلـق ثابـت وجامـد، إذا هـى فصلتـة عـن الواقـع، أو إذا لم تلعـب دوراً فى إستكشـاف معانيـة لمواكبـة الواقـع المتغـير، وعـادة تكـون المعانى الدينيـة أقوى ما تكـون عـلي سـاحة الجماعـة، إضافـة إلى أنها تكـون ذات فاعليـة لأنها تفـرض التزام الجماعـة بها فى سـلوكها الاجتماعـى والاقتصادى والسـياسى.

وإذا كانـت المعـانى الدينيـة هـى التـى تولـد تأكيـد شـبكة العلاقـات فى الجماعـة الصغـيرة «النـواة الصلبـة» فـإن هـذه الجماعـة تعمـل عـلى نشر هـذه المعـانى بإعتبارهـا قيم معنويـة تفرض قيـما إجتماعيـة وإقتصاديـة متبادلـة. بحيـث تتمكن هذه الجماعة من توسـيع دائرة مـن يتعاملون مـع بعضهـم البعـض فى المجـالات الاقتصاديـة والاجتماعيـة إسـتناداً إلى هـذه المعـانى. وفى إطـار هـذه الدائـرة يمكـن تعبئـة الجماعـة فى إتجـاه فعـل سـياسى أو إجتماعـى أو إقتصـادى مشـترك، كـما تحقـق شـبكة التبـادلات والارتباطـات النفـع المتبـادل عـلى مسـتوى تحقيـق المصالـح الفرديـة بالنسـبة للجماعـة التـى إنتشرت فيهـا هذه المعانى. ويصبـح التماثل فى الاقتناع بالمعانى والتشـابة فى السـلوكيات الموجهـة بهـذه المعـانى، إضافـة إلى النفـع المتبـادل هى الآليات التى تسـاعد عـلى بلورة هـذه الجماعـة (٢٢). فى هـذه الحالـة قد يحتوى بنـاء الجماعة على بعد رسـمى تنظيمى، أو تصبح العلاقـات غـير الرسـمية هـى التى تشـكل قاعـدة التفاعـل الاجتماعى.

ثـم تـأتى الدائـرة الثالثـة حيث المجتمـع فى جملته، حيث تتسـع فاعلية المعـانى الدينية التى لعبـت دوراً فى تشـكيل جماعـة «النـواة الصلبة» و«جماعة الأنتشـار» من خلال توسـيع آداء الأخيرة ليتشـكل المجتمـع. غـير أنـه وإن كان لـرأس المـال الدينـى فعاليتـة الواضحـة فى نطـاق الجماعـات المحـدودة النطـاق والمجتمـع المحـلى، فـإن هـذه المعـانى حينما تسـعى للأنتشـار فى المجتمـع العام، فإنهـا تدخـل فى علاقـة متباينـة الاحتـمال مـع السياسـة. فـإذا كانت السياسـة قد تطـورت من رحم المجتمـع، فإنهـا تعمـل عـلى تطويـر رأس المال الدينى والاسـتفادة مـن ممكناته ودعمـه فى مختلف المجـالات. أمـا إذا كانـت السياسـة قـد طرأت عـلى المجتمع من رحـم خارجى، فإن الـصراع محتمل بـين الديـن والسياسـة وفى هـذه الحالـة إمـا أن يتصـادم آداء رأس المـال الدينـى مـع السياسـة فيقع التفـكك وربمـا الإنهيـار الاجتماعـى. أو أن تعمـل السياسـة عـلى تبديـد رأس المـال الدينـى وفـرض هـدره، وفى ذلـك إنتقـاص لإحـدى القـدرات التكيفية التـى يمتلكها المجتمـع (٢٣).

وأخـيراً تـأتى الدائـرة الرابعـة والحضاريـة، حيث تنتـشر المعـانى الدينية على سـاحة حضارية واسـعة، وتختلـط بثقافـات ونوعيـات حيـاة إجتماعيـة متباينـة، ومـن الطبيعـى أن يحـدث إندماج بـين رؤوس الأمـوال الثقافيـة والاجتماعيـة والدينيـة فى مختلـف المجتمعـات لتتولـد صيـغ متنوعـة، تجمعهـا المعـانى الدينيـة فى وحـدة حضاريـة واحدة تقـف فى مواجهة وحدات حضاريـة اخرى. وفى داخـل مجتمعـات الحضـارة الواحـدة تتبايـن حالـة رأس المـال الدينـى، مـن حيـث حجمـة وعمقـه وقدرتـه عـلى التراكـم والتجـدد والاسـتمرار. أو التراجـع والتناقـص، كـما يتبايـن مـن حيـث كونـه مرجعيـة ورصيـداً لعمليـة التحديـث يوفـر لهـا المعـانى التى تشـكل قوتهـا الدافعة، وبـين كونه عبئا عـلى عمليـة التحديـث ذاتهـا. ومـن المفـترض أن يرجـع هـذا التبايـن لسـلوك النظـام السـياسى من ناحيـة، وقابليـة المعـانى الدينيـة للتجدد مـن ناحية ثانية، ووجـود الآليات الملائمة لإعـادة إنتاج رأس المـال الدينـى مـن ناحيـة ثالثة.

ثالثاً: الدين رأسمال يدعم الفعل الإنسانى

يمكـن الحديـث عـن رأس المـال الدينـى كأحـد أشـكال رأس المـال المجتمعـى Societal Capital بإعتبـاره يعـبر عـن «تكامـل مفاهيـم رأس المـال الاجتماعـى

والثقافى والسياسى والفكرى، إضافة إلى رأس المال الاقتصادى – إلى جانب رأس المال الدينى – فى رأسمال عماده الإنساق التى تنظم البشر فى هياكل مؤسسية تحدد طبيعة النشاط المجتمعى وعائدة (٢٤). وفى هذا الإطار فإننا نجد أن رأس المال الدينى يتفق مع رؤوس الأموال العديدة التى أشرنا إليها فى بعض العناصر والمكونات – بخاصة رأس المال الاجتماعى – وإن إختلف فى جوانب اخرى. وللتعرف على حدود رأس المال الدينى، فإننا نطرق ذلك من خلال تحديد حدود رأس المال الاجتماعى, الذى يتفق معه فى كثير من الجوانب ويختلف فى أخرى، وهى الجوانب المتباينة التى يمكن التعرف عليها من خلال تعريف رأس المال الاجتماعى.

إرتباطا بذلك يمكن تحديد رأس المال الاجتماعى إستناداً إلى الاتصالات التى تتم بين الأفراد من خلال شبكات العلاقات والمعايير المنظمة للتفاعل المتبادل، وهو ما يعنى أن التفاعل وزيادة الشعور بالإنتماء، والثقة المتبادلة والميل إلى التسامح مع الآخرين يعد من أهم مكونات رأس المال الاجتماعى والدينى على السواء (٢٥). ويعرف بيير بورديو P. Bourdieu رأس المال الاجتماعى بأنه «تلك الموارد الكامنة أو الفاعلة التى ترتبط بشبكة العلاقات، التى يشارك فيها الفرد وتحقق منفعة متبادلة». ويذهب بورديو إلى أن الشبكات الاجتماعية ليست منحة طبيعية، بل نحتاج إلى بنائها من خلال إستراتيجيات إستثمارية تتجة نحو مأسسة علاقات الجماعة (٢٦). بالإضافة إلى ذلك يعرف عالم السياسة الأمريكى بوتنام R. Putnam رأس المال الاجتماعى بأنه « تلك الأنشطة التى تدل على الأسلوب الذى يعرف به شخص ما الآخر، كما يشير إلى ملامح التنظيم الاجتماعى مثل شبكة العلاقات والمعايير والثقة الاجتماعية التى تيسر أو تسهل التنسيق والتعاون من أجل المنفعة المتبادلة» (٢٧). كما يعرف «سريانى Sirionni» و فرولاند Friedland» رأس المال الاجتماعى بإعتباره يشير إلى تلك الأصول من الثقة الاجتماعية والمعايير وشبكة العلاقات التى يمكن للناس إستخدامها فى حل المشكلات العامة. وهو ما ذهب إليه «لين Lin» الذى عرف رأس المال الاجتماعى بأنه الموارد الكامنة فى البناء الاجتماعى، والتى يمكن

الاستفادة منها أو حشدها فى أنشطة معينة» (٢٨). غير أننا إذا تأملنا طبيعة العلاقات بين رأس المال الاجتماعي والديني والثقافي، فإننا سوف نجد أنها في غالبها رؤوس أموال تتعامل مع المعاني. وبرغم أنه توجد بينها اتفاقات، كما توجد بينها إختلافات، فإنها تشكل جميعا قيما مضافة تدعم الفعل الانساني، لكونها تمده بالطاقة الدافعة التي تساعده في تحقيق أهدافه، وهو مانعرض لبعض جوانبه في الفترات التالية.

١- أوجه الخلاف بين رأس المال الاجتماعى والدينى: مثلما أن هناك إتفاقات بين رأس المال الاجتماعى والدينى فإن هناك إختلافات بينهما. فى نطاق ذلك فإننا نرى أن الخلاف الأول يتمثل فى أن رأس المال الاجتماعى يعد نتيجة لترابطات وشبكات العلاقات الاجتماعية. حيث ينشأ رأس المال الاجتماعى نتيجة لتجمع مجموعة من الأفراد، وسعيهم للإنتظام فى بناء متماسك لتحقيق هدف مشترك، لا يستطيع الأفراد أنجازه بمفردهم. قد يكون هذا التشابك والبناء قائم بصورة تلقائية وطبيعية، كما فى المجتمعات التقليدية، وما على الأفراد سوى بعث الحيوية فيه والاستفادة منه فى إشباع حاجاتهم الأساسية. وقد يقوم الأفراد طواعية بتأسيسه من خلال جهودهم الإرادية والتطوعية، كما هى الحال فى تنظيمات المجتمع المدنى الحديث، والانتظام من خلاله لتحقيق أهداف مشتركه. على خلاف ذلك فإننا نجد أن ترابطات وشبكات رأس المال الدينى تتأسس نتيجة لتوجيه المعانى الدينية، التى تفرض تأسيس هذه الشبكات أو الترابطات ، كما تحدد أهدافها سلفا (٢٩)، ومن ثم يصبح على الجهود الإنسانية العمل وفقا لها طاعة لمثلها ومعانيها بالأساس.

ويتمثل الخلاف الثانى فى ان الترابطات والشبكات المنتجة لرأس المال الاجتماعى تستهدف تحقيق النفع المتبادل لأعضائها بالأساس، وقد يتسع ليشمل السياق الاجتماعى الذى يعيشون فيه. فدعم الإنسان لشبكة العلاقات القرابية فى المجتمعات التقليدية، يستهدف فى النهاية تحقيق مستوى من الأمان الاجتماعى الذى يتيح إشباع الفرد لحاجاته الأساسية المتباينة. كما يتجه البشر إلى تأسيس تنظيمات المجتمع المدنى الحديثة، وذلك بهدف أن تعمل هذه التنظيمات على إشباع حاجات مؤسسيها، أو المستفدين المستهدفين منها. على

خلاف ذلك فإن الترابطات والشبكات المستندة إلى رأس المال الدينى والمولدة له، تستهدف تجسيد هذه المعانى أولاً، ثم تأتى بعد ذلك مسألة النفع المتبادل كهدف ثانوى، يتصل بنفع الآخرين. ومن ثم فإذا كانت الإيثارية من الخصائص المحورية لرأس المال الاجتماعى والدينى فى مقابل الفردية والأنانية المرتبطة برأس المال الاقتصادى. فإن دائرة الإيثارية تكون عادة محدودة بحدود الجماعة او المجتمع المحلى فى رأس المال الاجتماعى، على حين تتسع دائرة الإيثارية فى رأس المال الدينى لتشمل كل المؤمنين بالدين (٣٠)، أو تتسع بدرجة أكثر لتشمل كل الناس أو العالمين جميعاً. وإذ كانت الجماعة هى التى تمنح الأمان فى رأس المال الاجتماعى، فإن المعانى والقوي الخالقة للكون هى التى تمنح الأحساس بهذا الأمان فى رأس المال الدينى.

ويتصل الخلاف الثالث بالحالة التى عليها السياق الاجتماعى الذى توجد فيه المعانى الدينية، وفى هذا الإطار تتباين المجتمعات من حيث مكانة المعانى الدينية فى بنائها. وإرتباطا بذلك فإن رأس المال الاجتماعى يمكن تأسيس شبكاته وترابطاته فى مختلف السياقات الاجتماعية تقليدية ام حديثة، وهى الحالة التى تنعكس بطبيعة الحال على طبيعة مؤسسات إنتاج رأس المال الاجتماعى، فقد تنشأ هذه المؤسسات بصورة تلقائية وموروثة، أو تتأسس بناء على ثقافة طوعية وميول إرادية. على خلاف ذلك فإن رأس المال الدينى لا يزدهر إلا فى المجتمعات التى تكون فيها المعانى الدينية قوية عند البشر، بحيث تفرض عليها تأسيس ترابطات أو بناء مؤسسات إنتاج رأس المال الدينى طاعة لهذه المعانى (٣١). وفى هذا الإطار نجد تباينا بين البشر من حيث إرتباطهم بالمعانى الدينية، ومن ثم قدرتهم على الاستفاده من رأس المال الدينى فى تطوير الواقع الاجتماعى. وهى مقولة أشار إليها عالم الاجتماع ماكس فيبر فى توضيحه للأسلوب الذى أسست به معانى وقيم المذهب البروتستنتى النظام الرأسمالى.

ويتحدد وجه الاختلاف الرابع فى قدرة رأسمال الدينى على التحول بدرجة أكثر كفاءة مقارنه برأس المال الاجتماعى والاقتصادى. تأكيدا لذلك أنه إذا كان من السهل أن تلعب المعانى الدينية دوراً فعالاً فى تأسيس الترابطات والشبكات الاجتماعية التى تستهدف تحقيق أهداف معينة. فإن بإمكان هذه المعانى ان تولد

رأس مـال إجتماعـى، عـلى هيئـة أبنية أو سـياقات إجتماعية متماسـكة تيسر العون المتبادل لإشـباع الحاجـات الأساسـية للبـشر. أو التحـول إلى رأس مـال إقتصـادى حينما تلعـب المعـانى الدينية دورها فى تأسـيس المشروعـات الاقتصاديـة، كـما هـو حـادث فى البيئة الإسـلامية حاضراً، وهـو التحول الذى يجسـد الصيغـة التـى أشـار إليهـا عالم الاجتماع ماكـس فيبر. غـير أن العكس ليس صحيحـاً، إذ ليس بإمـكان رأس المـال الاجتماعـى المسـتند إلى ترابطـات وشـبكات البـشر أن يلعـب دوراً فى تأسـيس المعـانى الدينيـة، بإسـتثناء دعـم مـا هـو قائـم مـن هـذه المعـانى. وهو مـا يعنـى إمتـلاك رأس المال الدينـى لخاصيـة القابليـة للتحـول الشـامل، وهـى الخاصيـة التى تتوفـر لرأس المـال المعرفى.

٢- أبعـاد الاتفـاق بـين رأس المـال الدينـى ورأس المـال الاجتماعـى: بالإضافـة إلى ذلـك فإننـا نجـد أن هنـاك جوانـب إتفـاق عديـدة بين رأس المـال الدينى والاجتماعـى. ويتمثل جانـب الاتفاق الأول فى أن كلاهـما يتناقـص بعـدم الاسـتخدام، بينـما يـؤدى الاسـتخدام إلى تزايـده وإسـتمراره وإطـراد تراكمـة (٣٢)، وهـو الاسـتخدام الـذى قـد يتحقـق مـن خـلال أشـكال عديـدة. ففـى حالة رأس المـال الاجتماعـى فـإن تأسـيس الترابطـات يسـاعد عـلى الثقـة والمنفعـة المتبادلـة، والتفاعل فى إطارهـا مـن شـأنه أن يسـاعد عـلى مزيـد مـن التماسـك الاجتماعـى. الـذى ينعكـس عـلى إتسـاع هـذه الشـبكات مـن ناحيـة وتعميـق فاعليتهـا مـن ناحيـة ثانية، وهكـذا تسـتمر دائـرة التفاعل فى الاتجـاه الإيجـابى. عـلى حـين تحقـق القناعـة بالمعـانى الدينيـة مزيـداً أو تعميقـا لإرتبـاط الإنسـان بهـا، ومـن ثـم تجسـيدها فى إطـار الواقـع الاجتماعـى، الأمر الـذى قد يعنى توسـيع دائـرة المرتبطين أو المسـتفيدين مـن تجسـيد هـذه المعـانى (٣٣). كـما أن عمـق فهـم هـذه المعـانى مـن شـانه أن يؤسـس القـدرة عـلى التأويل الرشـيد لها، بمـا يجعلها بدورها قادرة على ترشـيد الواقـع الاجتماعى[٢*].

٢ * فى بداية الوحى بالإسلام شكلت الجماعة الإسلامية الأولى ما يمكن أن نسميه «بالنواة الصلبة» حيث كانت الجماعة تتلقى الآيات من النبى ثم تحفظها، ثم تعمل هذه الآيات فى واقعها وتتفاعل وفقا لها، ثم تتولى نشرها ، والتفقة فى معانيها ومن ثم تحافظ على إستمرارها وتجديدها، بحيث يؤدى ذلك إلى تعمق فهم المعانى من ناحية، ونشرها حتى شكلت الحضارة الإسلامية وفقا لها من ناحية ثانية. وقد أكد هذا المعنى عالم الاجتماع تالكوت بارسونز فى تحليلة لقيام الجماعة الثورية، حيث ذهب إلى أن الجماعة التى تعانى من الفشل الدافعى، أى عدم إشباع حاجاتها الأساسية، تطور مجموعة من المعانى التى تبرر رفضها للمجتمع الذى سبب حرمانها. وهى المعانى التى تعثر عليها من داخل الثقافة العامة، ثم تعمل على تعميق هذه المعانى فى داخل الجماعة، لتلعب دورها فى تأسيس تماسك بناء الجماعة، ثم تعمل على نشر هذه المعانى جماهيريا، لتصبح أيديولوجيا ذات قبول جماهيرى، وبذلك تعيد إنتاج المعانى المحدودة لتصبح أيديولوجيا عامة قادرة على إستنفار الجماهير ودفعها على طريق الثورة.

إلى جانـب ذلـك يتقابـل رأس المـال الدينـى والإجتماعـى عـلى سـاحة القيـم والفضائـل الأخلاقيـة للمجتمـع، وهـى المنظومـة التـى تلعب دورها فى تشـكيل دوافع البـشر وإهتماماتهـم بإتجاه إنجاز الأفعـال التـى تسـاهم مـن ناحيـة فى إشـباع حاجاتهـم الأساسـية، ومـن ناحيـة ثانيـة فى دفعهـم إلى التفاعـل لتحقيـق النفـع المتبـادل، إضافـة إلى تحقيـق التماسـك الاجتماعـى مـن ناحية ثالثـة (٣٤). غـير أننـا نلاحـظ إختـلاف علاقـة كل مـن رأس المـال الدينـى والاجتماعـى بعنـصر القيـم والفضائـل الأخلاقيـة، فعـلى حـين تشـكل المعـانى والأفـكار والقيـم الدينيـة أساسـاً أو قاعـدة للقيـم والفضائـل الثقافيـة والاجتماعيـة، حيـث يشـكل الحلال والحـرام الدينى قاعـدة للصواب والخطأ الثقـافى. فإننا نجـد أن القيـم والفضائـل الأخلاقيـة إمـا أنها تؤدى إلى تأسـيس الشـبكات والترابطـات المولدة لرأس المـال الاجتماعـى، أو أن بعضهـا ناتـج عن التفاعل داخل هذه الشـبكات والترابطـات ، ومن ثم فهى تشـكل أحـد مظاهـر أو جوانـب رأس المـال الاجتماعى.

ويتحـدد وجـه الاتفـاق الثالـث بـين رأس المـال الدينـى ورؤوس الأمـوال الأخـرى فى القـدرة التكيفيـة المتضمنـة في كل منهـما، وإذا كان رأس المـال الاقتصـادى يلعـب دوره – مـن خـلال النقود – حسـبما يذهـب تالكـوت بارسـونز فـإن رأس المـال الاجتماعـي يـؤدي دوره فى تأكيـد القـدرة التكيفيـة للإنسـان، مـن خـلال الترابطـات والشـبكات التى تشـكل إطـاراً للأمـان الاجتماعـى. الذى يحتمـى بـه الإنسـان سـواء حينـما يحـدث لـه أى تهديـد خارجـى قـد يصـدر عـن الآخر مـن خارج الترابـط ، أو لتحقيـق امانـه المسـتند إلى إشـباع الحاجـات الأساسـية. عـلى هـذا النحـو فإننـا نجـد ان رأس المـال الدينـى يحقـق الأمـان لـدى البـشر فى حالـة تعمـق المعـانى الدينيـة فى ذواتهـم، إذ تقـدم العواطـف الدينيـة قناعـة بـأن البـشر متسـاوون أولا وأخـيراً أمـام اللـه أو القـوة العاتيـة والقـادرة عـلى كل البـشر، كذلـك الثقـة بـأن النجـاح هـو مـؤشر عـلى تحقيـق إرادة اللـه فى الأرض أو الحيـاة الدنيـا. كـما ان الإعتقـاد فى العبوديـة للـه وحـده ، يجعـل المؤمـن غـير آبـه أو مرتعـد مـن أبنيـة القـوة القائمـة، إضافـة إلى أن عمـق وتراكـم المعـانى الدينيـة عنـد الشـخص، يقلـص لديه الميـل إلى الأسـتهلاك، ومـن ثـم طاعـة الغرائـز. وهـو مـا يرتقـى بالطبيعـة الإنسـانية لتصبـح فى بعضهـا نوارانيـه عـلى مـا يذهـب عبـد الرحمـن بـن خلـدون، كـما يسـاعد تراكـم المعـانى الدينيـة

على تحقيق التراكم الاقتصادى على ما يذهب عالم الاجتماع ماكس فيبر، وهو ما يعنى أن رأس المال الدينى يدعم ويقوي إرادة الإنسان، ويزوده بآليات تكيفية عديدة.

ويذهب وجه الاتفاق الرابع بين رأس المال الاجتماعى والدينى إلى أن ثمة تباين بين رأس المال المعرفى والاقتصادى والثقافى من ناحية، وبين رأس المال الاجتماعى والدينى من ناحية مقابلة، تأكيدا لذلك أننا إذ تأملنا رأس المال المعرفى والاقتصادى فسوف نجدهما نتيجة أو وظيفة لآداء المؤسسات الرسمية للدولة. بالإضافة إلى ذلك فإننا نجد أن رأس المال الاقتصادى والمعرفى عادة ما يتسم إنتاجة بالفردية ويقاس بالتوازن بين التكاليف والعائد. على خلاف ذلك نجد أن رأس المال الاجتماعى والدينى هو تعبير عن المجتمع بتكويناته وترابطاته الاجتماعية. وكذلك ثروة المعانى والتراث الثقافى الذى طوره المجتمع عبر مسيرته التاريخية، مع ضرورة أن تكون هذه المعانى قادرة على تعظيم الجهد الإنسانى، بإتجاه تحقيق أهداف الأفعال الفردية والأفعال الاجتماعيةالعامة. وهو ما يعنى أن الحديث عن رأس المال الاجتماعى ورأس المال الدينى، يعد دعوة إلى تفعيل تكوينات المجتمع الطبيعى Society [٣*] بعد أن أستبعدته نظريات العقد الاجتماعى أو على الأقل إختزلت إمكانياته.

كما يتميز رأس المال الدينى وكذلك رأس المال الاجتماعى، بأنه من تفعيل أو صنع البشر البسطاء ودفعهم لأخذ زمام المبادرة بيدهم. ومن ثم فهذا الرأسمال ترتبط نشأته وفاعليته بالجماهير وبالجذور Grass Roots. وفى هذا الإطار فقد تولدت بعض الظروف التى أطلقت عقال هذا النمط من رأس المال،

٣ * *هناك بعض التجارب التحديثية التى ربطت بين رأس المال الاقتصادى ورأس المال الاجتماعى والدينى، وأبرزها التجربة اليابانية. حيث نجد أن ديانة الشنتو اليابانية من الديانات التى تؤكد على تقديس الأسرة والحياة الأسرية. ومن ثم تشكل الأسرة أهم عناصر الحياة الاجتماعية اليابانية. بالإضافة إلى ذلك تعد الأسرة اليابانية وحدة ملحقة بالعملية الاقتصادية والاقتصاد اليابانى. ففى بعض مصانع الأجهزة، كلعب الأطفال والأجهزة الكهربائية، تقوم الأسرة بالحصول على القطع التى تدخل فى تصنيع كثير من هذه الأجهزة، ثم تقوم بتركيبها وتسليمها إلى المصنع لإختبارها وفحصها. ودفع مقابل إقتصادى للأسرة لقاء ذلك، وبذلك تتفاعل رؤوس الأموال الثلاثة، فى دعم الأسرة والقرابة كترابط إجتماعى. وفى نفس الوقت تعمل بإتجاه دمج البنية الاقتصادية فى البنية العائلية، وهى سمة تجعل التحديث اليابانى يختلف فى بعض جوانبه عن التحديث الغربى، إضافة إلى تعميق العقيدة الدينية والفضائل المرتبطة بها.

فهناك الضعف الذى أصاب الدولة القومية فى الفترة الأخيرة. إما بسبب ظروف العولمة التى أضعفت آلياتها العديدة فاعلية الدولة وبأسها، أو لأن الدولة القومية فى مجتمعات العالم الثالث قد فشلت فى أغلب خياراتها وتجاربها التنموية، الأمر الذى طرح على الساحة المجتمعية المطالبة بمراجعة كفاءتها وفاعليتها. ومن ثم فقد تقدمت الترابطات والشبكات الإجتماعية والمجتمعية لتملأ الفراغ، ولتلعب دوراً من خلال العون المتبادل فى تمكين البشر، ولكى يكونوا أكثر فاعلية فإن المعانى الدينية هى التى تتولى إستنفار طاقتهم وتوجيه جهودهم لتحقيق أهداف محددة. وفى هذا النطاق فإننا نجد أن كثيرا من المؤسسات الدينية القائمة فى مختلف المجتمعات، تلعب دورها إستناداً إلى المعانى الدينية فى تأسيس الترابطات والتنظيمات، التى تعمل على تعبئة البشر فى إتجاه القيام بجهود إقتصادية محددة تتولى إشباع حاجاتهم الأساسية[٤*].

وإذا كان رأس المال الدينى يلعب دوراً اساسيا فى تعبئة البشر من خلال الترابطات، وعلى أساس من الثقة المتبادلة فى إتجاه تحقيق أهدافهم فإن هذا النمط من رأس المال يلعب دوره بوضوح فى السياقات التى ما زالت محتفظة بمعانيها الدينية. لذلك نجد أنه إذا كان رأس المال الاقتصادى والمعرفى هو الذى لعب وما زال يلعب دوراً محورياً فى تحديث مجتمعات الشمال التى قطعت شوطا على طريق التقدم، وإن كانت هناك بعض الدعوات التى تطالب بضرورة العودة إلى الإستفادة من رأس المال الاجتماعى والأخلاقى والدينى كما ذهب إلى ذلك فرنسيس فوكوياما فى مؤلفه نهاية نظام (٣٥). فى مقابل ذلك فإننا

٤ * توجد بعض التنظيمات أو الترابطات التى تقوم على أساس دينى، والتى تدع المعانى الدينية تلعب دوراً محورياً فى إنجازها لأهدافها الإقتصادية، بهدف إشباع الحاجات الأساسية للمستفدين منها، من خلال فرض إنتظامهم فى تنظيمات محددة لتحقيق أهداف معينة، تؤدى فى النهاية إلى الارتقاء بواقعهم الاجتماعى. ومن خلال دراسة قام بها الباحث فى العالم العربى حول دور المنظمات غير الحكومية فى مواجهة الفقر، وجد الباحث أن هناك بعض التنظيمات التى تفعل المعانى الدينية فى هذا الاتجاه، كمثال على ذلك «جمعية الشبية المسيحية» و«جمعية الرعاية الإسلامية» فى لبنان، وكذلك «الهيئة القبطية الإنجيلية» و«الجمعية الشرعية» فى مصر. بل إننا نجد أن «جمعية الإصلاح الإسلامية فى اليمن» طلبت من الحكومة اليمنية أن تطلق يدها فى جمع «الزكاة» ومن عائدها تقوم بتنمية المجتمع اليمنى وتحديثه، من خلال تأسيس المشروعات الاقتصادية المختلفة المتضمنة فى ذلك. إضافة إلى دفع رواتب الموظفين المدنيين فى الدولة، غير أن الحكومة اليمنية رفضت هذا العرض حينئذ، تحت وطأة ضغوط خارجية من ناحية، ومن ناحية ثانية خوفا من سحب البساط الجماهيرى من تحت أقدامها.

نجـد أن مجتمعـات الجنـوب، وبخاصـة المجموعة الإسـلامية والعربية، يتكثـف فى فضائها رأس المال الدينـى والاجتماعـى، حيـث نجـد أن الأخـير لـه علاقـة بالتجمعـات والترابطـات العائليـة والقرابية. وهـى المكونـات التـى تسـتنفر عواطـف الثقـة كقاعـدة للعلاقـات المتبادلـة، وكأسـاس للجهـود المتعاونـة التـى تسـتهدف الارتقـاء بالمجتمع المحلى وإشـباع الحاجات الأساسـية لأعضائـه. بالإضافة إلى ذلـك فإننـا نجـد أن المعـانى الدينية، تلعب ذات الـدور وفى ذات الاتجاه، تجسـيدا لذلك أننا نجد أن المعـانى الدينيـة تشـكل قاعـدة لقيـام كثـير مـن الشـبكات والترابطـات والجهـود التى تسـتهدف أشـباع حاجـات البـشر والابقـاء عـلى التماسـك الاجتماعـى فى حالة مـن العافية.

إرتباطـا بذلـك فـإن لنـا ملاحظتـين، حيـث تتمثـل الملاحظـة الأولى فى أننـا إذا كنـا قـد أكدنا عـلى أهميـة رأس المـال الدينـى والاجتماعـى فـإن ذلـك لإبـراز دوره فى مجتمعاتنـا التـى سـقطت فى خطـأ تقليـد تجربـة التحديـث الغربيـة، ومـن ثـم فقد أردنـا أن نجـذب الانتبـاه إلى فاعلية هذه الأنمـاط مـن رأس المـال لبنـاء تجـارب تنمويـة تعـبر عـن هويتنـا. بينـما تشـير الملاحظـة الثانيـة إلى أننـا ونحـن نتحـدث عـن رأس المـال الدينـى كأحـد آليـات التنميـة والتحديـث لمجتمعاتنـا، وكذلـك رأس المـال الاجتماعـى. فـإن ذلـك يفـرض علينـا أن لا نغفـل الـدور الـذى يمكـن أن تلعبـه الاسـتفادة مـن رأس المـال الاقتصـادى والاجتماعي والسـياسي والثقـافي والمعرفى بإعتبـار أنها جميعها مصـادر أو مـوارد محوريـة، يمكـن أن تلعـب دورهـا فى إنجـاز عمليـة التحديـث داخـل مجتمعاتنـا. وفى هـذا الإطـار فليـس مـن الـضرورى أن يتحقـق تحديـث مجتمعاتنـا معتمـدا فقـط عـلى رأس المـال الاقتصـادى بالأسـاس وفقـط كـما فعلـت تجربـة التحديـث الغربيـة، وفى هـذا الصـدد فـإن علينـا أن نكـون أكـثر أقترابـا مـن تجربـة التحديـث اليابانيـة، خاصـة أن مفكـرى تجربـة التحديـث الغربيـة قـد أدركـوا أخـيراً أهميـة رأس المـال الدينـى والاجتماعـى. ذلـك أننـا إذا أغفلنـا الحديـث عـن الترويـج لفاعليـة رأس المـال الاقتصـادى والمعـرفى والثقـافى فإننـا بذلـك نكـون قـد إرتكبنـا ذات خطـأ تجربـة التحديـث الغربيـة وأن كان ذلـك بصـورة معكوسـة وسـاهمنا بدرجـة أكـثر فى

تأكيـد تخلـف مجتمعاتنـا[٥]. إذ أننـا عـلى قناعة بـأن مختلف رؤوس الأمـوال الكائنـة فى الطبيعة، أيا كانـت طبيعتهـا، إنمـا وجـدت لتكون لهـا مكانـة ودور محورى فى إسـتمرار المجتمع.

ذلـك يعنـى أن رؤس الأمـوال المختلفـة بمـا فى ذلك راس المال الدينى تشـكل قيما مضافة تدعـم الفعـل الإنسـانى وتسـاعد فى تنميـة وتحديـث المجتمع، وبذلـك يقف رأس المـال الدينى علي قـدم المسـاواة مـع أشـكال رأس المـال الأخـري، كـرأس المال المـادي والاجتماعـي والثقـافي حتي رأس المـال المعـرفي. بحيـث يـؤدي ظهـور أنمـاط رؤوس الأمـوال هـذه إلي تولـد طاقات جديـدة تزيد من فاعليـة المجتمـع وقدراتـه ، إرتباطـا بذلـك فإننـا نسـعي إلي بلـورة قضيتـين، الأولي تتعلـق بقضيـة تشـكيل الديـن لرأسـمال يتضمـن قيـما مضافـة ، بينـما تتعلـق القضيـة الثانية بالاسـتفادة الرشـيدة مـن الديـن بإعتبـاره يتضمـن قيـما مضافـة تشـكل طاقة مضافـة تدعـم إلى الفعل الإنسـانى، وتؤدى إلى تنميـة وتحديـث المجتمع.

٣- المضامـين الدينيـة كقيـم مضافـة: فيـما يتصـل بالقضيـة الأولي، المتعلقـة بتضمـن الديـن لقيـم مضافـة، فـإن ذلـك يتضـح من أننـا إذا تأملنـا الدين كأحـد أنمـاط رأس المال، فسـوف نجد انه كأي رأسـمال آخـر يتضمـن مـوارد أو يسـتند إلي مصـادر طبيعيـة، تتمثـل في «المعاني الدينيـة» التي يصـدر بعضهـا عـن قـوي مـا وراء الطبيعـة. وأن هـذه المعـاني يعـاد إنتاجها لـكي تتحول إلي أشـكال رأس المـال الأخـري او لكي تشـبع مباشرة حاجات إنسـانية ، كالحاجة إلي الأمـان أو إلي التعبئة لإنجاز فعـل معـين عـلي مسـتوي الفـرد أو المجتمـع. في هـذا الإطـار نجـد أن لهـذا النمـط مـن رأس المـال أشـكال عديـدة لاسـتثماره ، فقـد يسـتثمر الدين في الحفاظ عـلي الأوضاع القائمـة ، أو في تغيير هذه الأوضـاع الاجتماعيـة إلي الأفضـل، أو في التعبئـة مـن أجـل تحقيـق أهـداف إجتماعيـة وإقتصاديـة للمجتمـع. بحيـث تسـاعد هـذه الاسـتخدامات في توليـد قيـم مضافـة ، يسـتفاد منهـا في تحقيـق

[٥] وهنا نستخدم ذات المنطق الذى قدمه فريدريك إنجلز عندما سئل عن سبب التركيز فى نظريته وماركس على العوامل الاقتصادية، فأجاب لأن المفكرين المعاصرين لهم أغفلوا أهمية المتغيرات الاقتصادية فأردنا أن نبرزها لهم حتى يمكننا أن نجذب الانتباه الملائم لأهميتها.

أهـداف إجتماعيـة متنوعـة، وربمـا متناقضـة، كأي شـكل مـن أشـكال رأس المـال الأخـري. كتثبيـت الوضـع القائـم، أو تأسـيس تقـدم اقتصـادي، أو تحقيـق التغيـير أو الجهـاد للحصول علي الاسـتقلال والانتصـار في حـرب. إضافـة إلي أن إمتـلاك المجتمع لرأسـمال ديني يزيد من قـوة المجتمع ومناعته، وهـو مـا يعنـي في خلاصـة الأمـر أن رأس المـال الدينـي «المعـاني الدينيـة» لديهـا قابليـة التحـول إلي طاقـة ، أو لديهـا القـدرة لتوليـد وإنتـاج الطاقـة. بالإضافة إلي ذلك فإننـا إذا تأملنا الرمزيـة الدينية، فسـوف نجدهـا في جانـب منهـا رمزيـة ذات طبيعـة إقتصاديـة لهـا تجسـداتها الواقعيـة . إذ يؤكـد اللـه تعـالى بمـا معنـاه في القـرآن الكريـم «أن الله إشـتري مـن المؤمنون أنفسـهم بان لهـم الجنة» و «أن الحسـنة بعـشر أمثالهـا» و «أن المؤمنـين هم الذين سـوف يرثـون الأرض ومن عليهـا» وجميعها توجيهـات تشـير إلي التأكيـد عـلي مضامـين المقايضـة في نطـاق التعامل مـع رأس المـال الديني.

ولتوضيـح إمكانيـة وقـدرة رأس المـال الدينـي عـلي إنتـاج الطاقـة ، فإننـا نجـد أن ذلـك قد تحقـق مـن خـلال وقائـع تاريخيـه ومعـاصرة عديـدة. فإضافـة إلي البعـد العقيـدي الـذي يؤكـد عـلي نـصرة اللـه للمؤمنـين . فإننـا إذا تأملنـا معركـة بـدر ووجدنـا أن ثلاثمائـة يهزمـون ثلاثـة آلاف بـإذن ربهـم. فـإن ذلـك يشـير إلي درجـة عاليـة مـن الإعتقـاد الـذي عظـم قـدرات الثلاثمائـة فجعلهـم ينتـصرون عـلي ثلاثـة آلاف بـدون إعتقـاد، لأن طاقـة الاعتقـاد تجعل الإنسـان أكـثر قدرة وفاعليـة. وعـلي هـذا النحـو تتولـد معادلـة جديـدة، مضمونهـا أن ثلاثمائـة بإعتقـاد قـوي ، نقـي وطاهـر يتسـاوون أو يزيـدون عـلي ثـلاث آلاف بـدون هـذا المسـتوي من الاعتقـاد، وليسـت لديهم هـذه الطاقـة. ويتسـق مـع ذلـك أنـه حينـما يحـارب اليهـود حروبهـم في ظل شـعار الحصـول علي «أرض الميعـاد» فإنهـم يضيفـون إلي القـدرة العسـكرية طاقـة عقيديـة، تجعـل الجنـدي الاسرائيـلي لا يحـارب مـن آجـل الحصـول عـلي أرض فقـط ، ولكنـه يحـارب مـن أجـل تجسـيد عقيدتـه التوراتيـه إضافـة إلي ذلـك. وقـد بـرز نفـس المنطق في الحـرب العربيـة الإسرائيلية السادسـة، حيث حـارب «حـزب اللـه» الـذي لا يزيـد عـدد جنـده عـلي عـدة آلاف مسـلحين بعتـاد عسـكري غـير متطـور، القـوة الإسرائيليـة العاتيـة ومـن ورائهـا القـوة والترسـانة الأمريكيـة ، ومـع ذلـك يهزمهـا

ويحرمهـا مـن تحقيـق الانتصار بسـبب الطاقة والقيمة المضافـة التى تولدت عن عقيدة الاستشـهاد الشـيعى. وهـو مـا يعنـي أن معادلـة الـصراع قـد تبدلـت لصالحـه بفعل عمـق المعتقـدات الدينية ، فأصبحـت تشـير إلي أنـه بإمـكان عـدد محـدود مـن الجنـد مضافـا إليهـم عقيديـة دينيـة شـيعيه برمزيـة إستشـهادية عميقـة ، أن ينتـصروا عـلي عـدد كبـير مـن الجنـد بحالـة عقيديـة متوسـطة أو متدنيـة. وهـو مـا يعنـي أن هـذه المعادلـة قـد تكـررت أكـثر مـن مـرة وهـو مـا يعنـي أنها تشـكل قانـون يمنـح الاعتبـار لبعـد المعـاني إلي جانـب البعـد المـادي لتعظيـم آداء الفعل الإنسـاني.

٤- الاسـتفادة الرشـيدة مـن المضامـين الدينيـة: وتتعلـق القضيـة الثانيـة بالقـدرة عـلي الاسـتفادة الرشـيدة مـن المعاني الدينيـة في مختلف مجالات الحيـاة الثقافية الاقتصادية والسياسـية. ولتوضيـح ذلـك نقـارن بـين التعامـل الإسرائيـلي مع المعـاني الدينية – علنـا نتعلم مـن عدونا – وبين تعامـل الأنظمـة العربيـة معها. إذ يتميـز التعامل الإسرائيلي مع المعاني الدينية بكونه تعاملاً رشـيداً ، حيـث تسـتخدم إسرائيـل في أحيـان كثيرة المعـاني الدينية في المناورات السياسـية. تأكيـدا لذلك أنه حينـما تريـد إسرائيـل تكثيـف ضغوطهـا علي القـوي العالمية وبخاصـة الولايات المتحـدة الأمريكية ، فإنهـا تسـتدعي عـادة الجماعـات اليهوديـة عـلي صعيد القـوي الكبري لتسـتنفر العواطـف الدينية، التـي توجـه عـادة بإتجـاه دعـم القضايا والمواقـف الإسرائيليـة. بالإضافـة إلي ذلك فإنـه حينما تريد إسرائيـل التحلـل مـن بعـض الاتفاقيـات التـي تضر بحسـاباتها ، أو حينما تريد التشـدد بشـأن بعض القضايـا الدينيـة، فإنهـا تسـتدعي القـوي الدينية ممثلـه في كتلة الليكـود، لتقود هـي التفاعل خلال هـذه المرحلـة. فـإذا حققـت أهدافهـا المرحليـة، فإن كتلـة الليكود تتراجـع ليتولي المعتدلين نسـبيا قيـادة دفـة الأمـور، نـوع مـن توزيع الأدوار، تسـتدعي في إطـاره القـوي الدينية لتلعـب دورها ، ثم تنسـحب مـن علي خشـبة المسرح متـي حققـت أهدافها.

عـلي خـلاف ذلـك يتميـز التعامـل فى مجتمعاتنـا العربيـة مـع المعـاني الدينيـة بالطابـع غـير الرشـيد ، حيـث يتـم تبديـد رأس المـال الدينـي بوسـائل عديـدة، نذكـر منهـا عـلي سـبيل المثـال ثلاثـة وسـائل. ويشـكل التطـرف بالمعـاني الدينيـة أبـرز وسـائل

تدمير رأس المال الديني ، لأن الجماعة المتطرفة تتطرف عادة بالمعاني الدينية بما يخرجها عن طبيعتها السمحة كما أشرت. بحيث يؤدي ذلك إلي عدم قدرة هذه المعاني علي أعادة أنتاج ذاتها، لتطرفها وعدم قبولها من البشر خارج نطاق الجماعة المتطرفة. ذلك بالإضافة إلي أن هذه المعاني المتطرفة تكون أشبه ما يكون «بالبضاعة المغشوشة» التي يؤدي إستخدامها من قبل أعداء الأمة والدين إلي الاضرار بالمعاني الدينية الحقيقية. وإرتباطا بذلك تتمثل مسئولية الأنظمة العربية في عدم معالجة الظروف الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، التي أدت إلي ظهور الجماعات التي تطرفت بالمعاني الدينية والاكتفاء بالمواجهة الأمنية فقط. الأمر الذى يعنى أن تطرف هذه الجماعات بالدين يشكل هدرا لرأس المال الدينى، الذى كان يمكن أن يشكل طاقة دافعة لتقدم وتحديث المجتمع.

وتتشكل الآلية الثانية لتبديد رأس المال الديني من خلال ترك الغير يعبث بالمعاني الدينية، فمثلما تستولي القوي العالمية علي خاماتنا الطبيعية رغما عنا وبالأسعار التي تحددها. ومثلما تحدد القوي العالمية في كثير من الأحيان نطاق فعلنا ، وتدمر ثرواتنا فإنها تسعي الآن نحو تدمير مخزون رأسمالنا الديني الذي يتضمن تبديد المعاني القادرة علي تعبئتنا. في هذا الإطار تسعي القوي العالمية إلي العبث بديننا تارة من خلال نزع آيات الجهاد والمقاومة ، أو السعي لنزع بعض الآيات القرآنية المتعلقة بالنظرة السلبية لليهود تارة ثانية. وتارة ثالثة من خلال العبث ببعض الآيات المتعلقة بالتوريث الإسلامي، أو المتعلقة بالمرأة في إطار الأسرة، وتارة رابعة من خلال ضرب التعليم الديني في مقتل. وتارة خامسة من خلال إشعال الفتنة بين الجماعات الدينية في نطاق الأمة الواحدة التي يؤكد قرآنها علي التسامح والقبول الدافئ للآخر الديني. تأكيداً لذلك قول الله تعالي في القرآن آمراً المؤمنين «قولوا آمنا بالله وما أنزل علينا وما أنزل إلي إبراهيم وإسماعيل واسحق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسي وعيسي والنبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون» آل عمران. الآية ٢٤» . وقد تكرر ذات المعني في سورة البقرة ، الآية رقم ١٣٦ ، بقوله تعالي «إن الذين آمنو واللذين هادوا والصابئين والنصاري والمجوس والذين أشركوا إن الله يفصل

بينهم يوم القيامة إن الله علي كل شئ شهيد» الحج» الآية ١٧.

وتتمثـل الآليـة الثالثـة لعـدم التعامل الرشـيد مع رأس المـال الديني فى عدم سـعي الأنظمة العربيـة لمحـاصرة الجماعـات الدينيـة العنيفـة المتطرفـة مـن خـلال العمـل عـلى تطويـر التديـن الوسـطى المعتـدل التاويـل، أو القـراءة الدينيـة المتنـورة للوثائق الأساسـية. وهى القراءة التى تشـير إلى قـدرة الاسـلام عـلى التعامـل مـع المفاهيـم الحديثـة وكذلـك عـلى إسـتيعاب مفاهيـم المواطنـة، بمعانيهـا التقليديـة والحديثـة، مضـاف إلى ذلـك أن الفكـر الاسـلامى المعتـدل يفتـح الطريق واسـعا لإسـتيعاب وقبـول الأخـر الدينـى والمذهبـى، خاصـة الكتـابى. بحيـث يـؤدى نـشر هـذا النمـط مـن التفكـير الدينـى المعتـدل، الذى يمكن أن يشـكل قيمة مضافة للفعل الإنسـانى والاجتماعى وإفسـاح الطريـق أمـام المعتدلـون دينيـا بإتجـاه المشـاركة في العمليـة السياسـية والاجتماعيـة والاقتصاديـة . وإسـتخدام المعـاني الدينيـة التـي التـى لديهـا وتتعلـق بموقفها مـن بعـض القضايا من أجـل المبادرة السياسـية عـلي الصعيـد العالمـي ، وتعبئتهم بإتجاه تحقيـق أهداف مجتمعية محـددة علي الصعيد الداخـلي أو الإقليمـى أو العالمى.

رابعاً: علاقة الدين بالسياسة أو جدل الكل مع الجزء في المنظور الاسلامى

الحديـث عـن العلاقـة بـين الدين والسياسـة، هـو حديث حول نسـقين أو نظامـين يحتويان عـلى مضامـين متباينـة، فالديـن بطبيعتـه يميـل إلى أن يتشـكل فى غالبة مـن مضامين مطلقـة، بينما السياسـة، هـى علـم وتفكـير النسـبى. بالإضافـة إلى ذلـك فالدين يسـند إلى مـا هو كلى دائمـاً، وهو كل جـاء للعالمـين، ويتحـدث عـن كل المخلوقات، وعن كليـة الكون منذ بدايته وحتـى نهايته. بينما السياسـة محـدودة، ومتغـيرة، وتميـل إلى التعامل مع الجزئى دائماً، فما يصلـح لموقف قد لا يصلح فى موقـف آخـر. وحتـى لا تتبعـثر جهودهـا، فإنها تميل إلى الاحتـكام دائماً إلى مرجعيـة، هى التى تضع مبادئهـا منـذ البدايـة. فى هـذا الإطـار فـإن الخطأ الذى قـد يحدث فيـما يتعلق بالعلاقـة بين الدين والسياسـة، يتمثـل فى محاولـة توظيـف ما هـو كلى لصالح ما هو جزئى، مـع أن الأول محتوى للأخير، لذلـك تعرضـت هـذه العلاقـة فى أحيان كثيرة لقضايا إشـكالية عديدة. سـواء فيما يتعلـق بالظروف

التـى شـكلت رؤيـة التيـار الدينـى، أو تلـك التـى دفعتـه إلى تطويـر مواقـف متباينـة فيـما يتعلـق بمختلـف القضايـا، وهـى الحالـة التـى نتعـرض لهـا بالبحـث والتحليـل.

١- الظـروف الدافعـة لتـشرزم التيـار الاسـلامى وعدم إعتدالة: لا يشـكل التيـار الدينى كتلة واحـدة متجانسـة، بـل إننـا نجـد أن لـه تنوعاتـه ومواقفـه التـي تختلـف بإختـلاف ألـوان الطيـف. بحيـث يمكـن صـف المواقـف المتباينـة للتيـار الدينـى مـن مختلـف القضايـا السياسـية عـلى هيئـة متصـل. تقـف عـلى أحـد أطرافـه بعـض الجماعـات الدينيـة، التـي تطـرح رؤيـة متشـددة للعلاقـة بـين الديـن والسياسـة، مؤكـدة أن مفاهيـم السياسـة ينبغي أن تشـتق مـن مفاهيم النسـق الديني. الالتـزام حرفيًـا لديهـا بالنصـوص، تقرؤهـا بلا تأويل تفرضه نسـبية مقـولات الزمان والمـكان، وتباين قـدرات ومنظـورات الـذات الإنسـانية العارفـة. وعـلى الطـرف المقابـل أو النقيـض تقـف بعـض التيـارات الدينيـة التـي تؤكـد عـلى أنـه وإن كان النـص الديني مطلقًـا إلا أن إطلاقه مصـدر رحمته، فهـو مطلـق لكونـه يتجـاوز تباين أو تفـرد الذات والمـكان والزمـان، لكونه يعـبر فى ذات الوقت عن الـذات المطلقـة المتعاليـة. وعـلى البـشر أن يقـرأوه في ظـل واقعهـم الاجتماعـي، بدلا مـن أن يقرأوا واقعهـم بالنظـر إليـه، فـإن لم يكـن ثمـة نـص صريـح واضـح، فـإن القيـاس والاجتهـاد هـو المطيـة. إذًا فالنـص مطلـق، وعلينـا أن نـدرك النسـبي بالنظـر إلى مرجعيـة المطلـق، أليـس اللـه هـو القائل: (سَـنُرِيهِمْ آيَاتِنَـا فِي الآفَـاقِ وَفِي أَنْفُسِـهِمْ حَتَّـى يَتَبَـيَّنَ لَهُـمْ أَنَّـهُ الْحَـقُّ أَوَلَـمْ يَكْـفِ بِرَبِّكَ أَنَّـهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَـهِيدٌ) (فصلـت: الآيـة ٥٣)

النـص لـدى الطـرف الأول جامـد لـه قداسـته، وعلينـا أن نطـور الواقـع حتى يتطابـق معه، بينـما النـص عنـد الطـرف الثاني دينامي متحرك يسـاعدنا عـلى إدراك الواقع والتكيف مـع معطياته، وبـين الطرفـين تصطـف جماعـات ورؤى التيـار الدينى المتعـددة. هى ألـوان طيف متتابعـة تتباين فيـما بينهـا ابتـداء مـن الالتـزام الحـرفي بالنـص وحتـى إدراكـه ديناميًـا، بالنظـر إلى قـدرة العقـل متزاوجـة مـع حركيـة الواقـع، بحيـث أدى ذلـك إلى إنتـاج جماعات مختلفـة من حيـث موقفها من عمليـة الإصـلاح السـياسي، وهـو الاختلاف الـذي صنعتـه ظـروف وشروط عديدة.

ويتمثـل الظـرف الثـاني المسـئول عـن تبنـى بعـض جماعـات التيـار الدينـى،

للعنـف البعيـد عـن الاعتـدال في مـدى توفر رأس المـال الديني الذي لـدى الفـرد أو الجماعة، حيث يتشـكل رأس المـال الدينـي مـن مصـادر عديـدة، أولهـا الخـبرة التاريخيـة التـي تمتلكهـا جماعـات التيـار الدينـى، هـذه الخـبرة تتراكـم عـلى صعيد رأسي وأفقـي في ذات الوقـت. ويعنى إمتـلاك التيار الدينـى لخـبرة رأسـية توفـرت لهـا من خـلال الوجـود التاريخـي، المـادي والمعنوي الأخلاقـي، بحيث تمكنهـا الخـبرة التاريخيـة من القدرة على تطوير رؤية اسـتراتيجية تسـتند إلى هذه الخـبرة التاريخية المتراكمـة، يضـاف إلى ذلـك التراكـم الأفقـي الـذي يتوفـر للجماعـة الدينيـة، إذا إنتـشرت الجماعـة الدينيـة في مجتمعـات عديـدة وفي سـياقات متنوعـة أبرزهـا الريـف والحـضر، والباديـة ، إضافة إلى البيئـة السـاحلية، كـما تنتـشر بـين الأغنياء والفقراء، ومن شـأن تلاقح هـذا التنوع أن يشـكل مصدرًا قويًـا لتراكـم الخـبرة الدينيـة. كـما يشـكل إدراك تفاعـلات العـالم المحيط بالتيـار الدينـى، والأحداث التـي تقـع في هـذا العـالم. إضافـة إلى التعمق في إدراك مضامـين النصوص الدينية بحثًـا عن المرجعية التـي تسـاعد فى إدراك هـذه الأحـداث والقوانـين التـي تحكـم تدفقهـا أحـد مصـادر هـذه الخـبرة. فليـس يكفـي أن نحتمـي بقـوة النـص الدينـي، بـل الأفضـل أن نحتمـي بالفهـم الأعمـق، لمـا يـدور حولنـا عـلى خلفيـة أو خريطـة هذا النـص (٣٦).

ويشـكل الوعـي الموضوعـي أحـد مصـادر تراكـم الخـبرة ونمـو رأس المـال الدينـي، بـل أحـد مؤشراتـه كذلـك، وإذا كان نضـح الوعـي الموضوعـي يسـتند إلى تراكـم الخـبرة والمعرفة، فـإن إعماله يسـاعد فى إدراك أعمـق وأكـثر دقـة لحركـة الأحـداث مـن الحـاضر إلى المسـتقبل. حيث يكـون هذا الوعـي قـادرًا عـلى إدراك الصـلات أو العلاقات غـير المرئية بين النـص الصادق، والواقـع الذي خلقته نفـس القـوى التـي أبدعـت هـذا العالم، والتـي صـدر عنها النـص الصادق.

ويتمثل الظرف الثالث في مستوى الثقة، الثقة في النص والثقة بالذات. وتتحقق الثقة بالنص بمنطـق إيمـاني وعقـلي عـلى السـواء، فامتلاك الفاعـل الدينى لرأس المـال الديني الملائـم يجعله قادرًا عـلى أن يقـرأ بثقـة مضامـين النص. وفي ذات الوقت يـدرك ببصيرة نافذة التفاعـلات أو القوانين التي تحكـم حركـة الواقـع، الأمر الـذي يجعل الفهم التأويـلي لديه يتأرجح بين التعمـق في إدراك مضامين

النـص، والغـوص حتـى الإمسـاك بالحقائق الجوهرية للواقـع. مطيته في ذلك التأويـل، الذي تتداخل فيـه الـذات مـع الموضـوع، لتقـدم فهـمًا أو تفهـمًا لعميـق المعـاني، بـدلاً مـن التفسـير الـذي يظـل محصـورًا في نطـاق العلاقـات السـببية الظاهـرة لأحـداث الموضـوع. هـذه الثقـة تتولد لـدى الذات الإسـلامية الواعيـة والمفكـرة نتيجـة لتراكـم القـراءات، التـي توفـرت عـن إعـمال العقل الإسـلامي في فهـم تفاعـلات وأحـداث الواقـع المتنوعـة والمتتابعة.

ويشـكل ثـراء تفاعـلات الواقـع مصـدرًا آخـر لتأسـيس الخـبرة التأويليـة وتراكـم رأس المـال الدينـي لـدى التيـار الإسـلامي. ويتجـلى ثـراء الواقـع مـن خـلال ثـراء وتنـوع الوقائـع التـي تطـرح. ولنأخـذ مفهـوم أو حالـة الديمقراطيـة مثـال على ذلـك، إذ يرى أحـد المفكرين أن «الخطـاب الدينى العـربي ظـل يفتقـد التأصيل والعمق الفلسـفي اللازم «لاعتبـارات كثيرة ... منها التوقـف عند الصور النمطيـة للديمقراطيـة والليبراليـة، وتجريدهـا مـن تطبيقاتهـا التاريخيـة والاجتماعيـة والثقافيـة... بالإضافـة إلى إغفـال الخطـاب الدينـى لجوانـب الصـيرورة في النـماذج الديمقراطيـة الغربيـة عمومًـا والجنوبيـة عـلى وجـه التخصيـص. ومنهـا غيـاب معالجـات رصينـة لحـالات ديمقراطيـة جديـدة في واقـع جنـوبي كحالـة الهنـد» (٣٧). ومـا ينطبـق عـلى مفهـوم الديمقراطيـة، ينطبـق عـلى المـرأة، كما ينطبـق عـلى وضـع الأقليـات بالنسـبة للأغلبيـة ذات التوجهـات المخالفـة. ذلـك أنـه مـن شـأن هذا التنـوع لأشـكال المفهـوم أو الواقعـة في الواقـع أن يسـتنفر قـدرة الباحـث عـلى التأمـل، ومـن ثـم سـيطرته عـلى النـص وإعـادة قراءتـه عـلى خلفية تنوعـات الواقـع، بما يسـاعد فى تقديـم اجتهادات أو تأويـلات جديـدة (٣٨).

وتشـكل ظروف الانكسـار والصحوة أحد مصادر الطاقة الدافعة لتطور تفكير التيار الدينى واعتداله، ومن ثم اسـتثمار رأسـماله الديني في تطوير وإبداع أفكار ووجهات نظر خلاقة في مواجهة حقائـق الواقـع المتغـيرة. فمنـذ بدايـة احتـلال العـالم العربي والإسـلامي في النصـف الثاني مـن القرن التاسـع عـشر، وهـذا العـالم تتـآكل إمكانياته الماديـة والمعنوية وتتبـدد قدراته. ولقد اسـتمر منحنى تراكـم التـآكل والانهيـار حتـى بـدأت غالبيـة المجتمعات العربية والإسـلامية تشـغل مكانـة متأخرة

في تـدرج مختلـف متغـيرات ومقاييسـس التقـدم أو التحديـث الإنسـاني. حتـى بلغت قرب مسـتوى «الصفـر» وحسـب قوانـين إنسـانية بحتـة، فإمـا أن تواجـه الجماعـة حائـط المـوت أو الفنـاء. وإما أن تتفتـح بصيرتهـا عـلى الحقيقـة المـرة والمفزعـة فيـبرق في مخيلتهـا الوعـي، الـذي يعتـبر مقدمـة للصحـوة التـي يقودهـا عـادة التفكـير والفكـر المخاطـر والمجتهـد. الذي يطـور فكره الدينـي الذي يشـكل مرجعيتـه حتـى يشـكل قـدرة مضافـة لقدراته تسـاعده عـلى التكيـف والبقـاء، لينتقل بعد ذلـك إلى فضـاء الفاعليـة والنديـة (٣٩). في هـذا الإطـار فإننا نؤكـد على أن حالة الانكسـار هي حالة الإحبـاط وعـدم إبـداع العقـل، وأن حالـة الصحـوة هي حالـة الوعي وحالـة إعمال العقـل بفاعلية. وهـي الحالـة التـي يعمـل بحسـبها التيـار الدينـي الآن، خاصة فصائلـه أو جماعاتـه المعتدلة.

٢- مكانـة الديـن فى بنـاء المجتمـع: أشرنـا إلى أن ثمـة تبايـن بـين مختلـف جماعـات التيـار الدينـى سـواء فيـما يتعلـق بتراكـم الخـبرة والمعـانى الدينيـة، أو فيـما يتعلـق بالقـدرة عـلى قـراءة وتأويـل النـص الدينـى. الأمـر الـذى دفـع إلى تبلـور مواقـف متباينـة داخـل التيـار الدينـى فيـما يتعلـق بقضايـا الواقـع الاجتماعـى. وبرغـم الاختلافـات والمواقـف المتباينـة، فـإن الديـن ككل النظـم الاجتماعيـة يعـد مـن المكونـات المحوريـة في بنـاء المجتمـع. وأنـه فى الفـترة السـابقة عـلى الوحـى بالديانـات الكتابيـة كان يعـبر عـن ميـل إنسـانى وإجتماعـى. وهـو مـا يعنـى أن المجتمـع – فى مرحلـة الديانـات البدائيـة، السـابقة عـلى الديانـات الكتابيـة الموحـى بهـا - هـو صانـع نظمه وعنـاصره الأساسـية بصـورة تلقائيـة مـن خـلال المسـيرة التطوريـة التـي قطعهـا. ذلـك يعنـي أن الديـن في بعـض تاريخـه كان إبداعـاً إجتماعيـا ، حيـث إحتـاج الإنسـان البـدائي إلي تأسيسـه إنطلاقـا مـن حاجتـه إلي الأمـان ، الـذي يمكـن أن يتحقـق إذا إعتقـد بوجـود قـوة قـادرة عـلي كل المخلوقـات المحيطـة بـه ، حتـي تفـرض العـدل والتفاعـل المسـتقر بـين مختلـف الكائنـات في المجتمـع البـدائي (٤٠). غـير أنـه حينـما أصبـح العقـل الإنسـاني قـادراً عـلي التجريـد ، جاءتـه الديانـات الكتابيـة التـي يرجـع مصدرهـا إلي خـارج هـذا العـالم الطبيعـى، منطلقا من عـالم ما وراء الطبيعـة. وهـو مـا يعنـي أن الديـن يشـترك مـع عنـاصر ومكونـات البنـاء الاجتماعـي الأخـري في

خاصيـة النشـأة التلقائيـة مـن خـلال التفاعـل الاجتماعـي الحـادث في بنـاء المجتمـع، خاصـة فيـما يتعلـق بالأديـان البدائيـة. إرتباطـا بذلـك تختلـف الأديـان الكتابيـة المتقدمـة فى كونها ليسـت من إبـداع المجتمـع ، بـل مـن إبـداع القـوي الإلهيـة الكائنـة فيـما وراء الطبيعـة. بالإضافـة إلي ذلـك فـإن الديـن يشـترك مـع النظـم الاجتماعيـة الأخـري في تحرك التدين الإنسـانى مـن حالـة اللاعقلانية إلي حالـة العقلانيـة، حيـث أصبـح السـلوك الدينـي كالسـلوك الاقتصـادي موجهـا لتحقيـق أهـداف محـددة سـواء بالنسـبة للمجتمـع أو الجماعـة أو الفـرد.

ومـن خـلال متابعـة التطـور الحضاري عـلي الصعيد العالمي، فسـوف نجد أن الدين يشـكل دائمـاً قيمـة مضافـة، إلي جانـب أنـه قاعـدة لإنتـاج معـارف ومنظومـات قيـم. فمن ناحيـة نجد أن الديـن شـكل رافـدا مـن روافـد المعرفـة الإنسـانية الشـاملة ، فـإلي جانـب المعرفـة الفلسـفية التـي توصلـت إليهـا الحضـارة الإغريقيـة، فقـد كان الوحي بالمسـيحية مصـدراً جديداً للمعرفـة من خارج العـالم، وإن كان مهتـماً بتنظيـم الحيـاة في هـذا العـالم. وقـد أنتجـت المعرفـة الدينيـة المسـيحية فكـراً إجتماعيـا في القـرن التاسـع والقـرن الثالث عشر قدمه بعض قساوسـة الكنيسـة مثـل القديس أوغسـطين والقديـس تومـا الاكوينـي. وحينـما وقعـت الكنيسـة الكاثوليكيـة في بعـض الانحرافـات الدينيـة ، قامـت حركـة الإصـلاح الدينـي التـي شـكلت ثـورة أطلقـت عقـال التفكـير في الديـن وفي العلـوم الطبيعيـة. ثـم في العلـوم الإنسـانية ترتيبـا عـلي أفـكار عـصر التنويـر وعـبره ، وهـو العـصر الـذي كان متأثـرا في غالبـة – إن سـلبا أو إيجابـا – بالمعتقـدات والأفـكار الدينيـة (٤١). حتـي وقـع الصـدام بـين الديـن والسياسـة بسـبب الادعـاءات المتباينـة حـول أيهـما ينبغـي أن يخضـع للأخـر، بحيـث شـكل ظهـور العلمانيـة والتأكيـد عليها إنتصـاراً للسياسـة والعلـم – فى التصـور الغربى- علي الديـن الـذي فـرض عليـه التراجـع إلي حـدود الضمير الشـخصي.

وقـد وقـع تطـور مناظـر في العـالم الإسـلامي، حيـث شـكلت المعتقـدات الإسـلامية التـي تعمقـت في نفـوس المؤمنـين الأول طاقـة أو قـدرة ملكـت عليهـم أنفسـهم ، وأعـادت أنتـاج ذاتهـا مـن خـلال أسـلوبين. الأول الامتـداد بفاعليـة المعتقـدات حتـي إنتجـت دولـة وحضـارة إسـلامية متراميـة الأطـراف، صنعـت هـذه المعتقـدات مـن «أجـلاف

العـرب» في الجاهليـة - حسـب تعبـير كـسري ملك الفـرس حينئذ - جنـداً يحاربون بأخلاق فروسـية راقيـة. يؤكـد ذلـك وصيـة الرسـول الكريـم «صـلى اللـه عليـه وسـلم» لجنـدة» التـى تحـدد لهـم طبيعـة سـلوكهم أثنـاء الحـرب، حيـث فاضـت المعتقـدات حتـي أبدعـت للحـرب والـصراع أخلاقـا، نقيـة وطاهـراً ، حتـي أنهـا شـكلت نمـوذج ينبغـى أن يحتـذى. كـما أعـادت نفس هـذه المعتقدات إنتـاج ذاتهـا في الفـترة التـي إمتـدت مـن القـرن الرابـع وحتـي القـرن الثامـن الهجـري ، عـلي هيئـة فقـة ومذاهـب فقهيـة إضافة إلي علـوم عديدة كعلوم التفسـير والكلام والأخـلاق والرياضة والطب. فقـد دعمـت المعـاني الدينيـة ظهـور أفـكار ونظريـات متطـورة تجسـدت في نظريـات إبـن ربيعـه والكنـدي والفـارابي والغـزالي وإبـن سـينا وبن رشـد ، حيـث نقلت عنهـا أوربا قاعـدة معرفية لعبت دوراً محوريـا في تطورهـا (٤٢). وفي الفـترة التـي إمتـدت من القرن الثامن وحتـي القرن الثاني عشر، أعـادت المعرفـة الدينيـة إنتـاج ذاتهـا عـلي هيئة فكـر إجتماعـي يتعلـق بالمجتمع . حيـث تزاوجت الأفـكار المتولـدة عـن المعتقـدات مـع أحداث الواقـع فأنتجت فكـراً إجتماعيا يسـعي إلي فهم حركة المجتمـع الإسـلامي وتفاعلـة ، بحثـا عـن قوانـين ضابطـة لايقاعـة. وقـد تجسـد ذلـك في مقدمـة بن خلـدون الشـهيرة ، الـذي قـدم نظريـة عـن حركـة المجتمـع ، والنبـوة والسـببية والطبيعـة البشريـة موجهـة بالمعتقدات الأساسـية للإسـلام.

ذلـك يعنـي أن المعـاني والمعتقـدات الدينيـة كانـت حـاضرة دائمـاً في تأسـيس الحضـارات الإنسـانية الكبري. تأكيدا لذلك أن قيم المذهب البروتسـتنتي حسـبما أشرت شـكلت مخزون المعاني والمعايـير التـي إسـتندت إليهـا أخـلاق النظـام الرأسـمالي المعـاصر في مرحلـة نشـأته، حيث شـكلت هـذه القيـم والمعـاني الدينيـة قيـما إقتصاديـة مضافـة. بالإضافـة إلي ذلـك فقـد كانت ديانة الشـنتو احـد العنـاصر المحوريـة في قيـادة التطور والنمـو الياباني فيما بعـد الحرب العالميـة الثانية(٤٣). إلي جانـب ذلـك فقـد أشـار مهاتـير محمـد مؤسـس نهضـة ماليـزيـا المعـاصرة ، إلي أن هـذه النهضة قد إسـتندت بالأسـاس إلي القيـم والثقافـة الإسـلامية (٤٤). الأمـر الـذي يعنـي أن الدين قـد لعب دوراً حضاريـا في دفـع عديـد مـن المجتمعـات علي طريـق التحديـث والتطور.

فـإذا تأملنـا مكانـة الديـن في علاقتـه ببنـاء المجتمـع العـربي فسـوف نجـد ان هـذه العلاقة قـد مـرت بثلاثـة مراحـل . في المرحلـة الأولي نجـد أن الديـن قـد لعـب دوراً أساسـيا في النضـال مـن أجـل الحصـول عـلي الاسـتقلال. فقـد ناضلـت مختلـف الجماعـات الدينيـة في العـالم العـربي والإسـلامي مـن أجـل الحصـول عـلي الاسـتقلال مـن سـيطرة القـوي الإسـتعمارية. فقـد ناضـل المرابطـون في المغـرب والجزائـر ، والسنوسـية في ليبيـا ، والأخـوان المسـلمين في مـصر ، والجماعـة المهديـة في السـودان إلي جانـب القـوي الوطنيـة الأخـري حتـي حصلـت المجتمعـات العربيـة الإسـلامية عـلي الاسـتقلال (٤٥). وفي الفـترة الثانيـة حينـما حصلت هذه المجتمعات علي الاسـتقلال وقعـت صراعـات بـين القـوي الوطنيـة المدنيـة ذات التوجهـات الغربيـة وبـين القـوي الدينيـة. غـير أن الأنظمـة السياسـية خـلال هـذه المرحلـة إسـتندت في بعـض شرعيتهـا إلي المعتقـدات الدينيـة. فقـد خوطـب سـيدنا محمد»صـلي اللـه عليـه وسـلم» بإعتبـاره امامـا إشـتراكيا «الاشـتراكيون أنـت إمامهـم ،لـولا دعـاوي القـوم والغلواء» إضافـة إلي إبـراز الزعامة السياسـية للطابع الاشـتراكي للدين. وحينـما سـيطرت الأيديولوجيـا الليبراليـة رفـع شـعار «دولـة العلـم والإيمـان» . وهـو مـا يعنـي ان الأنظمـة السياسـية أتجهـت في الفـترة الثانيـة – مرحلـة مـا بعـد الاسـتقلال – للأسـتفادة مـن المخـزون الدينـي عنـد الجماهـير لتأكيـد شرعيتهـا السياسـية ، أي بإعتبـاره يقـدم قيـما مضافة تؤكد مكانتهـا. وفي المرحلـة الثالثـة وهـي المرحلـة الأخـيره التي شـغلت الثلث الأخـير من الألفيـة الثانية والعقـد الأول مـن الألفيـة الثالثـة وبخاصـة بعـد أحـداث سـبتمبر ٢٠٠١ ، تقابلـت أطـراف كثـيرة لتبديـد الرصيـد الدينـي للمجتمـع. فقـد إتجهـت الولايـات المتحـدة الأمريكيـة بإعتبارهـا القـوة القائـدة للحضـارة الغربيـة بإتجـاه تقليـم أظافـر الإسـلام، مـن خـلال إجـراءات عديـدة حتـي يتـم إستئناسـة فعملـت عـلي تبديـد قـدر كبـير من معانيـة. بالإضافـة إلي ذلـك فقد تسـببت الجماعات الدينيـة المتطرفـة في وقـوع خسـائر كبـيرة في المعـاني الدينيـة ، ومـن ثـم فقـد تسـببت في تدمـير وتبديـد معـاني التسـامح والاعتـدال في الديـن (٤٦). إلي جانـب ذلـك فقـد عملـت الدولـة العربيـة

الإسـلامية عـلي فـرض التـآكل علي المشـاعر والطاقـة أو القوة الدينيـة، بحيث عملت هـذه العوامل جميعـاً في تبديـد رأس المـال الديني للمجتمع.

٣- تصـورات متباينـة لعلاقـة الديـن بالمجتمـع: إرتباطـا بذلـك فإننـا إذا تأملنا بنظرة شـاملة مواقـف مختلـف الـدول مـن الديـن، فسـوف نجـد أنفسـنا في مواجهـة أربعـة مواقـف تتنـوع مـن حيـث النظـر إلي الديـن بإعتبـاره قيـم سـالبة للأسـتقرار الاجتماعـي ، أو أنـه يشـكل قيمـة مضافـة تدعـم وجـود الدولـة وتـثري التفاعـل الاجتماعـي الحـادث في إطارهـا ، ونعـرض فيـما يـلي لهـذه المواقـف الأربعة.

أ- إقصـاء الديـن إلي نطـاق الضمـير الفـردي: إسـتلهم هـذا الموقـف مقولاتـه مـن النظـر إلي التناقـض بـين السـلطة الدينيـة والسياسـية، وهـو التناقـض الـذي قـاد مـن ناحيـة إلي الحـروب الضاريـة، التـي وقعت علي سـاحة القرن السـادس عشر والسـابع عـشر والذى تغلبت فيه السياسـة عـلى الديـن، او بالأصح الجزء على الكل . كما إسـتند من ناحية أخري إلي الشـقاقات والانقسـامات الاجتماعيـة التـي تقـع عـادة بين أتبـاع الأديان المختلفـة ، حيث يدعـي كل دين بـأن مضامينه ذات طبيعـة عالميـة متعاليـة ، ومـن ثـم فلديـه الحقيقـة الصادقـة المطلقـة. الأمـر الذي قـد يعني زيف مضامـين الأديـان الأخـري ، وهـو مـا يـؤدي في الغالـب إلي تفجـير كثـير مـن الحـروب والصراعـات الدينيـة (٤٧). ذلـك بالإضافـة إلي إتهـام الديـن بتقييـده للعقـل الإنسـاني وتشـكيل الثقافـة غـير العقلانيـة في المجتمـع، ومـن ثـم الدعوة إلى حصـاره في حدود الضمير الفردي. ويعد السـلوك الذي سـلكته سـلطات الاتحـاد السـوفيتي قبـل إنهيـاره تجـاه الديـن ، وكذلـك الاجـراءات التـي أتخذتهـا النزعـة الكماليـة في تركيـا، نموذجـاً لسـعي الدولـة بإتجـاه إجتثـاث الديـن مـن جـذوره. وإذا كان الاتحـاد السـوفيتي قبـل إنهيـاره قـد تبني هذه السياسـة تجـاه الدين ملهـما بالتوجهات الماركسـية ، فـإن إتجـاه الماركسـيين إلي إقصـاء الديـن كان بهـدف وضع نهايـة لتأثير الدين وتدخله في تشـكيل التفاعـل، في نطـاق الحيـاة الثقافيـة والاجتماعيـة والاقتصاديـة للمجتمـع ، وإبقائه في أكثر الحالات تفـاؤلاً بعيـدا عـن حـدود المجـال الفردي الخـاص. وإذا كانت الدولة الشـمولية قد سـعت لإجتثاث الديـن مـن جـذوره ، فقـد كان هـذا الاسـتبعاد محـدوداً في الدولـة الديموقراطيـة الليبراليـة. حيـث

رأي بعـض المفكريـن أنـه لـكي تكـون الدولـة ديموقراطيـة ، فإنهـا مـن الـضروري أن تصبـح علمانية . وأن كان هـؤلاء المفكـرون لا يطالبـون الدولـة العلمانيـة الليبراليـة أو الديموقراطيـة بالاسـتئصال الكامـل للديـن ، بـل حصـاره وقـصر فاعليته علي مجـال الحياة الخاصـة فقط. علي هـذا النحو فقد إشـترك فلاسـفة السياسـة الليبراليـون نذكر منهـم راولـزRawls وأكرامـان Ackerman وأودي Audi وماكيـدو Macedo في التأكيـد عـلي إرتبـاط العلمانيـة بالديموقراطيـة . وهـو ما يعنـي فصل الدين عـن الدولـة، وإسـتبعاد أية فاعلية لـه في المجال العام، وكذلك إسـتبعاد المعتقـدات والحجج الدينية مـن المجـال السـياسي (٤٨). وهـو مـا يفتـح الأبـواب واسـعة امـام تطـور الدولـة القوميـة وتبلـور مفهـوم المواطنـة وتعميقـه عـلي حسـاب فـرص تآكل المرجعيـات الدينيـة. بحيث تسـعي الدولة في إطـار هـذا الموقـف إلي تعطيـل إعـادة إنتاج المعاني الدينيـة لذاتها في المجال العـام ، وهو الأمر الذي قـد يـؤدي عـلي المـدي الطويـل إلي تـآكل رأس المـال الديني بسـبب عـدم تـداول معانيه بـين البشر مـن خـلال تفاعلهـم في المجـال العام .

ب- القبـول المحـدود للديـن كعنـصر فاعـل في الحياة العامـة: برغم أن هـذا الموقف علماني في طبيعتـه ، إلا أنـه يذهـب إلي إمكانيـة أن يلعـب الديـن دوراً في الحيـاة السياسـية. وأن الديـن لا يـؤدي في كل الحـالات إلي هـز إسـتقرار الدولـة العلمانيـة. يؤكـد أصحـاب هـذا الموقـف عـلي أن إتجـاه بعـض العلمانيـين السـلبي نحـو الديـن كان نتيجـة لخـبرة الحـروب الدينيـة التـي أشرت إليهـا ، بينـما يتحـرك التاريـخ الأوربي الأن ليشـهد ظهـور نظـم ديموقراطيـة مسـتقرة. ومـن ثـم نجـد أن هـذه المجتمعـات تسـمح بقـدر محـدود مـن التسـامح مـع الديـن ، مـع إسـتبعاد بعـض القضايـا الدينيـة الخلافيـة مـن الأجنـدة السياسـية. وذلـك لا يتطلـب بطبيعـة الحـال التأكيـد عـلي إسـتبعاد الديـن والجماعـات الدينيـة مـن الحيـاة السياسـية. هـذا بالإضافـة إلي إسـتمرار عديد من الديموقراطيـات الأوربيـة في النـص أو التأكيـد عـلي ديانـة الدولـة فى دسـاتيرها ووثائقهـا الأساسـية، إلي جانـب وجـود العديـد مـن الأحـزاب الدينيـة في كثـير مـن المجتمعـات الديموقراطيـة. إضافـة إلي إسـتمرار وجـود كثـير مـن الجماعـات الدينيـة النشـطة التـي تبـدي وجهـة نظرهـا في سياسـات

الدولـة، إنطلاقـا مـن مرجعيـة معتقداتهـا الدينيـة. بـل إننـا نجـد أن هـذه المجتمعـات تؤكـد عـلي الحريـة الدينيـة ليـس فقـط فيـما يتعلـق بالعبـادات ، بـل أن هـذه الحرية قد تتسـع أيضـا إلي حد تنظيـم الجماعـات الدينيـة في المجتمـع المـدني والمجتمع السـياسي (٤٩). وفي هذا الإطـار فإننا نذكر أن أفـكار الفيلسـوف جـون لـوك المتعلقـة بالديموقراطيـة والليبراليـة ، والتـي تتمحـور حـول أفـكار التسـامح ، قد إسـتندت بالأسـاس إلي مضامين دينية. حيث إسـتند في تبرير ذلك إلي حجج مأخوذة عـن الـتراث المسـيحي ، الـذي يؤكد عـلي ضرورة ان يتعامل المسـيحي المؤمن مع هـؤلاء الذين قد لا يتفـق معهـم. وأنـه مـن سـوء الفهم أن يقـال أن العلمانيـة – التي تحل محل الديـن – هـي وحدها التـي تسـيطر عـلي الفضـاء العـام وتنظمـه ، لأن ذلـك يعـد تجاهـلاً للمضامـين الحقيقيـة للخطـاب السياسي(٥٠).

جــ المصالحـة بـين الديـن والسياسـة : يدعـو هـذا الموقـف إلي نوع مـن التسـامح المتبادل والاعـتراف بمجـالات الاسـتقلال المتبادلـة بـين الدولـة والديـن عـلي السـواء، فلـكل مجـال خطابـة المنفصـل الـذي يوجـه للموالـين لـه، غـير ان هنـاك تسـامح بـين المجالـين. في هـذا الإطـار فـإن عـلي الدولـة – مبدئيـا – أن تحـترم حريـة العبـادة وأن تـترك مسـاحة واسـعة للديـن ليتـولي تشـكيل الضمـير الانسـاني. فـإذا منعـت الدولـة عـلي المؤمنـين بديـن معـين، الوفـاء بالتزاماتهـم الدينيـة ، فإنهـا بذلـك تكـون دولـة مسـتبدة ، ومـن ثـم دولـة تفتقـد الشرعيـة. وعـلي ذلـك فـإن النظـام الديموقراطـي - الـذي يلتـزم بإحـترام شـعارات المسـاواة والكبريـاء الإنسـاني ، والسـعي مـن أجـل تحقيـق الوفـاق الإنسـاني - يمتنـع عـن إسـتخدام سـلطة الدولـة في حرمـان البـشر مـن الوفـاء بمقتضيـات ضمائرهـم الدينيـة. وذلـك مـن شـأنه أن يدعـم الدولـة الديموقراطيـة ، وفي ذات الوقـت يـترك المجـال رحبـا أمـام حريـة العبـادة الدينيـة (٥١). بالإضافـة إلي ذلـك فـإن عـلي السـلطة المدنيـة أن تكـون عـلي إسـتعداد لقبـول مشـاركة الجماعـات الدينيـة والأشـخاص المتدينـين والمنظمـين سياسـيا في العمليـة الديموقراطيـة. وفي المقابـل فـإن للمتدينـين نفـس حريـة الآخريـن فيـما يتعلـق بتعاملهـم مـع الدولـة، مـن خـلال القنـوات السياسـية المتفـق عليهـا. وفي هـذا الإطـار فبإمكانهـم أن ينتقـدوا سياسـة الدولـة ولـو مـن مرجعية دينيـة ، وأن يشـكلوا ضغوطا

مستندين إلي أسس دينية ، بل أن يتحركوا من أجل الضغط، لكي تفرض علي الدولة إحترام معتقداتهم الدينية.

وإرتباطا بذلك يصبح من غير الأخلاقي أن تستبعد الدولة بالقوة أيا من الفئات الاجتماعية ، بما في ذلك الجماعات الدينية من المشاركة الديموقراطية. في مقابل ذلك فإن علي الجماعات الدينية أن تساعد في التأكيد علي إحترام حرية المواطنين الآخرين ذوي المعتقدات الدينية المختلفة والمخالفة. وأن يعترفوا بشرعية إستقلال الدولة وتنظيمها لسياساتها دون إعتراض من الجماعات الدينية،، وهو ما يعني تسليم الجماعة الدينية بحق الدولة في أن تتخذ الفعل السياسي الذي يتفق مع مصالحها ومبادئها ومنظوماتها القيمية ، وأن يلتزم المتدينون بذلك. في نطاق ذلك ، فإن الدولة التي لا تملك إستقلالا منفصلا عن التوجهات الدينية من المحتمل أن لا تصبح دولة ديموقراطية. وهو ما يعني أن لا يكون هناك إستبعاد مصطنع أو مقصود لأي من الجماعات او الحجج الدينية من العملية السياسية. كما لا ينبغي أن تكون هناك قيود مفروضة بصورة مسبقة علي النشاط الديني، حتى لا يضر بإطار العمل الديموقراطي. في مقابل ذلك فإنه علي الجماعات الدينية أن تتراجع عن أي نشاط يشير إلي سعيها بإتجاه إمتلاك سلطة دينية أو مدنية. إذا تحقق ذلك فإننا نكون بإزاء دولة تستند إلي عقد إجتماعي يتوازن في إطاره إتساع مساحة الفعل السياسي للدولة بما لا يتجاوز حريات البشر في الإعتقاد والارتباط بمرجعياتهم الدينية. دون أن يشكل هذا الإرتباط الديني قيداً أو عائقا أمام الفعل السياسي للدولة التي تسعي لتحقيق مصالحها ، التي هي مصالح مواطنيها بغض النظر عن إنتماءاتهم وولاءاتهم الدينية (٥٢). ويمكن أن نشير إلي بريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية بإعتبارها تجسيداً لهذا الموقف أو النمط.

د- الدولة ذات المرجعية الدينية: يعبر قيام الدولة الدينية عن أحد المواقف المعبرة عن التيار الديني، والذى قد يتطور في فاعليته حتى بناء وتأسيس الدولة ذات المرجعية الدينية، حيث تلعب المعتقدات الدينية فى إطار هذا النمط دوراً محوريا، سواء فيما يتعلق بتأسيس وبناء الدولة ، أو فيما يتصل بإستمرارها

وتشكيل فعلها السياسي. فى إطار هذه الدولة نجد أن المعاني الدينية تلعب دوراً أساسيا في توجيه أداء الدولة وسلوكياتها عموما. وتعد إيران وأسرائيل تجسيداً لهذا النمط الذي تلعب فيه المرجعية الدينية دوراً حيويا في تشكيل سياسات الدولة وتعيين سلوكياتها. حيث يستخدم الدين من قبل دول هذا النمط حينما يواجه المجتمع أزمة ويحتاج إلي تعظيم قدراته لتجاوز هذه الأزمة. وفيما يتعلق بمكانة الدين في التجربة الإيرانية، فإننا نجد أنه لأسباب حضارية وتاريخية ودينية إزدهر المذهب الشيعي في إيران. ومن طبيعة المذهب الشيعي أن رمزيته ذات طبيعة ثورية، ترجع منابعها إلي التشيع لأهل البيت من ناحية ، ومن ناحية ثانية إلي درامية إستشهاد الإمام الحسين. إضافة إلي الإعتقاد في العودة المتوقعة للإمام الغائب، الذي سوف يظهر ليملأ الأرض عدلاً بعد أن ملئت جوراً من ناحية ثالثة. إلي جانب ذلك تلعب عقيدة ولاية الفقيه دوراً محوريا في الفكر السياسي الشيعي ، حيث تجسد ذلك محوريا في طبيعة الدور الذي لعبه آيات الله في قيادة سيناريو الثورة الإيرانية، التي وضعت نهاية لحكم الشاه ، وأسست محل الملكية المنتهية جمهورية إيران الإسلامية (٥٣). في هذه المرحلة لعب الدين دوراً هاما وشكل طاقة مضاعفة دفعت بفاعليتها أحداث الثورة حتي حققت نتائجها.

وقد إستدعت إيران بعد ذلك الدين في أكثر من مناسبة لكي تشكل طاقة تعظم قدراتها. حيث تحقق ذلك حينما قامت الحرب بين العراق وإيران، التي كان المقاتلون يذهبون إلي الحرب معبئين بعواطف الاستشهاد الحسينية. مرتدين أكفانهم البيضاء ، منطلقين إلي الموت بشوق الشهادة ينشدون نشيدها ، يفتحون صدورهم لرصاص الآلة الحربية التي تدفق سلاحها من الترسانة الغربية. وقد برزت الرمزية مرة ثانية حينما تفجرت الأزمة النووية الإيرانية ، حينما إستدعي الشيعيون المحافظون العواطف الدينية، حيث بدأنا نلاحظ لغة دينية تمارس بها السياسة (٥٤). ففي مقابل قول الرئيس الأمريكي بوش تارة «سوف أعلنها حربا صليبية» وحديثه تارة أخري عن محور «الشر» في مقابل محور «الأخيار». قدم الرئيس الإيراني أحمدي نجاد لغة مفرادتها «الطواغيت» و «المفسدون في الأرض»، حيث تداخلت لغة الدين مع لغة السياسة، بحيث نلاحظ مرة أخري

إستدعاء اللغة والعواطف الدينية لتولد طاقة دافعة للمواقف السياسية.

كما تعد إسرائيل الدولة الثانية التي نستشهد بها في نطاق هذا النمط من الدولة العلمانية التى تستدعى الدين للعبث به فى قلب السياسة. بداية نجد أن الدين قد لعب دوراً محوريا وإيجابيا، في قيام دولة إسرائيل، حيث شكلت العواطف والاستشهادات الدينية إطار المعاني، الذي عملت في نطاقه السياسة والدبلوماسية الاسرائيلية. تأكيداً لذلك قول المفكر الإنجليزي «توماس برايت مان» إن الشعب البريطاني يدعم عودة اليهود إلي فلسطين ، حتي يمكن أن يعجل من وقوع سلسلة الأحداث المتنبأ بها ، والتي تبلغ ذروتها بعودة السيد المسيح «عليه السلام». ويتسق مع ذلك قول عضو البرلمان الإنجليزي «هنري فنش» الذي كتب في عام ١٩٦١ «أن اليهود الذين عادوا إلي وطنهم سوف يرثون كل الأرض التي كانت لهم من قبل. وسوف يعيشون فيها بأمان ويستمرون فيها إلي الأبد»، وقد ذهب فنش، إعتمادا علي تفسيره لسفر التكوين «الآية ١٢:٣» إلى القول بأن الله سوف يبارك تلك الأمم التي تدعم عودة اليهود».

وفي عام ١٩٨٠ حينما صعد الرئيس رونالد ريجان إلي رئاسة الولايات المتحدة الأمريكية، نجده خلال عامين من بداية رئاسته، عبر فيما لا يقل عن سبع مرات في أحاديثه العامة ، عن إعتقاده في معركة «هرمجديون» بإعتبارها المعركة النهائية التي إستولت من خلالها إسرائيل علي «القدس» في حرب ١٩٦٧. وفي حديث خاص مع «توم دين» مدير الايباك – حينئذ – قال ريجان «تعرف أني رجعت إلي أنبياءك القدامي في العهد القديم ، والاشارات التي تشير إلي «هرمجديون» ، ووجدت نفسي مندهشاً عما إذا كنا نحن الجيل الذي سوف يشهد تحقيق ذلك؟» . وحينما وقعت أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١ برزت المعتقدات الدينية التي تشكل عقيدة المحافظين الجدد، وسيطرت علي تفكير النخبة الحاكمة في الولايات المتحدة الأمريكية. التى تذهب مبادئها إلي «ان عهد الله وميثاقه لإسرائيل أبدي وشامل إستناداً إلي آيات سفر التكوين» و «أن إسرائيل قد أستدعيت كأمة بإعتبارها آداة الله في الأرض». وبذلك من الضروري أن يفسر سفر التكوين بإعتباره يقود إلي الدعم السياسي والروحي لدولة إسرائيل،

إسـتناداً إلي أحـدي الآيـات التـي تقـول «أننـي سـوف أبـارك هـؤلاء الذيـن يباركونكم، وسـوف العن الذين يلعنونكـم» (٥٥).

وإذا كان الديـن قـد أسـتدعي لاسـتكمال إنشـاء الدولـة الصهيونيـة، وكذلـك المحافظـة علي إسـتمرارها، فإننـا نلاحـظ أن الديـن كان يسـتدعي عـادة، ليدعم الدولـة في أوقات الأزمـات. تأكيداً لذلـك أننـا كنـا نشـاهد أثنـاء الحـرب العربيـة السادسـة التي خاضهـا رجال حـزب الله مـع الجيش الإسرائيـلي عـلي السـاحة اللبنانيـة ، جنـود إسرائيـل ، وهـم يلبسـون «الطاقيـة» اليهوديـة الشـهيرة ويقـرآون آيـات العهـد القديـم في أوقـات راحتهـم. بذلـك شـكلت المعـاني الدينيـة في الحالتـين، الإيرانيـة والإسرائيليـة طاقـة أضيفـت إلي الممارسـات الواقعيـة للدولـة فعظمـت قدراتهـا ، ومـن ثم سـاعدت عـلي إنجـاز الفعـل العسـكري. الأمـر الـذى يشـير إلى أن المعـاني الدينيـة في الحالتـين، قـد شـكلت رأسـمالا دينيـا بدونـه مـن الصعـب أن تتحقق هـذه النتائـج(٥٦).

خامساً: إضرار العنف الديني بالأمن القومي

المتأمـل للعلاقـة بـين الديـن والسياسـة يـدرك أن هـذه العلاقـة تمـر بحالـة أزمـة صنعتهـا أطـراف عديـدة، وهـي الأزمـة التـي كان من نتيجتها تقديم تفسـيرات تسـعى إما إلى سـيطرة الدين عـلى السياسـة، وهـو مـا ترفضـه سياسـة الدولـة المدنيـة الحديثـة. أو إقصـاء الديـن عـن السياسـة وتهميشـه بحيـث لا يكـون لـه دوره الفعـال في إطـار الدولـة الحديثـة، ومـما لا شـك فيـه أن هـذه الأزمـة صنعتهـا أفـكار وتصورات وممارسـات عديدة، كانت في أغلب الأحيـان ذات طبيعة تصادمية، ويمكـن القـول بوجـود متغـيرات كثـيرة هـي المسـئولة عن تشـكل هـذه الأزمة.

١- يتمثـل أول هـذه المتغـيرات في الخـلاف حـول مكانة المرجعية الدينيـة في الدولة، في هذا الإطـار توجـد أزمـة تأويليـة حـول مفهوم الدولـة الدينيـة، وربما يرجع أسـاس هذه الأزمـة إلى ثلاثة اعتبـارات. حيـث يتمثـل الأول في التداخـل بـين الديـن والسياسـة في العصور الراشـدة، فقد تصادف تاريخيًا أن تضافرت السلطة الدينية والدنيوية إبان حكم الخلفاء الراشدين الذين تولوا أمور الدولة الإسـلامية بعـد وفـاة رسـول اللـه محمـد (صـلى الله عليـه وسـلم)، الـذي اجتمعت لديه السـلطتين

الدينيـة والدنيويـة عـلى السـواء. ويرجـع هـذا التضافـر ليـس لنـص إلهـي صريـح بدينيـة الدولـة، ولكـن إلى أن الخلفـاء الراشـدين كانـوا ذوي سـبق وتفقـه دينـي، إضافـة إلى أنهـم تعلموا السياسـة وأتقنوهـا مـن خـلال المعـارك التـي خاضوهـا، فى مواجهة الملـوك أو الأباطـرة الذين تعاملـوا معهم. ويتصـل الاعتبـار الثـاني بالـدور الـذي تلعبـه فكـرة الإمامة في الفكر الإسـلامي الشـيعي، وهـو الفكر الـذي تحيـز للإمامـة كسـلطة دينيـة عـلى حسـاب السـلطة الدنيويـة، دون أن تتدخـل مبـاشرة في الحكـم (٥٧). لذلـك أسـس هـذا الوضـع انطباعًـا بـأن الفكـر الشـيعي يبـشر بدولة دينيـة، - وهذا غـير صحيـح- وقـد أدى ذلـك ببعـض فقهـاء السـنة إلى الحديـث عـن المرجعيـة الدينيـة، كمقابـل للمرجعيـة الدينيـة الشـيعية. بينما يسـتند الاعتبار الثالـث إلى بعض الكتابات الدينيـة التي تميل إلى التفسـير الحـرفي للنـص، وهي كتابـات متشـددة بطبيعتها، ومـن عباءتها خرجت فكـرة «الحاكمية» التـي قـال بهـا العلامـة الإسـلامي أبـو الأعـلى المـودودي، اسـتنادًا إلى القـراءة الحرفيـة لبعـض آيـات القرآن.

وبرغـم أن الشـيخ محمـد عبـده – وبعـض الذيـن عـاصروه – قـد حسـم هذا الخـلاف منذ فـترة طويلـة، حيـث ميـز بـين النظـام الثيوقراطـي في المفهـوم الغـربي وبـين النظـام الدينـي. ففـي «الأول يتلقـى الحاكـم سـلطته إمـا مـن رجـال الديـن أو الحق الإلهـي بوصفه ظل الله عـلى الأرض. والمقصـود بهـذا عنـد كثـير مـن أصحاب التيـار الدينى يتمثـل في ادعاء شـخص أو مؤسسـة الحق في تفسـير الديـن وفهمـه مـما يكسـبها حقوقًـا سياسـية ودينيـة عـلى أسـاس دينـي». ويتفـق مع ذلك الدكتـور يوسـف مـوسى الـذي ذهـب إلى القـول «إن مصدر السـيادة هو الأمـة وحدهـا لا الخليفة، لأنـه وكيـل عنهـا في أمـور الديـن وفي إدارة شـؤونها حسـب شريعـة الله ورسـوله (٥٨).

ولذلك يستمد الحاكم الشرعية من الأمة، فلها حق نصحه وتوجيهه وتقويمه إن أساء، بل حق عزلـه عـن المنصـب الذي وليه عنهـا باختيارها إن جد ما يوجب عزله، فيكـون من المنطقى أن يكون مصدر السيادة هو الموكل الأصلي لا النائب الوكيل» (٥٩). وبرغم ذلك نجد أن البعض الذى تطرف بالدين حتى عنف به، ما زال يؤكد على الدولة الإسلامية، وهو القول الذي تلقفه الإعلام الغربي كأحد

الاتهامـات التـي يعايـر بهـا الإسـلام، وهـو الاتهـام الـذي شـكل أحـد جوانـب الأزمـة بـين الديـن والسياسـة، والـذي يعـد أحـد مصـادر العنـف والإرهاب المؤثـر على الأمـن القومي واسـتقرار الدولة والمجتمع.

٢- ويعـد الخطـاب الغـربي عن الإسـلام أحـد متغيرات أزمـة العلاقة بين الدين والسياسـة في المنظـور الإسـلامي، حيـث نجـد أن بعض أجهزة الإعـلام الغربية عملت على إعادة إنتاج صور سـلبية ونمطيـة عـن الإسـلام والمسـلمين والعـرب. وبعـض هذه الصـور يتغذي مـن مصادر عديـدة للصور، التـى ينتجهـا العـرب والمسـلمون وتنطـوي على جوانب سـلبية وسـيئة (٦٠). وإرتباطاً بذلك سـعت المجتمعـات الغربيـة وبخاصـة الولايـات المتحـدة الأمريكيـة في التضييـق عـلى الإسـلاميين المتطرفين، بملاحقتهـم والسـعي إلى تفكيـك قواعدهـم كـما حدث بالنسـبة لتنظيم القاعدة وجماعـة طالبان في أفغانسـتان. وهـذا التفكيـك هـو الـذي دفـع إلى شـن الحرب عـلى أفغانسـتان، في محاولـة لتفكيك قواعدهـم إضافـة إلى شـن الحـرب عـلى العـراق الـذى أصبح متخـما بهـذه الجماعـات الخارجة عن اعتـدال الاسـلام ، باعتبـار أن هـذه المجتمعـات تضـم هـذه الجماعـات ومـن الـضروري اجتثاثهـا مـن جذورهـا. بالإضافـة إلى ذلـك فقـد عملـت القـوى العالميـة بإتجـاه تقليـص قدراتها، عـن طريق غلـق مصـادر التمويـل عليهـا، ومصـادرة أموالها أو تجفيـف مصـادر تمويلها، وقد أصـدرت الولايات المتحـدة والـدول الغربيـة القوانين التي تؤمن ذلك. وانطلاقًا من هذه الصورة السـلبية التي شـكلتها المجتمعـات الغربيـة للجماعـات الإسـلامية المتشـددة التـى وصلـت بالإسـلام إلى حد الارهـاب، فإننا نجدهـا قـد وسـعت هـذه الصورة لتشـمل كل مقاومة تسـعى إلى تحرير مجتمعها بغـض النظر عن طابعهـا الدينـى. في هـذا الإطـار دخلـت كل الجماعات التـي تناضل من أجل اسـتقلال مجتمعاتها، كـما هـي الحـال في جماعـات المقاومـة التـى تناضـل في فلسـطين، أو الجماعـات التـي تناضـل مـن أجـل المشـاركة في العمليـة الاجتماعيـة والسياسـية، أو المطالبـة بقـدر مـن العـدل الاجتماعـي (٦١). بالإضافـة إلى ذلـك فقـد سـعت المجتمعـات الغربيـة وعـلى رأسـها الولايات المتحـدة، في إطار خطتهـا لتجفيـف المنابـع إلى الضغـط مـن أجـل إصـلاح نظـم التعليـم، بخاصـة التعليـم الدينـي، في

الـدول التـي ينطلـق منهـا أعضـاء، حتى تتحكـم فى طبيعـة الأفكار التـي تتدفق إلى عقولهـم فتصنع سلوكهم.

٣- وتلعـب حالـة الأزمـة التـي تعيشـها جماعـات التيـار الإسـلامي المتشـدد دورًا أساسـيًا في هـذا الصـدد، ويعتـبر السـعي مـن أجـل الانفصـال أو التميـز عـن السـياق البيئـي المحيـط أحـد مظاهـر هـذه الأزمـة. وتعـد الجماعة الإسـلامية هي من نمط الحـركات الاجتماعية التي تسـعى إلى تجنيـد أعضائهـا مـن نفـس المجتمـع. ويتميـز الأعضاء الذيـن ينجذبـون إلى هذه الجماعـة بكونهم يعانـون مـما يسـميه عـالم الاجتـماع الأمريـكي تالكـوت بارسـونز بالفشـل الدافعـي، أي العجـز عـن إشـباع الحاجـات الأساسـية في ظـل النظـام الاجتماعـي القائم. فـإذا انجذبوا إلى بعضهـم البعض أو إلى الجماعـة التـي تضـم مناظريـن لهـم، ويعانـون مـن نفـس الفشـل الدافعي، فـإن الجماعـة تبدأ في تطويـر بنيـة أيديولوجيـة لهـم. عـادة مـا تكون قائمـة في ثقافـة المجتمـع أو في بنيـة الأيديولوجيا العامـة، وفي العـادة تسـتند الأيديولوجيـا التـي تعمـل الجماعـة عـلى تطويرهـا إلى عنـاصر ليسـت موضـع قبـول عـام مـن الثقافـة العامـة وإن كانـت قائمـة بها.

فـإذا تطرفـت الجماعـة بهـذه الأيديولوجيـا فإنهـا بذلـك تؤسـس أيديولوجيـا تتناقـض مـع الثقافـة أو الأيديولوجيـا العامـة، وقـد حـدث نفس الأمر بالنسـبة لجماعـات التيار الإسـلامي كحركة اجتماعيـة، فـلأن الثقافـة أو الأيديولوجيـا السـائدة لم تطـور المجتمع، ولم تسـاهم في إشـباع حاجاته الأساسـية. فـإن الأيديولوجيـا التـي يطورونهـا تكـون أيديولوجيـا مضـادة، وحتـى تصبـح واضحـة فينبغـي أن تكـون نصيـة وبـلا تأويـل، وأن يحتكـر تحديـد معنـى النـص بعـض أعضـاء الجماعـة، الذيـن قـد يصـل بهـم الأمـر إلى تطويـر تأويـل منحـرف، وإسـلام يختلـف أحيانًـا عـن الـذى أوحـى بـه والمتعـارف عليـه. ألم تكـن هـذه هـي حالـة إسـلام جماعـة طالبـان التـي منعـت تعليـم المرأة وفرضـت نقابهـا وليـس حجابهـا عـلى عكس مـا يذهب الإسـلام الصحيح، ومـن يخالـف أيديولوجية الجماعـة سـواء كان خـارج بنيتهـا أو مـن بـين أعضائهـا، مـن المنطقـي أن يصبـح مسـتهدفًا للعنـف (٦٢).

٤- مـن مظاهـر الأزمـة أيضًـا أن الجماعـة الإسـلامية مثـل أي حركـة اجتماعيـة تسـعى إلى تأكيـد تماسـك بنائهـا الداخـلى، الـذي يكـون هشًـا في البدايـة، مـن خلال فـرض قدر مـن الصرامة أو القيـود التـي تحافـظ عـلى سـيطرتها عـلى أعضائها. خاصة إذا سـعت هـذه الجماعـة إلى تمييز ذاتها ليـس عـن المجتمـع العـام فقـط، ولكن عن الجماعـات الأخـرى المناظرة، ومـن ثم تبنـي أيديولوجيا تسـتند إلى تفسـير نـصي مخالـف لهـا. ذلـك يعنـي «أن السـياقات التاريخيـة تصبـح هامـة لفهـم دعـاوى وآليـات التأويـل والإنتـاج الفقهي التكفيري المتشـدد. فحـزب التحرير والشـيخ النبهاني كانا يحـاولان التمايـز عـن البنيـة الأيديولوجيـة للإخـوان المسـلمين في مـصر وغـزة والضفـة الغربية منذ أوائـل الخمسـينيات. ومـن ثـم لم يكـن مـن الممكـن لحـزب التحريـر أن يطـرح ذات الأطروحـات الإخوانيـة، وقـد شـكل خـروج شـكري مصطفى على «جماعـة الإخوان المسـلمين» وتأسيسـه جماعة «المسـلمون» وتمايـزه وانخلاعـه التنظيمـي عنهـا «بعـدًا أساسـيًا» يمكـن أن يسـاعد في فهـم عمليـة تأسـيس الأيديولوجيـات الإسـلامية السياسـية الراديكالية. إن صناعـة الحـدود الأيديولوجية الفقهية والتمايـزات الرمزيـة حتـى في داخـل ذات الانتـماء الدينـي، هـي جـزء لا يتجـزأ مـن عملية تأسـيس هـذه الجماعـات، أيـا كانـت دوافـع ومـبررات وعوامـل تأسيسـها اجتماعيًـا وسياسـيًا وأيديولوجيًـا. لأنـه بـدون صناعـة الحـدود الرمزيـة والأيديولوجيـة ولا سـيما في المجـال الدينـي، تفقـد هـذه الجماعـة مـبرر وجودهـا التنظيمـي»(٦٣). فـإذا أسسـت الجماعـة أيديولوجيتها المتميـزة، فإن هذه الأيديولوجية تصبح أساسًـا للتنشـئة الاجتماعية لأعضائها، يسـتوعبونها بشـكل متشـدد وصارم. فإذا حـاول أي مـن الأعضـاء الخـروج عليهـا، فـإن ذلـك يعنـي عمليًا أن لديـه خريطـة بنائهـا التنظيمي، ثـم إن خروجـه يعنـي انتقاصًـا مـن رأسـمالها الدينـي. كما أنـه يعتبر مـؤشرًا على هشاشـتها، إضافة إلى إمكانيـة أن يصبـح سـلوكه مثـالاً يحتـذى، لذلـك فالعنـف في مواجهتـه واجـب، لاسـتئصال آثـار محتملـة لخروجـه عليهـا، ولـكي يصبـح عبرة لمـن يريـد أن يعتبر.

٥- وتعتـبر حالـة «الأنومـي» التـي يمـر بهـا المجتمـع، والتـي تشـير إلى انهيـار الثقافـة ومنظومـات القيـم، الضابطـة لإيقـاع التفاعـل الاجتماعـي، أحـد الظـروف

المسـاعدة على تفريغ الجماعات الإسـلامية المتشـددة، والحرفية في قراءتها للنصوص المقدسـة. وإذا كانـت منظومـات قيـم الثقافـة تشـكل مرجعيـة لمختلـف أفـراد المجتمـع، فإن سـقوط أو هشاشـة هـذه المرجعيـة – متزاوجـة مـع بعـض حرمانـات الإشـباع في الواقـع – قـد يقـود إلى البحـث عـن مرجعيـات بديلـة. وتعـد المرجعيـة الدينيـة مـن بـين المرجعيات التـي يتم اللجـوء إليهـا، باعتبارها المرجعيـة الأصليـة التـي تشـكل قاعـدة الثقافـة. ومثلـما يذهـب البعـض إلى الارتبـاط بمرجعيـة ماركسـية أو ليبراليـة، فـإن جماعـات التيـار الإسـلامي لا تسـتدعي مرجعيـة إسـلامية واحـدة، بـل تسـتدعي مرجعيـات إسـلامية متنوعـة. تصل إلى حد الاختلاف، الذي ينشـأ أحيانًا عـن تباين القدرة أو الكفـاءة أو الأهليـة لقـراءة النـص. لذلك شـهدت السـاحة الإسـلامية متصلاً طويـلاً تصطف عليه جماعـات عديـدة تتبايـن مـن حيـث قدراتهـا عـلى قـراءة النص، أو مـن حيـث قدرتها عـلى ملاءمة النـص مـع السـياق المحيـط. ونتيجـة لذلـك تظهـر جماعـات عديـدة كل منهـا تـرى أن مرجعيتهـا هـي الأقـرب إلى دلالـة مضمـون المقـدس، ومـن الطبيعـي أن يصبـح ذلـك مصـدرًا للتنافـس، وربمـا سـاعد في نـشر العنـف في المجتمـع. ومـن المنطقـي أن يـؤدي ذلك إلى بـروز آليات تعمـل على إنتاج الغلـو وتزيـد مـن معدلاتـه، ناهيـك عن طابـع السريـة والمطـاردة والانضبـاط ومحـاولات اختطاف الكـوادر مـن قبـل الجماعـات، يضـاف إلى ذلـك أن المنافسـة تـؤدي أحيانـا إلى تزايد معـدلات الغلو والعنـف (٦٤). وتتسـع المنافسـة بـين هذه الجماعات لتقـود إلى العنف والصراع ضـد بعضها البعض مـن ناحيـة، وإلى العنـف ضـد الدولـة والمجتمـع إثباتًـا للكفـاءة أو القـدرة أو الزعامـة مـن ناحيـة ثانيـة، حتـى يصبـح هـذا العنـف مـبررًا في كل جوانبـه، لذلـك فإنـه من الطبيعـي أن يكـون موجهًا بتفسـيرات نصيـة متشـددة كذلك.

٦– ثمـة بعـد آخـر للأزمـة أو لتعمق واتسـاع مسـاحة العنـف في المجتمع، وهـو البعد الذي يتمثل في أنه إذا كانت إحباطات الحرمان من الإشباع، هي التي ولدت في جانب منها عنف جماعات التيـار الدينـي كأحـد أنمـاط العنـف، فـإن إحباطات الإنجـاز أو تحقيق الآمـال قد يدفـع إلى جيل أو موجة جديدة من موجات العنف. وإذا كانت الجماعات الإسـلامية قد تأسسـت بهدف بناء المجتمع

الإسلامي فإن عجزها عن ذلك قد يصيبها بسيكولوجيا الحصار، الذي يحتاج إلى العنف كآلية للقفز فوق أسواره. هذا الحصار يتأكد بسبب ظروف عديدة. منها أن هذه الجماعات قد عجزت عن توسيع قاعدتها الاجتماعية من خلال الانتشار بين الجماهير، التي تتحول إلى وعاء واسع لتجنيد عضويتها وإلى درع تحتمي به في لحظات كرها وفرها. ومنها أنها عجزت عن تحقيق نجاحات سياسية كبرى، أو إنجاز تغييرات راديكالية وكلية شاملة، ومنها أنها فشلت في استراتيجيات الأسلمة من أعلى. إلى جانب الانكسارات – والتشتت والتناثر الذي أصاب هياكلها التنظيمية، يضاف إلى ذلك – وهو هام – قدرة جهاز الدولة على السيطرة على عمليات العنف، وتخفيض معدلاته ووتائره وخرائطه الجيوبوليتيكية الداخلية (٦٥).

فقد أصبحت هذه الجماعات أسيرة حصار سيكولوجي أو معنوي بين آمالها وطموحاتها المثالية المتفائلة التي بدأت بها، وبين مواجهة الواقع لها، وهى المواجهة التى تصرع هذه الآمال تحت أقدامها، في هذه الحالة تصاب بحالة من اليأس، الذي يتجاوز القدرة على الاحتمال. ويصبح العنف هو المطية للخروج من هذه الحالة، إنه عنف الانتحار، الذي يتجه إلى إفناء الذات كما يتجه إلى إفناء الآخر (٦٦). أيا كانت الدائرة أو الساحة التي يقف عليها هذا الآخر، فثقافة الخروج من اليأس لها عذوبتها خاصة إذا تعانقت مع مثل أو خيالات الشهادة.

٧- ويعد العنف الذي يمارسه النظام السياسي أحد المتغيرات المولدة للتطرف والعنف، ونعنى بالعنف العنف اللفظي حينما تصبح لغة الرموز السياسية غير ملائمة لمخاطبة الجماهير. فتؤذي مشاعرها أو تضر ببعض المعاني الرمزية التي لديها، وزعامات العالم الثالث أبوية ترتكب كثيرًا من الإهانات تجاه شعوبها، مستغلة إنهماكها في التكيف وظروفها المتردية. وقد يتجسد العنف على هيئة تجاهل مطالب الجماهير وعدم الاكتراث بإشباع حاجاتها[٦]، وإذا كان النظام

٦ تعتبر تظاهرات ١٧، ١٨ يناير سنة ١٩٧٧ من هذا القبيل، حيث رفعت الدولة أسعار البوتجاز برغم من إدراكها تأثير عسر الظروف الاقتصادية على الأسر في الأحياء الشعبية، ولقد تصادف أن ارتبط بذلك رفع الدولة لسقف طموح إشباع الحاجات الأساسية.

السياسى فى فترات سابقة، قد ألقى ببعض الإخوان المسلمين فى السجون بسبب إرتكابهم العنف الذى بلغ حد قتل رئيس للوزراء فيما قبل ثورة ١٩٥٢، والسعى لقتل الرئيس ناصر فى محاولة القفز على السلطة – عنوة – والأمساك بها. فإن هذه الأنظمة السياسية ساقتهم سوء العذاب بسبب عبثهمم بالدين، ونشر الفوضي في بنائه وبناء المجتمع، تاركة لأخوانهم الذين عاشروهم، والذين ما زالوا على قيد الحياة خبرات وذكريات مؤلمة، ومن ثم تستطيع القول بأنه في داخل هذه السجون ولد التطرف، لقد بدأ أفراد اخوان السجون يطرحون عن وعي زائف سؤال بسيط خدعوا به أنفسهم، لماذا كل هذا العذاب الذى يصب علينا، وأي جريمة اقترفناها إلا أن قلنا ربنا الله، ومنهجنا الإسلام ودستورنا القرآن. وما نريد من أحد جزاءً ولا شكورًا، إلا أن نؤدي واجبنا نحو ديننا، وأن يرضى الله تعالى عنا، أيمكن أن يكون العمل للإسلام في بلد إسلامي جناية ينكل بنا من أجلها كل هذا النكال؟. وبرغم أن هذه الأسئلة حق إلا أنه حق أريد به باطل، ويخدم هدفا مخادعا وماكراً غير معلن. وإجابة على ذلك، نجدهم قد إتجهوا إلى تكفير المجتمع. بإعتبار أن أعضائه كفار خارجون عن ملة الله، هم بشر لا دين لهم، ثم ينتقلون من ذلك إلى طرح سؤال آخر. إذا كان ذلك حكم هؤلاء الذين يعذبوننا حتى الموت، فما حكم سادتهم الذين يأمرونهم ويوجهونهم، ويصدرون إليهم الأوامر؟ ما حكم أولئك القادة والحكام الذين في أيديهم سلطة الأمر والنهي والإبرام والنقض. الذين لم يحكموا بما أنزل الله، ولم يكتفوا بذلك حتى حاربوا بكل شدة كل من يدعو إلى الحكم بما أنزل الله؟. هؤلاء بالنظر إلى أولئك المتطرفين أشد كفرًا وردتهم عن الإسلام أكثر صراحة، لسان حالهم المتطرف والارهابى يقول حسبنا فيهم قول الله تعالى: (وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ) (المائدة: من الآية٤٤). وبعد أن اقتنعوا بهذه النتيجة وآمنوا بها انتقلوا إلى سؤال آخر توجهوا به إلى من معهم من السجناء والمعتقلين، ما قولكم في هؤلاء الحكام الذين لم يحكموا بما أنزل الله، وازادوا على ذلك بالتنكيل بكل ما دعا إلى الله؟ فمن وافقهم على تكفيرهم فهو منهم، ومن خالفهم أو توقف للتأمل في الأمر فهو كافر مثلهم (٦٧). لأنه شك في كفر الكفار، ومن شك في كفر الكفار فهو كافر، ولم يقفوا عند هذا الحد بل انتقلوا

إلى سـؤال تـالى، وهـذه الجماهـير التـي تطيـع هـؤلاء الحكام وتخضـع لهم، وهـم يحكمـون بغير ما أنـزل اللـه، مـا حكـم هـؤلاء؟. ويكون الجـواب حـاضرًا عندهم، إنهم كفـار مثلهم فقـد رضوا بكفر هـؤلاء الحـكام وأقـروه وصفقـوا لـه، والـرضى بالكفر كفـر، ومن هـذا المنطلق انتـشرت موجة تكفير النـاس بالجملـة. وتفرعـت عـن هـذه الفكرة أفكار فرعيـة متطرفة أخرى، غـير أن البداية كانت مع عنـف وقسـوة النظـام السـياسي معهـم، فالعنـف لا يولـد إلى عنفًـا أو شـدة، والضغـط لا يكـون من ورائـه سـوى الانفجـار (٦٨). لقـد كان ذلـك فكر وتفكـير الذين عذبتهم خبرة سـجون الخمسـينيات والسـتينيات، وهـو ذات الفكـر الـذي شـكل الأيديولوجيـا التـي قـادت عنف التيـار الإسـلامي، ابتداء مـن السـبعينيات ولعـدة عقـود تاليـة، حتـى بـدأت نـذر العولمـة قبـل عقد مـن نهايـة الألفيـة الثانية، ومـن ثـم بـدأت طبيعة وأنمـاط العنف تتشـكل مـن جديد.

٨- ذلـك يعنـي أن متغـيرات العنـف تصدر مـن كل اتجاه وهـو ما يؤدي إلى انتشـار العنف عـلى سـاحة المجتمـع والعالم، كأنمـا الأرض أصبحت تنبت عنفًا، كأنما هى دائمًـا حبلى بأطفال العنف. ومـن الطبيعـي أن يؤثـر ذلـك كثـيرًا عـلى الأمـن القومـي للمجتمـع. لكونه يعمـل دائمًـا بإتجاه هز توازنـه وضرب اسـتقراره في مقتـل، ذلـك يحدث من جوانب كثـيرة. ويعد التأثير عـلى عملية التنمية أول أضرار العنـف بالأمـن القومـي، هذا الإضرار قد يكون واضحًـا وصريحًا. حينما تحدث انفجارات في المـدن الحضريـة بمـا فى ذلـك العواصـم الأساسـية أو في طابـا أو شرم الشـيخ أو بميـدان التحريـر، يسـقط في إثرهـا قتـلى مـن البـشر وخسـائر مادية كذلك. فإنه مـن المؤكد أنها تـضر بصورة واضحة بالسـياحة – كـما فعلـت في حينهـا – وقد أصبحت مـوردًا للعملة الصعبة في مجتمـع يعاني من عجز دائـم في ميـزان المدفوعـات. ليـس ذلـك فقط ولكنه يفرض أيضًـا كثيرًا من العنـف الاقتصادي حيث تعتمـد البـلاد معيشـيًا في مواردهـا على السـياحة وبذلك يسـاعد العنـف على خلق حالـة من التوتر الاجتماعـي (٦٩). والـذي يتزايـد تراكمـه في فضـاء المجتمـع، أو قـد يصبح العنف كامنًـا – نوع من الحنـق والغيـظ الـذى يكبـت – بسـبب الخوف والتوتـر داخل الـذات البشرية لتمتلئ بـه. فيمنعها مـن المشـاركة الفعالـة في دفـع عجلـة المجتمـع، ويدفعهـا إلى البحـث عـن صالحهـا الخـاص، عـلى

حساب إسقاط الصالح العام من الاهتمام، وما تبقى من توتر ناتج عن ذلك، فإننا نجده يتدفق إلى فضاء المجتمع.

يؤثر العنف أيضًا على الأمن القومي للمجتمع لأنه يؤسس عادة الاجتراء على السلطة، الأمر الذي يفقدها القدرة على الضبط والسيطرة، وهو الباب الخلفي لتآكل الشرعية التي منحت لها. فإذا هي تبادلت عنفًا بعنف، فإن ذلك قد يدفع بعملية العنف المتبادل إلى الدوران بفعل تبادلات العنف المتقابلة، في هذه الأثناء من المنطقي أن تتسع مساحة العنف على حساب تآكل قدرة الضبط. فإن أصبحت الدولة أكثر عنفًا أو قهرًا فإننا نكون بإزاء أحد احتمالين، تزايد مساحة العنف إذا كان البطش أو القهر محدودًا، أو تزايد تراكم التوتر ليصبح عنفًا مؤجلاً إلى إشعار آخر، ينفجر حينما تهتز موازين القوة ولو للحظة، أو حينما يأتيه دعم من الخارج، وتكنولوجيا الاتصال الحديثة ذات فعالية في هذا الصدد. ومن ناحية ثانية فإن انفجار العنف أو تشبع الأرض به قد يحرم الدولة من السلوك الاستراتيجي، الذي قد يهتم كثيرًا بالإشباع الفوري لحاجات البشر في الحاضر، ولغير صالح بناء مستقبل أكثر قدرة على تحقيق الإشباع (٧٠). فالدولة القائمة على أرض الواقع «حبلى بالتوتر» كأنما هي تسير على سطح من صفيح ساخن إذا جاز لنا أن نستعير تعبير الكاتب الأمريكي «يتنسى ويليامز». سلوكها دائمًا تكتيكي، تلهث جاهدة لإشباع بعض الحاجات، ولو بشكل ناقص ومظهري، حتى تؤجل الانفجار، وتكون الدولة حينئذ كمن يهوى البقاء دائمًا راقصا أو متأرجحا عند منتصف الدرج. لا هي أسست التنمية والتحديث بمنطق استراتيجي حتى تؤسس الاستقرار والتحديث لمجتمعاتها، ولا هي اكتفت بمنطق تكتيكي بحت فاقتصرت جهودها على إشباع الحاضر، فقد شغلها هاجس الخوف من تفجر العنف، عن تنمية المجتمع وتطوير قدراته. وفي ذلك إضرار بالغ بالأمن القومي، لأن التوقف عن التنمية وهدر الإمكانيات، في عالم تتسارع فيه الخطى من الحداثة إلى ما بعد الحداثة، يعتبر في حد ذاته هدرًا للقدرات، التي يمكن أن الاستفادة منها للمساهمة في بناء المستقبل بدلا من هدره.

بالإضافة إلى ذلك فإن انتشار العنف في المجتمع، وانشغال الدولة

بملاحقتـه، يـؤدي إلى رسـم صـورة من عـدم الاسـتقرار للدولة والمجتمع أمـام العـالم الخارجي، حيث تبـدو الدولـة ضعيفـة أمـام العـالم الخارجـي، ومنشـغلة عـن مهامها الاساسـية في تحديـث المجتمع. وقـد يحـاول البعـض الخارجـي البحـث في أسـباب انتشـار العنـف، فيجـد أن الدولـة تقـع عليهـا مسـؤولية كبـيرة، تتمثـل فى العجـز عـن تعبئتهـا للموارد مـن أجل التحديث، لإشـباع حاجـات البشر أو بسـبب ممارسـاتها للقهـر والعنـف السـياسي (٧١). الأمـر الـذي يدفع إلى اسـتبعاد عالمـي لمكانة هـذه الدولـة وأدوارهـا، بالإضافـة إلى ذلـك، فـإن إنتشـار العنـف في المجتمـع مـن شـأنه أن يـؤدى إلى تراجـع الاسـتثمارات الأجنبيـة، التـي يمكـن أن تشـارك في عمليـة التنميـة بحجـة عدم الاسـتقرار الاجتماعـي. في عـالم أصبحـت الاسـتثمارات الأجنبيـة تلعـب دورًا رئيسـيًا في تنميـة المجتمعـات، بخاصـة مجتمعـات العـالم الثالـث، وهـو مـا يـؤدي بـدوره إلى مزيـد مـن عـدم اسـتقرار المجتمـع، ومزيـد مـن إبـراز عجـز الدولـة. الأمـر الـذي يـؤدي في النهايـة إلى مزيـد مـن التراجـع عـلى كافـة المسـتويات، وتشـويه صـورة الدولـة أمـام العـالم الخارجـي، وفي ذلـك إضرار فـادح بالأمـن القومـي، بـل إننـا نجـد أن اسـتمرار حالـة عـدم الاسـتقرار قـد تدفع إلى إغـراء القـوى الخارجيـة بالإقدام على التدخـل في شـؤون المجتمـع.

سادسًا: الدين وآليات الإصلاح في العالم العربي

كيـف نخطـو عـلى طريـق الإصـلاح والتغيـير والتحديـث إذًا؟ وفي أي اتجـاه ينبغى أن تسـير الجيـاد؟ سـؤال طرحتـه جماعـات التيـار الدينـى عـلى نفسـها وقدمـت إجابـات مختلفـة تختلـف باختـلاف طبيعـة الفصيـل الدينـى وقدراتـه عـلى الصعيد الفكـري أو الحركي. كما تختلـف باختلاف إدراكـه لطبيعـة الواقـع العالمـي المحيط والمتغيرات التي اسـتجدت في إطاره، إضافـة إلى أنها تختلف بإختـلاف درجـة الوعـي الـذي توفر للجماعة بما يسـاعد فى إتجاه أسـتثمار قدراتهـا. إلى جانب ذلك فقـد اختلفـت تصـورات الإصـلاح وآلياتـه بمسـتوى الأداء الذي تـؤدي الجماعة دورهـا في إطاره، هل هو المسـتوى التكتيكي أم المسـتوى الاسـتراتيجي؟

وتقـــدم جماعـــة الفقهـــاء المتنـــورون دينيـــا، التصـــور الأول للإصـــلاح الســـياسي والاجتماعـــي، فهـــم يـــرون أن الإصـــلاح أصبـــح الآن ضرورة، فالأمـــة لم تعـــد تحتمـــل

مزيـدًا مـن الـتردي، وإلا تعرضـت للانهيار والتآكل والفنـاء. كما يدركون أن أغلـب منجزات الحضارة الغربيـة ليسـت مرفوضـة مـن الإسـلام إذا احتكمنـا إلى مرجعيتـه، لا يرفـض الإسـلام الأخذ بأسـباب العلـم والتكنولوجيـا. ولا يرفـض الارتقـاء بأوضـاع المـرأة، بـل هو قد سـبق إلى ذلك، وقـدم نموذجًا مثاليًـا لمكانتهـا وأدوارهـا، إذًا فهنـاك أرضيـة مـن الالتقـاء بـين روح الحضـارة الإسـلامية وغاياتهـا، وبـين بعـض جوانـب التقـدم أو التطـور الغـربي (٧٢)، وإن علينـا أن نعيـد اسـتنبات العلـم الغـربي، والتكنولوجيـا الغربيـة في تربتنـا، وهـي تربـة ملائمـة ومواتية.

وإذا كنـا سـوف نقيـس التقـدم الغـربي على أسـاس التقـدم فى العلـم والتكنولوجيا، وسـلامة الحيـاة السياسـية في بعـض الجوانـب، فإنـه مـن الـضروري أن يقابـل ذلـك بجهد على صعيـد التراث النظـرى. إذ علينـا أن نحـاول تجديـد الـتراث، وتجديـد الـتراث يتطلب جهـودًا على مسـتوى المنهج، وآخـر عـلى مسـتوى القضايـا موضـع التنـاول. وعلينا أن نعمـل في اتجاه إعـمال الاجتهـاد والقياس. وهـو أمـر أمرنـا بـه الدين، بحيث نشـتق مـن ثوابت الديـن ومنطلقاته مـا يلائم قضايانـا المعاصرة، سـواء، فيـما يتعلـق بالمـرأة أو الديمقراطية أو الفوائد على ما يودع في البنـوك. كذلك تجديد توضيح موقـف الديـن فيـما يتعلـق بالمقاومـة والعنـف والإرهـاب، وقضيـة التـوالي أو التـداول السـياسي، فالديـن رحـب والوثائـق الأساسـية ليسـت تاريخيـة ومـن ثـم فهـي للعالمـين، وهـي صالحـة لـكل زمـان ومـكان. وعلينـا أن نعيـد قراءتهـا في كل حـال وفي كل عـصر، فمـن خـلال القيـاس والاجتهاد والتأويـل، يمكـن إسـتخلاص مـا هو نسـبي مما هو مطلـق، وعلينـا أن نخاطر وأن نغامـر وأن نجدد، شريطـة ألا يكـون في كل هـذه الجهـود مـا يعـد خروجًا عـلى مرجعية الديـن (٧٣).

الآلية التي ينبغي أن تتبع لتحقيق ذلك هي ذات آليات التجديد التي تسـتند بالأسـاس إلى إعـمال العقـل في الـتراث، وفي النص حتى نجـدد فكرنا وتصوراتنا بما يلائم قضايـا العصر الذي نعيش في إطـاره. علينـا أن نسـعى بتخصصاتنـا المختلفـة في العلـوم الطبيعيـة والإنسـانية، في الفن والأدب وبهـذه المنظـورات جميعهـا كي تعيـد قراءة تراثنـا لنقدم ما يميزه، وفي مرحلـة تالية ينبغي نشره على

العامـة مـن خـلال الدعـاة في المسـاجد، ومـن خـلال الإعـلام. وذلـك حتـى يتشـكل خطـاب دينـى جديـد وحديـث. في هـذا الخطـاب لابـد أن نسـتلهم سـماحة الدين وبخاصـة الإسـلام وموقفه من الآخـر، والتعامـل معه اسـتنادًا إلى قاعدة «الحكمة والموعظة الحسـنة»، والمواطنـة كمرجعية تفرض المسـاواة بـين أبنـاء الأديـان المختلفـة فى تعاملاتهـم مـع بعضهـم البعـض. وعلينـا أن نبحـث عـن السـبل الفعالـة لتنشـئة الأبنـاء في الأسرة والمدرسـة والجامعـة ومـكان العمـل، حسـب حقائق وقيم وأفـكار هـذا الخطـاب الإسـلامي الجديـد. ألم تبـدأ كل التغـيرات الشـاملة، حتـى الثـورات، بأفـكار وقيـم شـكلت أيديولوجيتهـا في التحديـث والتطـور، ومـن ثـم فعلينـا أن نسـلك هذا السـبيل (٧٤).

ثمـة موقـف آخـر لـه تصـوره لحـدود الإصـلاح وآلياتـه يقفـه المؤمنـون المعتدلـون وفقهـاء الأزهـر الأكاديميـون، الذيـن يـرون أن فى الإسـلام حـل لـكل المشـكلات، ومـا علينـا إلا إعـمال العقـل للبحـث عـن تحديـد هـذه المشـكلات أو القضايـا، وكذلـك الحلـول التـي طرحـت لهـا. ويؤكـد هذا الفريـق أن الإسـلام نسـق مـن التفكير أسـس حضـارة ولملم شـمل أمة، وعلينـا أن نسـتعيده ليقيمنا مـن كبوتنـا بعـد أن سـقطنا. ولقـد سـقطنا لأننـا تخلينـا عـن إسـلامنا وفرطنـا فيـه. يقـول أصحاب هـذا الموقـف إنـه إذا كان ثمـة حديـث عن حقوق الإنسـان عـلى الصعيد الغربي، فقد سـبق الإسـلام بالتأكيـد عـلى هـذه الحقـوق، بـل ووازنهـا بحقـوق الجماعـة أو الأمـة (٧٥). وإذا كان ثمـة حديث عـن حقـوق المـرأة وأوضاعهـا، فلقـد قدم الإسـلام مكانة سـامية لها، ولم ينـس النبي صـلى الله عليه وسـلم في خطبـة الـوداع أن يـوصي بالنسـاء خيرًا.

لقـد أكسـب الإسـلام المـرأة حقوقًـا لم تصـل إليهـا في الغـرب، فلـماذا نـترك إسـلامنا لنلتحـق بالخطـاب الغـربي، مـع أن الخطـاب الإسـلامي فيـما يتعلـق بالمـرأة أكثر تطـورًا وطهـارة وشـفافية. يذهـب هـذا الفريـق إلى أنـه إذا كان هنـاك مـن يتحدثـون عـن الديمقراطيـة، فلـماذا لا نتحـدث عـن الشـورى الإسـلامية، ونعيـد تأملهـا وتطويرهـا بمـا يلائـم أوضاعنـا المعـاصرة. وبمـا يوفـر لهـا الضوابـط التـي تحقـق أن يكـون البـشر أحـرارًا ومتسـاوين ويتيـسر لهـم المشـاركة في إدارة شـؤون دنياهـم بغـض النظـر عـن الأختـلاف فى الديـن أو المذهـب، بـل عـلى قاعـدة المواطنـة المتسـاوية؟ . فى هـذا الإطـار مـا علينـا إلا أن نزيـح الغبـار الـذي تراكـم عـلى أفـكار

الإسلام وقضاياه، بسبب عصور الانحطاط والتردي، وأيضًا بسبب توقف العقل العربي والإسلامي عن التدبر والتفكير والتأمل.

يوصي هذا الفريق بآلية تستند إلى قول الله تعالى:(إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ) (الرعد: من الآية١١) ، لنبدأ ببناء الفرد أولاً، إذ علينا أن نعيد تنشئته وفق قيم الإسلام والدين عموما ومعاييره. علي الفرد يتقن عبوديته لله بإتقان العبادات التي تقربه من الله، والتي تدفعه إلى العمل لاعمار الأرض طاعة لأوامر الله. اعمار الأرض لديه يكون من خلال التعاون مع الآخرين دون تفرقة لا على أساس النسب، ولا على اساس العرق أو اللون، ولا حتى على أساس الدين، فالمؤمن العابد هو المدخل إلى المؤمن المتعامل.

وهكذا يكون إتقان العبادات مدخلاً لاتقان المعاملات، وتكون تنشئة المسلم المؤمن مدخلاً لبناء الأمة، علينا ألا نتعجل الأمور، أسوة برسول الله صلى الله عليه وسلم، لنعمل في هدوء وفي غير ضجة حتى تتأسس أمة إسلام متجددة ولو بعد عدة أجيال. ألم يقل العلامة الإسلامي "ابن خلدون»، إن عمر تطور الأمة ثلاثة أجيال؟ ليكن ذلك ولنتأسى بهذا القول، المهم أن نبدأ، فمشوار الألف ميل يبدأ بخطوة واحدة، وحتى يتحقق المجتمع المسلم في كماله، ليس هناك ما يمنع من المشاركة الإيجابية في حياة مجتمعنا، شريطة ألا تتناقض هذه المشاركة مع قيم مرجعيتنا الإسلامية (٧٦).

الموقف الثالث تقفه جماعات التيار الدينى التى تبنت التطرف والعنف، حتى إنتقلت إلى ساحة الارهاب، والتي ترى ضرورة التغيير الآن وفورًا، فلم تعد هناك مساحة من الزمن لمزيد من التخلف والتردي. لقد وصلنا إلى الحد الذي أصبحنا مهددين فيه بالتآكل والانقراض، لقد استهان بنا الآخرون لأننا استهنا بأنفسنا وبددنا مواردنا. يعادى هذا الموقف الأنظمة الأبوية القائمة، ثم يدعى إنها ضعيفة وخاضعة للقوى الخارجية «أسد عليّ وفي الحروب نعامة» ولا أمل في الإصلاح، في ظل وجود هذه الأنظمة. كما يرميها هذا الموقف عن

خطأ وسوء نية وقصد بأنها أنظمة كافرة. استنادًا إلى ذلك يؤكد أصحاب هذا الموقف على منطق العودة أو الرجوع إلى الأصول متناسين أن الزمن قد تغير، وأن مياها كثيرة جرت فى النهر، يقولون لنستدعي الإسلام في نفوسنا، وفي حياة مجتمعنا كما هو، برغم أنهم أول من يخالفون مضامينة النقية الطاهرة والمتسامحة. أو لنرجع نحن إلى الإسلام نستلهم أو ننهل من مصادر قوته، لا نخشى أننا فئة محدودة، فـ (كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ) (البقرة: من الآية٢٤٩) يذهب أصحاب هذا الموقف إلى أنه علينا أن نطبق الإسلام بنصه وهم أول من إنحرف بالنص لأنهم أخطأوا قراءة مضامينة، يؤكدون أن علينا أن لا نسرف كثيرًا في التأويل تحت تأثير تفوق الغرب وكذلك تحت تأثير ضعفنا وشعورنا بالإحباط، فقط علينا أن نقوي أنفسنا بالإسلام لكي نعمل على نصرته (٧٧).

ويتساءل أصحاب الموقف، من أين نبدأ، ويجيبون على ذلك بتصورات ساذجة، يقولون أن علينا أن نبدأ من اتجاهين، الاتجاه الأول أن نبدأ ببناء الفرد المسلم الذي يكون نواة للجماعة المسلمة، التي يكون إيمانها عميقًا، حتى يشكل طاقة عاتية وفعالة وقادرة على التغيير. هذه الجماعة المسلمة عليها أن تفصل نفسها لفترة عما عداها حتى لا تتسرب إلى إيمانها شوائب، هذه الجماعة المسلمة أو المؤمنة تكون هي المدخل لبناء الأمة المسلمة. الاتجاه الثانى يتبنى منطق متدرج تؤكد عليه إيديولوجيا هذه الجماعة، بناء الفرد كمدخل لبناء الجماعة «رأس الحربة» وبناء الجماعة مدخل إلى بناء الأمة. وإذا كان هذا البناء المتتابع ينشئ الطاقة الدافعة للتغيير ويطورها ويعمل على تعظيمها. فإن هذه الطاقة تحتاج أن تتدفق في مجرى بلا عوائق، حتى يتحقق بناء المجتمع المسلم، والعقبة هناك كما ترى جماعات هذا الموقف تتمثل في الأنظمة السياسية، التي لا تعمل بما أمر الله، والتي تخضع لأعداء الإسلام. إصلاح الحال يتم باستئصال رؤوس أو رموز هذه الأنظمة، لذلك نجد أن منطق الاغتيالات والعنف والارهاب،

تكتيك تعمل وفقًا له جماعات هذا الموقف. في خدمة استراتيجية تعظيم طاقة وفاعلية الجماعة المؤمنة، حتى تتعاظم قوتها ومساحة انتشارها، لكى تتدفق قوية في المجرى الرئيسي لنهر المجتمع. غاية هذا الموقف بناء «خير أمة أخرجت للناس» يتحقق ذلك أحيانًا بالدعوة لاستعادة الإسلام، والتعامل وفقًا له مع جملة القضايا المعاصرة. وفي أحيان أخرى تفيد طلقات الرصاص، كما ترى بعض جماعات العنف والارهاب، لتطهير مجرى النهر من العوائق، ومن الطبيعى أن يخالف ذلك منطق الإسلام الذي يدعو إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسن، فمنطقها في هذا الصدد ميكيافيللي، الغاية تبرر الوسيلة.

المراجــع

١. عـلي ليلـة : النظريـة الاجتماعيـة بـين التفكير في نشـأة النظـام الاجتماعـي والخلاف حول هويتـه ، المكتبـة المصرية للطباعـة والنشر والتوزيـع،(٣) ٢٠٠٧ ، ص ٢٩

2. Jansen, G. H : Militant Islam, Harper & Row Puplishers, New York, 1979, P. 16.

٣. عـلي ليلـة : الشـباب وإرادة التغيـير من داخـل التراث ، المكتبة المصريـة للطباعة والنشر والتوزيع ، ٢٠٠٥ ، ص ١٣٢.

٤. نفس المرجع ، ص ١٦٠.

5. Durkheim, Emile : The Elementary Forms of the Religious Life. Trans By. Joseph Ward Swain, The Free Press, New York, 1912, p. 5.

6. Barnard Lewis : The Emergence of Modern Turkey, A Demographic Study, OP, Cit, P. 342.

7. Weber, Max : Protestantic Ehic and the Spirit of Capitalism. Trans By T. Parsons, New York, 1928, P. 23.

8. Fukuyama, Francis : The End of Order, The Social Market Francis, 1997. P. 28.

9. Weber, max: Op, Cit P.34.

10. Ibid, P. 37.

11. Ibid, p. 39.

12. Ibid, P, 41.

13. Ibid. p, 44.

14. Putnem R.D: American Declining Economy, The Journal of Democracy 16)) P. 69.

15. Paxton, P: Social Capital and Democracy, An

Interdependent Relationship, Americal Sociological Review, 2002, Vol, 67, P 256.

16. R.D, Putnam: Op, Cit P. 71.

١٧. نيفـين روى: الآسـلام المعـولم، البحـث عن أمة جيـدة، لندن، دار نشر هيورسـت، ٢٠٠٤، ص ١٣٢.

١٨. نفس المرجع، ص ١١٩.

١٩. نفس المرجع، ص ١٢١.

٢٠. نفس المرجع، ص ١٢٧.

٢١. نفس المرجع، ص ١٢٧.

٢٢. نفس المرجع، ص ١٣٩.

٢٣. نفس المرجع، ص ١٤٠.

24. Emile Durkheim : Op. Cit, P. 21.

٢٥. عـلي ليلـة: النظريـة الاجتماعيـة بـين التفكير في نشـأة النظام الآجتماعـي والخلاف حول هويتـه ، مرجع سـابق ، ص ٧٤.

٢٦. عـلي ليلـة : مشروعيـة بنـاء علـم الاجتـماع مـن منظـور إسـلامي ، مركـز الدراسـات المعرفيـة ، بحـث مقـدم «لنـدوة» علـــم الاجتمـــاع مـن منظـور إسـلامي ٢٠ /٢٠٠٧/٢، ص ١١.

27. Parsons, Talcott: The Social System, New York, Geleonce, 1921, P. 392.

٢٨. محاضرة الرئيس مهاتير محمد رئيس وزراء ماليزيا السابق في مكتبة الإسكندرية.

29. G. H. Jansen: Op, Cit, P. 63.

30. Marshall, w. P : The Other Side of Religion hasting Law, January, 1993, No. 44,. P,843.

31. Ibid, P. 481.

32. Ekinx, Richard Edmin: Secular Fundamentalism

and Democracy, File // c. / Windom/ deskton 10/02/2002.

33. Ibid, P, 6.

34. Ibid, P. 7.

35. Skallioglu, U : Parameters and Strategies of Eslam- State Interaction in Republican Turkey, In Ternational Journal of Meddle-east Studies, May, 1996, Vol. 28, No. 2, P. 231.

36. Ibid, p 223.

37. Ibid, p, 227.

38. Ibid, p, 230.

39. Ibid, p, 232.

٤٠. على ليلة: علم إجتماع المعرفة، بحث فى مكونات راس المال المعرفى، مكتبة الأنجلو المصرية، ٢٠١١، ص ١٣٢.

٤١. عبد الاله بلقيز؟ الاسلام والسياسة، دور الحركة الاسلامية فى صوغ المجال السياسى، الدار البيضاء، المركز الثقافى العربى، ٢٠٠١ن ص ١٠.

٤٢. على ليلة: النظرية الاجتماعية المعاصرة، دراسة لعلاقة الانسان بالمجتمع، المكتبة المصرية للطباعة والنشر والتوزيع، ص ٣١٢.

٤٣. على ليلة، العالم الثالث، قضايا ومشكلات، دار الثقافة للنشر والتوزيع، ١٩٨٥، ص ٣١١.

٤٤. نفس المرجع، ص ٣٥١.

٤٥.على ليلة: النظرية الاجتماعية المعاصرة، دراسة لعلاقة الانسان بالمجتمع، مرجع سابق، ص ٣٣٤.

٤٦. أحمد الموصلى، رؤية الحركات الاسلامية لمفاهيم الديموقراطية والتعددية السياسية وأثرها فى الاستقرار النفسى فى العالم العربى، أبو ظبى، مركز الامارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية، ٢٠٠٢، ١٢٣.

٤٧. نفس المرجع، ص ١٢٧.

٤٨. أحمد منيسى، أمريكا والشرق الأوسط فى ولاية بوش الثانية، مجلة شئون خليجية، عدد ٤٠ شتاء ٢٠٠٥، مركز الخليج للدراسات الاستراتيجية، ص ١٢.

٤٩. نفس المرجعن ص ١٣.

٥٠. نيفين روى، مرجع سابقن ص ١٣٧.

٥١. نفس المرجع، ص ١٤١.

٥٢. فهمي هويدي : إيران من الداخل ، مؤسسة الأهرام للترجمة والنشر الطبعة الأولي ١٣٠٨ هـ - ١٩٨٧، ص ١١٧.

٥٣. على ليلة، العلاقة بين الدين والسياسة فى أجندة الاصلاح فى العالم العربى، مكتبة الاسكندرية، ٢٠٠٦ ص ص ٣٤- ٣٥.

٥٤. نفس المرجع، ص ٣٧.

٥٥. نفس المرجع، ص ٣٩.

٥٦. نفس المرجع ص ٤٢.

٥٧. نفس المرجع، ص ٢٩.

٥٨. نفس المرجع، ص ٥١.

٥٩. نفس المرجع، ص ٥٣.

٦٠. دانييل برومبيرج، الاسلام والديموقراطية فى الشرق الأوسط «فى» لارى دياموند، مارك بلاتس «تحرير» مطابع جون هوبكنز وناشيونال أند منيت فور ديموكراسى، ٢٠٠٣، ص ٤٧.

٦١. على ليلة، العالم الثالث، قضايا ومشكلات ، مرجع سابق، ص ٣٥٧.

٦٢. نفس المرجع، ٣٧٢.

٦٣. نفس المرجع، ٣٧٥.

٦٤. نفس المرجع، ٣٨١.

٦٥. نفس المرجع، ص ٣٨٢.

٦٦. نفس المرجع، ص ٣٨٣.

٦٧. نفس المرجع، ص ٣٨٤.

٦٨. نفس المرجع، ص ٣٨٥.

٦٩. نفس المرجع، ص ٣٨٦.

٧٠. نفس المرجع، ص ٣٨٩.

٧١. نفس المرجع، ص٤٠١.

٧٢. نفس المرجع، ص ٤٠٧.

٧٣. نفس المرجع، ص ٤١١.

٧٤. نفس المرجع، ص ٤١٢.

٧٥. نفس المرجع ص ٤١٧.

٧٦. نفس المرجع، ص ٤١٨.

٧٧. نفس المرجع، ص ٤٢٠.

الفصل الخامس

تحولات الثقافة ومنظومة القيم

عبر نصف قرن

الفصل الخامس
تحولات الثقافة ومنظومة القيم
عبر نصف قرن

تمهيد

يشغل نسق الثقافة والقيم مكانة محورية في بناء المجتمع حسبما تذهب مختلف الاتجاهات النظرية فى علم الاجتماع، لكونه يشكل الموجهات الرمزية للتفاعل الاجتماعي والسلوكيات المتضمنة فيه. ونتيجة لذلك فقد احتلت الثقافة والقيم مساحة واسعة على خريطة التنظير الاجتماعي ، وذلك يرجع إلى أن نسق الثقافة والقيم يشكل النسق المحوري الضابط للتفاعل الاجتماعي الحادث في المجتمع من خلال آليات ووسائل عديدة. في هذا الإطار يرى التنظير السوسيولوجى أن نسق الثقافة والقيم يتضمن ثلاثة منظومات قيمية، المنظومة القيمية الأولى هي منظومة القيم الإدراكية التي يستوعبها الإنسان من خلال التنشئة الاجتماعية المتعددة، وبخاصة المؤسسة التعليمية بمراحلها المتتابعة. ومنظومة القيم الوجدانية التي تربط الإنسان بموضوعات معينة بصورة عاطفية كالارتباط بالأم، والوطن «والعلم رمز الوطن» ومفاهيم الشهادة والتضحية. ثم منظومة القيم التفضيلية التي تشكل مرجعية الفرد في الاختيار بين الموضوعات. ويرى تالكوت بارسونز أن نمط المجتمع ودرجة تحديثه، هو الذي يحدد منظومة القيم الأكثر فعالية في بنية ثقافته، فكلما تقدم المجتمع كانت القيم الإدراكية هي التي لها السيادة. وكلما تخلف المجتمع كانت القيم الوجدانية هي الضابطة لإيقاع التفاعل في المجتمع، وتستند آدائية القيم التفضيلية إلى مرجعية أي منهما.

بالإضافة إلى ذلك تتشكل الثقافة ومنظومات القيم المتضمنة بها عبر التطور التاريخي للمجتمع، فهي تبدأ مع المجتمع، ثم تتطور ثقافة مصاحبته تطوره، وهي الثقافة ومنظومات القيم التى يعيد المجتمع إحيائها وتجديدها وإنتاجها من خلال التفاعل الاجتماعي الحادث في مختلف مجالاته. ومن ثم فالثقافة ترتبط عضويًا ببناء المجتمع، وهي مرجعيته التي تقدم حلولاً لما يعترضه

مـن مشـكلات أو مسـائل، ومـن هنـا فـإن اسـتمرار الثقافـة يعنـي اسـتمرار المجتمـع. وأن القـول بالقطيعـة مـع الـتراث، والارتمـاء في أحضـان المعـاصرة قـول لا معنى لـه، ولا يشـير إلى إدراك صحيح للأمـور، والأجـدر أن نتحـدث عـن تجديـد الـتراث أو التحديـث مـن داخـل التراث.

إلى جانـب ذلـك فـإن إعتبـار الثقافـة كائـن عضـوي حي وقـادر على النمـو والتفاعـل، الذي يمكـن أن يكـون مفيـدًا، إذا حـدث في بيئـة ثقافيـة مواتية، تسـاعد فى تجديد الثقافة وضخ الحيوية في بنائهـا. يحـدث ذلـك إذا اسـتطاعت الثقافـة أن تشـكل إطـارًا لإشـباع حاجـات المجتمـع والبـشر، الذيـن يعيشـون بداخلـه وعـلى سـاحته، بمـا في ذلـك إشـباع الحاجـة إلى التطـور والحيـاة في قلـب العـصر، وتقديـم حلـول مبتكـرة لمعضـلات أو مشـكلات تفاعـل الحيـاة اليوميـة. بـدلاً مـن الهروب إلى سـلفية ثقافيـة تصبـح شـاهد عـلى موت الثقافـة، يحدث ذلك إذا اسـتطاعت الثقافـة أن تتفاعل بنديـة مـع الثقافـات القائمـة في البيئـة العالميـة، أو تلـك التـي تسـعى إلى اخـتراق فضائهـا. في هـذا النطـاق لابـد أن تمـارس الثقافـة نوعًـا مـن الانتفـاء العقلاني لعنـاصر الثقافـات الأجنبيـة التي تقوي أو تدعـم بنيتهـا، وتسـتبعد تلـك العنـاصر التـي قـد تنـشر التحلـل في بنائهـا، وتـؤدي إلى انهيارها أو تدفـع إلى تـآكل القـدرة التكيفيـة للثقافـة والمجتمع. ذلك يعنـي أن على الثقافـة أن لا تغلق أبوابها أمـام متطلبـات التغيـير التـي يفرضها الواقـع من الداخل، ولا أمـام ضروريات التجديـد التي تفرضها ضغـوط مطالـب التفاعـل الثقافي مـع الخارج.

إرتباطـا بذلـك تـبرز ضرورة تماسـك ثقافـة المجتمـع بـكل تكويناتهـا الفرعيـة، في هـذا الإطـار فإننـا نجـد أنفسـنا أمـام ثلاثـة أنمـاط مـن المجتمعـات، المجتمـع الطبيعـي الـذي طـور ثقافتـه مـن خـلال التطـور التاريخـي التلقـائى، ثـم المجتمـع السـياسي الـذي قـد يشـتق ثقافتـه السياسـية مـن رحـم ثقافـة المجتمـع الطبيعـي، أو الالتحـام بـه عضويًـا بعـد أن جـاء طارئًـا عليـه. ثـم المجتمـع المـدني الـذي يعمـل وفـق ثقافـة العمـل التطوعـي التـي تـأتي ثقافتـه مـن الخـارج أو تنشـأ عـن التفاعـل الحـادث في الجـذور عـلى أرضيـة الواقـع المعـاش. في هـذا الإطـار فإننـا نـدرك أن الحالـة المثاليـة للثقافـة والمجتمـع تتمثـل في أن تكـون هنـاك مرجعيـة ثقافيـة وقيميـة واحـدة

لهـذه المجتمعـات الثلاثـة، هـي في الغالـب مرجعية المجتمع الطبيعـي المتجـددة أو القابلة للتجدد. أمـا إذا كان لـكل مجتمـع مـن المجتمعـات الثلاثة مرجعيتـه الثقافيـة والقيمية، فإن ذلـك قد يؤدي إلى ضعـف تماسـك المجتمـع بمجتمعاتـه الفرعيـة الثلاثـة، خاصـة خـلال مراحـل التحـول الاجتماعي والاقتصـادي. فقـد يـؤدي عـدم تماسـك الثقافـة وغلبـة الثقافـات الفرعيـة عـلى كليتها إلى تشـظي كليـة المجتمـع، وربمـا مزيـد مـن تشـظي الثقافـة كذلـك، ومن ثـم التأثير عـلى الهوية حتـى التآكل.

وللتأكيـد عـلى تماسـك الثقافة التى تتـولى الحفاظ على تماسـك المجتمع، فإنـه من الضرورى وجـود مؤسسـات التنشـئة الاجتماعيـة العديـدة والمتنوعـة، والتـي تـؤدي أدوارهـا عـلى مسـتويات ووفـق مراحـل متتابعـة، وهـي الأدوار التـي تؤديها على مسـتويين. المسـتوى الأول يتمثـل في القيام بعمليـة الصهـر الثقـافي للمـوارد الثقافيـة التـي تصدر عن مصـادر عديـدة ومتنوعة، بحيـث تتخلق نتيجـة لذلـك ثقافـة عامـة وقويـة واحدة، ناتجـة عن تهجين هـذه المـوارد الثقافية العديـدة. تؤكد عـلى مـا هـو قـوي في هـذه المـوارد، وعـلى مـا هو مشـترك لتتخلـق بذلـك الثقافـة التي تقـود تطور المجتمـع. ويتصـل المسـتوى الثـاني بـضرورة أن تعمل التنشـئة الاجتماعية بإتجاه تدريـب البشر منذ الصغـر عـلى قيـم الثقافـة التـي تشـكل المخـزون الرمـزي، بحيث تتحـول الثقافـة من خـلال عملية التنشـئة الاجتماعيـة، مـن ثقافـة سـابحة أو طافيـة في فضـاء المجتمـع، إلى اسـتيعاب البـشر لهـا. بحيـث تصبـح مكونًـا فاعلاً في بناء شـخصية البشر، تكتسـب حيويتهـا وفاعليتها مـن وجودها الحي والمتفاعـل في واقـع المجتمع.

فـإذا لم يتحقـق مـا سـبق بالصـورة الملائمـة، فـإن المجتمع يواجـه بأنتشـار حالـة «الانومي» التـي قـد تعـاني منهـا ثقافتـه، حينـما يحـدث تـشرذم للثقافـة يتبعـه تـشرذم اجتماعـي، بحيـث لا تصبـح الثقافـة إطـارًا للإتفـاق الاجتماعـي، ولا هـي موضوعًا للإتفـاق الاجتماعي كذلـك. أو أن تظل الثقافـة معلقـة في فضـاء المجتمـع لا تجـد السـبيل ولا تمتلـك الفاعلية، مـن أجل الهبـوط إلى الواقع لتنظيـم تفاعلـه مـن خـلال توجيـه سـلوكيات البـشر وضبـط آدائهـم. أو أن تكـون هـذه الثقافـة والقيـم مصـدرًا للشـقاق والـصراع الاجتماعـي، يحـدث ذلـك إذا تعـددت أو اختلفـت المرجعيـات

الفرعيـة فى إطارهـا، ثـم تطرفـت باختلافاتها إلى حـد التناقض والتعاند، وهو مـا نعرض في الصفحات التالية لمضامينه في.

أولاً: طبيعة الثقافة، وخصائصها

يشـير تعريـف الثقافـة إلى أنهـا مجموعـة المعـانى والرمـوز الموجهـة لسـلوكيات البـشر، والضابطـة لايقـاع التفاعـل الإجتماعـى فى مختلـف المجـالات الإجتماعيـة. ولا توجـد هـذه المعـانى والرمـوز مبعـثرة ولكنهـا تتشـكل فى أبنيـة رمزيـة أو منظومـات قيـم، تتكامـل فى بنـاء، نطلـق عليـه كمتخصصـين نسـق الثقافـة أو نسـق القيـم، وأحيانا بنـاء الثقافة والقيـم، بإعتبار أن الثقافة تشـكل بنيـة معنويـة مناظـرة لبنيـة المجتمـع الماديـة المتجسـدة (١). لذلـك نتفق مـع التصـور المؤكد على الثقافـة، بإعتبارهـا المقابـل المعنـوى للمجتمـع، فهـى نموذجه الذى يتشـكل من المعـانى. وإذا نظرنا إلى تاريـخ المعـانى فى بنـاء المجتمـع الإنسـانى، فسـوف نجـد أن الثقافـة هـى التـى تتـولى تشـكيل بنـاء المجتمـع، حينـما تكـون الثقافـة قويـة، تتشـكل مـن ثـروة مـن المعـانى التـى تشـكل الواقـع وفـق متضمناتهـا. فى هـذا الإطـار فإننـا نشـير إلى مثالـين نقيضـين من حيـث الدلالة، كلاهـما يؤكد الحقيقـة مـن طـرف مقابـل، فمثلا نسـتطيع القـول بأن كل الأديان شـكلت ثـروة وثورة مـن المعانى التـى شـكلت مجتمعـات. وهـو البعـد الـذى التقطة عـالم الإجتماع الألمـانى ماكس فيـبر، حينما أكد أن ظهـور معـانى دينيـة جديـدة، مـن الطبيعـى أن يـؤدى إلى تنظيم إجتماعـى فتى وجديـد. ومن منطـق أيديولوجـى مقابـل أكدت المفكرة الماركسـية «إيسـيا برلين» عـلى الماركسـية بإعتبارها معانى وقيـم أيديولوجيـة، هـى التـى أسسـت المجتمعات الإشـتراكية فى العـالم، حيث لم تكن أنمـاط الإنتاج هـى التـى أسسـتها (٢). ذلـك يفـرض علينـا طـرح مجموعـة مـن الحقائـق الأساسـية التـى تتعلـق بتأمـل الثقافـة عـلى الصعيـد النظـرى، والتـى نـدرك مـن خلالهـا مكانـة الثقافـة والقيـم فى علاقتهـا با لمجتمع.

وتتمثـــل الحقيقـــة الأولى، فى وجـــود إتفـــاق عـــلى مســـتوى التنظـــير الإجتماعـــى، حـــول مكانـــة الثقافـــة والقيـــم ودورهـــا المحـــورى فى بنـــاء المجتمـــع، وهـــو دور أكـــدت عليـــه مختلـــف النـــماذج النظريـــة فى علـــم الإجتـــماع. فبرغـــم أن ماركـــس جعـــل الثقافـــة أحـــد مكونـــات البنـــاء الفوقـــى، وأنهـــا تعـــد إنعـــكاس للبنـــاء التحتـــى للمجتمـــع الـــذى

يتشـكل مـن قـوى وعلاقـات الإنتـاج. إلا أنـه أكـد أن هـذا الإنعـكاس ليـس إنعكاسـاً ميكانيكيـا، فأحيانـا لا تعكـس الثقافـة النمـط الإنتاجـى السـائد، فبرغـم التقـدم الإقتصـادى لفرنسـا فى القـرن الثامـن عـشر، إلا أنهـا عجـزت عـن إنتـاج الاليـاذة التـى أبدعهـا العـصر الإغريقـى، وأنـه الـذى أكـد عـلى أن الثقافـة قـد تسـتقل فتغطـى عـدة أنمـاط إنتاجيـة متتابعـة (٣). ذلـك فى مقابـل ماكـس فيـبر الـذى منـح الثقافـة ومنظومـات القيـم – خاصـة القيـم البروتسـتنتية – الـدور المحـورى فى نشـأة النظـام الرأسـمالى، فهـى تمثـل الطلقـة الأولى أو الدافـع لنشـأة هـذا النظـام. وفى ذات المرحلـة أكـد إميـل دوركيـم عـلى أن الثقافـة والقيـم هـى أسـاس الإتفـاق الإجتماعـى. فـإذا إنتقلنـا إلى المرحلـة الحديثـة والمعـاصرة، فسـوف نجـد أن عـالم الإجتـماع تالكـوت بارسـونز يؤكـد عـلى الثقافـة ومنظومـات القيـم بإعتبارهـا ضابطـة لأيقـاع التفاعـل الإجتماعـى(٤). حيـث يضـع الوجـود المعنـوى للمجتمـع فى مقابـل وجـودة المـادى، وأن منـح الوجـود الثقـافى والمعنـوى، ومنظومـات القيـم المتضمنـة فيـه الـدور المحـورى فى صياغـة التفاعـل الإجتماعـى. وتطـورت الأفـكار المتعلقـة بالثقافـة حتـى رأى روبـرت ميرتـون أنـه إذا عانـت الثقافـة مـن تناقـض بـين رموزهـا وتجسـيدها فى الواقـع الإجتماعـى، فـإن ذلـك يعـد مدخـلاً لإتسـاع مسـاحة الإنحـراف فى المجتمـع وإنتشـار حالـة الأنومـى الثقافيـة(٥).

وتتصـل الحقيقـة الثانيـة بأسـلوب ضبـط الثقافـة ومنظومـات القيـم المتضمنـة فيهـا للتفاعـل الإجتماعـى السـائد فى المجتمـع. فالثقافـة توجـد عـلى هيئـة منظومـات رمزيـة تشـكل أسـاس الإتفـاق الإجتماعـى فى المجتمـع، وهـو مـا يعنـى أن الإخـلال بقيـم الثقافـة يـؤدى إلى الإطاحـة بالإتفـاق الإجتماعـى. يضـاف إلى ذلـك فـإن الثقافـة توجـد فى المجتمـع عـلى هيئـة عـادات وتقاليـد وأعـراف وقواعـد تتـولى ضبـط سـلوك البـشر فى مختلـف المجـالات الإجتماعيـة. فـإذا كانـت ثقافـة المجتمـع فى مسـتواها الرمـزى مـن ناحيـة، والقواعـد والمعايـير التـى يفـترض أنهـا مشـتقة منهـا مـن ناحيـة أخـري. فمعنـى ذلـك أن التفاعـل الحـادث فى الواقـع الإجتماعـى والـذي تنظمـه المعايـير والتقاليـد، يتحقـق وفـق رمـوز الثقافـة، فـإن ذلـك مـن شـأنه أن يـؤدي إلي تحقـق الاسـتقرار والتماسـك الاجتماعـي. أمـا إذا تناقضـت المعايـير والتقاليـد

المنظمـة للتفاعـل مـع المعـاني الرمزيـة للثقافـة، فإن ذلك من شـأنه أن يـؤدي إلي إنتشـار إنحرافات عديـدة فى مختلـف مجـالات الواقـع الاجتماعـي. بالإضافة إلي ذلـك توجد الثقافـة فى واقع المجتمع عـلى هيئـة مجموعـة مـن الرمـوز التـى تنظـم التوقعـات المتبادلة بـين البـشر، حيث يتوقـع كل منا مـا سـيفعله الأخـر فى مواقـف معينـة، أو ما سـوف يؤديه إسـتجابة لفعلنـا، لأن موجهاتنـا فى الفعل مشـتقة مـن ثقافـة واحـدة. إلى جانـب ذلـك فإن قيـم الثقافة تتـسرب إلى داخلنا من خـلال عملية التنشـئة الإجتماعيـة، فتشـكل ضميرنـا الداخـلى، الذى يضبـط سـلوكنا فى مختلف مجـالات المجتمع (٦). وهـو مايعنـي أن الثقافـة تضبط سـلوكيات البـشر وتنظم التفاعل الاجتماعـي من خلال أربعة مصـادر ثقافيـة. الثقافـة في وجودهـا الرمـزي، ووجودهـا عـلي هيئـة تقاليـد، إضافـة إلي وجودهـا كمرجعيـة للتوقعـات المتبادلـة، إلي جانـب إسـتيعاب البـشر لمضامينهـا مـن خـلال عمليـة التنشـئة الاجتماعية.

وتذهـب الحقيقة الثالثة إلى أن الثقافة تشـكل كائنـا عضويا متحركة عبر التاريخ، كما تمارس فاعليتهـا عـلى سـاحات كثـيرة فى المجتمـع. فى هـذا الإطار فإن الثقافـة، فى تحركها عـبر التاريخ وعلى سـاحة الواقـع أفقيـا أو جغرافيـا تعيد إنتاج نفسـها، كما يخضـع الكائن العضوى لإعـادة إنتاج ذاته. فالثقافـة المتدفقـة إلينـا مـن المـاضى وعـبر الأجيـال، لا تنتقـل عـبر مراحـل الزمـن كـما هـى، ولكنها تشـارك فى تفاعـل كل مرحلـة فتجـدد بعض قيمهـا وتبدع أخرى، وهى فى كل مرحلـة تضم إلى بنيتها قيـما مضافـة تقـوى مـن بنيتها. وبنفـس المنطق حينما تتفاعـل ذات الثقافة مع سـياقات إجتماعية مختلفـة، ذات ثقافـات فرعيـة متباينـة، بحيـث نجد أن الثقافـة العامة تثرى بنيتها بهـذا التنوع فى الثقافـات، فتـزداد قـوة، وهو ما يعنى أن ظاهرة الإسـتبعاد الثقافى إنتقاص مـن قوة او قدرة الثقافة. بيـد أن الثقافـة حينـما تدخـل فى تفاعـل مـع ثقافـات مغايـرة، وهـى ظاهـرة أصبـح لهـا وجودهـا الواضـح فى عـصر ثـورة الإعـلام وتكنولوجيـا المعلومات. فإنهـا تخضع لقانون المنافسـة، حيث تنتصر الثقافـة التـى توجـه الفعـل والسـلوك، أو تحقق الإشـباع بكفاءة أعـلى وتكلفة أقل، فى هـذا الإطار، تنتـصر الثقافـة التـى يكون القانون لصالحها (٧). وفى هذا السـياق لا نتفق مع القانون الذى وضعة

العـالم الإسـلامي والعـربي الجليـل عبـد الرحمن بن خلـدون بأن المغلـوب مولع بثقافـة الغالب، فقد يكـون المغلـوب أرقـى فى ثقافتـه مـن الغالب، ويكون هـو المؤثر من الوجهـة الثقافية.

وتذهـب الحقيقـة الرابعـة إلى أنـه إذا كانـت الثقافة القوميـة ضعيفة، فـإن تدفق المضامين عليهـا مـن كل إتجـاه يصيبهـا بحالـة من التخمـة الثقافية والعجز عن الإسـتيعاب والهضـم، ومن ثم إنحسـار قدرتهـا عـلى توجيـه الفعل أو ضبط التفاعل بالنسـبة لشرائح واسـعة من البـشر. فى مقابل أن قيـم الثقافـة المتدفقة تكسـب مسـاحات جديدة عـلى أرضها، حتى تتآكل الثقافة وتشـق بقاياها طريقهـا إلى المتاحـف الإنسـانية والثقافيـة، أو تبقـى محصـورة فاعليتها فى نطاق بعـض الشرائح. فى هـذا الإطـار حينـما تمـوت الثقافـة، فإننـا نجد أن إضعـاف الثقافـة أو ضربها فى مقتل يتـم من أعلى ومـن أسـفل، مـن أعـلى حيـث تتـآكل اللغـة أولا ثـم، يتخلـل سرطـان الإخـتراق بنيتهـا. ثـم تتقوى عليهـا اللهجـات المحليـة، واليوميـة والفئويـة وتتكـسر بنيتهـا وتراكيباتهـا، ثـم ينتقـل الإعتـلال إلى منظومـات القيـم، القيـم الإدراكيـة هـى التـى تتغير اولا، ثـم القيـم الوجدانية المرتبطـة بموضوعات محببـة إلى نفوسـنا بعـد ذلـك. فـإذا أخترقـت منظومات قيـم الثقافة، من أسـفل فإن الهجـوم يتجه إلى قاعدتهـا حيـث الديـن، فى هـذا الإطـار تعمل القيـم المخترقة ضرب قيم الديـن ومبادئه فى مقتل. وإذا كان الديـن ينقسـم إلى العبـادات والمعامـلات، فـإن تخريـب المعاملات يصبح الهـدف أولا، فإذا تحقـق الهـدف عـلى هذا المسـتوى، فـإن الطريق يصبح سـهلا لضرب العبـادات والقضـاء عليها (٨). وإذا كان بنـاء الثقافـة يبـدأ مـن الديـن لأنـه يشـكل قاعدتهـا، فـإن القضـاء عـلى الثقافـة يبـدأ مـن اللغـة التـى تشـكل وعاء التعبـير عنها.

وتتصـل الحقيقـة الخامسـة بعلاقـة القوى الإجتماعيـة المختلفة بالثقافة، فى هـذا الإطار فإن لدينـا ثلاثـة قـوى إجتماعيـة. الطبقة العليا والطبقـة الدنيا والطبقة الوسـطى، وكل من هذه القوى الإجتماعية لها علاقتها المتميزة بالثقافة. فى هذا الإطار فإننا نجد أن الطبقة العليا تقود نوعية حياة مختلفـة عـن مـا هـو سـائد أحيانا فى مجتمعهـا، الأمر الـذى يجعل ثقافتهـا وقيمها ليسـت متطابقة

تماما مع مضامين الثقافة القومية. وهى بعيده عن الثقافة التقليدية التى تشكل مرجعية المجتمع، لكونها أكثر ميلاً إلى ثقافة التحديث. على هذا النحو فهى تشكل إحدى النوافذ التى تتدفق منها الثقافات الأجنبية بخاصة الغربية، حيث نلاحظ ذلك فى اللغة، والمضامين القيمية لثقافة هذه الطبقة (٩). وإذا كان وجه الطبقة العليا موجه شطر الخارج، فإننا نجد الطبقة الدنيا، كقوة إجتماعية، على العكس من ذلك منكفئة إلى الداخل، حيث تعانى من مشكلات كثيرة فى واقعها. ومن ثم فمعانيها وأبنيتها الرمزية عارية من المثل، الثقافة والقيم لديها لها طبيعتها الأدائية والعملية، التى تساعدها على التكيف مع أوضاعها الصعبة التى تعيشها. تضفى هذه الطبقة المشروعية على أى قيم أو سلوكيات تساعدها في إشباع حاجاتها الإنسانية الأساسية، حتى تتمكن من البقاء حية، بغض النظر عن الطبيعة الأخلاقية لهذه القيم أو السلوكيات، مساحة الإنحراف عن مضامين الثقافة تتسع لديها كالطبقة العليا، الأخيرة ترفاً والأولى إحتياجاً.

الطبقة الوسطى لها علاقة خاصة بالثقافة، فالطبقة الوسطى دائماً هى رمانة الميزان، والحافظة على توازن المجتمع. ذلك يرجع إلى أنه فى الحالات المعتادة والمثالية للمجتمع، فإن الطبقة الوسطى تعد القوة الغالبة فى المجتمع. وإذا كانت هى القوة الغالبة فثقافتها ومضامينها القيمية هى التى تتدفق فى المجرى الرئيسى المجتمع، ومن ثم تصبح منظوماتها القيمية ومعاييرها هى العمود الفقرى لبنية الثقافة القومية، وما عداها يصبح ثقافة فرعية لها. وتصبح معاييرها وآدابها هى البوصلة التى تحدد الصواب والخطأ، كما تحدد مدى إنحراف الثقافات الفرعية عنها. وفى هذا الإطار فإننا نجد أن ثقافة الطبقة الوسطى تعيش فى ظل ثلاثة حالات، فى الحالة الأولى تكون الطبقة الوسطى قوية، مساحتها أوسع على خريطة القوى الإجتماعية، ومن ثم فقيمها هى التى يحتكم إليها. ومن الطبيعى أنه إذا كانت ثقافتها قوية، وهى التى تتدفق فى المجرى الرئيسى للمجتمع، فإنها تكون قادرة على تهميش مختلف الثقافات الفرعية الأخرى (١٠). وفى الحالة الثانية قد تتآكل الطبقة المتوسطى، وتتقلص مساحتها، كما يشخص ذلك القانون الماركسى المتعلق بنضج البنية الطبقية

كمدخـل لتفجـر الـصراع الإجتماعـى. فى هـذه الحالـة قـد تتـآكل ثقافـة وقيـم الطبقـة المتوسـطة لتحـل محـل ثقافتهـا وقيمهـا ثقافـة وقيـم القـوى والطبقـات الإجتماعيـة الأخـرى. ونظـراً لأنهـا لا تسـتطيع أن تقـود نوعيـة حيـاة الطبقـة العليـا. فإننـا نجـد أن قيم الطبقـة الدنيا هـى التى تتدفق عـلى سـاحتها، وبـدلاً مـن الطابـع الأخلاقـى لثقافتها الوسـطية المعتدلـة، فـإن الثقافة تتحـول لديها إلى معـانى آدائيـة وعمليـة تسـاعدها عـلى التكيـف (١١)، ومـن الطبيعـى أن تتزايـد فى هـذه الحالة مسـاحة الإنحـراف عـلى سـاحتها، سـواء كان إنحرافـا إجتماعيـا أو أخلاقيا.

وفى الحالـة الثالثـة قـد تظـل الطبقة الوسـطى باقيـة، غير أنها نظـراً لأنها تنقسـم إلى شرائح عديـدة متراتبـة، فإننـا نجـد أن وجـود أو بنـاء الطبقة الوسـطى يعانى مـن بعض المناطـق الضعيفة، التـى يمكـن أن نسـميها «البطـن الرخـوة» للطبقـة، وفى هـذا الإطـار نسـتطيع أن نميـز منطقتـين. الأولى هـى الشريحـة التـى تقـع أسـفل هـذه الطبقـة والقريبـة مـن الطبقـة الدنيـا، وفى حالـة قوة هـذه الطبقـة، فـإن قيمهـا ومعانيهـا تتدفـق فى إتجـاه مـا هـو أسـفل منهـا. وفى حالـة ضعف هذه الطبقـة فـإن معـانى وقيـم وأخـلاق الطبقـة الدنيـا تتـسرب إلى المنطقـة الرخـوة فى أسـفل الطبقـة الوسـطى، خاصـة إذا كانـت تعـانى مـن تدهـور نوعيـة حياتهـا. بحكـم حالـة التحـول الإجتماعـى. وتعـد الشريحـة العليـا للطبقـة الوسـطى هـى المنطقـة الرخـوة الثانيـة، التـى تتخـلى فيهـا الطبقـة الوسـطى، عـن بعـض قيمهـا وأخلاقهـا لتكتسـب قيـم وأخـلاق الطبقـة العليـا، مـع بعـض جوانـب نوعيـة حياتهـا. وفى هـذه الحالـة تصبـح الطبقة الوسـطى، أو الشريحة العليا هـى المنطقة «الرخوة الثانيـة» التـى تصبـح نافـذة لتدفـق قيـم غريبة عـلي أخلاقهـا إلي سـاحتها. قد يكـون مصدرها قيم الطبقـة العليـا، أو منظومـات قيـم الثقافـات الخارجيـة التـى إخترقتهـا مبـاشرة، بيـد أن الظاهـرة الخطـيرة والسـلبية فى هـذا الأمـر، أن ينتقـل أبناء المنطقة الرخوة أسـفل الطبقة الوسـطى من خلال الحـراك الإجتماعـى، بوسـائلة المختلفـة ليصـل إلى المنطقـة الرخـوة أعلاهـا. وبذلـك تكـون هنـاك بعـض الفئـات وإن إنتسـبت إلى الطبقة الوسـطى، إلا أنها عاشـت طيلـة حياتها فى المناطـق الرخوة، ونشـئت بقيـم المناطـق الرخـوة، وليـس بقيـم المنطقـة الصلبـة التـى تشـكل جوهـر بنيـة الطبقـة

الوسـطى. هـؤلاء يعانـون مـن بعـض العلـل الثقافيـة، فقـد إسـتوعبوا فى الصغـر المضامـين الثقافية ذات الطبيعـة الآدائيـة للطبقـة الدنيـا، وهـم قد نجحوا فى حـراك إجتماعى حتى صعـدوا إلى البطن الرخـوة الثانيـة أعـلى الطبقـة الوسـطى، ومـن ثـم فإلتزامهـم ضعيـف بالأخـلاق الصلبـة للطبقـة الوسـطى. هـؤلاء هـم الشريحـة التـى تتعامـل بقيـم إنتهازيـة، الأخـلاق دائمـاً ذات طبيعـة آدائيـة لديهـم، فرديـون فى قيمهـم وسـلوكياتهم، الغايـة تبـــرر الوســيلة عندهـم (١٢). يتحدثـون عـن المثـل والمعـانى الأخلاقيـة كثـيراً، بينـما القيـم التى توجه سـلوكياتهم تصـدر عن قيم ومعـاني المناطق الرخـوة دائماً.

وتشـير الحقيقـة السادسـة إلى أننـا إذا تأملنـا أنمـاط المجتمعـات التـى أبدعهـا الإجتـماع الإنسـانى، فسـوف نجـد لدينـا ثلاثـة انمـاط. حيث يتمثـل النمـط الأول فى المجتمع الإنسـانى؟ الذى تطـور مـن خـلال تفاعل البشر بصـورة تلقائية، وتبلـورت ثقافتة من خلال تطـوره، كما جاءت بعض عنـاصر ثقافتـه مـن خـارج هـذا العـالم. ثـم المجتمع السـياسى – النمط الثـانى - الذى بدأ مـع نهاية القـرن الخامـس عـشر والسـادس العشر. والـذى طرحـت بداياته نظريـات العقد الإجتماعـى، التى لعبـت دوراً أساسـياً فى بلـورة معـانى الدولة القومية، وأسـتند قيامة ليس إلى تلقائيـة تفاعل المجتمع الإنسـانى، ولكـن إلى إرادة التعاقد الطوعية. ولهـذا المجتمع منظوماته الثقافية والقيمية الذى يحدد عناصرهـا مفهـوم أو آليـة العقد الإجتماعى، والتى تؤكد فى جملتها عـلى قيم المواطنة والإنتماء، التى تتجـاوز إنتـماء التجمعـات والتكوينـات الإجتماعية التى تطـورت تلقائيا مع تطور المجتمع الإنسـانى (١٣). ثـم المجتمـع المـدنى؟ الـذى وإن تضافـر فى نشـأته مع نشـأة المجتمع السـياسى غـير أنه أصبح فى الغالـب المجتمـع الـذى بـرز بإتسـاع بعـد ذلك. حيـث تآكلـت التكوينـات الإجتماعيـة للمجتمع الإنسـانى، وتعرض الإنسـان أحيانا لقهر أو تهميش المجتمع السـياسى. إسـتنادا إلى ذلك فقد ظهرت تكوينـات المجتمـع المـدنى على مرجعية الطوعية والقيم الفرديـة وأعمال الإرادة. وإذا كان المجتمع السـياسى يعمـل عـلى فـرض إنتظـام البـشر وتعبئتهـم من أعـلى، حتـى يمكن إشـباع حاجاتهـم، فإن

المجتمع المدنى يساعدهم على إشباع حاجاتهم بتنظيم صفوفهم من أسفل. وبذلك فهو يعمل وفق منظومات قيم مختلفة نسبيا عن منظومات قيم المجتمعين السابقين (١٤). غير إننا إذا تأملنا التطور الاجتماعى الغربى، فسوف نجد أن هذه المجتمعات الثلاث، التى ظهرت متتابعة ترجع منظوماتها القيمية الضابطة لتفاعلها إلى جذر واحد، وهو ما يجعل ثقافاتها تدعم بعضها البعض، وجميعها ثقافات تطورت من رحم تطور المجتمع الإنسانى، بخاصة الأوربى الأم.

الأمر يختلف فى مجتمعاتنا، إذ توجد عندنا ذات المجتمعات، غير أن لكل مجتمع ثقافته ومنظوماتة القيمية التى نشأت بصورة مختلفة أو صدرت عن مصدر مختلف، فالمجتمع المصري مثلا له ثقافته ومنظوماته القيمية التى يرجع بعضها إلى منظومة الثقافة العربية. بينما يرجع البعض الآخر من الثقافة إلى منظومات القيم الدينية، إسلامية كانت أم قبطية، وهى قيم دينية قوية وفاعلة على ساحتنا. يضاف إلى ذلك بعض من بقايا الثقافة الفرعونية، أو من بقايا الثقافة الشيعية التى تبقت لنا من زمن الفاطميين (١٥). هذه العناصر أو المعانى القيمية تداخلت احيانا مع بعضها، حتى إمتزجت وإختلطت كما يذهب إستاذنا المرحوم السيد عويس، أو صنعت فى الغالب مجرى معتدلا ووسطيا كما يذهب إستاذنا العظيم جمال حمدان. ونتيجة لذلك فإننا نلاحظ أن بها بعض التناقضات، كالتناقض القائم بين منظومات قيم الثقافة العربية والإسلامية، أو التناقض القائم بين ثقافة المجتمع السياسى المنطلقة من ثقافة وقيم وأيديولوجيات خارجية، حيث الثقافة السياسية المستندة إلى مرجعية الثقافة الغربية. وإذا كانت القومية العربية قد شكلت أيديولوجيا النظام السياسى فى الفترة من ١٩٥٢ – ١٩٦٠. إلا أنه وإبتداء من ١٩٦١ – وحتى ١٩٧٠ نقل النظام السياسى حينئذ نسخة ممصرة من الأيديولوجيا الإشتراكية. وفى الفترة من ١٩٧٠- حتى ١٩٨٠ نقل النظام السياسى فى هذه الفترة نسخة ممصرة كذلك من الأيديولوجيا الليبرالية. وفى الفترة من ١٩٨٠ وحتى الآن تضافرت الأيديولوجيا الليبرالية مع منظومات القيم التى تفرضها العولمة. وحينما بدأت تنظيمات المجتمع المدنى تبرز على ساحة مجتمعنا، لم تعمل وفق قيم المجتمع الأهلى المتطور فى تراثنا

تاريخيا، ولكنها عملت حسب قيم منظومات قيم المجتمع المدنى بالمعنى الغربى. ونتيجة لذلك بدأت تظهر مجموعة من الظواهر السلبية، الأولى غياب التكامل عن بناء الثقافة العامة المعاصره، ومنظومات القيم المتضمنة فى إطارها، وثقافة المجتمع التى تدفقت إليه تاريخيا. لكونها تختلف من ناحية، عن منظومات القيم المتضمنة فى أيديولوجيات النظام السياسى، كما تختلف بدورها عن منظومات القيم المتضمنة فى ثقافة المجتمع المدنى. والثانية أنه نظراً لأن ثقافة المجتمع ترتبط عضويا ببنيتة وبيئته، ولأنها مستوعبة فى نفوس البشر، فإننا نجد أن الأنظمة السياسية تلجأ إلى ثقافة المجتمع لإضفاء الشرعية على أيديولوجياتها. ففى المرحلة الإشتراكية يعدل بيت شعر الشاعر احمد شوقى، مخاطبا الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم ليصبح «الإشتراكيون أنت أمامهم، لولا دعاوى القوم والغلواء» وفى المرحلة الليبرالية يرفع شعار «العلم والإيمان». والثالثة، أنه برغم تواجد منظومات القيم الثلاث هذه إلا أنها ظلت منعزلة عن بعضها البعض، كما لو كانت جزر منعزلة على سطح الثقافة، حتى لم تدخل فى حالة من الدعم المتبادل لبعضها البعض، بحيث وجدنا أن هذه الجزر الثقافية تتجه جميعا إلى مزيد من الضعف (١٦).

وتتصل الحقيقة السابعة بطبيعة تأثير التحولات الإجتماعية الإقتصادية على كل من ثقافة المجتمع وأيديولوجيات النظام السياسى. وبالنسبة لأيديولوجيات النظام السياسى، فإننا نجدها قد ظلت علوية، فليست هناك الآليات الجادة التى تجعل الجماهير تستوعب منظوماتها القيمية. الأمر الذى جعل لهذه الأيديولوجيات وجود، ولكنه وجود خارج ضمائر البشر، حتى يمكن تفعيلها فى توجيه سلوكياتهم، ذلك بالإضافة إلى أننا إذا تأملنا التحولات الأيديولوجية، لوجدنا أننا كنا نغير أيديولوجيتنا كل عشر سنوات تقريبا. كنا قوميين فأصبحنا إشتراكيين، ثم أصبحا ليبراليين، ثم جاءت مرحلة تضافرت فيها قيم الليبرالية مع قيم العولمة، حيث جرت هذه التحولات الأيديولوجية خارج قناعات البشر. لم يستوعبوا مضامينها حينما كانت ملئ السمع والبصر، ولم يزرفوا دمعا عليها حينما إنحسرت، ومن ثم تخلقت لدى البشر عادة عدم الإكتراث الإيديولوجى،

فكل الأيديولوجيات تجئ وتذهب من خارج ذواتهم (١٧). فى المقابل نجد أن ثقافة المجتمع خلال نصف القرن إتجهت إلى الضعف والتآكل، لأن الأيديولوجيات المتتابعة لم تدعمها، وهو ما سوف نعرض له من خلال تحولات نصف القرن.

وتشير الحقيقة الثامنة والأخيرة إلى تآكل مضامين التنشئة الإجتماعية عبر نصف القرن، لتآكل فاعلية مؤسسات التنشئة الإجتماعية. فالأسرة طرأت عليها تحولات من حيث التنشئة التى كانت تقوم بها العائلة الممتدة، والتي تغيرت ثم إلى العائلة النووية، إلى العائلة المنهارة. والمدرسة كمؤسسة للتنشئة الإجتماعية تحولت من المدرسة التى تقوم بدور التربية والتعليم إلى المدرسة التى تؤدى دور التعليم فقط، إلى المدرسة العشوائية التى تتم العمليات التعليمية خارجها، وبعد أن كانت المدرسة ساحة لتعليم الآداب والأخلاق أصبحت وكراً لتعاطى المخدرات. والإعلام الذى كان ملتزما بقضايا أمته، يؤسس عقل أمة، ويخوض معاركها، ويعبئ الأمة لخوض معارك البناء والإنتاج، والحفاظ على أمن الوطن، تحول إلى الإعلام والإعلان الذى يروج للجنس وثقافة الإستهلاك. يضاف إلى ذلك فإن الحالة الإفتراضية لآداء وتفعيل مؤسسات التنشئة الإجتماعية – الأسرة والمدرسة والإعلام – تستوجب أن تؤكد جميعها على مضامين قيمية واحدة، يضاف إليها قيما مضافة من كل وسيلة. بحيث تغرس الأسرة قيما، تؤكد عليه المدرسة إلى جانب قيم مضافة، يؤكد عليها الإعلام، بيد أن ما نلاحظة أن هناك تشتت فى المضامين التى تؤكد عليها مؤسسات التنشئة، الأمر الذى يضعفها جميعا (١٨). إضافة إلى أن الإعلام وما به من سلبيات نقل التنشئة من الأسرة إلى أجهزة الإعلام وتكنولوجيا المعلومات وهو ما يؤدى إلى إضعاف الثقافة لإضعاف مواردها أو مصادرها.

ثانياً: دور الثقافة فى تحقيق التماسك الاجتماعى

تلعب الثقافة ومنظومات القيم دوراً أساسيا فى تحقيق التماسك الاجتماعى، فى هذا النطاق فإننا نقصد بالثقافة – كما أشرت - مجموعة المعانى التى تتشكل من القيم والأفكار والمعارف والعواطف المرتبطة بها، والتى تمتلك القدرة على توجيه سلوكيات البشر فى مختلف مجالات الواقع الاجتماعى.

سـواء كانـت هـذه المعـانى ذات طبيعـة دينيـة، أو ذات طبيعـة معرفيـة علمية، سـواء أخـذت طابع المعـانى العاطفيـة والوجدايـة كـما هـى الحال فى المعـانى الدينية، أو أخـذت طابع المعـارف الادراكية العقلانيـة، كـما هـى الحـال فى المعـانى العلميـة والدينيـة كذلـك. حيـث نجـد أن هـذه المعـانى فى مجموعهـا تسـاعد فى دعـم التماسـك الاجتماعـى مـن نواحـى عديـدة، فمـن ناحيـة تلعـب الثقافـة دورهـا فى تأكيـد وحـدة وتماسـك المجتمع مع تاريخه، سـواء التاريخ الماضى أم الحاضر أم المسـتقبل. بينـما تعمـل الثقافـة مـن خـلال الجانب الثـانى على ربـط جوانب المجتمـع ببعضها البعـض، بحيث يبـدو المجتمـع بإعتباره كتلة متماسـكة، يمتلك وحدة عضوية، من مسـتوى إجتماعى فوق المسـتوى البيلوجـى. ومـن ناحيـة ثانيـة تعمـل الثقافـة بإتجـاه تأكيـد التماسـك الداخـلى لوحـدات المجتمع، سـواء عـلى مسـتوى الأسرة، أو المجتمـع المحـلى، أو السـياق الاجتماعـى أو الطبقـة الاجتماعيـة أو الفئـة الاجتماعيـة (١٩). بحيـث يعنى تماسـك هذه الوحـدات داخليا، وإرتباطهـا بعلاقات قوية مع غيرهـا مـن الوحـدات، أمر من شـأنه أنه يؤكد تماسـك المجتمـع فى كليته، يضاف إلى ذلـك أن الثقافة تسـاعد فى تحقيـق تماسـك المجتمـع فى كليتـه، مـع عالمـه الشـامل، بإعتبـار أن الأول أحـد وحـدات الأخـير، وأن الحالـة القاعديـة أن يكـون جـزءا أو وحـدة متكاملة معه.

بالإضافـة إلى ذلـك هنـاك بعـد آخـر يتمثـل فى كـون المجتمـع يشـكل كتلـة واحـدة مـع تاريخـه، حيـث نجـد أنفسـنا حينـما نبـدأ فى الحديـث عـن تشـكل الثقافـة، فإنـه يصبـح لزامـا علينـا أن نتحـدث عـن الإنسـان بإعتبـاره قـد خلـق ضمـن مكونـات الطبيعـة. ومـن ثـم كان خاضعـا فى إشـباع حاجاتـه الأساسـية لهـا، غـير أن حاجتـه إلى إسـتمرار وتأمـين الإشـباع، جعلـه يعمـل بإتجـاه إبتـكار الأدوات الماديـة التـى يسـتطيع بواسـطتها إسـتحضار الثـمار مـن عـلى الأشـجار. كـما دفعتـه حاجتـه إلى الأمـن إلي إبتـكار الأدوات التـى شـكلت أسـلحة لـرد الحيوانـات المفترسـة، كـما دفعتـه حاجتـه إلى الاحتـماء مـن قسـوة الطبيعـة، إلى البنـاء البـدائى للمسـكن. وهكـذا بـدأ الإنسـان فى إبـداع الثقافـة الماديـة التـى بـدأ يمتلـك بواسـطتها قـدراً مـن السـيطرة عـلى الطبيعـة المحيطـة بـه. وتضافـر مـع ذلـك أو لاحقا لـه، أن بـدأت تتطـور لديه بعض

المـدركات التـى شـكلت معرفـة أوليـة تحتـوى عـلى بعـض المعـانى التـى تتصـل بطبيعـة الأدوات أو الآلات التـى طورهـا، أو التـى تتصـل بإمكانيـة تطويرهـا. إلى جانـب ذلـك بـدأ الإنسـان يـدرك المعـانى التـى قـد تأخـذ شـكل المهـارات أو القواعـد، التـى تسـاعد فى تشـكيل هـذه الأدوات أو التى تدعـم المنفعـة الحديـة منهـا، وهـو الأمر الـذى يعنـى أن الثقافة المعنويـة أو اللامادية قـد بدأت فى الظهـور (٢٠). وإسـتمر هـذا الجـدل الثقـافى تاريخيـا بـين الثقافة الماديـة واللاماديـة، بحيث وجدنا أن كل منهـما يعمـل عـلى تطويـر الأخـر. ومـن ثـم فقد شـكلا معـا وفى النهايـة ثقافة شـاملة، تفيد الإنسـان فى مختلـف المجـالات التـى يتحـرك فى إطارهـا أو يتفاعـل فى نطاقها مع الأخريـن. وإرتباطا بهـذا الجـدل، بـرز جـدل أخـر بـين المجتمـع وبـين الثقافـة، بحيـث عمـل كل منهـما بإتجـاه تطوير الآخـر. وحينـما تماسـكت الثقافـة وإكتملـت هويتهـا وطبيعتهـا، فإننـا نجدهـا قـد بـدأت تشـكل حتميـة خضـع لهـا الإنسـان، وأن كانـت هـى التـى حررته مـن حتميـة الطبيعة. بيـد أننـا إذا تأملنا الأمـر فسـوف نجـد أن الثقافـة، التـى طورهـا الإنسـان فى البداية، بدأت تشـكل حتميـة عليه حينما تكثفـت طبقاتهـا شـكلت مـن ناحيـة موضـع إتفـاق إجتماعـى بين أفـراد المجتمـع، يؤكد تماسـكهم مـع بعضهـم البعـض، إضافـة إلى أنهـا التـى ربطـت المجتمـع بتاريخـه وجغرافيتـه من ناحيـة ثانية (٢١). ونتيجـة لذلـك إختلفـت المجتمعات عن بعضهـا البعض، لإختلاف ثقافاتهـا وإختلاف تاريخها وجغرافيتهـا. وحينـما إكتملـت الثقافـة وإكتمـل المجتمـع شرع كل مجتمـع يعيـد إنتـاج ثقافتـة، مـن خـلال تفاعـل البـشر مـع بعضهـم البعـض وفقـا لقواعدهـا، ومـن ثم نشـأ جـدل ثـلاثى الأبعاد، البـشر فى المجتمـع يتفاعلـون مـع بعضهـم بالبعـض بالنظـر إلى معـانى ومضامـين الثقافـة، والمجتمع ذاتـه والثقافـة، وأن التفاعـل بـين هـذه المكونـات الثلاثـة يعمـل بصـورة مسـتمرة ومتصاعـدة على تطويرهـا، وتعميـق التماسـك بينها.

وإذا كان التراث الثقافى الذى تطور تاريخيا يعد مكونا أصيلاً فى بناء الثقافة المعاصرة في مرحلة مـن مراحـل تطـور المجتمع. فإن المعانى والقيم والأفكار الدينية شـكلت مكونـا محوريا أيضا فى بناء الثقافة. حقيقة أن الدين، بخاصة الأديان الكتابية أوحى بها إلى المجتمعات من خارجها، من القوى

الالهيـة، وقـد عملـت الأديـان بإتجـاه تدعيـم الثقافـة مـن ناحيتـين. الأولى أنهـا وفـرت للثقافة كما هائـلاً مـن الأفـكار والقيـم والمعـانى، التـى يمكـن أن تدخـل فى بنيتهـا، والتـى يمكـن أن تلعـب دوراً أساسـياً فى تشـكيل طبيعتهـا. ولذلـك قلنـا أن الحـلال والحـرام الدينـى هـو فى الغالـب الصـواب والخطـأ الثقـافى، عـلى هـذا النحـو تشـكل معـانى الديـن البوصلة التـى تحكـم إتجاهـات وتوجهات الثقلفـة. ومـن ناحيـة ثانيـة، فإنـه نظـراً لأن المعـانى الدينيـة واحـدة، وهـى قـد أوحـى بهـا للكافة وللعالمـين، فإنـه نظـراً لأن هـذه المعـانى تـأتى إلى بيئـات وسـياقات إجتماعيـة متباينة، فـإن التفاعل بـين المطلـق والنسـبى، مـن شـأنه أن يولد أفـكارا وقيما ومعانى جديـدة. هى نتيجـة لتهجين عناصر الديـن المطلـق مـع مكونـات السـياق النسـبى، وأن هذه المعـانى والقيـم الجديدة، تعـد فى الحقيقة قيـما مضافـة إلى بنيـة الثقافـة تزيـد مـن فعاليتهـا فى المسـاهمة فى إشـباع حاجـات البـشر، وكذلـك فى ضبـط تفاعلاتهـم المتجـددة(٢٢). لذلـك كان مـن الـضرورى العمـل بصـورة دائمـة ومسـتمرة فى إتجـاه تجديـد الخطـاب الدينـى، لأن تجديـد هذا الخطـاب يعنى تجديـد الثقافة، وتجديـد التفاعل الاجتماعـى الـذى تنظمـه، ومـن ثـم تجديـد المجتمع.

كـما يعتـبر التفاعـل الاجتماعـى الحـادث فى مختلـف المجـالات الاجتماعيـة للمجتمـع أحـد روافـد أو مصـادر بنـاء وإنتـاج الثقافـة، حيـث يتفاعـل البـشر مـع بعضهـم البعض من ناحيـة، ومع ظـروف الحيـاة اليوميـة مـن ناحيـة ثانيـة. ونظـراً لأن البـشر متغيرون والظـروف متغـيرة، فإنه من الطبيعـى أن تتغـير مضامـين التفاعـل، التـى تتدفـق مـن خـلال علاقات البـشر مع بعضهـم البعض. ونظـرا لأن البـشر يتفاعلـون بالنظـر إلى ثقافة الجتمـع كمرجعية تضبط تفاعلاتهـم، فإننا نجدهم فى أحيـان كثـيرة يعدلـون القواعد الثقافية الضابطة لتفاعلاتهم، حتى تصبح متلائمة مع ضبط التفاعلات القائمـة. أو أنهـم يقومـون بالغـاء قيـم وقواعد ومعايـير ثقافية لأن الظـروف قد تجاوزتهـا، ولم يعد التفاعـل القائـم يحتاجهـا لضبـط مضامينـة. وفى أحيان ثالثـة نجدهم من خلال التجديـد الدينى أو الأبـداع الثقـافى، يطـورون قواعـد جديدة يحتاجونهـا، لتنظيم وضبـط التفاعلات التـى تقع فى نطاق المجتمـع ويتـم ضبطهـا بواسـطة ثقافـة المجتمـع، ومـن ثـم فـإن هـذا التجديـد الثقـافى، مـن شـأنه

أن يلائم تفاعل وإتساق المجتمع مع سياقه الطبيعى أو الإقليمى أو العالمى (٢٣).

ذلـك يعنـى أن المسـتوى الأول لفاعليـة الثقافـة فى تأكيـد التماسـك الاجتماعـى يتنـاول المجتمـع ذاتـه، حيـث تسـعى مكوناتهـا مـن زوايـا عديـدة لتأكيـد تماسـك المجتمـع، سـواء تماسـك المجتمـع مـع تاريخـه وتراثـه التاريخـى الـذى تولـد عـن ذلـك. أو ربـط المجتمـع بتراثـه الدينـى، الـذى يحتـوى المعـانى التـى تفـرض تماسـك المجتمع ومتانـة وحدته. إضافـة إلى التفاعـل الاجتماعى الحـادث بداخلـه، والـذى يلعـب دوره، فى ملائمـة تفاعـلات البـشر بداخـل المجتمـع، مـع الظـروف المتجـددة مـن ناحيـة، إضافـة إلى أنـه يعمل على تأسـيس التلاؤم الوجـودى بين المجتمـع وبيئاته أو سـياقاته الخارجيـة مـن ناحيـة ثانية.

ويؤكـد المسـتوى الثـانى عـلى تماسـك عنـاصر المجتمـع الكائنـة بداخلـة والتى تشـكل بنائه، بحيـث تـؤدى عنـاصر الثقافـة فعلهـا فى دعـم هذا التماسـك، حتى يتحـول المجتمع إلى كتلـة فاعلة. ويتحقـق ذلـك بتأكيـد فاعليـة الثقافة من خـلال عدة أبعاد بداخـل بناء المجتمـع، وفى نطاق البعد الأول نجـد أن الثقافـة تحتـوى عـلى مجموعة من القيـم المحورية أو المركزية التى تشـكل موجهات عامـة للتفاعـل الاجتماعـى. بحيـث تصبح هـذه القيم موضـع إتفـاق إجتماعى بين أفـراد المجتمع، فالمؤكـد أن هنـاك أتفـاق بـين أفـراد المجتمع، حول قيـم الشرف، والعمـل الجاد، والامانـة والأخلاص للوطـن، وغـير ذلـك مـن القيـم. حيـث تشـكل منظومـات القيـم عـلى هـذا البعـد مضامـين العقد الاجتماعـى بـين أعضـاء المجتمـع، كـما تسـاهم هـذه المضامـين فى تنظيم تفاعـل البشر مـع بعضهم البعـض، وكذلـك فى الحفـاظ على بقـاء المجتمع ووجـوده (٢٤).

ويشـتق البعـد الثـانى لفاعليـة الثقافـة مـن البعـد الأول حيث تتحـول هذه القيـم كعناصر رمزيـة، إلى قواعـد عمليـة ذات علاقة مباشرة بالتفاعل الاجتماعـى الحادث فى المجتمع. فهى تتحول إلى تقاليـد يعرفهـا أعضاء المجتمـع، وتنظم قطاع من تفاعلات حياتهم اليومية، أو تتحول هذه القيم إلى أعـراف تحتكـم إليهـا الجماعـة، حينـما تقع إشـكاليات خلافية بـين البشر، يحتكم إليهـا من أجل الوصـول إلى حـل لبعـض من هذه المشـكلات. أو تتحول هذه القيم إلى معايير يقاس وفقا لها سـواء

التفاعـل أو إنحرافـة، أو حجـم إنجـازات البـشر فى قلـب التفاعـل الاجتماعـى(٢٥). أو تتحـول هذه القيـم إلى عـادات فرديـة لقضـاء الحاجـات اليوميـة بصـورة تلقائيـة، بحيـث توفر عـلى البشر، جهد التفكـير فى قضـاء الحاجـات الأساسـية، وهـو مـا يعنى أن هـذه القيـم ذات الطبيعـة الرمزية تتحول إلى قواعـد ضابطـة ومنظمـة للتفاعـل الاجتماعى.

ويـدور البعـد الثالـث لفاعليـة الثقافـة ومنظومـات القيـم حـول التنشـئة الاجتماعيـة التى يتعـرض لهـا أعضـاء المجتمـع، والتـى يسـتوعبون مـن خلالهـا القيـم والمعـانى والمضامـين الثقافيـة المختلفـة. تلـك التـى تشـكل الضمـير الداخـلى لـكل فـرد فى المجتمـع، بحيـث تشـكل هـذه المعانى والمضامـين الثقافيـة مرجعيـة لتوجيـه سـلوكيات البـشر فى مختلـف المجـالات الاجتماعيـة. وحتـى يمكـن أن يتحقـق الاسـتيعاب الكامـل لهـذه المضامـين والمعـانى، ثـم العمـل وفق لهـا، فإننـا نجد أن المجتمـع يؤسـس مؤسسـات التنشـئة الاجتماعيـة، التـى تتلاءم مع طبيعـة القيم التى على الشـخص أسـتيعابها لتشـكل جـزءاً مـن ضمـيره الداخـلى. فى هـذا الإطـار فإننـا نجـد أن الثقافـة تحتـوى على منظومتـين محوريتـين الأولى منظومـة القيـم الوجدانيـة مـع قـدر محدود مـن القيـم ذات الطبيعة المعرفيـة أو الادراكيـة. حيـث تنجـح الأسرة - بإعتبارهـا المؤسسـة الأولى للتنشـئة الاجتماعيـة - فى غـرس منظومـات القيـم مغلفـة بالعواطـف الأسريـة، بحيـث نجـد أن الطفـل يسـتوعبها فى الغالب بـلا معانـاه. ثـم يـأتى النظـام التعليمى بمسـتوياته المتتابعـة بعد ذلك ليسـتكمل الدور الـذى لعبته الأسرة، ويتمثـل فى إسـتكمال غـرس القيـم الوجدانيـة، وتمـام إسـتيعاب الطـلاب لهـا(٢٦). إضافـة إلى تزويدهـم بالقيـم والأفـكار والمعـارف ذات الطبيعـة الأدراكيـة، بحيـث ينتهـى الطالـب مـن التعليـم الجامعـى، أو نظرائـه الذيـن لم يتح لهـم الالتحاق بالنظـام التعليمى والذين يتـولى التفاعل الاجتماعـى الحـادث فى المجتمـع تنشـئتهم، إسـتكمال إسـتيعابهم لهـذه القيـم.

عـلى هـذا النحـو يتحقـق التماسـك الاجتماعـى وفـق هـذا البعـد مـن خـلال عـدة زوايـا أو مداخـل، مـن ناحيـة بواسـطة الثقافـة ومنظوماتهـا القيميـة فى أوضاعهـا الرمزيـة، بإعتبارهـا مصـدر لـكل المعـانى التـى تتخـذ شـكل ضوابـط للتفاعـل الاجتماعـى.

بينـما تتمثـل الزاويـة الثانيـة فى الحفـاظ عـلى طبيعة التفاعـل الاجتماعى الحادث بـين البشر داخل المجتمـع، وتنظيمـه وضبطـة . وفى هـذا الإطـار ضبط سـلوكيات علاقـات البشر مع بعضهـم البعض، بحيـث تتحقـق مضامـين التفاعـل وفقـا لمـا تذهـب إليـه الثقافـة ومنظومـات القيـم فى أوضاعهـا الرمزيـة (٢٧). وهـو مـا يعنـى أن الثقافـة فى هـذه الحالـة تراقـب وتضبـط علاقـات وتفاعـلات المجتمـع مـن الخـارج. فى حـين تتمثـل الزاويـة الثالثـة، فى ربـط الضمائـر الداخليـة للأفـراد، إضافـة إلى مواثيـق النظـم الاجتماعيـة التـى تشـكل ضمائرهـا، بحيـث نجـد أن مكونـات المجتمـع تحتـوى عـلى معـانى تتطابـق مـع القواعـد المنظمـة للتفاعـل بينهـا. وهـى مشـتقة فى ذات الوقـت مـن ثقافـة المجتمـع ومنظوماتـه القيميـة – ذلك بالإضافـة إلى العلاقات والتفاعلات الأفقيـة المتبادلة بين مكونـات المجتمـع بمـا يدعـم وحدته وتماسـكه.

ويتشـكل المسـتوى الثالث الذى تؤكد من خلاله الثقافة ومنظومات القيم تماسـك المجتمع وإسـتمراره، مـن خـلال الحفـاظ عـلى الوحـدات المحورية فى بنـاء المجتمع، قوية وسـوية تسـاعد فى الحفـاظ عـلى الثقافـة والمجتمـع. وفى هذا الإطار فإننا نجد أن مؤسسـات التنشـئة الاجتماعية، هى الوحـدات الأولى بالأهتـمام مـن جانب الثقافـة. فى هذا الإطار تعتبر الأسرة مـن الوحدات المحورية، بإعتبـار أنهـا المؤسسـة التـى تسـعى للحفـاظ عـلى الثقافـة ومنظومـات القيـم. لذلك نـرى أنه من الـضرورى الحفـاظ عـلى الأسرة كمؤسسـة إجتماعيـة، والحفـاظ عليها مـن الاختراق، الـذى قد يؤدى إلى إنهيارهـا، ومـن ثـم تشـويه عملية التنشـئة الاجتماعيـة، وإضعاف إسـتيعاب الثقافـة على المدى البعيـد. ويرتبـط بذلـك الحفـاظ عـلى الأسرة من كل ما يؤثر عـلى آدائها لوظائفهـا، كالحفاظ عليها مـن الخيانـات الزوجيـة، أو الانـصراف عـن الحياة الأسريـة، أو التأثير المنحرف عليها مـن قبل الاعلام وتكنولوجيـا المعلومات (٢٨).

كـما أنــه مــن المهــم الحفــاظ عــلى المدرســة كمؤسســة للتنشــئة الاجتماعيــة، بإعتبارهــا تشــكل إطــاراً إجتماعيــا، يعيــش فى نطاقــة التلميــذ ويقطــع مراحلــة، وأثنــاء ذلــك يعــد فى هــذا المجتمــع الصغــير، لــكى يمــارس دورة وتفاعلاتــه بفاعليــة فى المجتمــع الكبــير. ذلــك يتطلــب ضرورة أن تعكــس المقــررات الدراســية التــى يســتوعبها التلاميــذ

والطـلاب ثلاثـة مكونـات أساسـية، فى نطـاق المكـون الأول فـإن عـلى المضامـين المعرفيـة للمقـررات الدراسـية أن تعكـس أحـدث المعـارف العالميـة، حتـى تصبـح مـدركات الطـلاب حديثـة ومتجـددة، ويعيشـون فى نطـاق معـارف عصرهـم، وقادريـن عـلى الإسـهام فى هـذا النظـام. بينـما ينبغـى أن يركـز المكـون الثـانى عـلى الجانـب التربـوى، وفى هـذه الحالة فإننـا نجـد أن النظام التعليمى يسـهم فى بنـاء وتأسـيس حالـة الاجتـماع السـوية (٢٩). حيـث يتعايـش البـشر فى المجتمـع ويتفاعلون مع بعضهـم البعـض، بأقـل قـدر مـن الانحـراف عن متطلبـات حلة الاجتماع، فذلك يسـاهم بدون شـك فى تماسـك المجتمـع وإسـتقراره. بالإضافـة إلى ذلـك فإنه من الـضرورى أن تعمل المقررات الدراسـية عـلى التأكيـد عـلى المضامـين المرتبطة بهوية المجتمـع، وذلك للحفـاظ على البشر مرتبطـين بالمجتمع ومنتمـين لـه، فى عـالم متخـم بآليـات تذويـب الهويـة. إلى جانـب ذلـك فإنـه مـن الـضرورى تفعيل إسـهامات الدولـة والقطـاع الخـاص، والمجتمـع المـدنى كوحـدات إجتماعيـة، تلعـب دوراً اساسـيا فى تمكـين مـن أصابهـم التهميـش الاجتماعـى، بمـا يسـاعد عـلى إدماجهـم فى بنـاء المجتمع، وإسـهامهم فيـه، بإعتبارهـم طاقـة أو قيمـة مضافـة تؤكد تماسـكه.

ويـدور المسـتوى الرابـع والأخير لتحقيق التماسـك الاجتماعى، حول أهميـة تكيف المجتمع بصـورة فاعلـة مـع سـياقه العالمـى المحيط، وهـو التكيف الـذى ينبغى ان يـوازن بصـورة دقيقة بين متطلبـات الهويـة، وإحتياجـات النظام أو النسـق العالمى الأشـمل الذى يعتبر المجتمـع وحدة فرعية فى نطاقـة. فى هـذه الحالـة، فإنـه من المؤكد أننا نعيش فى عالم تحكمة ثقافـة القوى العالمية الكبرى، والتـى تحـاول فـرض ثقافتهـا فى عـالم تحكمـه ثقافـة هـذه القـوى، والتى تحـاول فـرض ثقافتها على العالم بأسره من خلال آليات العولمة. وإذا كانت ثقافة العولمة تسـعى إلى الانتشـار الأفقى، لتشـكل ثقافـة عالميـة متجانسـة، فـإن هذه الثقافـة كلما إنتشرت أفقيـا، كلما أصبحت هشـه وضعيفة، وهو الأمـر الـذى يعنى ضرورة تعميق وجود الثقافة القومية، وترسـيخها فى نفوس البشر، بواسـطة آليات المجتمـع القومـى كالأسرة والمؤسسـة التعليمية. إرتباطا بذلك فإنـه ينبغى أن تصبح الثقافة القومية

أكثر إنتقائية، تختار العناصر التى تؤكد فاعليتها، وتشكل قيمة مضافة لها مصدرها ثقافة العولمة. بذلك تقوى الثقافة القومية، لتشكل درع يحمى التفاعلات الحادثة على ساحات التفاعل الداخلى من تأثير ثقافة العولمة، بل وتشكل قيمة مضافة لها (٣٠).

بالإضافة إلى ذلك فإن على ثقافة المجتمع أن تؤكد تكيفها مع الثقافات والتجمعات الإثنية الداخلية، وإذا كان من النادر أن تمتلك الثقافة القومية تجانسا كاملا، لإحتوائها على كثير من الثقافات الفرعية. لذلك فإنه من الضرورى أن يتكيف المجتمع القومى والثقافة القومية مع هذا الواقع، وذلك بأن تعمل الثقافة القومية على إستيعاب العناصر القوية فى الثقافات الفرعية (٣١). كما أن عليها أن توازن بين النمو والتطور المستقل لأى من هذه الثقافات الفرعية، وبين دعم وتطوير العناصر المشتركة بين عدد من الثقافات الفرعية، أو بين أى منها وبين الثقافة القومية، فذلك من شأنه أن ينشر حالة من التخصيب الثقافى.

ثالثاً: المتغيرات المحددة لتحولات المجتمع والثقافة

يفترض تناول العلاقة بين التحولات الاجتماعية وثقافة المجتمع أو منظوماته القيمية أن تتعرض لثلاثة من المتغيرات. حيث يتعلق المتغير الأول بطبيعة التحولات وبيئتها، بينما يتصل المتغير الثاني ببنية الثقافة ومنظومات القيم المتضمنة فيها. عل حين يشير المتغير الثالث إلى القوى الاجتماعية التي تتولى تجسيد متضمنات التحول وفق منظومة قيمية محددة. وفيما يتعلق بالمتغير الأول – التحولات الاجتماعية – يعرف التراث النظري التحول الاجتماعي باعتباره يشير إلى مجموعة التغيرات الاجتماعية المتتابعة والمتشابكة أفقيًا ورأسيًا، والذي يكون من نتيجتها تغير بناء المجتمع من حيث ثقافته ، ونظمه الاجتماعية وكذلك أطره وسياقاته، ويكتمل التحول إذا استوعب البشر متضمناته، بحيث يكونوا هم أنفسهم ضمن أدوات التحول كما هم هدفه. وقد يبدأ التحول من أعلى حيث الثقافة، أو من أسفل حيث الاقتصاد والثروة، أو من البشر باعتبارهم هم كتلة سكانية تتولد عنهم كثافة اجتماعية قادرة على إبداع التقدم والتطور (٣٢). وقد

تكـون التحـولات ذات طبيعـة إيجابيـة إذا كانـت نتائجهـا لصالـح القـوى الغالبة في المجتمـع، إو إذا تمكنـت مـن دفـع المجتمـع على طريـق التقـدم، أو إذا سـاعدت على تطويـر ورفع القـدرة التكيفية للمجتمـع (٣٣). وفي هـذه الحالـة يكـون بنـاء المجتمع الذي نتج عـن التحول أفضل كثـيرًا من البناء السـابق عـلى التحـول، وفـق مؤشرات إنسـانية عديدة. وتصبح التحـولات ذات طبيعة سـلبية إذا تم احتـكار نتائـج التحـول مـن قبـل قـوة اجتماعيـة محـددة، أو أن تظهـر ظـروف تدفـع بالمجتمع إلى طريـق التراجـع بـدلاً مـن التقـدم، أو أن يسـلم التحـول إلى تـآكل القـدرة التكيفيـة للمجتمع. على خـلاف ذلـك تشـكل التحـولات الإيجابيـة قيـمًا مضافـة لرأس مـال المجتمـع، بينما تشـكل التحولات السـلبية قيـمًا مسـتبعدة أو منتقصـة تضعـف إمكانياته وتهـدر موارده.

إلى جانـب ذلـك يتطلـب نجاح التحـولات الاجتماعية توفر عدة ظـروف، من هذه الظروف أن يعـبر التحـول عـن حاجـة بنائيـة، وذلـك انطلاقًـا مـن تصـور أن المجتمع الإنسـاني هو عبـارة عن كائـن عضـوي، يحتـاج دائمًـا إلى التكيـف مـع بيئتـه المحيطة. ولمـا كانت هذه البيئة ليسـت سـاكنة، وتصـدر عنهـا تغـيرات عديـدة، فإنه مـن الطبيعي أن يواكب المجتمـع هذه التغـيرات، التي إذا تمت بصـورة تدريجيـة، فإنهـا عـلى مـدى زمنـي بعيـد «مائة سـنة مثـلاً» تصبح تحـولا جذريًا شـاملاً عن ذي قبـل. فـإذا لم يسـتوعب المجتمـع هـذه التغـيرات البيئيـة، فإنهـا تنتـج توتـرات وضغـوط تفرض في لحظـة معينـة عـلى المجتمـع تأسـيس تغـيرات شـاملة في فـترة محـدودة حتـى يتسـق الكائـن أو يتكيـف مـع البيئـة المحيطة. وقـد تصدر هذه التغـيرات عن البنيـة الداخلية للمجتمـع ذاته، حينما يـؤدي النمـو غـير المتـآزر أحيانًـا، أو عـدم إشـباع الحاجـات الأساسـية للشرائـح الغالبـة في المجتمع، ومـن ثـم فهـي تعـاني مـن الحرمـان الـذي يسـبب توتـرات عديـدة لهـا (٣٤) تدفعهـا إلى تغيـير مـا حولهـا بحثـا عن تـوازن جديد.

وتقـــود الحاجـــة إلى التحـــول إلى تحديـــد طبيعتـــه، حيـــث يشـــير تأمـــل هـــذه الطبيعـــة، إلى أن التحـــول مثلـــما أن لـــه طبيعتـــه التلقائيـــة، فإنـــه يحتـــوي عـــلى مســـاحة مـــن الفعـــل الإرادي كذلـــك. وإذا كانـــت هـــذه التلقائيـــة تعـــبر عـــن طبيعـــة المجتمـــع وقوانينـــه

الاجتماعيـة الخاصـة بـه، والتـي تصـل أحيانًـا إلى حد صرامـة القوانـين الطبيعية باعتبـار أن المجتمع هـو جـزء مـن الطبيعـة. فـإن البعـد الإرادي يصـدر عـادة عـن القـوى الاجتماعيـة ذات المصلحـة الأساسـية في نجـاح التحـول، أو تلـك التـي تحـاول تعويقـه وتقـف في مواجهتـه، وهنـاك علاقة قوية بـين الأبعـاد التلقائيـة والإراديـة للتحـول رغـم التناقـض الظاهـري الـذي قـد يبـدو بينهـما. وذلـك لأن انخفـاض القـدرة التكيفيـة للمجتمـع سـواء بسـبب ضغـوط البيئـة الخارجيـة أو عـدم إشـباع احتياجـات الشرائـح والقـوى الاجتماعيـة، أو ضغـط احتياجـات التطـور الاجتماعـي. مـن شـأنه أن يـؤدي إلى ظهـور بعـض التوتـرات التـي تتصاعـد عـلى سـاحة بعـض الشرائـح أو القـوى الاجتماعيـة المضـادة ذات المصلحـة في أوضـاع مـا قبـل التحـول. بحيث تكون هـذه التوترات محسوسـة بدرجة أكـثر مـن قبـل بعـض أعضاء هـذه الشرائـح أو القـوى، وبذلك تكـون هي الأكـثر قدرة عـلى بلورتها، ثـم اسـتخدامها لإعـادة تعبئـة الجماعـة في اتجـاه فعـل اجتماعـي إرادي لأحـداث التحـول (٣٥).

فـإذا انطلقـت شرارة التحـول واتسـعت، فإنـه ينجـح حينئـذ في دفـع المجتمـع عـلى طريق التحديـث إذا توفـر لـه شرطـين رئيسـيين، الأول أن يتمكـن المجتمع من اسـتيعاب مضمـون التحول. ويعنـي اسـتيعاب مضمـون التحـول أن يسـتوعب البـشر القيـم المؤسسـة لشرعيـة التحـول، وهـو مـا يعنـي أن لا يظـل التحـول فوقيًـا لـه وجـوده في الفضـاء العـام للمجتمـع. غـير أنه لم يسـتوعب داخـل شـخصيات البـشر من خـلال مؤسسـات التنشـئة الاجتماعية العديـدة، ومن ثم فسـلوكياتهم الاجتماعيـة توجـه بمنظومـة قيميـة ليسـت هـي المنظومـة القيميـة التي بشر بهـا التحـول. ويتمثل الـشرط الثـاني في ضرورة أن تكـون البيئـة الإقليميـة والعلميـة مواتيـة، بحيـث يكـون بإمكانها قبول مضامـين التحـول. وتقبـل البيئـة الخارجيـة التحـول في حالتـين. الحالـة الأولى أن يكـون التحـول متوافقـا مـع متطلبـات البيئـة الخارجيـة أو عـلى الأقـل غـير متناقـض معهـا. فالتحـولات التـي حدثـت في كثـير مـن مجتمعـات العـالم الثـاني والثالـث في الفـترة الأخـيرة، باتجـاه التأكيـد عـلى الأيديولوجيـا والسياسـات الليبراليـة، نجحـت لإتسـاقها مـع قيـم واحتياجـات البيئـة العالميـة المؤكـدة عـلى عولمـة الثقافـة وقوانـين السـوق والتأكيـد عـلى دور القطـاع الخـاص (٣٦). وفي الحالة

الثانيـة تكـون البيئـة الخارجيـة ضعيفـة، بحيـث لا تسـتطيع الوقـوف في وجـه التحـول حتـى وإن لم يكـن مواتيًـا لهـا أو متكيـف معهـا. فنجـاح التحـول الاقتصـادي اليابـاني تحقـق لتطـرف الموقـع اليابـاني في عـالم لم تكـن مواصلاتـه ولا اتصالاتـه وتطـوره - كـما هـي الآن - بحيـث تؤكـد وحدتـه، ومـن ثـم تؤسـس قـوى عالميـة موحـدة ومضـادة لـه. وقـد نجـح التطـور الـذري الهنـدي في عـالم الحـرب البـاردة المنقسـم عـلى ذاتـه، ومـن ثـم الضعيـف في مواجهـة التحـولات الداخليـة. ارتباطًـا بذلـك فإننـا إذا تأملنـا التغـيرات التـي تقـع في عالمنـا المعـاصر فإننـا قـد نجـد أنهـا متسـارعة في وقوعهـا، قويـة في تأثيرهـا، شـاملة أو واسـعة في انتشـارها بفعـل تكنولوجيـا الاتصـال والمعلومـات. هـذه التغـيرات تصـدر عـادة عـن مصـادر قوميـة أو إقليميـة أو عالميـة أو منهـا جميعًـا، ذلـك يعنـي أن هنـاك كثافـة عاليـة لحجـم وآثـار التغـيرات المتوقعـة، وهـو الأمـر الـذي يفـرض عـلى المجتمـع إحـدى حالتـين. الاولى أن يمتلـك المجتمـع بنيـة اجتماعيـة قويـة تقـف موقفًـا إيجابيًـا وانتقائيًـا مـن التغـيرات والإبداعـات التـي تتدفـق مـن حولهـا. بحيـث تنتقـي السـمات والعنـاصر التـي تحتاجهـا وليـس لديهـا مـا يناظرهـا، إضافـة إلى أنـه مـن الـضروري أن يكـون انتقاؤهـا مسـتندًا إلي مرجعيتهـا وهويتهـا، بحيـث تظـل متماسـكة أثنـاء مرحلـة التحـول العالمـي الشـامل، بحيـث نجدهـا تشـارك في التحـول ولكنهـا تحافـظ في نفـس عـلى الوقـت عـلى اسـتمرار هويتهـا(٣٧). وفي الحالـة الثانيـة تكـون البنيـة الاجتمتاعيـة هشـة وضعيفـة، تقـف موقفًـا سـلبيًا مـن التغـيرات التـي تحـدث حولهـا، لا تسـتطيع الانتقـاء مـن بـين العنـاصر المتغـيرة مـا يلائـم طبيعتهـا، بـل نجدهـا مخترقـة وفضاؤهـا مفتـوح تتدفـق عـبره قيـم، حتـى لـو كانـت مخالفـة لمرجعيـة تراثهـا أو مؤديـة في النهايـة إلى تـآكل هويتهـا. في الحالـة الأولى يكـون المجتمـع مسـيطراً عـلى التحـول أو التغـير الحـادث في إطـاره، وفي الحالـة الثانيـة يكـون خاضعًـا وفاقـدًا للسـيطرة. في الحالـة الأولى يخضـع المجتمـع أو يؤسـس تغـيرات إيجابيـة تـؤدي إلى تحـول بنائـه إلى الأفضـل، وفي الحالـة الثانيـة تصبـح تحـولات المجتمـع ذات طبيعـة تراجعيـة تـؤدي إلى إضعـاف قدراتـه التكيفيـة.

وفيـما يتعلـق بالمتغـير الثـانى الخـاص ببنيـة الثقافـة فإننـا إذا تأملنـا بنيـة

التحـول الاجتماعـي فسـوف نجـد أنـه لـه منظومتـه القيميـة التـي قـد تأخـذ شـكل الأيديولوجيـا المسـتعارة مـن الخـارج أو الصـادرة عـن تجديد وتحديث التراث. ومن شـأن هـذه المنظومة القيمية أن تقـدم تصـورًا للمجتمـع الكائـن أو الـذي ينبغـي أن يكـون، بحيـث يحتـوي هـذا التصـور عـلى معـاني جديـدة ينبغـي أن يسـتوعبها البـشر، وتلعـب دورهـا في توجيـه سـلوكياتهم، وتحـل محـل التصـورات والمعـاني القديمـة التـي لديهـم. ولتحقيـق ذلـك فـإن هـذه المنظومـة القيميـة ينبغي أن تكـون متماسـكة - كـما أشرت - إضافـة إلى ضرورة امتلاك المجتمع لآليات التنشـئة الاجتماعية التي تتـولى تنشـئة البـشر وفق معـاني المنظومـة القيمية الجديـدة. بحيث يصبـح البشر الذين اسـتوعبوا هـذه المعـاني هـم القـادرون عـلى تحمل أعبـاء التحـول وتحقيـق أهدافه.

ارتباطًـا بذلـك تلعـب القيـم دورًا محوريًـا يسـاعد فى تحقيـق التحـول لأهدافـه وتجسـيد مضمناتـه، وذلـك باعتبـار أن القيـم تشـكل الرمـوز والمعـاني التـي تلعـب دورهـا في تنظيـم التفاعـل القائـم في المجتمـع. وعـلى هـذا النحـو تلعـب القيـم دورًا محوريًـا بالنسـبة للتحـولات الاجتماعيـة الحادثـة مـن جوانـب عديـدة، فمـن ناحيـة نجـد أن منظومـة القيـم تحـدد الأهـداف التـي ينبغـي أن ينجزهـا التحـول، والتـي تصبـح مرجعيـة لتعبئـة طاقـات البـشر في اتجـاه تجسـيد متضمناتـه. هـذه القيـم تكـون عـادة متضمنـة في وثائـق التحـول الأساسـية، وهـي مـا نطلـق عليه أيديولوجيـة التحـول. بيـد أن هـذه القيـم لا تظهـر مـن فـراغ وإنمـا تظهـر مـن داخـل بنيـة الثقافة السـابقة عـلى التحـول، غـير أنهـا كانـت تشـكل أحيانًـا المنظومـة القيميـة المغتربـة أو المرفوضـة. والتـي يصبـح لهـا انتشـارها الجماهـيري، لأنهـا تقـدم وعـدًا بإشـباع حاجـات الجماهـير المحرومـة في التحـول السـابق، ذلـك يعنـي أن منظومـة قيـم التحـول الحاليـة، هـي الأيديولوجيـا المغتربـة في الفـترة السـابقة عـلى التحـول. مثـال عـلى ذلـك أننـا إذا تأملنـا الأيديولوجيـا الاشـتراكية، التـي وجهـت قوانـين الإصـلاح الزراعـي، فإننـا سـوف نجـد أنهـا كانـت أفـكارًا مطروحـة عـلى السـاحة الاجتماعيـة قبـل قيـام ثـورة يوليـو ١٩٥٢ (٣٨). في هـذا الإطـار فإنـه مـن الطبيعـي أن تعلـق بمنظومـة قيـم التحـول، بعـض القيـم المتضمنـة في المـوروث الثقـافي والدينـي للمجتمـع، أو بعـض

القيـم الكائنـة في النظـام العالمـي، الـذي يشـكل بيئـة اجتماعيـة محيطـة بالمجتمـع والتحـول الذي يقـع على سـاحته.

بالإضافـة إلى ذلـك تشـكل منظومـة القيـم في المجتمـع المرجعيـة المعياريـة للتفاعـل بـين المواطنـين في المجتمـع في مرحلـة معينـة، وذلـك عـن طريـق ما يمكـن أن نسـميه بصيغـة التوقعات المتبادلـة. فـما دام عـلى البـشر أن يتفاعلـوا مـع بعضهـم البعـض وفي نطـاق مختلـف المجـالات الاجتماعيـة، فإنـه مـن المنطقـي أن يتحقق هـذا التفاعل اسـتنادًا إلى مرجعية قيميـة واحدة ومتفق عليهـا. وهـي المرجعيـة التي أكـد عليها المجتمع – من خلال إعلان النظام السـياسي لهـا – باعتبارها التـي تشـكل مرجعيـة للتفاعـل بين المواطنـين. وفي هذه الحالـة فإن القيم توجـد في فضاء المجتمع باعتبارهـا تقاليـد وأعـراف وقواعـد ومعايـير تنظـم سـلوكيات البـشر (٣٩). ويتكامـل مـع ذلـك أن هـذه القيـم ليسـت قائمـة في السـياق الاجتماعـي فقـط، تنظـم التفاعل الحـادث فيه لكونهـا توجه سـلوك الفـرد في مختلـف المجـالات، كـما تنظـم علاقاتـه بالآخريـن خـلال مرحلـة التحـول، ولكنهـا مسـتوعبة في عمليـات التنشـئة الاجتماعيـة المختلفـة. بحيـث تشـكل هـذه القيم جوهـر ومضمون الضمـير الفـردي، الـذي يحـدد لـه الصـواب والخطـأ فيـما يتعلـق بمختلـف سـلوكياته الاجتماعيـة. ومـن ثـم نجـد أن القيـم هنـا تضبـط الفـرد مـن الداخل عـن طريق ضمـيره الفـردي الذي يتشـكل مـن خـلال التنشـئة الاجتماعيـة بـذات مفـردات المنظومـة القيميـة الموجهـة لتحـول المجتمـع. إلى جانـب ذلـك فـإن منظومـة القيـم عـلى هـذا النحـو تشـكل أسـاس العقـد الاجتماعي على مسـتوى المجتمـع، الـذي ينبغـي أن يعمـل وفقًـا لـه مختلـف الأطـراف، بـل وتشـكل الإطـار الـذي ينظـم حركـة المجتمـع وأدائـه عـلى مختلـف المسـتويات والاتجاهـات. فـإلى جانـب أن هـذه المرجعيـة القيميـة هـي التـي تشـكل طبيعـة العلاقـة بـين المجتمـع وبيئتـه الخارجيـة، فهـي التـي تحـدد أيضًـا تحالفـات المجتمـع عـلى الصعيـد العالمـي خـلال فـترة التحـول الاجتماعـي، بمـا يجعـل هـذه التحالفـات داعمـة للتحـول مؤيـدة لـه. إلى جانـب ذلـك فإنه مـن المفـترض أن تسـتند الأيديولوجيا التـي يتبناهـا النظـام السـياسي لتوجيـه التحـول إلى هـذه المرجعيـة القيميـة وتشـتق منهـا، فـإذا تضمنـت هـذه الأيديولوجيـات عنـاصر قيميـة جاءتهـا مـن الخـارج، فـإن هـذه القيـم الوافـدة من

الخارج يمكن أن تتناقض مع المرجعية القيمية للمجتمع، على الأقل مع عناصرها المواتية التي تدعم التحول. إلى جانب ذلك فإن مواثيق عمل أو أيديولوجيات الأجهزة التنفيذية ينبغي أن تستند إلى المرجعية القيمية للمجتمع، بحيث نجد أن على أجهزة الدولة كالإعلام والتعليم والبيروقراطية، أن تعمل وفق مرجعية قيمية واحدة. وكذلك ينبغي أن تتم التفاعلات داخل مختلف مجالات المجتمع وفق ذات المنظومة القيمية، سواء تشكلت هذه المجالات من الإطار العائلي، أو الجيرة أو جماعة الأصدقاء أو السياق المحلي الذي يتفاعل في نطاقه البشر ويتحركون. ومن ثم يصبح انحراف أي من وحدات الدولة أو المجتمع في أدائه عن هذه المرجعية، إخلال بمتضمنات العقد الاجتماعي الضابط لاتجاه التحول (٤٠).

إلى جانب ذلك فإننا نجد أن المنظومة القيمية للمجتمع تحافظ على تماسكه خلال مرحلة التحول، من خلال أربعة أبعاد، ويتمثل البعد الأول في ربط قيم المجتمع ببيئته التاريخية. فليست هناك قطيعة في تدفق القيم التي تعبر عن المراحل التاريخية المتتابعة للمجتمع، حيث أكد كارل ماركس أن هذا البعد – أي تدفق القيم عبر مراحل تاريخية متتابعة – يمنحها أحيانًا استقلالاً عن أنماط الإنتاج، وهذا ما يعني أنها تشكل أحد المتغيرات التي تربط المجتمع بتاريخه. ومن ناحية ثانية فإننا نجد أن الثقافة والقيم تربط المجتمع ببيئته الخارجية، إذ تعد القيم إحدة الآليات التي يتكيف بواسطتها المجتمع مع عالمه الخارجي، بخاصة في عالم أصبحت تكنولوجيا المعلومات والمعاني تلعب دورًا محوريًا في إطاره. بحيث يشكل التفاعل المتبادل بين الثقافات آلية تربط المجتمع بعالمه المحيط، ومن ثم نجد أن الثقافة تربط المجتمع – عضويًا – بعالمه. إلى جانب ذلك فإن القيم تفرض تماسك المجتمع عن طريق تحولها إلى أشكال مختلفة تسعى من خلالها إلى ربط عناصر المجتمع ببعضها البعض (٤١).

بالإضافة إلى ذلك فإن للقيم علاقة محددة بنمط الإنتاج السائد في المجتمع، فهي قد تعد في بعض جوانبها انعكاسًا لنمط الإنتاج السائد غير أنها من جوانب أخرى قد تحدد نمط الإنتاج السائد، ذلك يعني أن للقيم في كل

الحالات علاقة محددة بنمط الإنتاج الاجتماعي. وإذا كانت هناك علاقة عضوية بين القيم من ناحية ونمط الإنتاج السائد من ناحية أخرى، فإننا نلاحظ أن هناك منظومات من القيم توجد في ثقافة المجتمع خارج أنماط الإنتاج أو هي غير مرتبطة بها. قد يكون مصدر هذه القيم البيئية الخارجية والعالمية للمجتمع، حيث نعيش الآن في عالم تسبح فيه الثقافات بيسر في فضائه، وتمتزج مع بعضها البعض (٤٢). يضاف إلى ذلك أن ثمة عنصر ثقافي متدفق عبر تاريخ المجتمع يعبر عن الموروث الثقافي السائد، وعلى هذا النحو تصبح العلاقة شديدة التعقيد بين منظومات قيم الثقافة من ناحية ونمط الإنتاج من ناحية أخرى.

من ذلك يتأكد لنا أن القيم تشغل مكانة محورية في بناء المجتمع خلال مرحلة التحول من خلال ثلاث جوانب أو حالات، في الحالة الأولى وهي الحالة المثالية، التي يقدم فيها التحول منظومته القيمية ثم يتولى إعادة تنشئة البشر من خلال آلياته العديدة وفقًا لها، بحيث يستوعب البشر هذه القيم، ومن ثم يصبحوا هم القوة الدافعة للتحول والحارسة لمنجزاته. وفي الحالة الثانية يأتي التحول بمنظومته القيمية، غير أنه لا يمتلك الآليات الفعالة لتنشئة البشر وفق معاني هذه المنظومة. ومن ثم تقع أحداث التحول ومنجزاته، غير أن البشر ليس لديهم المعاني أو القيم التي تربطهم بهذه الإنجازات، ومن ثم يظل التحول ومنجزاته قائمة كموضوعات لها مساحتها في المكان. غير أن معانيها لم تتسلل إلى ذوات البشر لتشكل وعيهم، الذي يدافعون استنادًا إليه ضد أي تهديد لهذه المنجزات. وفي الحالة الثالثة تقع أحداث التحول مصحوبة بمنظومته القيمية لتتعايش مع المنظومة الثقافية والقيمية للمجتمع الطبيعي الذي كان قائمًا، يضاف إلى ذلك أي منظومات قيمية أخرى. في هذه الحالة قد توجد منظومة القيم التقليدية أو التراثية في مواجهة منظومة القيم الحديثة، فإذا لم تستطع إحدى المنظومات القيمية استيعاب المنظومات الأخرى، أو على الأقل ضبط أدائها فإن تعايش هذه المنظومات يؤدي إلى تخلق حالة شبيهة بحالة «الأنومي» (٤٣)، حيث يضيق البشر ذرعًا بتعدد هذه المنظومات وتناقض معانيها، الأمر الذي يضعف تأثيرها في مجمله. ومن ثم يدفع إلى بروز الأيديولوجيات أو المنظومات القيمية الفردية

والانتهازيـة الخاصـة، التـي تشـكل المعـاني الموجهـة للسـلوك المحقـق للمصالـح الفرديـة. فتناقـض منظومـات القيـم يـؤدي إلى عـدم الالتزام القـوي بها جميعًا، وفي هـذا الإطار فإن تلاحـق التحولات، ومـن ثـم تتابـع المنظومـات القيميـة عـلى المجتمع، مع عـدم توافر الآليـات والوقت الملائم لتنشـئة البـشر وفـق لهـا، ومـن ثم اسـتيعابها، يـؤدي في النهايـة إلى إحدى حـالات «الأنومي» كذلـك (٤٤).

ويرتبـط المتغـير الثالـث بـأن أي تحـول اجتماعـي مـن الطبيعـي أن تتحمل تجسـيده قوى اجتماعيـة تكـون عـلى قناعـة بمتضمناتـه أو هـي صاحبـة مصلحة حقيقية فيـه، أو أنها قـوى رافضة لبنـاء المجتمـع السـابق على حـدوث التحول. بحيث تتولى هـذه القوة الاجتماعية تجسـيده والدفاع عنـه في مواجهـة القـوى الاجتماعيـة الأخرى، التي قد يـضر التحول بمصالحها. وحتـى يمكن أن تكون للتحـول الاجتماعـي قوتـه التـي تفرضـه، فإنهـا ينبغـي أن تكـون عـلى قناعـة بـه، لأنهـا قـد نشـئت عـلى مضامـين معانيـه، إضافـة إلى أن لهـا مصلحـة في اسـتمرار التحول ورفـع معدلات إنجـازه. ومن شـأن ذلـك أن يـؤدي إلى ظهـور قـوى اجتماعية لهـا مصالحها المضـادة للتحول، ومن ثـم تصبح قوى رافضـة ومعوقـة لـه. في هـذا الإطـار يصبـح التحـول حقيقيًـا وبنائيًـا إذا كان يخـدم مصالـح القـوة الغالبـة، بينـما يصبـح مفروضًـا إذا كان لصالح شريحـة أو أقلية محدودة، تفرضـه عنوة وضد مصالح الآخريـن (٤٥). غـير أن قـوى التحـول قـد تنسـحب مـن دعم التحـول إذا واجـه التحول انتكاسـات، ومـن ثـم فلـم يحقـق مصالحهـا، خاصـة إذا لم تكـن قد نشـئت وفـق معانيـه. أو أن إنجـاز التحول لـن يشـكل قيمـة مضافـة لهـا، غير أنـه إذا نجح التحـول فإنه يضم قـوى المجتمـع إلى نطاقه وتصبح معايـيره هـي المعايـير التي يحتكـم إليها.

وإذا كانـت مواقـف القـوى الاجتماعيـة تتبايـن من حيـث موقفها من التحـول الاجتماعي، حيث نجد أن بعض هذه القوى تدعم التحول لأنه يحقق مصالحها ويتجسد وفق معانيها، بينما قد تقف قوى اجتماعية أخرى مضادة للتحول لأنه يضر بمصالحها، ولا يتحقق وفق معانيها . بينما هناك قوى اجتماعية ثالثة لم يكتمل وعيها على ما يذهب ماركس قد تستفيد من التحولات لكنها لا تدرك

معانيهـا، ومـن ثـم فبرغـم أن التحـول يخدم مصالحهـا إلا أنها قد تقـف موقفًا حياديًا مـن إنجازاته. عـلى هـذا النحـو فإننـا نجـد أن موقـف القـوى الاجتماعيـة تجـاه التحـولات المتتابعة، التـي وقعت في النصـف الثـاني مـن القـرن العشرين، قد تتباين بحسـب اتسـاق التحـول ومضامينه مـع مصالحها ومعانيهـا. تأكيـدًا لذلـك فإننا نجد أننا إذا حاولنا استكشـاف موقف القـوى الاجتماعية المختلفة من التحـولات الاجتماعيـة، فسـوف نجـد أن الطبقـة العليـا بخاصـة في المجتمعـات المتخلفـة أو النامية، هـي الأكـثر ارتباطًـا بالبرجوازيـة العالميـة والأكثر تبنيـا لمنظومتها القيميـة. فهي قد تتحـدث لغتها، وتتبنـى نوعيـة حياتهـا، ومـن ثـم نجـد أن المنظومـة القيميـة لهـذه الطبقـة غـير ملتزمـة بمنظومـة القيـم القوميـة، كـما أنهـا منفصلـة عن قيم المـوروث الثقافي والثقافـة التقليدية التي يشـكل التراكم التاريخـي والديـن قاعدتهـا (٤٦). وعـلى هذا النحو نجـد أن هذه القوى الاجتماعيـة تتعاطف عادة مـع التحديـث، أو التحـول الـذي تقـوده منظومـة قيمية مـن خارج المجتمـع. كما نجـد أن التزامها بمنظومـات القيـم الصـادرة عـن الخـارج، يتجـاوز التزاماتهـا بمنظومـة القيـم الوطنيـة أو القوميـة، بخاصـة منظومـات القيـم التـي تؤكد على مصالحهـا، أو التي تربطهـا بالبرجوازية العالميـة، حليفتها.

وتشـكل الطبقـة الدنيـا القـوة الثانيـة ذات العلاقـة بمنظومـة القيـم التي تقـود التحول أو التحديـث الحـادث في المجتمـع، أو حتـى تلـك المنظومـة التي تنتج عنـه. وإذا كانـت الطبقة العليا موجهـة إلى الخـارج تسـتلهم قيمـه، فـإن الطبقـة الدنيـا نجدهـا منكفئـة إلى الداخـل حيـث معاناة الواقـع، ومـن ثـم فقيمهـا ورموزهـا تعـد معـاني عاريـة مـن المثـل. ومـن المنطقـي أن تسـاعدها منظومتهـا القيميـة عـلى التكيـف مـع الأوضاع الصعبـة التي تعيشـها، ومن ثم فقيمهـا ذات طبيعة آدائيـة عمليـة. تضفـي المشروعية على كل فعل أو سـلوك يسـاعدها على إشـباع حاجاتها الأساسـية حتـى تتمكـن مـن البقـاء حية، بغض النظـر عن الطبيعة الأخلاقيـة أو غير الأخلاقيـة لمنظومة القيم، أو الأفعـال والسـلوكيات، التـي توجـه بواسـطة منظومة القيم هـذه (٤٧).

وتشـكل الطبقـة الوسـطى القـوة الاجتماعيـة الثالثـة ذات العلاقـة بمنظومـة

القيـم في المجتمـع. وإذا كانـت الطبقـة العليا منفتحة عـلى منظومات القيم الخارجيـة بدرجة أعلى، وإذا كانـت الطبقـة الدنيـا تسـتند في سـلوكياتها وأفعالهـا إلى منظومـة قيميـة ذات طبيعـة آدائيـة بالأسـاس. فـإن الطبقـة الوسـطى تشـكل السـاحة الاجتماعيـة التـي تتفاعـل في إطارهـا منظومـات القيـم المتباينـة، بمـا في ذلـك تلـك المنظومـات القيمية المرتبطـة بالقـوى الاجتماعية الأخـرى. ونظرًا لضخامـة حجـم الطبقـة الوسـطى في مراحـل الاسـتقرار الاجتماعـي، فإننـا نجـد أن تفاعـل القيـم المتطرفـة مـن كل أتجـاه عـلى أرضها ينتهـي إلى حالة من الوسـطية، التي تشـكل الطبيعـة الأخلاقية لمنظوماتهـا القيميـة. ومـن ثـم تصبـح قيمها هي المعـاني التي تتدفـق في المجرى الرئيـسي للمجتمع، غـير أن هـذا النهـر لـه ضفـاف، وفي حالـة الصحـة والعافيـة الاجتماعية فإننـا نجد أن معـاني الطبقة الوسـطى ومنظوماتهـا القيميـة هـي المسـيطرة والفاعلـة، لكونها تسـتوعب أفضل مـا في المنظومات الأخـرى مـن معـاني (٤٨). غـير أنهـا في فـترات الانهيـار الاجتماعـي – الـذي قـد ينتـج عـن تحولات ذات طبيعـة سـلبية – تتجـه إلى تبنـي قيـم أي مـن القـوى التـي تقع عـلى ضفاف المجـرى الرئيسي. فقـد تتعمـق – بسـبب ظـروف عديـدة – تبعيـة المجتمـع للخـارج، ومـن ثـم نجـد إن القيـم التـي تسـودها قيـم باهتـه وهشـه مأخوذة عن قيـم الطبقة العليا، كالأخـذ بمفردات الثقافة الاسـتهلاكية، أو التبعيـة الثقافيـة للخـارج إلى حـد الانفصـال عـن موروثهـا الثقـافي. فـإذا اسـتمر تضمـن هـذه الهشاشـة في منظومتهـا القيمـة، أو تـردت أوضاعهـا المعيشـية فإننـا نجـد أن منظومتهـا القيميـة، ذات الطبيعـة النضاليـة. أو المؤكـدة عـلى قـدر مـن العـدل الاجتماعـي، أو المسـتند إلى الحريـة والمسـاواة، أو تلـك التـي تؤكـد عـلى ضرورة الارتبـاط بالمـوروث الثقـافي تتـآكل. ومـن ثـم تظهـر عـلى سـاحتها معـاني سـلبية مأخـوذة عـن المنظومـات القيميـة للطبقتـين أو القوتـين الاجتماعيتـين الأخرتـين معًـا، فهـي قـد تتبنـى قيـمًا انتهازيـة لتحقيـق مصالحهـا – أسـوة بالطبقـة العليـا أحيانًـا – حتـى ولـو كان ذلـك عـلى حسـاب المجتمـع. إضافـة إلى أنهـا - إذا عاشـت حالـة أزمـة – فإننـا نجدهـا قـد تتبنـى قيـمًا مأخـوذة عـن ثقافـة الطبقـة الدنيـا، تسـاعدها في التكيـف مـع واقعهـا المـتردي، أو تسـقط في هـذه الحالـة أسـيرة سـلوكيات ذات طبيعـة أخلاقيـة مختلفـة عـن مـا تمليـه

منظومتها القيمية. وذلك يقود بطبيعة الحال إلى ثقافة وأوضاع اجتماعية منهارة في المجتمع، لذلك قيل إنه إذا انهارت أخلاق الطبقة الوسطى انهارت أخلاق المجتمع، وإذا صلحت قيمها انصلحت أحوال وتحولات المجتمع (٤٩).

رابعاً: مكانة القيم فى بناء التحول الاشتراكى

لا نستطيع القول أن التحول الاشتراكي الذي ميز الفترة من ١٩٥٢ وحتى ١٩٧٠ قد بدا من فراغ، فقد وجدت ارهاصاته في ثلاثة مصادر فرضت حتميته وحددت طبيعته، ويتمثل المصدر الأول في إرهاصات هذا التحول على المستوى الفكري في الكتابات التي نشرت في الفترة السابقة على ثورة يوليو ١٩٥٢. والتي قدمتها الجماعات الماركسية والاشتراكية، ومنها كتابات سلامة موسى وغيره من المفكرين والإصلاحيين، وهي الكتابات التي تمحورت حول مشاريع عديدة للإصلاح الزراعي، والتي رفضت جميعها من برلمانات قبل الثورة. ويتمثل المصدر الثاني في الحاجة البنائية إلى الإصلاح، وهي الحاجة التي فرضت المطالبة بتغييرات جذرية لتحقيق العدل الاجتماعي الذي ينبغي أن يراعي في توزيع الملكية الزراعية، وكذلك العدالة في توزيع فرص الحياة المختلفة. يضاف إلى ذلك المصدر الثالث، الذي تمثل بالأساس في بروز الكتلة الاشتراكية على الصعيد العالمي، والانجازات القوية التي حققتها حينئذ على الصعيد التنموي، الأمر الذي جعلها مصدر إلهام كثير من الثورات وحركات الاستقلال التي تفجرت حينئذ داخل نطاق مجتمعات العالم الثالث. حيث قدمت الكتلة الاشتراكية ، بالاضافة إلي كونها النموذج، حماية لغالبية التجارب الاشتراكية في هذه المجتمعات، مما دفعها إلى بناء هذه التجارب بنوع من الجسارة ودون خوف، وقد كان المجتمع المصري ضمن هذه المجتمعات (٥٠). ويمكن القول بأن التحول الاشتركى تضمن مجموعة من الأبعاد الأساسية التى منحت التحول طبيعته وخصائصة، وهى الأبعاد التى نعرض فيما يلى لأبرزها.

١ - اتجاه التغيرات البنائية في المرحلة الاشتراكية: برغم أن ثورة يوليو ١٩٥٢ لم تكن تستهدف التحول الاشتراكي في بداية قيامها، يؤكد ذلك ما جاء على لسان الدكتور عزيز صدقي أحد رموز هذه المرحلة الذي أشار إلى

أن مـصر تقـود تنميـة تسـير في الاتجـاه الرأسـمالي. كـما يؤكـد ذلـك أيضًـا أن النخبـة الثوريـة حينئذ أكـدت عـلى الشـعارات القوميـة التي دفعـت إلى الفضاء العـربي، حينئذ، بمفاهيـم العروبة والوحدة وضرورة رحيـل الاسـتعمار مـن عـلى الأرض العربيـة. غـير أنه قد بـرزت مجموعة من الظـروف التي دفعـت التحـول في الاتجـاه الاشـتراكي، أبرزهـا حصـار القـوى الرأسـمالية للثـورة المصريـة الوليـدة، وهـو الحصـار الـذي بلـغ ذروتـه بالعـدوان الثـلاثي، إضافة إلى سـحب عرض تمويل السـد العـالي، ثم المسـاهمة في انهيـار الوحـدة المصريـة السـورية (٥١). الأمـر الـذي دفـع النخبـة الثوريةالحاكمـة حينئـذ، إلى الاندفـاع باتجـاه التحالـف مع القوى الاشـتراكية، ومـن ثم طرق أبواب التحول الاشـتراكي مـع بداية السـتينيات.

لقـد أخـذ هـذا التحـول في البدايـة شـكل تصفيـة القـوى الاجتماعيـة صاحبـة المصلحـة في النظـام السـابق، وتبني السياسـات التـي تدعم مكانة الطبقة الوسـطى وتحقق مصالحهـا، باعتبارها القـوة الأصيلـة صاحبـة المصلحـة في هـذا التحـول. فقـد ناضلـت هـذه الطبقـة لمـا يزيـد عـلى ثلاثة عقـود خلـت حتـى قام ابناؤها بالثورة، وآن لجيادها أن تسـتريح وأن تتمتع ببعض مكاسـب النضال. في بدايـة التحـول اتجهـت جماعـة الثـورة إلى التخلـص مـن طبقـة الأعيـان الذيـن تحكمـوا في مصير الوطـن خـلال السـنوات السـابقة (٥٢). ثـم بـدأت في تقليص دورهم السـياسي بحرمانهـم من بعض الحقـوق السياسـية. ففـي سـبتمبر ١٩٥٢ بـدا التحول الكبـير لصالح الطبقة الوسـطى، وهـو التحول الـذي سـعى لتطويـر أوضـاع هـذه الطبقـة من كل اتجـاه. فقد صـدرت القوانـين المتتابعـة للإصلاح الزراعـي ابتـداء مـن قانون الإصـلاح الزراعي الأول رقم ١٧٨ لسـنة ١٩٥٢ وحتى القانـون الأخير رقم ٥٠ لسـنة ١٩٦٩ الـذي وضـع حـد أقـصى لملكيـة الأرض الزراعية للفرد بخمسـين فدانًـا(٥٣). وهو ما يعنـي أن هـذه القوانـين المتتابعـة هبطـت بالحـد الأقـصى لملكيـة الأرض الزراعية إلى خمسـين فدانًا هـو السـقف الأعـلى لملكية الطبقة الوسـطى. الأمر الذي يشـير إلى أن الثورة دفعـت بكبار الملاك إلى الوقـوف إلى جانـب الجـدار الأعـلى للطبقة الوسـطى، بحيث يدفعهـا قانون التوريث الإسـلامي بعد أقـل مـن جيـل واحد إلى قلـب هذه الطبقة. وبرغـم أن حكومة الثورة أكدت على أنها سـوف توزع

الأراضي الزراعية المستولى عليها على الفقراء، إلا أن تأمل هذا التوزيع يكشف أن الطبقة الوسطى كانت الفاعل الذي استولى على غالبية الأراضي الزراعية التي تم الاستيلاء عليها. تأكيدًا لذلك أن حكومة الثورة قد استولت بواسطة قوانين الإصلاح الزراعي المتتابعة على نحو ٩١٧٥٥٨ فدان حصلت منها الطبقة الوسطى - التي كانت تمتلك فعلاً - نحو ٦١٤ ألف فدان من مساحة الأرض التي تم توزيعها، بينما لم تحصل الطبقة الدنيا إلا على نحو ٢١٤ ألف فدان فقط، وهو ما يعني أن النظام السياسي نقل غالبية الثروة لهذه الطبقة (٥٤).

وكما قامت الدولة بتقليص فاعلية طبقة كبار ملاك الأراضي الزراعية في الريف، قامت بقص أجنحة الطبقة العليا الحضرية حينئذ، وإن حدث ذلك في تاريخ متأخر. ففي عام ١٩٦٠ اتخذت الدولة مجموعة من الإجراءات الحادة التي نقلت بمقتضاها ملكية بنك مصر والبنك الأهلى إلى الدولة، وتلى ذلك نقل التزامات شركات النقل إلى مؤسسة النقل العام بالقاهرة، ثم إسقاط التزام شركة الترام البلجيكية، ثم تأميم استيراد الأدوية، ثم تأميم المصالح البلجيكية وشركة مصر الجديدة ومجموعة الشركات التابعة لها، وحرم استثمار رأس المال الأجنبي إلا بقرار جمهوري. وفي يوليو ١٩٦١ صدرت قوانين التأميم الثلاثة ١١٧، ١١٨، ١١٩ لسنة ١٩٦١ فأممت ٨٠ شركة تأمينًا كاملاً، وأسهمت الحكومة في ٨٣ شركة أخرى. ونص القانون رقم ١١٩ على أن لا يزيد ما يملكه الفرد على عشرة آلاف جنيه في رأسمال كل من ١٤٥ شركة متنوعة، وفي عام ١٩٦٢ أُنشئت المؤسسة العامة للمخابز والمطاحن ومضارب الأرز. ثم شهد عام ١٩٦٣ سلسلة من التأميمات، فأُممت جميع منشآت تصدير القطن و١٤ شركة أدوية، وتم سحب تراخيص ٤٠ مصنعًا ومعملاً للدواء. وأُممت ٨ شركات للمقاولات البحرية و الملاحة في أغسطس ١٩٦٣، ثم تم تأميم ٣٢٨ شركة تأميمًا كاملاً. وفي مارس ١٩٦٤ أستكمل القطاع العام صورته حينئذ، بإجراءات هامة منها تأميم شركات المقاولات الموجودة بالقطاع العام تأميمًا كاملاً، وتأميم شركة شل وأبار الزيوت وتأميم شركة التجارة الخارجية تأميمًا كاملاً. ومصادرة كل ما زاد على ٣٩ ألف جنيه من ثروة كل من وضع تحت الحراسة، وقصر التعويض

على التأميم على ١٥٠٠٠٠ جنيه للفرد، وإلغاء التعويض عن الأراض التي تم الاستيلاء عليها بموجب قانون الإصلاح الزراعي (٥٥).

وإلى جانب قيام الدولة بتأكيد التحول في السياقات الريفية والحضرية، فإنها رأت أن التنمية الحقيقية ينبغي أن تتجه إلى بناء القطاع الصناعي القوي. القادر على توفير فرص العمل من ناحية، وتوفير السلع الضرورية لإشباع حاجات السوق القومية وتصدير الفائض إلى الخارج من ناحية ثانية. بالإضافة إلى ذلك فقد توجهت التنمية الصناعية لتشبع احتياجات الطبقة الوسطى كذلك. وعلى سبيل المثال نجد إن سياسة إحلال الواردات باعتبارها السياسة التي تستهدف تصنيع السلع المعمرة التي تحتاجها هذه الطبقة وتشبع نمط استهلاكها (كالسيارات الصغيرة، والثلاجات، والغسالات، والتلفزيون، والراديو) حيث أُنفق على هذه الصناعات في الخطة الخمسية الأولى التي بدأت عام ١٩٥٦ نحو ٤٩٪ من الميزانية المرصودة للتنمية الصناعية. بينما لم تنل الصناعات الرأسمالية الثقيلة سوى ٨٪. وهو ما يعني أن التحول الاجتماعي الذي تحقق في هذه المرحلة كان يتسهدف إشباع طموحات الطبقة الوسطى وإعطاء الأولوية لحاجاتها الاستهلاكية. يؤكد ذلك ما صرح به الدكتور عادل جزارين أحد رموز الصناعة في هذه المرحلة بأن «شركته (شركة النصر للسيارات) بدأت تحقق خسائر والسبب الأسعار. فأسعار السيارات لم تتحرك منذ خمس سنوات. بينما أسعارها في العالم كله قد تحركت بسبب زيادة الأجور وزيادة تكاليف مكونات الإنتاج، والشركة تستورد مكونات الإنتاج بأسعار مرتفعة، وفي نفس الوقت هي ممنوعة من رفع السعر. ثم تساءل، هل السيارة رغيف عيش أو صفيحة زيت أو كستور شعبي فلا ترتفع أسعارها بل تدعم من قبل الدولة»(٥٦).

٢ – الطبقة الوسطى هدف التحول وقوته: لا شك أن للطبقة الوسطي علاقة عضوية بالتحول الاجتماعي التي قادته نخبة ثورة يوليو ١٩٥٢، ويرجع ذلك إلى أنها الطبقة التي قادت النضال التاريخي على مدى عقود عدة سابقة ،حتى تمكن أبناؤها من القيام بالثورة. فقد بدأ النضال التاريخي الذي قادته هذه الطبقة باتجاه التحديث والاستقلال، منذ بداية تشكلها الجنيني في عهد وإلى مصر

محمـد عـلى باشـا من عنـاصر عديدة، تجمعـت وتضافـرت تاريخيًا حتى تشـكلت البنية المتماسـكة لهـذه الطبقـة. التـي تشـكلت في البدايـة مـن عنـاصر المبعوثـين، الذين بعـث بهم محمد على باشـا بعـد توليـه الحكـم ليأتـوه بالعلـم الحديـث مـن أوروبا،إضافة إلى شريحـة كبيرة من التجـار، وبعض أصحـاب المهـن، إلى جانـب بعـض مـلاك الأراضي مـن العمـد والمشـايخ الملتزمـين. واسـتمرت هـذه العنـاصر في التزايـد أو التكاثـر وتشـابكت علاقاتهـا الداخليـة وإتجهـت إلى التكثـف إلى أن شـكلت تجمـع الطبقـة الوسـطى. وقـد سـاعد عـلى نمـو هـذه الطبقـة توفـر خريجـي النظـام التعليمـي في عـصر الاحتـلال البريطـاني لمـصر، إضافـة إلى خريجـي «الجامـع الأزهـر» حينئـذ، الذيـن انضمـوا إلى بنـاء البيروقراطيـة الحكوميـة (٥٧). ومـن ثـم فقد شـكلوا أحـد مصادر تشـكل هذه الطبقـة، الأمر الـذي أدى إلى نموهـا بصـورة متزايـدة ومتسـارعة مـما سـاعد عـلى اكتـمال قوامهـا نسـبيًا. وحينـما انفجـرت ثـورة ١٩١٩ لعبـت هـذه الطبقـة دورًا بـارزًا فيهـا، ثـم إسـتمرت تلعـب دورًا نضاليًا خلال عقـد العشرينـات في مواجهـة ثقافـة التغريـب مـن خـلال ظهـور الجماعات التـي تدافع عـن الدين والمـوروث الثقـافي وهـو الـدور الـذي تصاعـد حتـى بلـغ قمته بنشـأة جماعـة «الإخوان المسـلمين» بزعامة الشـيخ «حسـن البنا» كمرشـدها في نهاية العشرينيات وجماعة «شـباب محمد» في النصف الأول مـن الثلاثينيـات (٥٨).

وخـلال عقـدي الثلاثينـات والأربعينـات وسـعت الطبقـة الوسـطى مـن نطـاق نضالهـا عـلى الصعيـد الاقتصـادي، أسسـت في إطـاره بعـض المعامـل والـشركات الاقتصاديـة، التـي تصاعـدت حتـى أسـس الاقتصـادي المـصري الشـهير «طلعـت حـرب» بنـك مـصر. وقـد سـاعدت سـنوات الحـرب العالميـة الثانيـة وصعوبـة الاتصـال بالعـالم الخارجـي عـلى تحقـق هـذا النمـو الاقتصـادي، بحيـث اتسـع نمـو هـذه الطبقـة ليتجـه إلى المجـال العسـكري. حيـث سـاعدت معاهـدة ١٩٣٦ عـلى التوسـع في بنـاء الجيـش المـصري، وتسـهيل التحـاق بعـض مـن أبنـاء الطبقـة الوسـطى كضبـاط فيـه. ثـم بـدأت هـذه الطبقـة تلعـب دورًا نضاليًـا عـلى الصعيـد الوطنـي، يسـعى لتحقيـق حلـول إصلاحيـة لمسـائل اجتماعيـة عديـدة، طالبـت بهـا الجماعـات الأيديولوجيـة المختلفـة الموجـودة حينئـذ عـلى السـاحة السياسـية والاجتماعيـة والتـي ضمتها هذه

الطبقـة. إلى جانـب ذلـك بـدأ أبنـاء هـذه الطبقـة يعقـدون تحالفـات مـع الطبقـة العاملـة لقيـادة النضـال الوطنـي، الـذي تصاعـد في وتيرتـه وتـآزر في أفعالـه حتـى قـام أبنـاء هـذه الطبقـة الضبـاط بثـورة ٢٣ يوليـو ١٩٥٢. وبذلـك أصبحـت الثـورة تتويجًا لذروة نضال وسـعي تاريخـي متتابع، حقق أهدافـه ونتائجـه بقيـام الثـورة. وإذا كانـت النخبـة التـي قامـت بالثـورة تنتمـي إلى مختلف شرائح الطبقـة الوسـطى ابتـداء مـن أدناهـا التـي لهـا تمـاس مـع الطبقة الدنيـا، وحتـى أعلاها التي تشـبه في نوعيـة حياتهـا نوعيـة حيـاة الطبقـة العليـا. فـإن جـمال عبـد النـاصر، الزعيـم الحقيقـي لهـذه الثـورة، كان ينتمـي إلى مكانـة القلـب فيهـا، والـذي ظل حتـى بعد توليه لرئاسـة مصر يقـود نوعية حيـاة هـذه الطبقـة. لأنـه كان شـديد الإخـلاص لهـا. مـؤشر ذلك مـا يرويه الأسـتاذ محمد حسـنين هيـكل عـن حيـاة الرجل بدءًا مـن التعامل مع زوجتـه «تحية»، ومـرورًا بالمأكولات التـي يفضلونها، الجـبن والخبـز الجـاف وانتهـاءً بتفاخره بمهنه أبيـه البسـيطة (٥٩). وبنجاح الثورة شرعـت زعامتها في القيـام بسلسـلة مـن التغـيرات المتتابعـة، والتـي وقعـت أحيانًا في ظـروف مواتيه وأحيانًـا في بيئة معاكسـة، وحتـى تمكنـت في النهايـة مـن تأسيس تحـول شـامل وكبـير عـلى أرض مـصر، اسـتغرق تقريبًـا عقديـن مـن الزمـان وكانـت له أبعـاده العديـدة وآثـاره الواضحة.

بالإضافـة إلى ذلـك فقـد تضمنـت القـرارات المؤسسـة للتحـول في هـذه المرحلـة مجموعـة مـن السياسـات الاجتماعيـة التـي اسـتهدفت توفـير الخدمـات المختلفـة لأبنـاء هـذه الطبقـة. كخدمـات الصحـة والسـكان وتوسـيع مظلـة التأمينـات الاجتماعيـة، وتشـغيل الخريجـين مـن أبنـاء هـذه الطبقـة، التـي ينتمـي إليهـا٨٥٪ مـن طـلاب الجامعـات. إضافـة إلى فتـح الأبـواب واسـعة أمـام أبنـاء هـذه الطبقـة لتشـغل أعـلى المراكـز البيروقراطيـة الحكوميـة، الأمـر الـذي فتـح أمامهـا المجـال للسـيطرة عـلى الجهـاز الحكومـي. وهـو الجهـاز الـذي تـولى تحقيـق أهـداف التنميـة الاجتماعيـة الاقتصاديـة، وتأسـيس السياسـات التـي تتـولى تجسـيد هـذه الأهـداف. ولقـد سـاعدت هـذه الإجـراءات عـلى توسـيع المسـاحة التـي تشـغلها الطبقـة الوسـطى في خريطـة المجتمـع مـن ناحيتـين. الناحيـة الأولى تقلـص حجـم الـثروة المتبقيـة لـدى الطبقـة

العليـا، مـما أدى بعـد فـترة وجيـزة إلى سـقوطها خـلال الجيـل الثـاني مبـاشرة إلى نطـاق الطبقـة الوسـطى. ومـن ناحيـة ثانيـة فقـد تسـلق أبنـاء الطبقة الوسـطى خـلال هـذه الفـترة إلى إدارة هذه المؤسسـات مـن خـلال تعيينهم في وظائـف إدارتها، بحيـث تحولت الشركات المؤممة إلى مؤسسـات تشـكل نطاقًـا لتوفـير فـرص العمـل، التـي يشـغلها أبنـاء الطبقـة الوسـطى الذيـن تخرجـوا مـن الجامعـات (٦٠)، والذيـن يتولـون إدارتها لحسـاب الدولـة في مقابل الحصول عـلى رواتب ومكافآت لقـاء إدارتهـا إلى جانـب الحصـول عـلى نسـبة مـن أرباحها.

وقـد دفعـت هـذه الظـروف المواتيـة للطبقـة الوسـطى – التـي يسرتهـا النخبـة السياسـية – إلى انطـلاق أبنـاء الطبقـة الوسـطى في موجـات عاليـة ومتتاليـة مـن الحـراك الاجتماعـي. ابتـداء بالحـراك الأفقـي بالهجـرة مـن القريـة إلى المدينـة، حيث اسـتقبلت السـياقات الحضريـة بعد ١٩٥٢ أعـدادًا كبـيرة مـن المهاجريـن، إضافـة إلى الحـراك مـن خـلال التعليـم بسـبب التوسـع في التعليـم الـذي أصبـح مجانيًـا في كل مراحلـه وحتى المرحلة الجامعيـة. إلى جانب إجراءات التأميم والحراسـة والإسراع بالتنميـة الصناعيـة والزراعيـة، ونمـو المؤسسـة العسـكرية وتزايـد امتيازاتهـا، وكذلـك نمـو البيروقراطيـة المصريـة بسـبب اتسـاع مسـاحة تدخـل الدولـة في الحيـاة الاجتماعيـة والسياسـية، والتـزام الدولـة بتعيـين الخريجـين (٦١). وهـو مـا يعنـي أن المـشروع الاجتماعـي لثـورة يوليـو، أو الـذي عـبرت عنـه الناصريـة ظـل هـو المـشروع الـذي يعمـل لصالـح الطبقـة الوسـطى، ويسـعى إلى تطويـر قدراتهـا وإشـباع احتياجاتهـا. اعتقـادًا منهـا أنهـا القـوة ذات التاريـخ النضـالي المـشرف ومـن حقهـا أن تحصـل عـلى بعـض الكعكـة التـي ناضلـت لصناعتهـا وصونهـا، ثـم أنهـا القـوة التي يمكـن أن يعتمـد عليهـا النظـام السـياسي في تأسـيس مشروعاتـه التنمويـة. وفي حراسـة منجزاتـه وأيضًـا في صراعـه مـع البرجوازيـة العالميـة والمحليـة، ومـن ثـم فهـي القـوة الصانعـة للتحـول وهي غايتـه كذلـك. وقـد ظلـت العلاقـة دافئـة بـين النخبـة الثوريـة والطبقـة الوسـطى، إلا مـن بعـض الأحـداث التـي عاصرتهـا هـذه الطبقـة السياسـية وحاولـت الحفـاظ عـلى وسـطيتها الأيديولوجيـة والأخلاقيـة. كرفـض الأنظمـة السياسـية لتطـرف بعـض الجماعـات الأيديولوجيـة التـي ضمنـت

الإخـوان المسـلمين التـى عبثـت بالديـن تـارة، وجماعـة الشـيوعيين التـى حاولـت النظـام السـياسي والمجتمـع إلى تبنـى المنطـق الشـيوعى تـارة أخـرى. برغـم كونهـم مـن أبناء هـذه الطبقـة، ومن ثم فقـد رفـض التطـرف محاولـة إصـلاح إعوجاجهـم مـن قبـل إخوانهـم الذيـن ينتمـون لـذات الطبقة والذيـن سـيطروا عـلى الأجهـزة الأمنية.

وحينـما وقعـت هزيمـة يونيـه ١٩٦٧، وهـي النقطة التي شـكلت بداية نهاية هـذا التحول، خـاب أمـل أبنـاء هـذه الطبقـة في نظامهـا وتحولاتهـا السياسـية، وخرجـت في أول احتجاجاتهـا مـن خـلال مظاهـرات الطـلاب عـام ١٩٦٨، وهـم أبنـاء هـذه الطبقـة. وحينما قـرر عبد النـاصر الرحيل اسـتبقته هـذه الطبقـة خوفًـا عـلى مكاسـبها، وحفاظًا على الاسـتقلال الوطنـي التي ناضلـت تاريخًا مـن أجلـه. ولم يجـد عبـد النـاصر مـن يسـاعده في تحريـر الـتراب الوطنـي سـوى تجنيـد حملـة المؤهـلات العليـا والمتوسـطة في عمليـة بنـاء الجيـش المـصري، وكانـوا في غالبهـم من الأبنـاء المنتمين لهـذه الطبقـة (٦٢). «لقـد ارتبطـت هـذه الطبقـة عضويًـا بالدولـة، وبـكل الأثـار التـي ترتبت على ذلـك مـن ولاء غـير محـدود لعبـد النـاصر، كرمـز أمـين لهـا، وإخـلاص أمـين لـكل مـا يمثلـه. الأمـر الـذي أضعـف فاعليتهـا السياسـية لأنهـا لم تحـاول تقييـم سياسـاته وتوجيـه النقـد إليـه، أو هـي قـد خشـيت ممارسـة هـذا النقـد حفاظـا عـلى مكانتهـا. تأكيـد لذلـك أنه حينـما ضرب عبـد الناصر التعدديـة السياسـية والحزبيـة وأحـل محلهـا الحـزب الواحد، تنازلت هـذه الطبقة عـن حريتها من ناحيـة للاحتفـاظ بمكاسـبها، خضوعًـا لشـعار «رغيـف الخـبز قبـل تذكـرة الانتخابات». ومـن ناحية ثانيـة فقـد سـعدت هـذه الطبقـة «بكاريزمـا» الزعيم وانتشـت بسياسـته التحريرية التـي دغدغت مشـاعرها الوطنيـة، مـما دفـع بعـض أبنائهـا إلى البقـاء في مقاعـد المتفرجـين. بينـما اندفـع البعـض الآخـر للتعـاون الانتهـازي مـع الدولـة رافعًـا شـعاراتها، وليكونـوا في ذلـك قيـاصرة أكثر مـن القيصر ذاتـه، عـلى حـين أدرك البعض الثالـث أن تجربة التحول توشـك على الأفول. «فالحـوت قادم» لكننا لا نعـرف مـن أيـن يـأتي، كما أشـار إلى ذلك الكاتب الكبير نجيـب محفوظ في قصته ثرثـرة على النيل (٦٣). وقـد أتى الحـوت فعـلاً، ومـن مصـادر عديـدة، فالتهـم التجربـة التـي اختلطت فيها شـفافية الزعيـم بتـشرذم الطبقـة التي عمـل لها.

٣- منظومـة القيـم الموجهة للتغيرات البنائية: على نحو مـا أشرت تلعب الثقافة ومنظومات القيـم دورًا محوريًـا في تنظيـم التفاعـل الاجتماعـي في المجتمـع. حيـث تشـكل القيـم الإطـار الـذي يربـط أفـراد المجتمـع ببعضهـم البعـض. وإذا كان الأفـراد متباينـون بطبيعتهـم فإنهم لكي يشـكلوا مجتمعًـا فإنـه مـن الـضروري اتفاقهـم حـول منظومـة قيميـه محـددة، وهـي القيـم التـى تشـكل مرجعيـة عقدهـم الاجتماعـي لتأسـيس المجتمـع. ومـن ثـم فانهيـار قيـم المجتمع أو حتـى ضعفها سـوف يعنـي ارتـداد البـشر إلى مصالحهـم الفردية، وقيمهـم الفردية التي تبرر هـذه المصالح، إضافة إلى شرور وانحرافـات كثـيرة تظهـر عـلى سـاحة المجتمـع، وتعد مؤشرًا عـلى انهيار منظومتـه القيمية التـي تعـد بدورهـا مقدمـة لانهيـاره (٦٤). وإذا كان مـن الطبيعـي أن يكـون لكل تحـول منظومته القيميـة التـي تحـدد اتجاهـه وتدفـع حركتـه وتنظم التفاعـل الحادث بين عنـاصره. فإننـا إذا تأملنا المشـهد الثقـافي في الفـترة مـن ١٩٥٢ حتى ١٩٧٠ فسـوف نجـد بداية أن المجتمع المـصري دخل عقد الخمسـينيات وهـو يمتلـك منظومـة قيميـة غـير متماسـكة، تشـكل المرجعيـة الأساسـية، للمجتمـع، بحيـث إننـا إذا تأملنـا هـذه المنظومـة فسـوف نجـد أنها تضـم أربعة عناصر أساسـية.

أ – ويتمثـل العنـصر الأول في الـتراث الدينـي القـوي الـذي ترسـب عـلى طبقـات في بنيـة الشـخصية المصريـة، حيـث يشـكل الـتراث الدينـي الفرعـوني الطبقـة الأولى التـي شـكلت الطاقـة الدافعـة لبنـاء هذه الحضـارة ذات القاعدة الدينية الواضحة. وبرغم تنـوع الدين في حقب الحضارة الفرعونيـة المتتابعـة إلا أنهـا اشـتركت في التأكيد على الدين باعتباره عنصرًا قاعديًا في بنية الشـخصية والحضـارة المصريـة. وتشـكل الديانة القبطية االطبقة الثانية التي شـكلت مزجًا رائعًا بين المسـيحية والطبيعـة المصريـة أو تمصـير المسـيحية، ومـن ثـم فقـد شـكلت المسـيحية امتـدادًا للـتراث الدينـي الذي تجدد بتسـامح المسـيحية. ثم جاء الإسـلام ليشـكل طبقة ثالثة تضيف إلى التسـامح المسـيحي في مثاليتـه، عقلانيـة وتوازنًـا في التفاعـل وواقعيـة. وبرغم أنها طبقـات دينية متعـددة إلا أنها تدعم روحًـا واحـدة هـي روح التديـن. ذلـك أن المشـاهد الدينيـة واحـدة برغـم التنـوع فمقابـر الفراعنة

والموميات وهامات أجراس الكنائش ومآذن المساجد متشابهة. صور «العذراء» ومعلقات «آيات القرآن» تثير كلها في النفس ذات العواطف الدينية (٦٥)، من هنا شكلت القيم الدينية قاعدة للثقافة المصرية، فالحلال والحرام الديني هو أساس الصواب والخطأ الثقافي. وأصبح التراث الديني هو دائمًا المرجعية التي يقاس بالنظر إليها قبول أو رفض أي منظومات قيمية أخرى. فالدين متجذر في التاريخ، والدين أيضًا متدفق في المعاصرة لأن النسبة الغالبة من السكان متدنية بالأساس. لذلك أصبح الدين آلية من آليات النضال كما هو آلية من آليات التكيف، وكذلك آلية من آليات الدفع باتجاه العمل والإنتاج، كما هو آلية من آليات الاستمتاع بالحياة. ولقد تضافرت منظومة القيم العربية مع المنظومات الدينية، فاللغة العربية هي لغة القرآن حتى المسيحيون يتحدثون ذات اللغة، ومن خلال اللغة تسربت ثقافة القبيلة العربية التي تتناقض بعض قيمها مع بعض القيم الدينية الإسلامية وإن شكلت القيم الدينية المرجعية الأساسية، بحيث نجدها قد لعبت دورًا في النضال من أجل الحصول على الاستقلال (٦٦).

ب – وقد شكلت منظومة القيم الليبرالية التي جاءت مع المستعمر المنظومة الثانية في في بناء القيم لهذه المرحلة، وبرغم أن هذه القيم لعبت دورًا أساسيًا في التطور الغربي إلا أنها عندما انتقلت إلينا شوهت واختزلت. فقد فهمت الليبرالية في بعض الدوائر الارستقراطية على أنها تحرر نسبي من منظومة القيم والأخلاق. وحينما مورست على الصعيد السياسي أقتصر تداولها بين الأحزاب التي تتشكل من النخبة، ومن ثم فقد استبعدت مشاركة الجماهير التي غرقت في لجة الأمية، ثم كيف تكون قيم ليبرالية في ظل وجود قهر استعماري؟!!. ولأنها كانت ليبرالية هشة فقد كان من السهل ضربها، أولاً لأن القيم التي عرفت بها على الصعيد القومي كانت مضادة لمنظومة القيم العربية والدينية، وهذا أضعفها من أسفل. وثانيًا لأنها كانت ثقافة وأيديولوجيا المستعمر والطبقة الأرستقراطية التي تعاملت معه. بحيث أنه حينما خرج الاستعمار، وحينما قلمت أظافر أو قصت أجنحة الطبقة الأرستقراطية فيما بعد ١٩٥٢ انسحبت هذه المنظومة القيمية من الواقع المصري، برغم أنها قد حققت بعض الإنجازات

الاقتصاديـة في الثلاثينيـات والأبعينيـات مـن القـرن العشريـن (٦٧). بحيـث يمكـن القـول بـأن انسـحاب القيـم الليبراليـة تضافـر، فيـما بعـد ١٩٥٢، مـع إجبـار الطبقـة العليـا المصريـة والأجنبيـة عـلى الانسـحاب مـن عـلى المسرح القومـي. وبرغـم انسـحاب قواعـد هـذه المنظومـة القيميـة مـن عـلى السـاحة، فقـد بقيـت بعـض عواطفهـا ومفرداتهـا القيميـة في الفضـاء العـام للمجتمـع.

جـ - وقـد شـكلت منظومـة القيـم الاشـتراكية المنظومـة القيميـة الثالثـة التـي اتسـعت مسـاحتها تدريجيًـا فيـما بعـد ١٩٥٢. حقيقـة أن الحديـث عـن الاشـتراكية قالـت بـه بعـض أفـراد نخبة الثلاثينيات والأربعينيات كالمفكر الاشـتراكي «سـلامة موسى» وجماعة «الماركسـيين الاشـتراكيين» الذيـن قدمـوا مشروعـات للإصـلاح الزراعـي والاجتماعـي قبل الثـورة. غير أنه بسـبب انتـماء غالبية أعضـاء النخبـة الثوريـة إلى النصـف الأدنى مـن الطبقـة الوسـطى فـإن عواطفهـم كانـت اشـتراكية بالأسـاس، ومـن ثـم فقـد كانـوا في إصلاحاتهـم الواقعيـة ملهمـين بهـذه العواطـف. وحينـما ضربـت تجربـة الوحـدة العربية الأولى بواسـطة القـوى الليبرالية، العالميـة والقوى المتحالفـة معها، فإنه كان مـن الطبيعـي أن تندفـع النخبـة الثوريـة – كـرد فعـل – إلى مزيـد من الاسـتغراق في تبنـي منظومة القيـم الاشـتراكية باعتبارهـا منظومـة قيميـة مضـادة للقيـم الليبراليـة (٦٨). إرتباطـا بذلـك أجهـد المثقفـون والمنظـرون أنفسـهم في هـذه الفـترة، في البحـث عـن رابطـة عضويـة بـين منظومـة القيم الإسـلامية والمسـيحية العربيـة – كمنظومـة مرجعية – وبين القيم الاشـتراكية. وفي هـذا الإطار برزت دعـاوى وشـعارات كثـيرة تؤكـد على هذه العلاقة «كاشـتراكية الإسـلام» و «الاشـتراكيون أنت إمامهم لـولا دعـاوى القـوم والغلـواء» ويقصـد سـيدنا محمـد (عليـه الصـلاة والسـلام). والقول بـأن الناس شركاء في ثلاثـة المـاء والـكلأ والنـار، وكـثر الحديث عـن «أبا ذر الغفـاري» كصحابي فقـير اعتبر مبشراً أسـبق بالاشـتراكية، وفي ذات الوقـت بـرزت قيـادات اشـتراكية ذاع صيتهـا خـلال هـذه الفـترة مثـل «سـلامة موسى وميشـيل عفلـق» (٦٩).

وقـد تحققـت إنجـازات كثـيرة في ظـل التوجهـات الاشـتراكية في المجـال الزراعـي والصناعـي ومجـال الخدمـات، اسـتفادت منهـا أغلبيـة المجتمـع وبخاصـة

الطبقـة الوسـطى والدنيـا. ولم ترفضهـا منظومـة القيم العربية ولا الدينية، لأنها تسـعى إلى تأسـيس نوعيـة حيـاة إن لم يباركهـا الديـن فهـو لا يرفضهـا. غير أن هـذه المنظومـة القيميـة أو الأيديولوجية فتحـت المجتمـع عـلى قيـم تسربـت إلى داخلـه مـن خـلال الإعـلام والمسرح والصحافـة، فأوهنـت بعـض القيـم الأخلاقيـة المنحـدرة إلينـا مـن الـتراث. كـما أضعفـت أو لم تـولْ اهتمامًـا كافيًـا لآليات التنشـئة وفـق القيـم العربيـة وكذلـك قيم الـتراث الدينـي، ونتيجة لذلك بـدأت هذه القيـم تتراجع قليـلاً. يضـاف إلى ذلـك أن التعليـم في مراحلـه المتتابعـة قلـص المضامـين الدينية التي كانت تشـارك في تنشـئة الأبنـاء وفـق القيـم الدينيـة والتراثيـة. إلى جانب ذلك لعبـت تكنولوجيا الإعـلام الحديث دورهـا في التنشـئة وفـق قيـم غـير دينيـة، الأمـر الـذي أدى في النهايـة إلى تقليـص منابـع التنشـئة حسـب قيـم الـتراث، دينيًـا كان أم عربيًـا، وهـو مـا أضعـف تأثير منظومـة القيـم التراثية نسـبيًا. في مقابـل ذلـك ورغـم التأكيـد عـلى أيديولوجيـا التنميـة الاشـتراكية، وبرغـم الانجـازات الواقعيـة التي تحققت في واقع المجتمع تجسـيدًا للشـعارات الاشـتراكية، فإن القيم المتضمنة في هذه الأيديولوجيا لم تؤسـس حينئـذ مؤسسـات اجتماعيـة تتـولى تنشـئة البشر وفقًا لقيمها. اللهم إلا مؤسسـات هشـة كالتنظيـم الاشـتراكي الوحيـد الذي امتطـى صهوته الانتهازيون مـن أبناء الطبقة الوسـطى، إضافة إلى بعـض المعاهـد التـي تولـت تدريب بعض الشـباب على بعض الشـعارات الاشـتراكية دون اسـتيعاب القيـم الكامنـة وراءهـا، واسـتبعدت الجماهـير بتراثها من التنشـئة وفـق القيم الاشـتراكية(٧٠).

د – بـروز منظومـة القيـم الانتهازيـة كجـزء مـن أخـلاق الطبقـة الوسـطى، أذ أنـه نتيجـة للتحـولات الاجتماعيـة التـى تحققـت خـلال مرحلـة التحـول الاشـتراكى، أتجهـت الطبقـة الوسـطى إلى الحـراك الاجتماعـي مـن خـلال قنواتـه العديـدة، وأبرزهـا التعليـم. ومـن ثـم فقـد كان مـن المنطقـي نتيجـة لذلـك أن تبـدأ بعـض شرائـح الطبقـة الوسـطى في التخـلي عـن أخلاقهـا التـي عرفـت بهـا لأسـباب عديـدة. مـن هـذه الأسـباب أن الإنسـان في حراكـه الاجتماعـي، يسـتوعب توجهـات ثقافيـة وقيميـة مرنـه فيـما يتعلـق بالقيـم حسـبما عـالم الاجتـماع بيـترم سروكـين. فهـو يتحـرك عـبر سـياقات اجتماعيـة عديـدة، وفي كل سـياق يـترك قيـمًا سـابقة ليتعامـل بقيـم السـياق

الجديـد. هـو إنسـان فندقـي Hotel Man حيثـما يحـط ترحالـه فإنـه يتعامـل بقيم السـياق الذي حـط فيـه(٧١). لذلـك فالقيـم تتحـول لديـه من غايات يسـعى إلى تحقيقها إلى وسـائل تسـاعده في الإنجـاز وتحقيـق التكيف.

في هـذا الإطـار تـبرز أربعـة فرضيـات تحـاول تفسـير انهيار أخـلاق المجتمع ومن ثـم انهيار أخـلاق الطبقـة الوسـطى. حيـث يسـتند الافـتراض الأول إلى تنظـير النقـد الاجتماعي، الـذي يرى أن كل طبقـة في صعودهـا الاجتماعـي مـن الممكـن أن تتبنـى أيديولوجيـات وتوجهـات راديكالية، فإذا بلغـت غايتهـا وشـغلت مراكزهـا فإنها تسـعى للحفـاظ عليها ومن ثـم نجدها تتبنى قيـمًا محافظة. وفي ذلـك يذهـب س. رايـت ميلـز في مؤلفه الخيال السوسـيولوجي، إلى القول أن القيـادات الطلابية في عقـود تاريخيـة سـابقة هـم الذيـن يشـغلون مراكـز السـلطة والمناصـب الجامعيـة الحاليـة في مرحلـة تاريخيـة تاليـة. ويرجـع ذلك إلى أن الحراك الاجتماعي يولد لدى الإنسـان قـدرة على التخلي عـن منظومـة القيـم التـي لديـه واكتسـاب قيـم جديـدة تتـلاءم مـع الظـروف أو السـياق الجديـد. وكلـما اندفـع الحـراك الاجتماعي رأسـيًا أو أفقيًا، كلـما كان ممكنًا أن يتخـلى المتحركون عن منظومة قيمهـم واكتسـاب قيـم وثقافـة جديـدة. الأمر الذي يضعـف في النهاية لديهم بعد الالتـزام القيمي، ومـن ثـم تتولـد لديهـم حالـة مـن المرونـة القيميـة، التـي تيـسر لهـم التكيف مـع أي قيـم ومع أي مبادئ (٧٢).

ويتصل الافتراض الثاني، الخاص بحالة منظومة قيم الطبقة الوسطى أثناء حراكها الاجتماعي، بمفهـوم الافتراضـات القاعديـة الذي قدمها عـالم الاجتماع المعاصر «ألفن جولدنـر». الذى ذهـب إلى القـول بـأن للإنسـان علاقـة بثلاثة أنمـاط مـن الافتراضـات القاعديـة Back-ground Assumption وهي الافتراضات التي تنمو مع الإنسـان ويكتسـبها من خلال التنشـئة الاجتماعية في سياق اجتماعي وثقـافي محـدد. وافتراضات المجال Domain Assumption وهـي الافتراضات التي يرى أن التفاعل الاجتماعـي المحيـط بـه محكـوم بهـا، ثـم الفـروض أو القضايـا Propositions التـي تشـكل وجهـة نظـره في الحيـاة. وبطبيعـة الحـال فإن وجهة النظر هذه تسـتند بالأسـاس إلى الافتراضـات القاعدية

وافتراضـات المجـال. ومـن ثـم فتغيـير الإنسـان بحكـم حراكـه الاجتماعـي لأوضاعـه وسـياقاته الاجتماعيـة مـن شـأنه أن يـؤدي إلى تغيـير افتراضاتـه القاعديـة، ومـن ثـم افتراضـات المجـال، الأمـر الـذي يدفـع بـه إلى تغيـير وجهـة نظـره في كل مـا يحـدث حولـه. فليس لديـه التزام محـدد بوجهة نظـر ثابتـة (٧٣)، الأمـر الـذى يخلق لدى الإنسـان المتحرك حالـة من عدم الإلتـزام القمي والأخلاقي الثابـت، حيـث الالتـزام دائمًـا بالقيـم التـي تحقـق لـه قـدرة تكيفيـه عالية مـع موضوعـات الموقف والسـياق المحيط.

وتطـرح نظريـة التبـادل افتراضًـا ثالثًـا يفـسر حالـة الأنومي الأخلاقيـة التي أصابـت الطبقة الوسـطى، حيـث تذهـب نظريـة التبـادل إلى القـول بـأن البـشر في تفاعلاتهـم الاجتماعيـة يتبادلون قيـمًا. في هـذا الإطـار يسـتند التبادل المسـتقر إلى تسـاوي القيم التي تشـكل مضمون التبادل، سـواء كانـت قيـمًا ماديـة أو معنويـة. غـير أنـه إذا أجـزل أحد أطـراف التبادل العطـاء للطـرف الآخر دون إصرار عـلى أن يحصـل عـلى المقابـل، فـإن ذلـك مـن شـأنه أن يدفع الطـرف الآخر إلى تقليـص القيم التـي يدفعهـا في عمليـة التبـادل، ومـن ثـم يظهر ما يمكن أن يسـمى بالتبـادل غير المتـوازن. في إطار هـذا التبـادل غـير المتـوازن نجـد أنـه كلـما أجـزل طـرف العطـاء دون الإصرار عـلى المقابـل بنفـس القيمـة، فـإن ذلـك يدفـع الطـرف الآخـر إلى تقليـص المقابـل المدفـوع بدرجـة أكـثر، طالمـا أنـه قـد ضمـن الحصـول عـلى مـا يريد دون أن يدفـع المقابل. وتسـتمر هذه الحالـة من التفاعـل أو التبادل حتـى نصـل إلى تحقيـق مـا يمكـن أن نسـميها بحالـة التبـادل الصفـري، حيـث يدفـع أحـد الأطراف كل شيء، بينـما لا يحصـل عـلى شيء في المقابـل مـن الطرف الآخـر (٧٤). هكذا كانـت علاقة الدولة بالطبقـة الوسـطى، حيـث أجزلـت الدولـة لها العطـاء من كل اتجـاه دونما إصرار عـلى الحصول منها عـلى المقابـل. وهـي الحالـة التـي دفعـت هـذه الطبقـة إلى تبنـي عـادة الأخـذ دون العطـاء، الأمـر الـذي أضعـف بداخلهـا القيم الإنسـانية وأسـقط منهـا التزامهـا الأخلاقي.

وتــبرز الفرضيــة الرابعــة لتفســير ســلوك هــذه الطبقــة إســتنادا إلي حالــة «الأنومــي» أى أفتقــاد المعايــير التــي قــد يعــاني منهــا أي مجتمــع مــن المجتمعــات.

وإذا كان نظام يوليو قد طرح منظومة قيمية أكد في إطارها على السعي من أجل الرفاهية والتأكيد على المثل وعلى قيم الإنجاز، فإن واقع الأحداث انتهى إلى ما يشهد بعكس ذلك والأمثلة على ذلك كثيرة. فقد واجه النظام في ١٩٦٧ هزيمة مدوية قضت على الأخضر واليابس من شرعيته، وهي الهزيمة التي أبرزت هشاشة النظام بدلاً من تأكيد قوته. إضافة إلى بروز أخطاء في منطقة، كتفضيل أهل الثقة على أهل الخبرة، إلى جانب فرض القهر الأمني على البشر، فآلة النظام كانت قوية وباطشة. في هذه الحالة تولدت استجابات رافضة ابتداء من الانسحاب السلبي الكامل ونهاية بالتمرد وحتى العنف الإيجابي. ويعد التجديد في الوسائل دون الغايات منطقًا حكم سلوك أبناء الطبقة الوسطى في هذه المرحلة، حيث السعي لتحقيق الغايات بغض النظر عن شرف الوسائل. فالغاية التي تبرر الوسيلة تعد أحد الاستجابات التي يتبناها البشر للتكيف مع واقعهم المحيط، فالميكافيلية أو الانتهازية، تعني أن نحقق أهدافنا بغير الوسائل والسبل التي يقرها المجتمع(٧٥).

لقد شكلت هذه الفرضيات جميعها تطوير منظومة قيمية شكلت مرجعية لتوجيه السلوك الانتهازي، الذي التزم به أغلبية أبناء الطبقة الوسطي، بخاصة هؤلاء الذين نجحوا في تحقيق حراك تعليمي واسع. مظاهر هذا السلوك الانتهازي كثيرة. فهم في البداية قد انفصلوا عن إطارهم الاجتماعي الذي ولدوا فيه، لأن التعليم أكسبهم قيمًا وثقافة ساعدت على تفكيك روابطهم الاجتماعية والثقافية التقليدية، بل تنكروا لها أحيانًا، حتى قيل أن القرية المصرية التي تعلم أولادها تجعل منهم أعداء لها. وهم أيضًا الذين تسلطوا وتسلقوا التنظيمات السياسية، ابتداء من هيئة التحرير إلى الاتحاد القومي إلى الاتحاد الاشتراكي، برشاقة وقدرة بهلوانية منقطعة النظير. وهم الذين استغلوا نفوذهم في الوظائف الإدارية العليا بجهاز الدولة أو في القطاع العام، فحولوا نفوذهم إلى رأسمال اقتصادي شكل خميرة رأسمالية، بحيث أصبحوا هم عمد أيديولوجيا وسياسات الانفتاح بعد ذلك، ابتداء من السبعينات. وهم الذين حولوا الوظائف العامة إلى مصادر للدخل الخاص، بحيث تحول الوطن الذي منحهم الكرامة إلى فريسة على مائدة

اللئام (٧٦). وحينما مات الزعيم الاشتراكي العظيم وانطوت معه صفحات التجربة الاشتراكية، لم تنظر هذه الطبقة بأسى إلى الماضي الاشتراكي، كما لم تزرف دمعًا حقيقيًا عليها، وحينما قدم لها زعيم لاحق وعودًا بالترف والرفاهية صفقت للعهد الجديد وسعت مهرولة تقدم ولاءها له.

خامساً: الثقافة ومنظومات القيم على خريطة التحول الليبرالى

انتهى التحول الاشتراكي إلى إحداث تغيرات جذرية في بناء المجتمع المصري، في جوانبه الزراعية والصناعية، بيد أن تأمل هذه التغيرات يشير إلى أنها صبت جميعها في نهر الطبقة الوسطى التي راهن عليها النظام السياسي، ودفع إليها بمكتسبات كثيرة. غير أنه بسبب غياب آليات التربية الأيديولوجية والثقافية وفقًا لمنظومة القيم الاشتراكية، وبسبب غياب الثقافة المتماسكة التي تقود التطور الاجتماعي. وكذلك بسبب عطاء الدولة السخى للطبقة الوسطى دون مقابل، إضافة إلى أنها الطبقة التي أصبحت تمتلك رأس المال المعرفي، فأبناءها شكلوا – على نمو ما أشرت - ٨٥٪ من طلاب الجامعة، لكل ذلك فقد شعرت هذه الطبقة بالتفرد لأنها تمتلك ما تفتقده الطبقات الأخرى. وبسبب المنظومة القيمية المتماسكة التي توجه سلوك البشر، فقد أصبح سلوك أبناء الشريحة المتعلمة لهذه الطبقة عشوائيًا، أنانيا وفرديًا، سقط عنه أي التزام إجتماعى. ومن ثم فقد أصبح سلوكا انتهازيًا يرتبط بمصالحهم المباشرة، ولذلك فقد وظفت معرفتها لصالح أي سيد يمنحها المقابل، وبرغم أن هذه الشريحة، قد نشئت في إطار مناخ اشتراكي، فأنها التي لعبت دورًا أساسيًا في دعم التحول الليبرالي. من خلال صياغة إعلاناته وتوجهاته الليبرالية، وأيضًا بالمساهمة في بناء الترسانة القانونية التي تصفي آثار التحول الاشتراكي، حتى يتأسس التحول الليبرالى الجديد (٧٧).

بيد أننا لكى نفهم هذا التحول الجديد فإنه من الضرورى التمييز بين نمطين من التحولات، التحول الذى يؤسسه المجتمع بهدف تعظيم قدرته التكيفية، وذلك حتى يشغل مكانة فاعلة فى سلم التدرج العالمى لبناء القوة. هذا النوع من التحول له إستراتيجيته وله مشروعة الاجتماعى، وله أسلوبه فى التعامل

مع البيئة العالمية المحيطة، كما أن له أهدافه المحددة التى يسعى إلى تحقيقها، وهو ما درج مفكروا الاقتصاد السياسى على تسميته بالتحول المستقل. على خلاف ذلك يعرف النمط الثانى من التحول، بالتحول المفروض من أعلى، أى من قبل النظام العالمى على المجتمع القومى، وهو فى الغالب ذو طبيعة قهرية مرفوضة. فى حالة التحول القهرى أو المفروض تضييق الاختيارات عادة، تغلق كل الطرق إلا طريق واحد على التحول أن يطرقه. فطاقة التحول تكون عادة من خارجة، إما على هيئة ضغوط تفرضها البيئة العالمية المحيطة، وأما على هيئة ضغط مباشر من القوى العالمية حتى ينطلق التحول فى الاتجاه المحدد له، وأما لأن القوى العالمية هى التى تمد التحول بالطاقة اللازمة لانجازه. هذا النمط من التحول لا يكون له فى العادة مشروع إجتماعى، أهدافه ذات طبيعة تكتيكية لأن الرؤية الاستراتيجية تكون فى يد التحول العالمى حيئذ. على الصعيد القومى قد تبدو حركة التحول ذات طبيعة عشوائية، غير أنها لا تكون كذلك إذا حاولنا فهمها من منظور عالمى (٧٨). فى هذا الإطار ليس من المهم أن تشبع مضامين التحول الحاجة إليها على الصعيد القومى بل على الصعيد العالمى بالأساس. فى مرحلة السبعينيات سمى هذا التحول بالتحول التابع، لإن الطبقة البرجوازية التى قادته كانت شريكا صغيرا تحصل على بعض فئات مائدة البرجوازية العالمية التى فرضته، وعند نهاية الألفية الثانية يستحق التحول الذى وقع حينئذ أن يسمى بالتحول «الخادم»، لأنه ليس من حقه ان يكون شريكا، فالقرار دائما ونهائيا بيد السادة. بدأ التحول إلى الليبرالية بظروف سلبية على الصعيد القومى، وأخرى تتعلق بضغوط صادرة عن البيئة العالمية، وثالثة تتعلق بطموح المجتمع وفئاته المسيطرة فى الرغبة فى البقاء فاعلا وحيا. ويمكن القول بأن نكسة يونيو ١٩٦٧ شكلت نقطة الصفر أو بداية النهاية للمشروع الاشتراكى، فقد واجه النظام السياسى هزيمة منكرة أضعفت فاعليته وقوة أثيرة على الصعيد القومى والعربى والإقليمى والعالمى كذلك. ونتيجة لذلك تباطأت معدلات النمو حتى وصلت إلى ٢,٥٪ بالسالب فى عام ١٩٦٩، لأن كل الموارد وجهت إلى المعركة حينئذ(٧٩)، وإلى السعى لإزالة آثار العدوان. ثم طويت

الصفحة الاشتراكية تماما بوفاة الزعيم الاشتراكى فى عام ١٩٧٠، وتراجعت وضعفت النخبة الاشتراكية حينئذ. بحيث ساعد ذلك على إنتصار الزعيم الجديد الذى كان مولعا بالنموذج الليبرالى، وأن تخفى فى البداية فى ثوب الناصرية، لأن مرجعيتها كانت هى مصدر الشرعية بالأساس. بالإضافة إلى ذلك فقد أدرك زعيم السبعينيات - بنظرة ثاقبة - أن ميزان التحول العالمى يميل لصالح القوى الليبرالية، ولغير صالح القوى الاشتراكية. فالثورات تتساقط تدريجيا فى العالم الثالث وتنتكس، ومجتمعاتها تتحول لتلحق بالقوى الرأسمالية، والمعسكر الاشتراكى الأم بدأ نموه متخاذلا ومتعبا، بل ومتراجعا، بحيث لم يعد هو القوة المسيطرة بندية على التفاعلات العالمية، كما كانت الحال خلال فترة الخمسينيات والستينيات. لذلك قرر الزعيم الليبرالي الجديد أن تكون الرياح الليبرالية هى الطاقة الدافعة لقلاع السفن المصرية. ونتيجة لذلك إتجه إلى تقطيع الروابط مع الكتلة الاشتراكية، وتلمس السبل إلى ذلك وبمنطق مجانى، كأنما يريد أن يقفز من نطاق إلى نطاق وبأى ثمن. ولتحقيق ذلك بدأ فى أعلان سياسات الانفتاح الاقتصادى والسياسى، التى أتجهت إلى تحرير ودعم القطاع الاقتصادى الخاص من ناحية، ودفع الممارسة الليبرالية فى تأسيس الأحزاب مرورا بتجربة المنابر، حتى تتم اللعبة السياسية وفق أسس ليبرالية من ناحية ثانية (٨٠).

إلى جانب ذلك فقد رغب النظام السياسى خلال هذه المرحلة ان يبقى حيا وفاعلا، ونظراً لأن هذا النظام قد بدأ بشرعية ناقصة، فقد إنشغل بتوسيع وتعميق شرعيته فى سياق إجتماعى ضاق بالمتاعب الاشتراكية. وقد أستغل النظام السياسى إنتصاره فى أكتوبر ١٩٧٣ فى توسيع نطاق هذه الشرعية من خلال إطلاق ثورة الطموحات والآمال الواسعة. فى هذا الإطار نعتت الاشتراكية بانها المساواة فى الفقر. وتم التبشير بحريه التعبير، يتكامل مع ذلك التأكيد على الديموقراطية التى لها أنياب، وأن حرب ١٩٧٣ هى أخر الحروب، وأن علينا أن نتراجع عن القضايا العربية فقد أستزفتنا. وعلينا أن نهتم بمشكلات الوطن، علينا أن نسعى للرخاء، ونوثق علاقتنا بالقوى الليبرالية فى العالم، فهم أصحاب القوة وهم الأغنياء. وحتى يصبح تخدير الجماهير كاملا، بدأ الزعيم حينئذ،

يـوزع الكسـاء الشـعبى الرخيـص عـلى المواطنـين وطـلاب الجامعـة، وبـدأ يجهـد نفسـه فى تجربـة سـيارة شـعبية لـكل مواطـن، وفى قلـب هـذا السـياق الاجتماعـى المخـدر خطـى الزعيـم خطـوات كثـيرة أبرزهـا التراجـع عـن قضايـا عربية محوريـة. ولتأكيد الروابط مـع – إسرائيل – وسـيط القوى الليبراليـة، عقـد إتفاقيـات كامـب ديفيد كمدخـل للتصالح مع هـذه القوى، وقيل حينئـذ أن الزعيم صاحـب نظـرة ثاقبـة وأنـه قـد سـبق عصره وأوانـه. وإرتباطـا بذلك حدثـت تحولات كثـيرة فى إطار الواقـع الاجتماعـى شـكلت بيئـة مواتيـة لإنهيـار القيـم فى هذه المرحلـة (٨١).

١. طبيعـة التغـيرات فى إتجـاه التحـول الليـبرالى: بـدأ هـذا التحـول في الفـترة التـي شـهدت ضعـف التحـول الاشـتراكي، وذلـك بصـدور القرار الـوزاري رقـم ١٠٠ لسـنة ١٩٦٩ والـذي يتيح لرأس المـال الخـاص والأجنبـي الاسـتثمار في المشروعـات الصناعيـة المسـموح بالاسـتثمار فيهـا لـرأس المـال الوطنـي. وفي أعقـاب أحـكام النظـام السـياسي الجديـد – الـذى جـاء بعـد وفـاة الزعيـم الإشـتراكى - قبضتـه عـلي السـلطة والمجتمـع، مـن خـلال حركـة مايـو ١٩٧١ اتجـه سريعًـا إلى تجسـيد التحـول الـذي قـاده مـن خـلال مجموعـة مـن القـرارات والقوانـين، والتـي كان أولهـا صـدور القانـون رقـم ١٩٦٥ لسـنة ١٩٧١، وهـو القانـون الخـاص باسـتثمار رأس المـال العـربي والأجنبـي وإنشـاء المناطـق الحـرة. كـما أنشـأ هـذا القانـون هيئـة لاسـتثمار هـذه الأمـوال، ثـم تـوالى صـدور القوانـين المؤكـدة لهـذا التحـول حيـث صـدر القانـون رقـم ١٩٤٣ لسـنة ١٩٧٢ والـذي رد الاعتبـار للبرجوازيـة العليـا مـن خـلال عـدة إجـراءات مثـل فـك الحراسـات، ودفـع التعويضـات لمـن أممـت ممتلكاتهـم ومشروعاتهـم. وإلغـاء القيـود الـواردة في القانـون الصـادر في نوفمـبر ١٩٦٣ بحظر مبـاشرة الحقوق السياسـية بالنسـبة لبعـض الفئـات الاجتماعيـة (٨٢). ولتأكيـد دفـع التطـور في هـذا الاتجـاه صـدر القانـون رقـم ٤٣ لسـنة ١٩٧٤ بشـأن اسـتثمار رأس المـال العـربي والأجنبـي وتعديلاتـه بالقانون رقم ٢٢ لسـنة ١٩٧٧ الـذي قـدم تسـهيلات عديـدة لـرأس المـال العـربي والأجنبـي (٨٣). وقـد اسـتمر تعاقـب إجـراءات النظـام في هـذا الاتجـاه، منهـا القوانـين التي تولت تصفيـة القطاع العام لحسـاب

القطـاع الخـاص، وحتـى الإجـراءات التـي أكـدت التحالـف العضـوي مـع البرجوازيـة العالميـة مـن خـلال اتفاقيـة الكويـز. واسـتنادًا إلى الإعلانات والقوانين التـي صدرت عن النظام السـياسي في الفترة التـي بـدأت مـن السـبعينات وحتـى الأن تواجـدت عـلى السـاحة الاجتماعيـة عـدة قـوى اجتماعية بـدأت تمـارس سـلوكياتها الاجتماعيـة في ظـل حالـة مـن «الأنومـي الثقافيـة». ووفـق منطـق نفعي بحـت، اللهـم إلا قطـاع من الطبقة الوسـطي تراجـع الدين لديهـا إلى حدود الضمير الفـردي، ليوجه السـلوكيات الشـخصية الواقعيـة. دون أن يتسـع ليوجـه السـلوكيات المتصلـة بالمجتمـع، حيـث حصنتهـا الأخـلاق وقيـم الديـن حتـى لا تنزلـق في إفسـاد المجتمع.

٢. القـوى المتفاعلـة عـلى سـاحة التحـول الليـبرالى: إذا كان التحول الاشـتراكي قـد تحالف مع الطبقة الوسـطى بالأسـاس، بعد أن تولى اسـتبعاد الطبقة العليا من المشـاركة في اللعبة الاجتماعية، ورضيـت الطبقـة الدنيـا بمـا قـدم إليهـا مـن فـرص محـدودة. فـإن التحـول الليـبرالى الجديد شـكل إطـارًا تفاعلـت عـلى سـاحته الطبقـة العليا والوسـطى على السـواء. وسـوف نعرض فيـما يلى لمكانة ودور كل طبقـة او قـوة مـن القـوى الاجتماعيـة، مـن حيـث علاقتهـا بالتحـول، وإيديولوجيتهـا فى إنجـازه، وآلياتهـا فى تحقيـق هـذا الإنجاز.

أ- الطبقـة العليـا، قـوة التحـول الليـبرالى الجديـد: في هـذا الإطـار تعـد الطبقـة العليـا هـي القـوة الاجتماعيـة التـي صـدرت لصالحهـا قوانـين وقـرارات التحـول الجديـد. غـير أن هـذه الطبقـة لم تنـس تجربتهـا التاريخيـة المريـرة مـع الدولـة في المرحلـة الاشـتراكية، ورأت أن اسـتدعاءها التاريخـي ليـس «لسـواد عيونهـا» ولكـن لظـروف فرضـت وجودهـا. مـن هـذه الظـروف أن البرجوازيـة العالميـة، هـي الآن القـوى الأقـوى في العـالم، وهـي ربيبتهـا، ومـن المؤكـد أنهـا سـوف تحصـل عـلى حمايتهـا. مـن هـذه الظـروف أيضًـا أن الدولـة أصبحـت محـدودة المـوارد، ومـن ثـم فهـي تسـعى باتجـاه تصفيـة القطـاع العـام وقيـادة تنميـة تعتمـد بالأسـاس عـلى القطـاع الخـاص، ومـن ثـم فهـي القـوة التـي يحتاجهـا النظـام السـياسي بدرجـة أكـثر مـن حاجتهـا إليـه. تأكيـدًا لذلـك – وهـو الظـرف الثالـث – أن النظـام السـياسي أصـدر القوانـين

والقـرارات التـي تؤمـن مصالحهـا. وقد تعمقت لديها درجـة الأمان لأن البرجوازية العالمية شـاركتها في مشروعاتهـا، وهـي بطبيعـة الحـال مؤمنـة بالقـوى التـي تقـف وراءهـا. وبرغم الأمـان الذي منح لهـا فإنهـا لم تشـارك في الخطـة الخمسـية ٨٢ – ١٩٨٧ سـوى بربـع الاسـتثمارات اللازمـة للخطـة استكشـافًا للنوايـا، ثـم ارتفعـت في الخطـة التالية لتصل إلى النصـف تقريبًا. وبرغـم أن بعض عناصر هـذه الطبقـة شـارك في تنميـة المجتمـع بإحسـاس عـالي مـن المسـئولية، إلا أن نسـبة عاليـة منهـا أبدعـت في ابتـكار أشـكال عبقريـة في الفسـاد. يكفـي أن نشـير أن هـذ العنـاصر قـد اقترضـت مـن البنـوك حـوالي ٤٧ مليـار دولار دون إمكانيـة للـرد، ومزيـدًا من تدليـل الدولة لهم قـال عنهم رئيس الـوزراء حينئـذ «أنهـم حفنة بسـيطة لا تشـوه وجـه رجال الأعـمال في مـصر» (٨٤). وبطبيعة الحال يرجـع الفسـاد الـذي سـلكته هـذه القوى إلى حالـة «الأنومـي» الثقافية السـائدة، وأيضًـا إلى تراخي القوانـين والضوابـط الحكوميـة، وأيضًـا إلى تدليـل الدولـة الرخوة، حينئـذ، لهم.

ب- الطبقـة الوسـطى فاعـل تنسـحب مـن عـلى المـسرح الليـبرالى: وتشـكل الطبقـة الوسـطى القـوة الاجتماعيـة الثانيـة التـي كان لها وجودها عـلى المسرح السـياسي والاجتماعي خلال عقـود التحـول الأخـيرة. لقـد أدركـت هـذه القـوة أن البيئـة الاجتماعيـة والسياسـية لم تعـد مواتيـة لهـا، فالنظـام الليـبرالي الجديـد متنكـر لهـا ويتجـه إلى سـحب امتيازاتهـا. فقـد فـك الحراسـات عـن الأراضي الزراعيـة، التـي اسـتولت عليهـا الدولـة الاشـتراكية ووزعتهـا عليهـا، فعـادت إلى البرجوازيـة العليـا. وتراجـع التـزام الدولـة عـن تعيـين الخريجيـين، وحـررت إيجـارات المسـاكن والأراضي الزراعيـة وتآكلـت مجانيـة التعليـم بواسـطة الـدروس الخصوصيـة، وارتفعـت أسـعار الخدمـات، الأمـر الـذي أدى إلى إرهـاق أسرة الطبقـة الوسـطى. وقـد حـاول أبنـاء الطبقـة الوسـطى التكيـف مـع هـذه الظـروف بأحـد أسـاليب ثلاثـة. حيـث حاولـت مـن خـلال الأسـلوب الأول الهـروب إلى عـالم الأيديولوجيـا والديـن، فظهـرت مـن رحـم الطبقـة الوسـطى الجماعـات الماركسـية والناصريـة والجماعـات المتطرفـة بالديـن، ودخلت بسـبب ذلـك في صدامات مع النظام السـياسي. وسـعت من خـلال الأسـلوب الثـاني إلى الهـروب والهجـرة إلى مجتمعـات الخليـج، بدورهـا تسـتريح مـن العنـف

الـذي يفـرض عليهـا مـن النظام، ويسـتريح النظام السـياسي بهجرتها وهروبها. في نطـاق ذلك هاجر حـوالي ثلاثـة إلى اربعـة ملايـين مـن أبنـاء هـذه الطبقـة، بينما اتجـه البعـض الثالث إلى وضع نفسـه في خدمـة المـشروع الاجتماعـي للقطـاع الخـاص. بينـما آثـر البعـض الرابع طرق سـلوكيات الفسـاد والجريمـة والانهيـار، وفي هـذا الإطـار انفصلـت نخبـة الطبقـة عـن قاعدتهـا. ولم يعـد هنـاك وجـود لتيـارات أيديولوجيـة وسياسـية متماسـكة، تمثـل رؤيـة ومصالـح الطبقـة في إجمالها نظـرًا للتحولات العالميـة والمحليـة المعلومـة. واتجهـت معظـم الطلائـع المثقفة لهـذه الطبقة إلى تحقيـق مصالحهم الآنيـة، ووفقًـا لإعتبـارات براجماتيـة وماديـة بحتـه. فقـد تراجـع تقريبًـا عـصر الخطابـات الكـبرى بحسـب تعبـير ج. ف. ليوتـار ولم يحفـل بهـا سـوى القلـه، وبديـلا لذلك وجهـت إمكانياتهـا إلي عالم السـوق (٨٥). وقـد كان ذلـك يعنـي أن هـذه الطبقـة قـد توقفـت عـن صناعـة التغيـير الاجتماعي، وبـدأت تخضـع لتأثـيرات سـلبية فرضهـا التغـير الاجتماعـي فى الزمـن الليـبرالى. لقـد أدركـت هـذه الطبقـة أن زمانهـا قـد انتهـى إلى غـير رجعـة، وإن عليهـا – إذا أرادت أن تبقـى – فلابـد أن تخـدم بسـلوكياتها وجهودهـا مـشروع غـير مشروعهـا الاجتماعـي، مـشروع الطبقـة العليـا. لقـد انتهـى بالنسـبة لهـا عـصر السـيادة، وعليهـا أن تـرضى ببعـض الفتـات الـذي يحصل عليـه الخدم.

لقـد أدركـت هـذه الطبقة أن المشروع الاجتماعي للطبقة العليا لن يتجسـد إلا بمسـاعدتها وتعاونهـا، كـما أدركـت أيضًا أنه لم يعد أمامها سـوى العمـل من خلال المشروع البرجوازي بالأسـاس. وتأملـت الطبقـة الوسـطي أوضاعهـا – وبخاصـة الشريحـة التي حققت حـراكًا اجتماعيًـا بالنظر إلى مرجعيتهـا الطبقيـة – فوجـدت أن لديهـا رؤوس أمـوال عديـدة، وأن بإمكانهـا أن تشـارك في اللعبـة الاجتماعية الدائرة في نهاية الألفية الثانية، غير أن مشاركتها ينبغي أن تقوم وفقًا لأيديولوجيا المنفعة وحسـب قيـم السـوق. وأمـام ذلـك تأملـت رأسـمالها الذي تشـارك بـه فوجدت أنـه بينـما امتلكت البرجوازيـة العليـا رأس المـال الاقتصـادي وإن كان بطاقـة اسـتثمارية أكـبر، فإن لديهـا رؤوس أموالها الإقتصاديـة الخاصـة أيضًـا، وإن كانـت بطاقـة اسـتثمارية أقل. لقد تشـكل راسـمالها الاقتصادي لأن

سياسات الإصلاح الزراعي في الريف منذ قيام الثورة وحتى بداية السبعينيات لم تمس ملكية الطبقة الوسطي حينئذ. بل أضافت إلى ملكيتها حوالي ٦١٤ ألف فدان(٨٦)، إضافة إلى عدم تأميم الشركات والمصانع التي لم يتجاوز رأس مالها حينئذ ٣٩٠٠٠ جنيه وهي مصانعها وشركاتها. إلى جانب ذلك فإننا نجد أن بعض أفراد هذه الطبقة، حينما تولوا الشركات المؤممة أو شركات القطاع العام، حصلوا على مرتبات عالية أو مكافآت وأرباح. واعتبروا أنفسهم – عن انحراف – حينئذ حلقة الصلة بين القطاع العام أو الحكومي والقطاع الخاص، ومن هذه العلاقة حققوا عوائد كثيرة. لقد خاطرت بعض عناصر هذه الطبقة في هذه المرحلة، باستخدام رأس مالها المحدود في محاولة للحاق بالطبقة العليا، أو لتكون الشريك الصغير لها.

بالإضافة إلى ذلك فإن هذه الطبقة تمتلك أيضًا رأس المال البشري، القادر على أداء الوظائف الاجتماعية والاقتصادية، التي يحتاجها المشروع الاقتصادي الجديد، المستند إلى آليات السوق. فأبناؤها هم الذين تخرجوا من النظام التعليمي بأنواعه العديدة، ومستوياته التأهيلية وكافة تخصصاته، وبكافة اللغات كذلك. بالإضافة إلى أن شريحة واسعة من أبنائها يدخل في نطاق ما يُسمى بالعمالة الرمزية، وهي عمالة حديثة بطبيعتها، يضاف إلى ذلك أن العمالة الإدارية أو البيروقراطية تنتمي إلى هذه الطبقة، وبهذه المهارات أصبح بإمكانها أن تشارك في التحول الجديد، وأن يكون لها فيه موطئ قدم. إلى جانب ذلك فهي الطبقة التي تمتلك دون الطبقات الأخرى رأس المال المعرفي أو الثقافي، لكونها الطبقة الأكثر تعليمًا في المجتمع، أو حسبما أشرت ينتمي إليها ٨٥٪ من الملتحقين بالتعليم الجامعي، فالتعليم الجامعي والمعرفة يشكلان الثروة والميراث الحقيقي لهذه الطبقة. وهي ترى أن الطبقات الاجتماعية الأخرى لا تمتلك هذا الرأسمال بنفس القدر ولا بنفس الكفاءة، وهكذا بدأت الطبقة الوسطى تلعب نفس الدور، الذى لعبته تقريبًا أثناء مرحلة التحول التاريخي، الذي تمر به بعض المجتمعات (٨٧). ونتيجة لذلك فقد تشرذمت على هذا النحو أوضاع الطبقة الوسطي ولم يعد يحكمها وعي واحد، حيث قنعت شريحة غالبة فيها بما قسمه

اللـه لهـا. وواصلـت أداء أدوارهـا مـن مواقعهـا المختلفـة مسـتندة إلى إيمـان دينـي عميـق يفـرض عليهـا العمـل مـن أي موقـع لأن العمـل عبـادة. بينـما تأملت شريحة أخـرى قطار التحـول فقررت أن تقفـز فيـه، لأن السـادة بالقطـار، ومـن المؤكـد أنـه سـوف يكـون لهـا دور فيـه، لقـد تشرذمـت الطبقـة وتفتـت وعيهـا أو تـآكل تبعًـا لذلـك، لأنهـا لم تعـد القـوة المدللـة في التحول.

٣. ثقافـة التحـول الليـبرالى ومنظوماتـه القيمية: مـن الطبيعي ان يحتـاج التحول الاجتماعي الليـبرالى إلى منظومـة مـن القيـم والمبـادئ التي تشـكل الأيديولوجيا التـي توجهه من ناحيـة، والتي تضفـي عليـه شرعيـة مـن ناحيـة ثانيـة. وإذا كان التحـول الاجتماعـي السـابق في الفـترة الاشـتراكية قـد تميـز بالتماسـك وإن تكالبـت عليـه النوائـب، فإن التحـول الاجتماعـي الجديد قـد أُصيب بمرض التفـكك وتمـزق الأنسـجة. وذلـك بسـبب طـول فـترة التحـول دونمـا إنجـازات ملموسـة أو محـددة تجـدد نسـيجه وتضـخ الحيويـة فيـه على نحو مـا حدث في التحـول الأول، وهـي الحالـة التي ترجع في بعـض أسـبابها إلى عـدم تجانـس ثقافتـه التـي تضمنـت منظومات قيميـه بلغت حـد التناقض.

أ – وتعـد منظومـة القيـم الليبراليـة هـي المنظومـة الثقافيـة الأولى في هـذا الصـدد، وإذا كانـت الطبقـة الوسـطى قـد قـادت نضالهـا مـن العشرينيات وحتـى قيام ثـورة يوليـو ١٩٥٢ في ظل القيـم الليبراليـة، وهـو الأمـر الـذي أعاقهـا – نسـبيًا – عن اسـتيعاب القيم الاشـتراكية خـلال عقدي الخمسـينات والسـتينيات. فـإن اسـتدعاء هـذه القيـم ثانيـة مـع منتصـف السـبعينيات لم يتسـنفر أيـة مقاومـة تذكـر، اللهـم إلا مـن بعض الفلـول الناصرية والماركسـية. خاصـة أن المرحلـة الناصرية شـهدت كبـوة في نهايـة السـتينيات هبطـت بمعدلات النمـو - كما أشرت - إلى ٢,٥٪ بالسـالب، وهو مـا يعنـي في الحقيقـة تراجعًـا. خاصة أن النظام السـياسي الجديد – الذى بدأ مع بداية السـبعينيات - صـور الليبراليـة حينئـذ باعتبارها المنقذ. في سـياق أصبـح البشر المنتمون لشرائح الطبقة الوسـطى والدنيـا، يعانـون فى إطـاره مـن ظـروف معيشـية صعبة، إضافـة إلى أن القيم الإسـلامية وهـي القيم القاعديـة في المجتمـع، لا تتناقـض جوهريًـا مع القيـم والتوجهـات الليبرالية (٨٨).

ب – وتشكل القيم الدينية المنظومة الثانية التي شكلت المكون الثاني في هذه المرحلة. وإذا كانت بعض عناصر الطبقة الوسطى قد تعلقت بأستار الدين طلبا للحماية من القيم الليبرالية، التي بدأت تتحيز لتبرر مصالح الطبقة العليا. فإنه في بداية صدمة التحول بدأت بعض شراذم الطبقة الوسطى تتطرف ببعض قيم الدين، والاستعانة بها للتكيف مع واقع بدأ يشهد سحب امتيازاتها الواحد تلو الآخر، أو لتحتج بها على تحولات غير مواتية لصالحها حتى إرتكبت العنف. ومن ثم فقد حدث هروب إلى الدين على الصعيد الإسلامي والمسيحي على السواء، من قبل بعض عناصر هذه الطبقة. وأمام سحب الامتيازات كان هناك انسحاب إلى الدين، اتخذ أحيانًا شكل الاحتجاج والعنف والتطرف الذي قامت به بعض الجماعات لعنفها. غير أنه حينما واجهت بعض الجماعات المتطرفة قمعًا من قبل النظام السياسي، ورفضًا لعنفها من قبل شرائح الطبقة الوسطى الأخرى، والمجتمع بكامله، فإننا نجد أن قطاع كبير منها قد إتجه إلى الالتزام بروح الإسلام المعتدلة. وتعمق التزامها بقيم الدين في مواجهة المتاعب التي بدأت تفرض على نوعية حياتها، بحيث تحولت في سنوات محدودة إلى قيادة نوعية حياة إسلامية. كما اتضح ذلك من اتساع انتشار الحجاب ومن ثم النقاب بين النساء وبخاصة طالبات الجامعة من أبناء الطبقة الوسطى. كذلك زيادة التردد على المساجد أو الاتجاه إلى التدرب على قراءة القرآن الكريم وتجويده وحفظه، وهو الأمر الذي وجد استجابة إعلامية من قبل بعض القنوات الفضائية التي تخصصت في البث الإسلامي. وبدأت الدائرة تدور في اتجاه دعم منظومة القيم الإسلامية المعتدلة حينا والدافعة إلى التطرف أحيانا، بحيث أصبح للقيم الدينية وجودها القوي، الذي من الصعب الخروج عليه أو الوقوف أو العمل في مواجهته (٨٩). وإذا كان الإتجاه إلى التدين قد تزايد من قبل الطبقة الوسطى، فقد تضافر مع ذلك العبث بالدين، مثال على ذلك تشكل ظاهرة الفتوى المتنوعة على الصعيد الاعلامى، وهى الفتاوى التى تطرفت وتداخلت أحيانا مع السحر والخرافة ونمو التعصب، ليؤدى كل ذلك إلى تشوية التنشئة الدينية مباشرة، أو بصورة غير مباشرة من خلال قناعة الأسر بها.

على الصعيد المسيحي حدث نفس الأمر تقريبًا، هروب إلى الدين ففيه السلوى من معاناة الحياة، ومثلما امتلأت المساجد امتلأت الكنائس كذلك، وبرزت روح المحافظة على طقوس الدين. واستطرادًا لذلك بدأت المؤسسات الدينية تعمق روح الدين عند الكافة، وبدأت كل جماعة تتراجع إلى حدود الالتزام بدينها. وقد كاد أن يؤدي ذلك إلى ظهور الحدود بين الجماعات على أساس الدين، بحيث هدد ذلك بحدوث انسحاب نسبي من قيم المواطنة، الأمر الذي أضعف المرجعية المشتركة لحساب المرجعيات المنفصلة. ونتيجة لذلك تفجرت صراعات دينية لا ترجع إلى اختلافات فى الدين والتدين – فاختلافات الدين موجودة طيلة التاريخ، ثم أن أي من هذه الأديان لا يرفض الآخر – بقدر ما ترجع إلى حالة الأزمة التي تتعرض لها الطبقة الوسطى.

جـ – وتعد الثقافة الاستهلاكية من المنظومات القيمية التي تخلقت عبر هذه المرحلة، فقد انفتح المجتمع على الصعيد الخارجي وتدفقت سلع الاستهلاك عبر الأبواب المفتوحة، وبدأت قيم وثقافة الاستهلاك والاسترخاء تنتشر، وترافق ذلك مع سياسات الدولة التي اتجهت إلى الانفتاح السياسي. وارتباطًا بذلك شيدت مدن الاسترخاء والمصيف وليس قلاع أو مدن الصناعة، وأخذت النخب تتدفق باتجاه الاستهلاك، نتيجة لعجز الدولة عن بناء قنوات الاستثمار التي تستوعب مدخرات المدخر الصغير. وقد تضافر مع ذلك إنتشار ثقافة الاستهلاك التي تولى نشرها المهاجرون إلى مجتمعات الخليج. الذين صهرتهم حرمانات الوطن، وحينما هاجروا إلى مجتمعات أعتادت نفوسهم ثقافة الاستهلاك، حيث تولت هذه الثقافة بحرارتها العالية، إعادة تشكيلهم كمستهلكين جدد لديهم حالة من الشره العميق. وإذا كانت الدخول العالية والثقافة الإستهلاكية فى مجتمعات الخليج، وحرماناتهم السابقة هي المسئولة عن توجه المهاجرين إلى الاستهلاك واعتناق ثقافته. فإن هؤلاء المهاجرون أو المستهلكون الجدد تقع عليهم مسئولية نشر ثقافة الاستهلاك في المجتمع (٩٠). لقد تكالبت ظروف عديدة لتقضي على ثقافة الإنتاج والعمل التي لازمت مرحلة التحول الاشتراكي السابق، لتحل محلها مرحلة جديدة تصبح فيها ثقافة الاستهلاك هي المرجعية الأساسية للسلوك.

د – في هـذه الفـترة ومـع نهاية الثمانينيات وبداية التسـعينيات وقـع تطورين هامين، تمثل التطـور الأول في تطـور تكنولوجيـا الإعـلام والمعلومـات، بخاصـة الصـادرة عـن المراكـز الرأسـمالية. بينـما تحـدد التطـور الثـاني بسـقوط الاتحـاد السـوفيتي وانفـراد الولايـات المتحـدة بالسـيطرة علي العـالم، باعتبارهـا القـوة الأقـوى في النظـام العالمـي. والتـي بدأت تنـشر أو تعولم نمط نوعيـة حياتها والقيـم المرتبطـة بهـذا النمط، مسـتغلة بذلـك تكنولوجيـا الإعلام المتقدمـة، التي تسـاعد منظومتها القيميـة عـلى اخـتراق المنظومـات القيميـة والثقافيـة الأخرى. وقد سـاعد على ذلك ضعف سـيطرة الدولـة القوميـة عـلى فضائهـا الثقـافي، ومـن ثـم فقـد بـدأت العولمـة تدفـع بمنظومـة قيـم ذات طبيعـة خاصـة، تختلـف إلى حـد مـا عـن القيـم الليبرالية. فهـي منظومة قيـم تعكس نوعيـة الحياة الأمريكيـة بحلوهـا ومرهـا، وتصطـف وفـق متصـل يتناقـض طرفـاه. حيث يبـدأ طـرف المتصل من التأكيـد عـلى الحريـة والديموقراطيـة، ويتحـرك باتجـاه التأكيـد عـلى القيـم المتعلقـة بحقـوق بعض الفئـات الاجتماعيـة كالمـرأة والمسـنين والطفولـة. ويمـر إلى الطـرف المقابـل والمناقض حيـث التأكيد عـلى القيـم المعنيـة بالـزواج المتشـابه (الرجـل برجـل والمـرأة بامـرأة(٩١)، إضافـة إلى الترويـج لقيم الجنـس تحـت مظلـة الحريـة الواسـعة، التـي بلغـت حـد التحـرر كليـة مـن الأخـلاق. بعـض هـذه القيـم «المتعلقـة بالحريـة والديموقراطيـة مقبول»، بينما يرفـض البعض الآخر من هـذه القيم، الأمر الـذي يعنـي وجـود منظومـة قيميـه غير مرغـوب فيها في فضـاء المجتمـع، ترفضها منظومـات القيم الأخـرى بما فيهـا المنظومـة الليبرالية.

هــ - بالإضافـة إلى ذلـك وجـدت منظومـات قيميـة ذات فاعليـة محـدودة وغـير مؤثـرة، كبعـض القيـم التراثيـة التـي تخلقـت عـن التفاعـل الاجتماعـي في المجتمـع، أو تدفقـت مـن مراحـل تاريخيـة سـابقة إلى حـاضرة. بالإضافـة إلى منظومـة القيـم الناصريـة التـي يقـول بهـا بعض المثقفـين، خاصـة أنهـا مازالـت حيـة وقويـة في الضمـير الشـعبي. إلى جانـب بعض القيم الاشـتراكية التـي تضيـق لتقتـصر عـلى حفنـة محـدودة مـن مثقفـي الطبقـة الوسـطى، خاصـة أنهـا أصبحـت مـن خيـالات المـاضي، وضاعـت ملامحهـا مـن الذاكـرة الشـعبية، وخاصـة ذاكـرة الطبقـة الوسـطى.

ومـن الواضـح أن غالبيـة هذه المنظومـات الثقافية ذات طبيعة متناقضة، إضافـة أن بعضها مفروض مـن الخـارج بواسـطة تكنولوجيا الإعـلام والمعلومات. كمنظومـة القيم التي أتت بهـا العولمة وتكاد أن تمـزق النسـيج الاجتماعـي لبعـض الوحدات الاجتماعيـة في المجتمع، وقد فعلـت. ذلك إلى جانب أن أي مـن المنظومـات القيميـة، لم يتـم اسـتيعابها بداخـل بنيـة البـشر – باسـتثناء القيـم الدينية – ولذلـك نجـد أن غالبيـة السـلوكيات الاجتماعيـة في المجتمـع تقـع عاريـة مـن توجيـه قيمـي متفـق عليـه، أى أن هنـاك حالـة مـن الفـوضى في بنيـة الثقافـة والقيـم (٩٢). تؤكـد جميعها أننـا نعيش في نطـاق حالـة «الأنومـي»، أي انعـدام المعايير، التي بدأت بصـورة محدودة في نهاية التحول الاشـتراكي السـابق، إلا أنهـا أصبحـت تمـلأ فضـاء المجتمع خـلال فترة التحـول الليبرالي.

سادساً: تأثير تحولات نصف قرن على بيئة الثقافة ومنظومات القيم

عـلى مـدى نصـف قـرن جـرت ميـاه كثيرة في نهـر المجتمـع، فقد وقعـت الصعيـد الواقعي، تحـولات مـن الصعـب أن يجـود بهـا خيـال، فقـد بـدأ المجتمـع منـذ صبـاح ثـورة يوليـو ١٩٥٢ مـن مجتمـع تقـوده أيديولوجيـا ليبراليـة مشـوهة، إلى جانـب منظومات قيميـة مجـاوره لم تندمج معها إن لم تعاديهـا. فـإذا بنـا نعـود بعـد نصـف قـرن إلى مجتمـع تقـوده أيديولوجيـا ليبراليـة فاسـدة، إلى جانـب منظومـات قيميـة تجاورهـا، قـد تختلـف أو تتناقـض معهـا. تحركنـا مـن مجتمـع بـدأ بطبقـة عليـا ذات سـلوك أنـانى في غالبـه، وتتعايـش مـع البرجوازيـة العالميـة، إلى مجتمـع تسـيطر عليـه الطبقـة العليـا ذاتهـا، بعواطفهـا الأنانيـة ونزعاتهـا الفرديـة. مجتمع بـدأ بالثورة على الفسـاد وتغيـير القيـم الفاسـدة، فـإذا بنـا ننتهـي إلى مجتمـع منتـج للفسـاد متخـلي عـن القيـم الشـفافة والنقيـة والطاهـرة، تعـوق حالتـه عمليـة الإصـلاح والتغيـير. وإذا كانـت الأشـواق قـد ازدهـرت في صدورنـا مـع بدايـة هـذه التحـولات، التـي أوحـت لنـا بأننـا عـلى أبـواب تأسـيس مجتمـع قـوي وفعـال وقـادر عـلى إشـباع الحاجـات الأساسـية للبـشر، بمـا يعمـق مفاهيـم المواطنـة (٩٣). فـإذا بنـا نجـد أنفسـنا في العقـد الأول مـن الألفيـة الثالثـة – بعـد نصـف قـرن تقريبًـا – وقـد انطفـأت الأشـواق وانتكسـت الآمـال، وأصابتنـا حالـة مـن الحـسرة عـلى الـذي كان وذهـب. وكذلـك عـلى

القائم المتهرئ الذي لا نعرف كيف نوقظه ونستنفر مواضع الصمود فيه، علّ ذلك أن يكون مقدمة أو دعوة لمشروع اجتماعي يعيد إعتدال وإستواء المجتمع، ويتسدعي هوية أمة. غير أن ذلك يتطلب تشخيص ما انتهت إليه منظومة الثقافة والقيم، تمهيدًا لاستكشاف السبل لأعادة بناء ثقافة تحتوي على منظومات قيمية متماسكة.

يكشف تأمل الحصاد الثقافي أو القيمي الناتج عن التحولات الاجتماعية، التي خضع لها المجتمع المصري، أن ثمة مظاهر عديدة لحالة من الانهيار القيمي، تشير جميعهًا إلى مجتمع قد فقد قيمه ومن ثم قواعده المنظمة للسلوك. فالسلوك في هذا المجتمع أصبح عشوائيًا، قد يأتي في نطاقه البعض السلوك ونقيضه، السلوك السائد أو المتبع أصبح يختلف في أحيان كثيرة عن ما ينبغي أن يكون عليه السلوك، لغياب القيم الموجهة أو المنظمة لسلوكيات البشر أو حتى لضعف أدائها وفعاليتها (٩٤). لقد اختلط كل شيء حتى أصبح من الصعب أحيانًا التفرقة بين الحلال والحرام، والخطأ والصواب، ولذلك أسبابه ومظاهره العديدة.

١ - من الأسباب المسئولة عن هذه الهشاشة الثقافية تسارع التحولات الاجتماعية الاقتصادية التي مر بها المجتمع، فقد كان المجتمع ذو توجه ليبرالي بالأساس - إضافة إلى منظومات قيمية أخرى مجاورة - ثم تحول بعد ١٩٥٢ إلى التوجه القومي مع اتباع كل ما يمكن أن يُسمى بالتطور الرأسمالي المرشد في نفس الوقت. واستمر التوجه القومي من ١٩٥٢ حتى ١٩٦٠ حيث انهيار الوحدة كأول مشروع أو حلم قومي. في أعقاب ذلك حدث تحول جديد استغرق الفترة ١٩٦١ وحتى ١٩٧٠، حيث تم التأكيد فيه على التوجهات الاشتراكية. هذه التوجهات فرضت ضرورة أن توجه سلوكيات البشر بمنظومة قيمية غير المنظومات التي كانت سائدة من قبل. وحينما وقعت نكسة ١٩٦٧ بدأ التآكل في التحول الاشتراكي وإن كان بصورة غير محسوسة في البداية. غير أنه حينما توفي الزعيم الاشتراكي في ١٩٧٠ بدأت التحول عن الاشتراكية في اتجاه الليبرالية واضحًا وصريحًا. وقد عجل من ذلك تراجع فاعلية قوة الاتحاد

السـوفيتي، واتسـاع فاعليـة القـوى الرأسـمالية أو الليبراليـة (٩٥). وقـد اسـتمر هـذا التحـول حتى ١٩٩٠ ليبـدأ تحـول جديـد مـع سـقوط الاتحـاد السـوفيتي، وبدايـة تشـكل نظـام عالمـي جديـد، أصبحـت متغـيرات التغـير أو التحـول فيـه مـن الخـارج بالأسـاس.

٢ - وإذا كان مـن الطبيعـي أن يكـون التحـول الاجتماعـي ذو طبيعـة تراكميـة في نتائجـه، وهـو مـا حـدث بالنسـبة للمجتمعـات التي قطعت شـوطًا عـلى طريق التقـدم، باعتبـار أن التحول يحافـظ عـلى الخـبرات التـي يحصـل عليهـا المجتمـع، ويعمل عـلى تراكمها لكونها تشـكل رأسـماله. فـإن هـذه التحـولات كانـت ذات تأثـير سـلبى عـلى الثقافـة ومنظومـات القيـم ومـن ثـم أدت إلى نتيجتـين، الأولى تبديـد التحـولات لخـبرات المجتمـع ومنظوماتـه القيميـة، فقـد كان كل تحـول لاغيا لمـا قبلـه. فقـد ألغـى التحـول الاشـتراكي القيـم الليبراليـة باعتبارهـا قيـمًا مدانـة لكونها تشـجع على الاسـتغلال وعـدم المسـاواة. وألغـى التحـول الليـبرالي القيم الاشـتراكية باعتبارها تؤكد على المسـاواة في الفقـر، إلى جانـب كونهـا تقتـل الحافـز الفـردي وتشـجع عـلى الكسـل والاعتـماد عـلى الدولـة. ثـم جـاءت العولمـة لـترى في كل هـذه القيـم، مخلفـات ماضيـة، وعـلى الجميـع أن يعـدوا أنفسـهم للأخـذ بقيـم العولمـة. ذلـك يعنـى أنـه إذا كانـت الثقافة تحتـوي على مخـزون خبرة المجتمـع، فإنها بذلـك تشـكل رأسـماله الـذي يجـري تبديـده في كل مرحلـة مـن مراحـل التحـول (٩٦). وتتمثـل الظاهـرة الثانيـة في أن تتابـع منظومـات القيـم دون هضـم المجتمـع لهـا، يعنـي اسـتيعابه لمضامين قيميـه متعـددة ومختلفـة ومتناقضـة، الأمـر الـذي يـؤدي إلى إصابة المجتمـع بعسر الهضـم الثقافي، أو التخمـة الثقافيـة. مـما قـد يـؤدي إلى إفـراغ المجتمـع لـكل مـا في جوفـه مـن قيـم، أو قـد يحيـا أحيانًـا بـلا قيـم أو بقيـم سـلبية. وإذا كان مـن الصعـب علينـا تصـور أن يغـير الإنسـان مبادئـه وقيمـه مـرات عديـدة في حياتـه، فإنه يصبح من المسـتحيل أن نتصـور تغيير المجتمـع لأيديولوجياته ومنظوماتـه القيميـة عـلى مـدى فـترة زمنيـة محـدودة بالنسـبة للمجتمـع، هـو مـدى الحيـاة الفرديـة، غـير أن ذلـك قـد حـدث، وقـد شـكل كارثـة. لقـد أضعفت هـذه التحـولات بنيـة الثقافة والقيـم، لأنهـا أصبحـت جميعهـا بـلا عمـق في التاريـخ، وبـلا جـذور في المجتمـع، ومـن ثـم فقـد

عاشـت الثقافـة تعـانى مـن أحـد مظاهـر «الأنومـي» التـي يشـير في جانـب منـه إلى ضعـف وعـدم تجـذر منظومـات القيـم (٩٧). بالإضافـة إلى ذلـك فقد تخلق في لا وعي البـشر في المجتمع منطق أن كل شيء مآلـه إلى التغـير والاسـتبدال السريـع أي إلي زوال، إذًا فلنتعايـش مـع منظومـات القيم دون أن نسـتوعبها، فقـد يـأتي الجديـد الـذي علينا أن نسـتوعبه، وهو حتمًا سـيأتي، وسـوف يـأتي بعده ما هـو أكثر جـدة منه.

٣ – مـن المشـكلات أو الظواهـر التـي عانـت منهـا الثقافة ومنظومـات القيـم كذلك، خلال هـذه المرحلـة، تعـدد المنظومـات القيميـة، ووجودهـا إلى جـوار بعضهـا البعض. وإذا كانـت الحالة المثاليـة للمجتمـع أن تكـون لـه ثقافتـه أو مخزونـه القيمـي الـذي يعـبر عـن هويتـه، وهـي الهوية الثقافيـة أو القيميـة التـي تشـكل مرجعيتـه في التعامـل مـع كل مكونـات الوجـود المحيـط به. فإن الأمـر لم يكـن كذلـك في مجتمعنـا، فقـد حدثـت قطيعـة مـع المـوروث الدينـي والثقـافي، الإسـلامي والمسـيحي على السـواء، وبدأت النظم السياسـية في اسـتدعاء أو اسـتجلاب قيم غربية وغريبة على المجتمـع مـن الخـارج، لتسـاعد في تحديـث المجتمع. ونتيجة لذلـك رفض المجتمـع الطبيعي – الذى تطـور تلقائيـا -القيـم التـي آتـت بهـا النظـم السياسـية، التـي بادلتـه رفضًـا برفـض موروثـه الثقافي (٩٨). ونتيجـة لذلـك فـلا الموروث الثقافي تـم تجديد بعض عناصره ليشـارك في تحديث المجتمع، ولا المجتمع انصاع وحدث نفسـه وفق قيم ومبادئ أيديولوجية، نجحت في تحديث مجتمعات أخرى. ولقـد أدى ذلـك إلى وضـع مدهـش وغريـب حيـث تواجـدت عـلى سـاحة المجتمـع منظومـات قيم غـير متفاعلـة. منظومـة القيـم الدينيـة التي جاءت إلى المجتمع من روافده الإسـلامية أو المسـيحية، وهـي منظومـة قاعديـة وقويـة لأنها متجذرة في بنية الشـخصية المصرية. غير أن الأنظمة السياسـية ظلـت تؤكـد عـلى تحديـد فاعليـة الدين بحـدود الضمـير الفـردي، دون أن تكـون له علاقـة بتنظيم المعامـلات في مختلـف مجـالات الحياة. في مقابل ذلك توجد القيم الاسـتهلاكية التـي تدعو إلى حياة ترفيـة مسـترخية عـلى عكـس التقشـف والفاعليـة التـي تدعو إليهـا القيـم الدينية. ذلـك إلى جانب منظومـة القيـم الليبراليـة التـي تدعـو إلى الحرية الاقتصاديـة الاجتماعيـة والسياسـية والاحتكام إلى

قوانين السوق، وتقر التفاوت في القدرات واحترام المصلحة الخاصة (٩٩). في مقابل القيم الاشتراكية المؤكدة على المساواة واحترام مبادئ العدالة الاجتماعية، وفرض أولوية مصالح الجماعة على مصالح الفرد، وتقييد حرية الفرد بالتزاماته نحو الجماعة. وهو ما يعني أن منظومات القيم المتعددة والموجودة في فضاء المجتمع، لم تكن منفصلة فقط ولم تنصهر في منظومة قيمية واحدة كذلك، ولكنها قدمت معاني متناقضة مع بعضها البعض. الأمر الذي أضعف فاعليتها في توجيه سلوك البشر في مختلف المجالات الاجتماعية من ناحية، واعاقها عن الإنصهار في منظومة قيمية واحدة ومتجانسة من ناحية ثانية. ودفع إلى حالة تسعى في إطارها كل منظومة إلى تقديم معاني ترفض معاني المنظومة أو المنظومات الأخرى من ناحية ثالثة، ونتيجة لكل ذلك تخلقت حالة من انعدام المعايير المتفق عليها أو حالة «الأنومي» بالمعنى الدوركيمي لذلك (١٠٠).

٤ - برغم أن الحالة المثالية للمجتمع تؤكد على ضرورة أن يمتلك المجتمع منظومة قيمية واحدة. فإننا نلاحظ انفصالاً في بنية الثقافة بين القيم والمعايير والقواعد ذات العلاقة العضوية بكل من المجتمع السياسي والمجتمع الطبيعي، وكذلك المجتمع المدني. إضافة إلى التناقض الداخلي بين المنظومات القيمية التي تنتمي لكل مجتمع من هذه المجتمعات. وقد يرجع ذلك في بعض منه إلى أن الدولة القومية في العالم العربي لم تتطور من رحم المجتمع الطبيعي. أو قد يرجع إلى أن النظام السياسي لم يؤسس مؤسسات لصهر قيم المجتمع الطبيعي والمجتمع السياسي والمجتمع المدنى، كما أنه لم يؤسس علاقات عضوية بين منظومات القيم التي تقع على مستويات متباينة. في هذا الإطار فإننا نجد أنفسنا في مواجهة منظومات قيم تنتمي بالأساس إلى المجتمع الطبيعي كمنظومة القيم الدينية أو المنظومة التراثية، مضافة إلى منظومات القيم التي تنتمي إلى المجتمع السياسي، وهي المنظومات المتضمنة في أيديولوجيا المجتمع السياسي، كمنظومة القيم الليبرالية ومنظومة القيم الاشتراكية، إضافة إلى منظومات القيم التى تؤكد عليها الثقافة الطوعية للمجتمع المدنى. بحيث يعتبر ذلك مظهر من مظاهر «الأنومي» حيث تضعف قيم كل من المجتمع الطبيعي والمجتمع السياسي

بعضها البعض (١٠١). فإذا أضفنا إلى ذلك القيم التي يعمل المجتمع المدني الآن على نشرها، بخاصة فاعله الرئيس المتمثل في المنظمات الأهلية أو غير الحكومية. فإننا سوف نجد أن لدينا ثلاثة منظومات قيمية لم يحدث بينها انصهار، الأمر الذي يخلق حالة من تعدد مرجعيات السلوك. فإذا حدث أن تناقضت هذه المرجعيات مع بعضها البعض فإن تأثيرها على السلوك في جملته سوف يصبح ضعيفًا. وقد يتعامل الفرد بصورة نفعية وذرائعية مع المرجعيات القيمية المتباينة، ومن ثم تتحول القيم لديه إلى وسائل وليست غايات. وقد ينحرف الفعل الفردي عن مرجعية معينة لمجتمع بعينه، إلى مجتمع بمرجعية قيمية أخرى أو مجتمع آخر طبيعيًا كان أم سياسيًا. فالمطالب بالدولة ذات المرجعية الدينية قد تباركها المرجعية الدينية، ولكن المرجعية الاشتراكية أو الليبرالية تدينها وترفضها. والملحد الخارج عن الملة قد تباركه بعض الأيديولوجيات العلمانية، لكنه يصبح موضع إدانة من قبل القيم أو المرجعية الدينية. في هذا الإطار تتخلق مرة أخرى حالة من حالات «الأنومي» التي تعني وجود حالة من الفراغ القيمي الأخلاقي الذي يسود المجتمع (١٠٢)، وفي هذه الحالة قد يصبح سلوك البشر عشوائيًا وعاريًا من الأخلاق أحيانًا.

٥ – غياب أو ضعف مؤسسات التنشئة الاجتماعية، وذلك استنادًا إلى أن منظومة القيم تؤدي دورها على نحو ما أشرت من خلال ثلاثة مستويات، في إطار المستوى الأول نجد أن القيم توجد في الفضاء الاجتماعي كرموز تحدد الحلال والحرام الديني كما تحدد الخطأ والصواب الثقافي. ويتمثل المستوى الثاني في وجود القيم باعتبارها تشكل البناء المعياري الضابط لتفاعل البشر في مواقفهم الاجتماعية المتنوعة، داخل مختلف المجالات الاجتماعية. وفي هذه الحالة قد تأخذ القيم شكل العادات والتقاليد والأعراف الضابطة للمواقف المختلفة، والتي تؤدي دورها من خلال صيغة التوقعات المتبادلة. ويشير المستوى الثالث لتواجد منظومة القيم إلى الحالة التي تلعب فيها مؤسسات التنشئة المتعددة أدوارها، في تأسيس الضمير الفردي من خلال عملية التنشئة الاجتماعية التي تقوم بها هذه المؤسسات (١٠٣). وتوجد ثلاث حالات تشير إلى ضعف أداء مؤسسات

التنشـئة الاجتماعيـة، في الحالـة الأولى نجـد أن مؤسسـات التنشـئة الاجتماعيـة قـد تـؤدي دورهـا أحيانًـا بمسـتوى غـير فعـال، فمثـلاً قـد كانـت العائلـة الممتـدة هـي العائلـة التـي تسـتطيع القيـام بعمليـة التنشـئة الاجتماعيـة بصـورة فعالة وشـاملة، لكونها النمـط العائلي الذى كان سـائداً وتآكل. عـلى خـلاف ذلـك الآن، حيث يتشـكل التكويـن العائلي في المجتمع المصري بنسـبة ٢٣٪ مـن العائلة الممتـدة، فى مقابـل نسـبة ٧٧٪ مـن العائـلات التـي أصبحـت عائـلات نوويـة، ونظـرًا لقـدرة هـذه الأخـيرة المحـدودة عـلى التنشـئة – لضيـق مسـاحة الوقـت المخصـص للتنشـئة في الزمـان الأسري – فقـد اتجـه المجتمـع الحديـث إلى خلق بدائـل لها. فإذا لم يوجـد في المجتمع بدائل للقيام بالتنشـئة الاجتماعيـة، فـإن الأمـر يصبـح كارثـة، لأن الطفـل سـوف تتلقفـه مصـادر عديـدة، ربمـا غـير سـوية تتـولى تنشـئته، وفي هـذا الإطـار مـن المحتمـل أن ينشـأ الطفـل وفـق قيـم منحرفـة. ويرتبـط بذلك ضعـف دور المدرسـة التـي اقتـصر على تلقـين مجموعة من المعـارف الإدراكيـة دون الاهتمام بغرس منظومـات القيـم التربويـة والأخلاقيـة الأخـرى، الأمـر الـذي يعنـي غيـاب دور المدرسـة في التنشـئة الاجتماعيـة عـلى القيـم (١٠٤). ويتصـل بذلـك ضعف دور التنشـئة الدينية، على الصعيد الإسـلامي والمسـيحي عـلى السـواء، بسـبب تراجـع حجـم وفاعليـة هـذه المؤسسـات. فلـم يعـد «الكُتْـاب الريفـي» أو مـا يمكـن أن يناظـره يقـوم بـذات الـدور، ولم تعد الآليـة المماثلة على الطرف المسـيحي تقـوم بنفـس الـدور. ونتيجة لذلك تآكل دور المدرسـة في التنشـئة الدينية، ولم يقـدم الدين للصغار سـمحًا ومعتـدلاً، يحتـوى الآخـر في نطـاق أخـوة إنسـانية حيـة وتركـت السـاحة رحبـة لمجموعـات التطـرف والعنـف والارهـاب كي تقـوم هـي بالتنشـئة وفق قيـم التطـرف والعنـف والارهاب.

فـإذا انتقلنـا إلى الحالـة الثانيـة والتـي تتعلـق بمؤسسـات التنشـئة الاجتماعيـة في المجتمـع السـياسي فسـوف نجـد غيـاب أو ضعـف آداء هذه المؤسسـات كذلك، فلـم يحدث أن قـام المجتمع الاشـتراكي بتأسـيس مؤسسـات للتنشـئة وفقًـا للقيـم الاشـتراكية، اللهـم إلا بعـض التكوينـات التابعة – حينئـذ – للاتحـاد الاشـتراكي المترهـل، والتـي اقتـصر دورهـا عـلى تدريـب الشـباب عـلى حفـظ وترديـد بعـض الشـعارات، إضافـة إلى تعريفهـم ببعـض المعلومـات السـطحية عـن الماركسـية

ونماذج الاشـتراكية. ومـا حـدث بالنسـبة للتنشـئة وفقًـا للقيـم الاشـتراكية حدث بالنسـبة للتنشـئة الليبراليـة، حيـث غيـاب فاعليـة التنشـئة السياسـية أو عـدم وجودهـا كليـة. ومـا دمنـا نتحدث عن مؤسسـات التنشـئة ذات الصلة بالمجتمع السـياسي فإننا نعتقد أن الإعلام عندنا ليس لديه منظومة قيميـة أو ميثـاق أخلاقـي، يحـدد لـه مـا ينبغـي تنشـئة البـشر في المجتمع عليـه، الأمر الـذي يجعل أداءه عشـوائيًا هـو الآخـر. ويحـدث نفـس الأمـر – وهي الحالـة الثالثـة – بالنسـبة للمجتمع المدني كذلـك، فـلا أعتقـد أن الأحـزاب قـد لعبـت دورًا من أجل تأهيـل النشء وفقًـا لبرامجهـا ومنظوماتها القيميـة (١٠٥). كـما لا أعتقـد أن النقابـات قـد فعلت نفـس الشيء، وكذلك لا أعتقـد أن المنظمات غـير الأهليـة قـد أدت دورًا فعـالاً في هـذا الصـدد. اللهـم إلا بعـض المنظـمات القليلـة التـي تـدرك مسـئوليتها الاجتماعيـة في هـذا الاتجـاه، بدلالـة أن العمل الأهـلي أو التطوعي يتحقـق في مجتمعنا، بـدون الثقافـة أو القيـم الحديثـة للعمـل الأهـلي، وهـي القيم التي يمكـن أن تقوم الأسرة والمدرسـة والجهـاز الإعلامي بغرسـها في شـخصية الأبناء.

٦ - بالإضافـة إلى ذلـك فقـد أخترقـت فضاءنـا الثقـافى أو القيمـى ثـلاث منظومـات قيميـة سـوف تـأتي عـلى الأخـضر واليابـس إذا اسـتمر الحـال عـلى مـا هـو عليـه، حيـث تتجسـد المنظومـة الأولى في القيـم الانتهازيـة التـي حلـت محـل القيـم النضاليـة لشرائـح عديـدة في بنيـة الطبقـة الوسـطى. وقـد رأينـا أن هـذه القيـم قد بـدأت فى المرحلة الناصريـة على خلفية تفضيـل أهل الثقة وأهـل الـولاء عـلى أهـل الخـبرة، الذيـن قُلـدوا أعـلى المناصـب لأحسـاس النظـام السـياسي بالأمـان تجاههـم وحدهـم، الأمـر الـذي دفـع الكثيريـن مـن نظرائهـم لأن يسـعوا أو يطلبـوا أن يكونوا أهل ثقـة كذلـك. يضـاف إلى ذلـك أن منـاخ الدولـة الاشـتراكية سـاعد عـلى نمـو هـذه البـذور الانتهازية حيـث عـودت الدولـة بعطائهـا السـخي وبـدون مقابـل أبناء الطبقـة الوسـطى على عـادة أو ثقافة الأخـذ دون العطـاء (١٠٦). الأمـر الـذي تطـور إلى تفضيـل الصالـح الخـاص عـلى الصالـح العـام، ثـم إلى اسـتغلال الصالـح العـام لتمكـين الصالـح الخـاص. وحينـما غرقـت سـفينة الدولة الاشـتراكية فـرت منهـا الفـئران الانتهازيـة مذعـورة لتقفـز إلى سـطح السـفينة الليبراليـة، التـي مازالـت قـادرة

على الإبحار. فأبناء الطبقة الوسطى هم الذين ساعدوا في صياغة أيديولوجيا الانفتاح وترسانته القانونية. وهم الذين تحالفوا – برؤوس أموالهم الصغيرة التي حصلوا عليها من وظائفهم في القطاع الحكومي، أو عمولات القطاع الخاص في المرحلة الاشتراكية – مع الطبقة العليا الوطنية والعالمية، متناسين أنهم كانوا عمد الاشتراكية وأنهم شاركوا في تصفية هذه الطبقة. هذه القيم الانتهازية ازدهرت واتسعت مساحتها، حتى باتت تشكل أحد منظومات الفساد والانهيار الثقافي والقيمي في المجتمع، وهي التي تشكل الآن مرجعية لكل مظاهر الفساد وعدم الشفافية في المجتمع.

وتتصل المنظومة القيمية الثانية في هذا الصدد، باتساع مساحة الثقافة الاستهلاكية في المجتمع، وهو الاتساع الذي تزايد بصورة تدريجية. بدأت موجة الاستهلاك الأولى جنينية حينما فضلت الطبقة العليا – الريفية والحضرية – التي أُضيرت مصالحها في المرحلة القومية والاشتراكية، أن تبدد مدخراتها استهلاكيًا. فعاشت حياة مترفة سواء داخل مجتمعها أو مارست الترف خارج حدوده، ثم حدث اتساع جديد للثقافة الاستهلاكية من خلال موجة الاستهلاك الثانية، التي تولدت عن هجرة أبناء الطبقة الوسطى إلى مجتمعات الخليج. حصلوا هناك على مرتبات عالية لم تجد طريقها إلى قنوات استثمارية إنتاجية فتدفقت إلى أسواق الاستهلاك. ويمكن القول بأن المهاجرين إلى مجتمعات الخليج هم المسئولون عن هذه الموجة الثانية من الاستهلاك في المجتمع. وقد إتسعت مساحة ثقافة الاستهلاك بالموجة الثالثة التي جاءت مع اختراق ثقافة العولمة لثقافتنا. وهي الثقافة التي استهدفت المرأة والشباب بالأساس، حيث استخدم الإعلان والإعلام وتكنولوجيا المعلومات، ترسانة جديدة من أجل القهر والتركيع الثقافي للشعوب. وإذا كان من حق الشعوب المتقدمة أن تعيش حالة ثقافة الترف والاستهلاك، فليس من حق الشعوب التي أصبحت أكثر تخلفًا أن تنشر بعض شرائحها فى فضائها ثقافة الاستهلاك. مقابل حرمان أكثر من ٥٠٪ من سكان مجتمعها من إشباع حاجاتهم الأساسية، وما زالوا يعيشون تحت خط الفقر، ٢٥٪ منهم يعيش تحت خطر الفقر المضجع (١٠٧).

وتعتبر ثقافة الانحراف هي المنظومة الثقافية الثالثة التي بدأت توجد بمساحة واسعة في فضائنا الثقافي، ويرجع وجودها لمتغيرات عديدة هي المسئولة عن ذلك. فى هذا الإطار تشكل ثقافة المخدرات المنظومة الثقافية الأولى التي لها وجودها في هذا النطاق، ويرجع ذلك من ناحية لضياع المشروع الاجتماعي أو القومي الذي يستنفر الطموحات ويلهمها. فليست هناك طموحات تتعلق بالحاضر أو المستقبل، وفي مثل هذا الوضع المؤلم تتعمق الحاجة إلى الهروب، حيث تلعب الظروف الاقتصادية والسياسية التي يمر بها المجتمع أدوارها في تهميش فئات اجتماعية عديدة. تفضل أن تهرب من أوضاعها المهمشة من خلال المخدرات إلى عالم اللاوعي الذي ينتقص فيه الإحساس بالتهميش. ثقافة التطرف أيضًا هي وليدة هذه الحالة، فحينما يعجز بعض البشر، بخاصة من ذوي المرجعيات الدينية، عن إشباع حاجاتهم، وحينما تتصادم حالة الترف الاستهلاكي المنحرف أحيانًا مع تقشف رموزهم الدينية الطاهرة. فإن الانسحاب المتمرد يكون طريقهم الوحيد، حيث التعلق بحرفية نصوص الدين بلا تأويل أو إدراك معتدل. إضافة إلى أن التطرف يكون عادة وليد حالة من الحصار، وللخروج من الحصار لابد من العنف، والعنف المتطرف، غير المبرر في أحيان كثيرة. العنف الذي يخرجون به عن الملة وعن تسامح الدين كما «تخرج السهم من الرمية». ثقافة الجنس خارج إطار الشرعية هي الحرام الثالث الذي أصبح يملأ حياتنا، يتدفق على حياة الأسرة من الإعلام الذي يصر على فض براءتها وبكارتها. ويتدفق في الشارع فيصبح تحرشا واغتصابًا وجنسًا بالقوة وعنوة، كما يصاحب إنجاز صفقات المشروعات والأعمال ليسمى عمولة (١٠٨). أو يقضي الشباب حاجتهم إليه من خلال آلية الزواج العرفي خارج إطار الشرعية، وأحيانًا يقع في المنطقة المقدسة للمجتمع ليصبح زنا المحارم.

تشير هذه الحالات جميعًا إلى فضاء ثقافي هش وضعيف تتناقض منظوماته القيمية مع بعضها البعض من ناحية، ويفقد المجتمع إمتلاك الآليات الفعالة للتنشئة وفق بعض القيم الثقافية الفعالة والإيجابية من ناحية ثانية، ويتم اختراقه بلا رحمة من قبل ثقافة العولمة العاتية، التي تمتلك كل أسباب آليات

الاختـراق مـن ناحيـة ثالثـة. والسـؤال الـذي نطرحـه هـل بعـد ذلـك يحـق لنـا الحديـث بعـد ذلك عـن وجـود منظومـة قيميـة يمكـن أن توجه السـلوك في مختلف مجـالات الواقـع الاجتماعى؟، وهل يحـل لنـا أن نتسـاءل، لمـاذا سـلوكياتنا في الشـارع، وفي المؤسسـة التعليميـة، وفي المجـال السـياسي والاقتصـادي، وحتـى داخـل الحيـاة الأسريـة، أصبح عشـوائيًا وأنانيا وفرديـا ولا أخلاقنـا؟!! إذا كنا قد تأملنـا في الصفحـات السـابقة الأبعـاد المختلفـة لأزمة ثقافة الأمـة، فقـد آن الأوان لأن نتصدى لتأمل جديـد يتعلـق بسـبل الخـروج مـن الأزمـة، ولذلك حديـث آخر.

سابعاً: الحصاد، إنهيار الثقافة وتشقق جدران المجتمع، فأين المفر؟

إذا تأملنـا مسـيرة المجتمـع والثقافـة فى العقـود السـبعة الأخـيرة والتى بدأت مـع منتصف الألفيـة الثانيـة وإمتـدت تفاعلاتها حتـى العقـد الثـانى مـن الألفيـة الثالثة، فسـوف نجـد أن الخط البيـانى للثقافـة فى إتجـاه الهبـوط والإنهيـار. ومادامـت الثقافـة قـد أصابهـا الوهـن والتشـظى مـن ناحيـة، إضافـة إلى دفعهـا المجتمـع فى إتجـاه التفكيـك من ناحية ثانيـة. إذا تحقق هـذا التأمل بعد رحلـة العقـود السـبعة فسـوف نجـد أن هنـاك مجموعة من المتغـيرات التى أثرت على بنيـة الثقافة والمجتمـع، كـما أن هنـاك مجموعـة مـن النتائـج التى ترتبت عـلى ذلك.

ويعتبر غياب التراكم الثقافى، وضعف إعادة إنتاج الثقافة من المتغيرات التى كان لها تأثيرها السـلبى عـلى بنيـة الثقافـة، وقـد أشرنا إلى ذلـك. ويتضح ذلك من أنـه برغم إنفصـال أيديولوجيات الأنظمـة السياسـية المتتابعـة عـن ثقافـة المجتمـع، فإننـا نجـد أن كل مـن هـذه الأيديولوجيات، قد حاولـت الاقنـاع بوجودهـا، وتأكيـد شرعيتهـا بواسـطة ثقافـة المجتمـع. حيث سـعت الاشـتراكية إلى الاسـتفادة مـن الثقافـة الدينيـة للمجتمع والتى تهتـم بالفقراء إلى تبرير وجودهـا، فقد كثر الحديث عـن النبـى «صـلى اللـه عليـه وسـلم» بإعتباره نصير الفقراء، كـما كثر الحديـث عـن أبى ذر الغفارى بإعتبـاره أحـد الصحابة المبشرين بالجنة والذي عبر عن توجهات إشـتراكية. ومع بداية السـبعينيات حينـما حلـت الأيديولوجيـا الليبراليـة محـل الأيديولوجيـا الاشـتراكية، بـدأ الحديـث عـن العلـم والإيمـان، وعـن قدريـة الفقـر والغنـى، وغـير ذلك من المعـانى الرمزية التـى تدعم مكانـة الأغنياء فى

المجتمـع، وتدعـم بالتـالى التوجـه الليـبرالى، والفرديـة والقطـاع الخـاص. وهـو الأمـر الـذى يعنـى أنـه بـدلاً مـن أن تدعـم الأيديولوجيـات ثقافـة المجتمـع - كـما هـو الحـال فى المجتمعـات الغربيـة حيـث ولـدت هـذه الأيديولوجيـات مـن رحـم الثقافـة - وتدفـع إليهـا فى كل لحظـة بقيـم مضافة، فإنهـا إسـتنزفت المعـانى الثقافيـة للمجتمـع لتؤكـد أو تدعـم وجودهـا. وقـد أدت هـذه الحالـة إلى عزلـة الثقافـة، وعـدم تفعيـل معانيهـا فى نطاق المجـال العام وظروفـة ومتغيراته وقضايـاه الجديدة والمتجـددة. ونتيجـة لذلـك تقدمـت المعـانى الأيديولوجيـة فى أحيان كثـيرة على معـانى الثقافة، التى أصبحـت عاجـزة عـن تنظيـم التفاعـل أو ضبـط سـلوكيات البشر فى مختلـف نطاقات المجـال العام.

ويشـكل الإنهيـار الـذى أصـاب مؤسسـات التنشـئة الاجتماعيـة المتغـير الثـانى، الـذى لعب دوراً أساسـيا فى تشـظى بنيـة الثقافـة وتشـقق المجتمع والإنهيـار والضعف الذى أصاب مؤسسـات التنشـئة الاجتماعيـة. فمـع منتصـف القـرن العشريـن، وبعد قيام ثـورة يوليـو ١٩٥٢ شرع المجتمع المـصرى فى تنميـة مركزيـة شـاملة قادتهـا الدولـة القوميـة ثـم الدولـة الاشـتراكية بعد ذلـك. غير أن هـذه التنميـة كانـت فى الغالـب ذات طبيعـة حضريـة بالأسـاس، إضافـة إلى أنهـا عملت عـلى تنمية المـوارد البشريـة، مـن خـلال توفـير خدمـات التعليـم والصحـة والاسـكان، وجميعها دفعـت إلى رفع شـأن السـياقات الحضريـة، التـى توفـرت بهـا غالبيـة فـرص الحيـاة عـلى حسـاب الريف. وبسـبب عمليـة التحديـث مـن ناحيـة، وتـردى الأوضـاع المعيشـية بخاصـة الاقتصاديـة فى الريف مـن ناحية ثانيـة، وقـع تحـول فى البنـاء القـرابى للريف، حيث بدأت نسـب العائلات الممتـدة فى التراجع، لصالح إتشـار نمـط الأسرة النوويـة. الأمـر الـذى أدى فى النهايـة إلى أنهـا أصبحـت النمـط السـائد، بخاصـة فى السـياقات الحضريـة، خاصـة بعـد تدفـق موجـات الهجـرة مـن الريـف إلى المدينـة. يضـاف إلى ذلـك أنـه فى العقـود الأخـيرة بـدأت الأسرة تعـانى مـن الإنهيار، مـؤشر ذلـك إرتفاع معـدلات الطلاق والانفصـال، والصمـت العاطفـى وحتـى الخيانـات الزوجيـة. وهـى الحـالات التـى أعجـزت الأسرة عـن القيـام بالتنشـئة الاجتماعيـة، أو إضعافهـا كمؤسسـة لآعـادة إنتـاج الثقافة، إضافـة إلى الطبيعة

الانتقالية غير المستقرة، وهى الحالة التى تؤثر على الثقافة ومنظومات القيم الأسرية. لذلك نستطيع القول بأن الأسرة عجزت عن تنشئة بشر قادرين من خلال التفاعل الاجتماعى على إعادة إنتاج الثقافة.

وتعتبر المؤسسة التعليمية هى المؤسسة الثانية المعنية بالتنشئة الاجتماعية والثقافية، غير أننا إذا تأملنا أوضاع المؤسسات التعليمية فسوف نجد أنها قد عانت من الضعف والوهن خلال العقود السابقة، الأمر الذى أعجزها عن أن تشكل مؤسسات للتنشئة الاجتماعية والثقافية، فقد سقطت أخلاق المعلم، وأصبحت العملية التعليمية تنجز بدون غطاء أخلاقى. وأصبح المعلم مجرد ناقل للمعرفة، دون أن يصبح مربيا يتولى غرس القيم. وإنتشرت الدروس الخصوصية، التى لعبت دوراً في إسقاط أى قداسة عن العملية التعليمية. ذلك بالإضافة إلى تمزق خريطة التعليم وتشكلها من قطع غير متناسقة، التعليم الحكومى باللغة العربية وآخر باللغة الانجليزية، والتعليم الأجنبى من كل جنسية ولغة، ثم التعليم الخاص العربى والانجليزى، وجميعها انظمة تعليمية تعمل حسب قوانين السوق وبمعايير الربح والخسارة، دون الاهتمام بالتربية أو بالمتضمنات الأخلاقية للعملية التعليمية. وبسبب هذا التشرذم الذى أصاب المؤسسات التعليمية، فإننا نجدها غير قادرة على إعادة إنتاج الثقافة، إن لم تعمل على تآكل أطرافها. وإذا كانت المؤسسات التعليمية هى التى تعمل على ضخ معارف ومضامين جديدة فى بنية الثقافة، فى مختلف المجتمعات، فإنها عجزت عن ذلك فى مجتمعنا، فلا هى ضخت معارف جديدة فى بنية الثقافة، ولا هى زودت الثقافة بمضامين أخلاقية جديدة، ومن ثم فإن التفاعل الاجتماعى الذى يشارك فيه المنتمون لهذه المؤسسات التعليمية، عاجز عن أن يضخ فى بنية الثقافة مضامين أو حقائق جديدة. بما يعيد إنتاج الثقافة، ويعمل على تجديدها، بحيث تكون قادرة على التفاعل مع المتغيرات والظروف والحقائق الجديدة والمتجددة.

ويتصل المتغير الثالث الذى أعاق قدرة المجتمع على إنتاج الثقافة، بعمليات الاختراق الثقافى التى تعرضت لها الثقافة القومية، حيث نجدها قد أصبحت هدفا للأختراق من مصادر عديدة. ويتمثل المصدر الأول لاختراق الثقافة القومية

فى المضامـين الثقافيـة المتدفقـة مـن تكنولوجيـا الاعـلام والمعلومـات، وهى المضامين التـى تضخ قيما ومعايـير جديـدة توجـه سـلوكيات، تختلف عـن تلك المتصلـة بثقافتنـا القومية، خاصـة إذا أرتبطت بهـا فئـات محـددة فى المجتمـع، كالمرأة والشـباب. ويتحـدد المصدر الثـانى لإختراق الثقافـة القومية فى تطويـر الجماعـات المحليـة داخـل المجتمـع القومـى لثقافاتهـا الفرعيـة، بحيث شـكلت المرجعية لتوجيـه سـلوكيات عـدد كبـير مـن أعضـاء المجتـع. بحيـث تعـوق هـذه المرجعيـات الفرعيـة دور الثقافـة القوميـة كمرجعيـة عامـة موجهـة لسـلوكيات البشر فى مختلـف المجـالات الاجتماعية ومن ثـم إعـادة إنتاجهـا لتتكيـف مـع الظـروف المتغـيرة. وقـد تـأتى لحظـة معينة تكـون فيهـا الثقافات الفرعيـة أو بعضهـا اكـثر قـدرة عـلى التجـدد، وأكـثر قـدرة عـلى التكيـف مـع الظـروف المتغـيرة والمتجـددة، الأمـر الـذى يـؤدى إلى أهـمال الثقافـة القوميـة، ومـن ثـم تعميـق عجزهـا عـن إعادة إنتـاج ذاتها.

ويشـير المتغـير الرابـع إلى أنـه إذا كانـت الثقافـة القومية تشـكل كائنـا عضويـا، فإنه يصبح بالإمـكان إصابـة الثقافـة ببعـض الأمـراض الثقافيـة، حيـث تنتـشر فى بنيـة الثقافـة بعـض الثقافـات المرضيـة، التـى تشـكل مرجعيـة لسـلوكيات البـشر، حيـث يتـم التفاعـل بالرجـوع أو الاسـتناد إليهـا. ومـن ثـم يـؤدى التفاعـل وفقـا لهـا إلى إعـادة إنتاجهـا، بحيـث يـؤدى إعـادة إنتـاج هـذه الثقافـات المرضيـة إلى حالـة مـن الوبـاء الثقـافى، الـذى يـؤدى فى المـدى الطويـل إلى القضـاء عـلى الثقافـة القوميـة. مثـال عـلى ذلـك أنـه إذا كان المجتمـع يخضـع لعمليـة التنميـة والتحديـث، فإن مـن شـأن ثقافـة الاسـتهلاك أن تبـدد مقـدرات المجتمـع. كذلـك يـؤدى أنتشـار ثقافـة المخـدرات بـين الشـباب إلى تهميـش أكـثر الفئـات أهميـة فى المجتمـع، حيـث يكـون إنخراطهـا فى عـالم المخـدرات خصـما مـن قدراتـه، ومدخـلا لنشـأة ثقافـات إنحرافيـة عديـدة، كالإغتصـاب والجريمـة. يضـاف إلى ذلـك فـإن إنتشـار ثقافـة التحـرش فى المجتمـع، الـذى تشـير إلى سـقوط النقـاء والطهارة عـن أخلاقـه، يضـاف إلى ذلـك ثقافـة الفسـاد، التـى تعمـل بإتجـاه تحويـل مـا هـو عـام لصالـح مـا هـو خـاص، وتـؤدى إلى فـرض هـدر مـوارد المجتمـع. إرتباطـا بذلـك فإنـه مـن الطبيعـى أن تـؤدى هـذه الثقافـات المنحرفـة إلى عجـز الثقافـة القوميـة عـن إنتـاج ذاتهـا، إن لم تخضـع لحالـة

مـن التـآكل تحـت وطـأة الثقافـات المنحرفـة، وفى هـذه الحالـة فـإن ثقافة الانحـراف من شـأنها أن تدعـم الانحـراف، وتـؤدى إلى حالـة مـن الإنهيـار الاجتماعى.

وإذا كانـت المتغـيرات السـابقة قـد لعبـت دوراً أساسـياً فى تمزيـق نسـيج الثقافـة القومية، بحيـث تـؤدى هـذه الحالـة السـلبية إلى إنعكاسـها عـلى أوضـاع المجتمـع وظهـور بعـض الظواهـر المرضيـة،، بإعتبـار أن الثقافـة هـى الموجهة والضابطـة للتفاعل الحادث فيه. من هـذه الظواهر أننا نلاحـظ سـقوط الجتمـع أسـيراً للإنقسـامات الاجتماعيـة التى تجد شرعيتهـا فى الانقسـامات الثقافية السـائدة فى المجتمـع. تأكيـدا لذلـك أننـا إذا تأملنا الأوضـاع فى المجتمع المصرى خـلال العقود الثلاثة الأخـيرة، بخاصـة نصـف العقـد الثـانى مـن الألفيـة الثالثـة، فإننـا سـوف نجـد إنقسـام المجتمـع إلى جماعـات عديـدة متناحـرة. مثـال عـلى ذلـك أننـا نجد الاسـلاميين سـواء كانوا مـن السـلفيين الذين يريـدون جـذب المجتمـع مـن حـاضرة ليعيش فى قلب عصـور سـابقة. أو جماعة الأخوان المسـلمين الذيـن يتعاملـون مـع الدين بمنطـق برامجاتى، ويمارسـون العبث بالدين لتحقيق مكاسـب سياسـية، وهـى ممارسـات ترفضهـا طهـارة الديـن ونقائة. فى مقابل الاسـلاميين نجـد الجماعـة الليبرالية، التى تسـعى إلى نـوع مـن التطـرف الليـبرالى الـذى يؤكـد عـلى الحريـة الفرديـة، بإعتبارها حريـة مطلقة بغـض النظـر عـن إحتياجـات الجماعـة ومتطلباتهـا. ومثلـما نجـد أن الاسـلاميين لا يجـدون مـبرراً لمفهـوم الوطـن والمواطنـة، فإننـا نجد أن الليبراليـين المتطرفون ينكـرون أن يكـون للمجتمع والوطن هويـة. بالإضافـة إلى ذلـك توجـد جماعـات وفئـات إجتماعيـة عديـدة، تجـد مرجعيتهـا فى أى مـن الثقافـات الفرعيـة، فى هـذا الإطـار فإننا نجـد أن للمرأة ثقافتها، وللشـباب الرافض والمتمـرد ثقافته، ولأدعيـاء الدفـاع عـن حقـوق الإنسـان ثقافتهـم الغربيـة والمغتربـة. فى هـذا الإطـار يتـآكل الإجماع والاتفـاق الاجتماعـى، حيـث يـولى الجميـع وجوههـم نحـو إتجاهـات شـتى، يشـير معنـى وجودها إلى أننـا فى حاجـة إلى عقـد إجتماعـى جديـد، يتـولى لم شـمل أطـراف المجتمـع، ويعمـل عـلى تأكيد وحدته وتماسـكة.

مــن نتائــج هــذه الحالــة كذلــك، إنتشــار حالــة الأنومــى الثقافيــة التــى تتناظــر

أو تتضافـر مـع حالـة مـن الفـوضى الاجتماعيـة، تأكيـداً لذلـك أننـا نجـد أن التفاعـل الاجتماعـى لا تحكمـه ولا تنظمـه معايـير محـددة. سـواء التفاعـل الحـادث فى الأسرة، حيث يغيـب الاتفاق حول قيـم أو معايـير محـددة لتنظيـم التفاعـل، لأن الثقافـة الأسريـة الواحدة والمتجانسـة قد تسـاقطت، بحيـث وجدنـا فى الأسرة اكـثر مـن ثقافـة توجـه سـلوكيات أفرادهـا. ولذلـك تصادمـت السـلوكيات داخـل الأسرة، ووقـع العنـف الأسرى فى إتجاهـات عديـدة، عنـف الرجـل مـع المـراة، وعنـف الأب مـع الأبنـاء، وعنـف الأبنـاء مـع الآبـاء. وفى المقابل سـقطت مشـاعر الـود والتراحم، يضـاف إلى ذلك شـيوع القيـم الفرديـة والأنانية فى الحيـاة الأسرية، فى مقابـل الجماعية التى كانـت تفرض العواطف الايثاريـة والإيجابيـة نحـو الآخـر، داخل هـذه الحياة.

بالإضافـة إلى ذلـك إرتفعـت معـدلات الانحـراف الأخلاقـى فى المجتمع، إرتباطـا بذلك يمكن النظـر إلى جريمـة التحـرش، التـى أصبح لهـا وجودها البارز فى الشـارع المـصرى بإعتبارهـا تعبيراً عن حالـة الأنومـى. حيـث تخـلى غالـب الفاعلـين فى موقـف التحـرش عـن التزاماتهـم الأخلاقيـة، التـى يمكـن أن تمنـع وقـوع هـذا الفعـل. فقد تـآكل الضمـير الداخلى للإنسـان المتحرش، بحيـث لم يمنعه ضمـيره مـن إرتـكاب هـذا الفعـل الغريـزى، الـذى يـأتى سـلوكه دون آيـة إعتبـارات أخلاقيـة. كـما سـقط الالتـزام الأخلاقـى للمشـاهد الخارجـى الـذى يقـع الفعـل فى وجـوده، دون إعتبـار للأخـلاق العامـة أو الامـلاءات الأخلاقيـة للعقـل الجمعـى، لأنهـا أصبحـت ضعيفـة، لذلـك وجدنـا أن سـلوك التحـرش يتدفـق فى الشـارع المـصرى. لا يواجهـه سـوى الـردع القانـونى، الـذى أصبـح الآليـة الأولى والمبـاشرة التـى يتـم اللجـوء إليهـا، بعـد أن كان الـردع القانـونى هـو الآليـة الأخيرة.

إلى جانب ذلك فإن ضعف الثقافة وتآكل منظومات القيم من شأنه أن يؤدى إلى إرتفاع معدلات الانحرافـات والجرائـم بأنواعهـا المختلفـة، حيث ترتفـع جرائم السرقة والقتل وغـير ذلك من الجرائم الأخـرى. نظـراً لأن الثقافـة ضعيفة لا تشـكل رادعاً لهذه الميول الاجراميـة والانحرافية، ومن ثم فهى تنطلق عارية من أى كبح أخلاقى. كما تستجد جرائم جديدة لم تكن موجودة من قبل وذلك بسبب

ضعـف آليـات الـردع التـى تلعب دورهـا فى تخفيـض الجرائم، لذلك إسـتجدت فى السـنوات الأخيرة أنمـاط مـن الجرائـم والإنحرافـات التـى لم تكن موجودة من قبل. مثل إنتشـار جرائـم البلطجة التى أنتـشرت فى الشـارع المـصرى، والتـى تجلـت من خلال أشـكال وسـلوكيات عديدة، إضافـة إلى جرائم خطـف الأطفـال وبعـض رجـال الأعـمال لطلـب الفديـة. بالإضافـة إلى بعـض الجرائـم والانحرافات، التـى تسـعى مـن ورائهـا بعـض الجماعات لهز الاسـتقرار الاجتماعـى، ومن الطبيعـى أن يعزى ذلك كلـه إلى ضعـف القـدرة الضبطيـة للقانـون ، وكذلك ضعف منظومـة الأخلاق العامـة فى المجتمع.

المراجــــع

1. Parsons, Talcott: The social System, the Free Press, Glencoe, 1952, 42.

٢. عـلى ليلـة، النظريـة الاجتماعيـة الحديثـة، دراسـة لعلاقـة الانسـان بالمجتمـع، الأنسـاق الكلاسـيكية، مكتبـة الأنجلـو المصريـة، ٢٠١٤، ص ١٣٢.

٣. نفس المرجع، ص ١٤٧.

4. Max Weber, Protestantic Elhics and the Rise of Capitilism. Black-Well, London, 1972, p ,32.

5. Merton, Robert, Social Theory and Social Structure, Routledge, Kagan Paul, New York, 1961, P. 53.

6. Talcott Parsons, Op, cit, p.73.

7. Seidman, Steven: Contested Knowledge, Social Theory in Postmodern era, Black-Well, 1998,112

٨. عـلى ليلـة، المقاصـد الكليـة الخمسـة، مرجعيـة نظريـة لتفسـير بنـاء العمـران البـشرى. مؤتمـر علـم الاجتـماع فى مجتمعاتنـا، مجتمـع واحـد ومرجعيات بديلـة، ٦-٨ مارس، المؤتمر السـنوى لقسـم الاجتـماع، جامعـة عـين شـمس، بالمشـاركة مع مركـز الدراسـات المعرفيـة بالقاهـرة، ٢٠١٠.

9. Steven Seidman, Op, Cit, P, 71.

١٠. يونان لبيب رزق، تأميم الطبقة الوسـطى وسـقوط العصر الليبرالى، مجلة الديموقراطية، ٢٠٠٤، ص ص ٣٥-٤٠، بخاصة ص ٣٧.

١١. نفس المرجع، ص ٣٨.

١٢. عـلى ليلـة، الاسـتراتيجية الناصريـة لتذويـب الفـوارق بـين الطبقـات «فصـل» فى «ثـورة يوليـو ١٩٥٢، دراسـات فى الحقبـة الناصريـة «تحريـر محمـد السـعيد إدريـس، مركـز الدراسـات السياسـية والاسـتراتيجية، وحـدة دراسـات الثـورة المصريـة، ٢٠١٠، ص ٣٥٥.

13. Hamoly, C, The Age of Umrason, London, Arrow Books, 1992, p. 83.

14. Liela, Ali: Cvil Society in Bahrain, 2006-2007 “in” Omar Al –Hassan & Kristion Ulrichen, GCSS, 2007, p 64.

١٥. سيد عويس، الخلود فى حياة المصريين، منشورات المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية، ١٩٨١، ص ٧٣.

١٦. على ليلة، ملامح السياسة الاجتماعية فى إطار التجربة الناصرية، رؤية تقييمية، «بحث مقدم لندوة» مفاهيم التنمية فى مصر، تحليل للأيديولوجيات وتقييم للممارسات، مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية، ١٧-١٨ ديسمبر ١٩٨٠، ص ١٨.

١٧. نفس المرجع، ص ٢٦.

18. Steven Seidman, Op, Cit, P.84.

١٩. على ليلة، الأمن القومى العربى فى عصر العولمة، الأبعاد الثقافية والاجتماعية، إختراق الثقافة وتبديد الهوية، الكتاب الأول، مكتبة الانجلو المصرية، ٢٠١١، ص ١٨٣.

٢٠. نفس المرجع، ص ٣٧.

٢١. على ليلة، النظريات الاجتماعية الحديثة ، دراسة لعلاقة الإنسان بالمجتمع، مرجع سابق، ص ١٤٧.

٢٢. على ليلة، الأمن القومى العربى فى عصر العولمة الأبعاد الثقافية والاجتماعية، إختراق الثقافة وتبديد الهوية، مرجع سابق، ص ١٩٢.

٢٣. نفس المرجع، ص ١٩٧.

٢٤. نفس المرجع، ص ١٩٨.

25. Talcott Parsons, Op, Cit, p. 53.

26. Ibid, p, 54.

27. Ibid, p. 63.

٢٨. محمود عودة، على ليلة، تاريخ مصر الاجتماعى، كتاب التعليم

المفتوح، ٢٠٠٢، جامعة عين شمس ، ص ٢٨١.

٢٩. على ليلة، الأسرة والمجتمع، دار قرطبة للطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠١٢، ص ٨٢.

٣٠. على ليلة، الأمن القومى العربى فى عصر العولمة الأبعاد الثقافية والاجتماعية، إختراق الثقافة وتبديد الهوية، مرجع سابق، ص ٢١٣.

٣١. على ليلة، الأسرة والمجتمع، مرجع سابق، ص ٩٣.

٣٢. محمود عودة، على ليلة، مرجع سابق، ص ٢٥٧.

٣٣. نفس المرجع، ص ٢٥٨.

٣٤. أنتونى جدنز، علم الاجتماع، ترجمة فايز الصباغ، المنظمة العربية للترجمة، مؤسسة ترجمان، الطبعة الرابعة، ٢٠٠٥، ص ٢٦٨.

٣٥. نفس المرجع، ص ٢١٧.

٣٦. محمود عودة، على ليلة، مرجع سابق، ص ٢٥٨.

٣٧. على ليلة، علم إجتماع الفئات الاجتماعية، بحث مقدم للمؤتمر الخامس، المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية، ٢٠٠٢، ص ١٣.

٣٨. أنتونى جدنز، مرجع سابق، ص ٣١١.

٣٩. نفس المرجع، ص ٣١٤.

٤٠. على ليلة، الأمن القومى العربى فى عصر العولمة الأبعاد الثقافية والاجتماعية، إختراق الثقافة وتبديد الهوية، مرجع سابق، ص ١٢٣.

٤١. على ليلة، النظرية الاجتماعية الحديثة، دراسة لعلاقة الإنسان بالمجتمع الأنساق الكلاسيكية، مرجع سابق، ص ٣١١.

٤٢. نفس المرجع، ص ٣١٣.

٤٣. محمود عودة، على ليلة، مرجع سابق، ص ٢٧٧.

٤٤. نفس المرجع، ص ٢٧٩.

٤٥. نفس المرجع، ص ٢٨٣.

٤٦. نفس المرجع، ص ٢٨٤.

٤٧. نفس المرجع، ص ٢٨٥.

٤٨. نفس المرجع، ص ٢٨٦.

٤٩. على ليلة، الأمن القومى العربى، فى عصر العولمة، الأبعاد الثقافية والاجتماعية، تفكيك المجتمع وإضعاف الدولة، الكتاب الثانى، ٢٠١١، مكتبة الأنجلو المصرية، ص ١٤٥.

٥٠. نفس المرجع، ص ١٤٨.

٥١. على ليلة، الآثار الاجتماعية للإصلاح الزراعى «فى» الاصلاح الزراعى فى مصر، إشراف السيد يسن، منشورات المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية، ١٩٨٠، ص ٢١٨.

٥٢. على ليلة، علم إجتماع الفئات الاجتماعية، مرجع سابق ص ١٣.

٥٣. يونان لبيب رزق، مرجع سابق، ص ٣٩.

٥٤. على ليلة، الاستراتيجية الناصرية لتذويب الفوارق بين الطبقات، مرجع سابق، ص ٣٥٥.

٥٥. نفس المرجع، ص ٣٥٤.

٥٦. نفس المرجع، ص ص ٣٥٨-٣٥٩.

٥٧. نفس المرجع، ص ٣٦٠.

٥٨. على ليلة، العالم الثالث، مشكلات وقضايا، دار الثقافة للنشر والتوزيع، ١٩٨٥، ص ٤١٣.

٥٩. يونان لبيب رزق، مرجع سابق، ص ٣٩.

٦٠. محمود عودة وعلى ليلة، مرجع سابق، ص ٢٨٣.

٦١. على ليلة، الاستراتيجية الناصرية لتذويب الفوارق بين الطبقات، مرجع سابق، ص ٣٦٠.

٦٢. يونان لبيب رزق، مرجع سابق، ص ٣٩.

٦٣. نفس المرجع، ص ٤٠.

٦٤. زكى الميلاد، المسألة الحضارية، كيف نبتكر مستقبلنا فى عالم متغير، مركز الحضارة للفكر الاسلامى، سلسلة الدراسات الحضارية «٢٩» ٢٠٠٨، ص ٥٧.

٦٥. سيد عويس، مرجع سابق، ص ١١٣.

٦٦. على ليلة، العالم الثالث، مشكلات وقضايا، مرجع سابق، ص ٣٧١.

٦٧. على ليلة، الآثار الاجتماعية للإصلاح الزراعى، مرجع سابق، ص ٢٢٣.

٦٨. على ليلة، الاستراتيجية الناصرية لتذويب الفوارق بين الطبقات ، مرجع سابق، ص ٣٥٤.

٦٩. محمود عودة، على ليلة، مرجع سابق، ص ٢٧٦.

٧٠. نفس المرجع، ص ٢٧٧.

71. Mills, C. Wright, Sociological Imagination, Routledge, Kegan Paul, 1961. P. 32.

72. Ibid, p 37.

73. Gouldner, Alvin, The Coming Gisis of Western Sociology, Heiman, London, 1971, p. 93.

74. Steven Seidman, Op, Cit, p. 173.

75. Robert, K, Merton, Op, Cit, p, 72.

٧٦. محمود عودة، على ليلة، مرجع سابق، ص ٢٨١.

٧٧. نفس المرجع، ص ٢٨٣.

٧٨. نفس المرجع، ص ٢٨٤.

٧٩. على ليلة، الاستراتيجية الناصرية لتذويب الفوارق بين الطبقات، مرجع سابق، ص ٣٥٦.

٨٠. محمود عودة، على ليلة، مرجع سابق، ص ٢٨٠.

٨١. نفس المرجع، ص ٢٨٨.

٨٢. يونان لبيب رزق، مرجع سابق، ص ٤٠.

٨٣. على ليلة، الاستراتيجية الناصرية لتذويب الفوارق بين الطبقات، مرجع سابق، ص ٣٦٠.

٨٤. يونان لبيب رزق، مرجع سابق، ص ٣٩.

٨٥. نفس المرجع، ص ٤٠.

٨٦. على ليلة، الآثار الاجتماعية للإصلاح الزراعى، مرجع سابق، ص ٢٨٤.

٨٧. على ليلة، الأمن القومى العربى فى عصر العولمة، الأبعاد الاجتماعية والثقافية، تفكيك المجتمع وإضعاف الدولة، مرجع سابق، ص ٢٢٣.

٨٨. على ليلة، الاستراتيجية الناصرية لتذويب الفوارق بين الطبقات، مرجع سابق، ص ٣٥٨.

٨٩. على ليلة، المقاصد الكلية الخمسة، مرجعية لتفسير بناء العمران البشرى، مرجع سابق، ص ١٨.

٩٠. على ليلة، تأثير الهجرة على الأمن القومى العربى، مخاوف إستلاب وطن «فى» العمالة الأجنبية فى الوطن العربى، «تحرير» أحمد يوسف، معهد البحوث والدراسات العربية، جامعة الدول العربية، ٢٠١٠، ص ١١٣.

٩١. أنتونى جدنز، مرجع سابق، ص ٥٣٤.

٩٢. على ليلة، المجتمع المدنى العربى، قضايا المواطنة وحقوق الإنسان، مكتبة الانجلو المصرية، ٢٠٠٩، ص ٩٣.

٩٣. نفس المرجع، ص ١١٧.

٩٤. على ليلة، الأمن القومى العربى فى عصر العولمة، الأبعاد الثقافية والاجتماعية، إختراق الثقافة وتبديد الهوية، مرجع سابق، ص ٨٣.

٩٥. على ليلة، ملامح السياسة الاجتماعية فى إطار التجربة الناصرية، مرجع سابق، ص ٢٢.

٩٦. نفس المرجع، ص ٢٣.

٩٧. نفس المرجع، ص ٢٥.

٩٨. على ليلة، الأمن القومى العربى فى عصر العولمة، الأبعاد الاجتماعية والثقافية، إختراق الثقافة وتبديد الهوية، الكتاب الأول، مرجع سابق، ص ٣١٢.

٩٩. نفس المرجع، ص ٣١٤.

100. Durkheim, Emile, Division of Lobour in Society-

Trans by George Simpson, N.G, The Free Press, 1966, P, 249.

١٠١. على ليلة، المجتمع المدنى العربى، قضايا المواطنة وحقوق الإنسان، مرجع سابق، ص ١١٣.

١٠٢. على ليلة، الأمن القومى العربى فى عصر العولمة، الأبعاد الثقافية والاجتماعية، إختراق الثقافة وتبديد الهوية، مرجع سابق، ص ٣٢٣.

١٠٣. نفس المرجع، ص ٣٢٤.

١٠٤. على ليلة، الأسرة والمجتمع، دار قرطبة للطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠١٢، ص ١٦٢.

١٠٥. على ليلة، الأمن القومى العربى فى عصر العولمة، الأبعاد الثقافية والاجتماعية، إختراق الثقافة، وتبديد الهوية، مرجع سابق، ص ٣٢٧.

١٠٦. نفس المرجع، ص ٣٣١.

١٠٧. نفس المرجع، ص ٣٣٢.

١٠٨. نفس المرجع، ص ٣٣٧.

الفصل السادس

الشباب

من التطرف والعنف

وحتى ممارسة الارهاب والانحراف

الفصل السادس

الشباب

من التطرف والعنف

وحتى ممارسة الارهاب والانحراف

تمهيد:

إذا تأملنا مراحل النمو العمرى التى يمر بها الإنسان فسوف نجدها ثلاثة مراحل، المرحلة الأولى هى مرحلة الطفولة، حيث يخضع الإنسان فى إطارها لعمليات التنشئة الإجتماعية المتنوعة والمتتابعة. التى يستوعب من خلالها القيم والمعايير التى تشكل ضميره الداخلى وتوجه سلوكياته فى مختلف مجالات الواقع الإجتماعى. هذه العملية تقوم بها عادة مؤسسات التنشئة الإجتماعية التى تضم الأسرة والمدرسة وأجهزة الإعلام وتكنولوجيا الإتصال والمعلومات. وحتى تنجح عملية التنشئة الإجتماعية فى بناء الضمير الداخلى للإنسان فإنه ينبغى أن يتوفر لها شرطان. ويتمثل الشرط الأول فى أنه ينبغى أن تنطلق هذه العملية من مرجعية قيمية أو معنوية واحدة، بمعنى أن يكون هناك تحديد لمنظومات القيم التى ينبغى أن تعمل وفقا لها مختلف مؤسسات التنشئة الإجتماعية. فإذا غابت منظومات القيم المتفق عليها، ولم تشكل مرجعية لآداء مؤسسات التنشئة الإجتماعية، فإن حالة من الفوضى سوف تسود الأخيرة. وهو ما ينعكس على هيئة ضعف الضمير الأخلاقى للإنسان، الأمر الذى يجعل سلوكياته فى مختلف المجالات الإجتماعية عشوائية وعارية من أى توجيه أخلاقى. ويتصل الشرط الثانى بضرورة أن تشكل القيم والمعانى الدينية قاعدة لمنظومات القيم الأخلاقية، وذلك بإعتبار أن غالبية القيم والمعانى الدينية، تدعو إلى النقاء والطهارة والحفاظ على الإنسان فى جوانبه المختلفة.

وتشكل مرحلة الشباب المرحلة الثانية فى عمر الإنسان، وهى المرحلة التى تتميز بحالة من عدم الإستقرار بسبب بعدين أساسيين، البعد الأول يتمثل فى البنية البيلوجية والغريزية. وهى مكون محورى فى الشخصية ينمو بصورة طفرية وقوية خلال هذه المرحلة، التى تعرف عادة بمرحلة البلوغ أو المراهقة،

ويتقابل مع ذلك إكتمال نمو الضمير الأخلاقى للفرد. وإتجاه هذا الضمير لضبط الإشباعات البيلوجية والغريزية للشباب، ومن ثم يحدث صراع على ساحة الشاب، فإذا كانت تنشئته الإجتماعية سليمة ومتآزره، فإن الضمير الأخلاقى للشاب يكون فى العادة قويا. ومن ثم يكون قادراً على تنظيم الإشباعات الغريزية وضبطها وفق ما تفرضه قيم ومعايير المجتمع وأخلاق ومعانى الدين. أما إذا كانت الغرائز البيلوجية أقوى من الضمير الأخلاقى للفرد بسبب ضعفه، نتيجة للتنشئة الإجتماعية الضعيفة التى تعرض لها، أو نتيجة للضغوط الخارجية التى تقوى الجانب الغريزى فى الإنسان. فإننا نجد أن الشاب خلال هذه المرحلة يأتى كثيراً من السلوكيات المنحرفة، التى تعبر عن الجانب الحيوانى أو البيلوجى فى بنائة. وتكون هذه السلوكيات فى الغالب غير ملائمة لحالة الإجتماع عادة، بل وتؤدى إلى نشر فوضى فى الحياة الإجتماعية للشباب والمجتمع.

وفى المرحلة الثالثة، حيث مرحلة الرجولة والكهولة والشيخوخة تبدأ المكونات البيلوجية فى بناء الشخصية فى الإستقرار، وكلما تقدم العمر، فإن قوتها تتجه إلى الضعف والتراجع. ذلك فى مقابل الضمير الأخلاقى للفرد، الذى يبدأ فى إكتساب قدر من القوة، وذلك بسبب ضعف التهديدات الغريزية من ناحية، ومن ناحية أخرى لأن الإنسان فى هذه المرحلة العمرية يكون أكثر مشاركة فى الحياة الإجتماعية، بل وأكثر إلتزاما بالقيم والتقاليد. يتفاعل فى نطاق مختلف مجالاتها وفق منظومات القيم والمعايير المستقرة ثقافيا وإجتماعيا وأخلاقيا، بحيث نجد أنه كلما كان الضمير الأخلاقى للفرد أكثر تفعيلا وفاعلية، فى مقابل ضعف أو إنتفاء التهديدات الغريزية والبيلوجية للشخص. فإن هذا الضمير الأخلاقى يتدعم بصورة أكثر، ويقترب بإتجاه التوحد والتطابق مع الضمير الجمعى للجماعة أو المجتمع. بل إننا نجد أن كبار السن فى هذه المرحلة هم الذين يقومون بعملية التنشئة الإجتماعية للآخرين من الشباب والصغار. وإذا كانت مرحلة الشباب هى عادة المرحلة غير المستقرة فى عمر الإنسان فإنها بسبب عدم إستقرارها، من المحتمل تسقط أسيرة لبعض السلوكيات التى تهدد حالة الاجتماع، وقد تنشر الفوضى فى إطارها، كالإنخراط فى ممارسات التطرف

والعنـف والارهـاب، الضـاره بالمجتمـع. أو السـقوط أسـيرة بعـض السـلوكيات المنحرفـة أو الضـارة بالشـباب والمدمـرة لشـخصياتهم مـن جوانـب عديدة.

إرتباطـا بذلـك تعتـبر ظاهـرة التطرف التى يشـارك فيها الشـباب بكثافة، مـن الظواهر التى تهـز إسـتقرار المجتمـع، إذا إتسـعت مسـاحتها فى أى مجتمع مـن المجتمعات. بحيث يؤدى أنتشـار السـلوكيات المتطرفـة والعنيفـة إلى زيـادة مخـزون التوتـر الإجتماعـى فى المجتمـع، لأن البـشر فى المجتمـع يصبحـوا غـير أمنـين على أنفسـهم من الأفعـال المتطرفـة أو العنيفة. وإذا عـانى أى مجتمع مـن حالـة عـدم الأمـان، فـإن ذلك من شـأنه أن يؤثـر على عمليـة التنميـة والتحديث فى إطـاره، بل ويسـاعد فى نـشر حالـة مـن العدائيـة داخـل المجتمـع. لذلـك تشـير ظاهـرة التطـرف والعنـف إذا إنتـشرت فى أى مجتمـع مـن المجتمعـات، إلى خلـل مـا قد حـدث فى بنـاء المجتمع وعلينـا أن نبحث عـن مواضـع هـذا الخلـل لإصلاحـه، حتـى يعـود المجتمـع إلى سـيرته الصحيحـة بإعتبـاره بيئـة غـير مواتيـة للتطـرف. وفى ذات الوقـت فـإن الأشـخاص المتطرفـين، بخاصـة المتطرفـين دينيـا يعانون من نـوع مـن الخلـل فى بنـاء شـخصياتهم، الأمـر الـذى يجعلهم يختـارون المواقـف المتطرفة.

ذلـك يعنـى أن المواقـف المتطرفـة فى أى إتجـاه وفى أى نطاق، هى مواقـف إلى حد كبير غير عاقلـة وإنفعاليـة وناقصـه، بينـما المواقف الأكثر إكتمالاً هـى المواقف الأكثر إعتدالاً ووسـطية. وهو الاعتـدال والوسـطية التـى تمكـن الإنسـان مـن إدراك الحقيقة فى طبيعتها الأساسـية، وكـما هو معبر عنهـا بصـدق وموضوعيـة، حيث لا ينظـر إليها نظره متعصبـة، تعمى الفرد دائماً عـن رؤية الحقيقة فى جوهرهـا ومـن مختلـف زواياهـا. على هـذا النحو نجـد أن التطرف أقرب ما يكـون إلى التعصب بالـرأى، يـرى المتطـرف نفسـه وكأنـه الصـادق دائمـاً، وأن الآخريـن لا يدركـون الحقيقـة. ولذلـك نجـد أن التطـرف، موقـف يرفضـه الآخـرون، لأنـه يكـون قريبـا مـن التعصـب للـرأى الـذاتى الـذى يرفـض وجهـات نظـر الآخريـن، أو هـو إدراك للحقيقـة مـن زاوية واحـدة، وهو أيضـا موقف جامد يرفـض الحـوار. بحيـث نجـد أن التعصـب يقـود إلى العنـف الـذى يوجه ضـد الاخرين، وقـد يؤذى القائـم بالعنـف ذاتـه، لذلـك نجـد أن التطـرف والتعصـب والعنـف هى أضـلاع ثلاثة لمثلـث واحد.

يشـكل مقدمـة لقيـام جماعـات الإرهـاب التـى أصبحـت توجـد بكثافة على سـاحة عالمنـا المعاصر، وبالأخـص فى نطـاق مجتمعاتنـا العربية والاسـلامية.

ذلـك يعنـى أن الإرهـاب يعـد مـن ناحيـة إسـتمراراً للتطـرف والتعصـب والعنـف، حينـما يشـعر ممارسـوه أنهـم عاجـزون عن الالتقـاء مع الطرف الآخـر المختلف، أو العجز عـن فرض وجهة نظرهـم عليـه، ومـن ثـم العمـل على تدمـيرة أو تبديد طاقاتـه. كما يعـد الارهاب من ناحيـة ثانية، مـن الأفعـال التـى تهـز إسـتقرار المجتمعـات فى عالمنا المعـاصر، ويعمل عـلى تبديـد مواردها وهدر إمكانياتهـا، إضافـة إلى أنـه ينـشر الفـوضى عـلى الصعيـد المحـلى والقومـى والعالمـى عـلى السـواء. ونحـن إذا تأملنـا الأفعـال الإرهابيـة التـى تقـع عـلى الصعيـد المحـلى والقومـى والعالمـى، فسـوف نجـد أن العوامـل المسـببة لهـا قـد تنطلـق مـن المسـتوى العالمـى. إضافـة إلى إمكانيـة إنطلاقها من المسـتوى القومـى أو المحـلى، وهـو مـا يعنـى أنـه هنـاك تضافـر بـين عوامـل عديـدة مسـئولة عـن تفجـر الظاهـرة الإرهابيـة. يضـاف إلى ذلـك أن هنـاك سـمات معينـة تميـز الشـخصية المشـاركة فى الأفعـال الإرهابيـة، إذ تتوفـر لديهـا القابليـة للقيـام بهـذه الأفعال.

وإذا كانـت مجتمعـات العـالم تختلـف من حيـث تعريف الأفعال الإرهابيـة، حيث نجد أن البعـض يحـاول أن يضيـق مـن نطـاق الأفعال التـى يمكن أن توصم بأنهـا أفعال إرهابيـة. بينما نجد أن البعـض الآخـر، بخاصـة الـدول الكـبرى، والمجتمعـات التـى تحتـل أراضى مجتمعات اخـرى، التى تسـعى إلى توسـيع المفهـوم بحيـث تجعـل المقاومـة المشروعـة، التى تسـعى إلى تحريـر مجتمعاتها مـن أى غـبن أو ظلـم مفـروض عليهـا، بإعتبارهـا نـوع مـن الإرهـاب. بـل إننـا نجد أن هنـاك بعض المجتمعـات التـى تدخـل المعارضـة فى نطاق الإرهاب، وهى الممارسـات التى تسـاعد فى تمييع حدود الفعـل الإرهـابى، وهـو الفعـل الـذى ينبغـى تحديـده بدقة حتـى يمكن أن نطـور اسـاليب مواجهته بصورة دقيقـة كذلك.

إسـتناداً إلى ذلـك فإنـه إذا كانـت عوامـل الإرهـاب ومسـبباته تنطلـق مـن ثلاثـة مسـتويات، هـى النظـام العالمـى، ثـم المجتمـع القومـى والمجتمـع المحـلى، حيـث هـى السـياقات التـى قـد تنطلـق منهـا العوامـل المسـببة للإرهـاب. والتـى قـد تنطلـق فى أى

مـن هـذه المسـتويات، إما مـن الثقافة ومنظومـات القيم، او من السـياق الإجتماعى أو من سـمات وبنيـة الشـخصية الإرهابيـة ذاتهـا. وهـو الأمـر الـذى يعنى أن أسـاليب المواجهة ينبغـى أن تتدفق فى نفـس الإتجـاه، إذ ينبغـى تطويـر السياسـات العالميـة والقوميـة، بمسـتوياتها العديـدة، لمواجهـة هـذه الظواهـر فى مهدهـا. وكذلـك الأفـكار والسـلوكيات التـى تضعـف مـن ناحيـة إنتـماء الفـرد لمجتمعـه وإرتباطـه بـه، بمـا فى ذلـك إضعـاف أو تراجـع مواطنتـة، كـما تعمـل عـلى هـز الاسـتقرار الاجتماعـى للمجتمـع، سـواء المجتمـع المحـلى أو القومى أو العالمـى، وهى القضايا التـى نعالجها فى الصفحـات التالية.

أولاً: العوامل والأسباب المسئولة عن التطرف الدينى

قبـل أن نـشرع فى الحديـث عـن عوامـل وأسـباب التطرف الدينـى، نحاول بدايـة أن نحدد التطـرف الدينـى، الـذى يعرفـه البعـض بإعتبـاره نـوع مـن الغلـو الفكـرى الـذى يـؤدى إلى الشـدة أو الأفـراط فى موقـف معـين، والوصـول بـه إلى الحـد الأقـصى، أمـا الغلـو فيقصـد بـه مجـاوزة الحـد المعقـول والمفـروض فى أى مجـال (١). وإذا إقـترن التطـرف بالعنـف والأعـمال التـى تفـزع النـاس وتهـدد الأمـن، فإنـه يتحـول إلى إرهاب، وبذلـك يصبح التطرف والغلـو والإرهاب، أفكار وسـلوكيات لهـا تأثيرهـا الخطـير والمدمـر عـلى كل مـن الفـرد والجماعـة والمجتمـع. وفى العـادة يبـدأ التطـرف بالعقـل والفكـر ثـم ينتقـل إلى السـلوك، وهـو مـا يعنـى أن التطـرف حالة تصيـب تفكير الفـرد، ثم تنتقـل هـذه الإصابـة بالتطـرف إلى التأثـير عـلى سـلوك الفـرد، حيـث يصبـح الفـرد حـاداً، يميـل إلى العنـف ويرفـض الإحتـكام إلى لغـة الحـوار والعقـل. وعندمـا تسـيطر عـلى الفكـر سـمات التفكـير المتطـرف فإنـه لا يـرى أفـكاراً غـير أفـكاره، بل إننـا نجده يفتقـد القدرة عـلى التحاور وقبـول الآخر. وفى محاولـة التعـرف عـلى العوامـل أو الأسـباب الدافعـة إلى التطـرف الدينـى فإننا نعـرض فيما يلى لبعـض مـن هـذه العوامل

١. دور الظـروف العالميـة فى نشـأة التطـرف والعنـف الدينـى: إذا تأملنـا واقـع المجتمعـات فى نظامنـا العالمـى المعـاصر، فسـوف نجـد أن هنـاك إتجـاه عـام لنشـأة وتكاثـر الجماعـات المتطرفـة التـى إعتمـدت العنـف أسـلوبا فى التعامـل. وقـد

تمثلت البداية فى نشاة توجهات دينية متطرفة فى الولايات المتحدة الأمريكية، وهى توجهات، عبر عنها الرئيس الأمريكى السابق جورج بوش ووزير دفاعه راميسفيلد، وهى أصولية دينية حرفية تؤكد على منطق صراع الحضارات بديلاً من تفاعلها السلمى. وإستناداً إلى هذه العقيدة تطرفت الدولة الإمريكية فى شن الحرب فى كل مكان على خريطة العالم، وفجرت كثيرا من الصراعات، بخاصة فى منطقة الشرق الأوسط. فقد شنت الحرب على العراق فى ظل دعاوى كثيرة، إبتداء من وجود أسلحة ذرية أو كيميائيه، وحتى إدعاء رعاية العراق لجماعات التطرف والإرهاب. بالإضافة إلى ذلك فإنها فجرت الصراع بين الجماعات المشكلة للمجتمع العراقى «السنة والشيعة والأكراد»، كما فجرت الصراع فى السودان بين جنوب السودان بقيادة الجبهة الشعبية وشماله من ناحية، وبين غربة فى دارفور وشماله من ناحية ثانية، وبين شرقه وشمالة من ناحية ثالثة. وذلك فى ظل إستراتيجية بناء «الشرق الوسط الكبير» حيث تفتيت وتجزئة دول منطقة الشرق الأوسط إلى دويلات صغيرة تيسر للولايات المتحدة وإسرائيل السيطرة عليها (٢). بحيث يمكن النظر إلى هذه الحروب التى شنتها الولايات المتحدة فى كل مكان تعبيراً عن أيديولوجية دينية وسياسية متطرفة، قادت أفكارها إلى تفجر العنف فى كل مكان.

وإستناداً إلى دراسات عديدة فإنه لما كان التطرف يولد تطرفا في المقابل، والعنف بدوره يولد عنفاً بنفس القدر، فإننا نجد أن هذا السلوك الأمريكى على الصعيد العالمى، وهو السلوك الموجه بأيديولوجية دينية متطرفة، ولد ما يمكن أن يسمى بجماعات التطرف والأرهاب. إذ وجدنا أن غالبية المجتمعات التى إعتدت عليها الولايات المتحدة الأمريكية ظهرت على ساحتها بعض الجماعات التى تقوم بالتطرف والإرهاب والعنف. وهو عنف وتطرف موجه إلى الحضارة الغربية فى جملتها وإلى مصالح الولايات المتحدة بخاصة ، أو إلي المتعاونين معها في ساحات التطرف والعنف والصراع، ولذلك وجدنا التنظيمات الدينية العديدة كتنظيم «القاعدة» تظهر وتمارس التطرف والعنف، إضافة إلى جماعة «طالبان» فى أفغانستان وجماعة النصرة في سوريا وداعش في العراق. وذلك لأن الدول

والقـوى الغربيـة إسـتنفرت غضـب وتطـرف هذه الجماعـات من خلال أسـاليب عديـدة، منها نشر الأفـكار والرسـوم المسـيئة للرمـوز الدينيـة الإسـلامية والمسـيحية على السـواء، أو الضغـط على العالم الإسـلامى، أو ربـط الإسـلام بالتطـرف والعنـف بخاصـة فى أعقـاب حادثـة ١١ سـبتمبر عـام ٢٠٠١. وهـو مـا يعنـى أن التطـرف والعنـف فى مجتمعاتنـا لـه أصولـة العالميـة، وأنـه إذا كان قـد ظهر على سـاحة مجتمعاتنـا، فهـو تطـرف وعنـف بعـض جـذورة ليسـت فى بنيـة مجتمعاتنا، وإنما هو عنف صـادر فى قـدر كبـير منـه نتيجـة دول خارجيـة لمجتمعاتنـا، ومن ثـم فهـو آت إلينا من الخـارج (٣).

٢. النظـام الإقليمـى كأحـد مصـادر التطـرف والعنـف: فى كثـير مـن الأحيان ينتـشر التطرف والعنـف كنـوع مـن العـدوى فى نطـاق إقليمـى معـين، كـما هى الحـال فى إنتشـار ظواهـر التطرف والعنـف فى الـشرق الأوسـط أو فى العـالم العـربى والاسـلامى، وذلـك بسـبب الظـروف السـائدة فى مجتمعـات النظـام الإقليمـى. ونحـن إذا تأملنـا النظـام الإقليمـى فى الـشرق الأوسـط أو فى العـالم العـربى، فسـوف نجـد أن هـذه الأقاليـم متخمة بظواهـر التطرف والعنف. على سـبيل المثـال علينا أن نتأمـل التطـرف والعنـف الـذى يقع عـلى أرض العراق، حيـث جماعات التطـرف الدينى والعنف تقـوم بكثـير مـن الحـوادث، التـى تـؤدى إلى قتـل كثـير مـن الأبريـاء. وهـو تطـرف وعنـف سـببة تأثـير الإحتـلال فى فـترة سـابقة ، الـذى عمل عـلى التفكيك المسـتمر لبنيـة المجتمع العراقـي (٤). أو هـو عنـف موجـه مـن قبـل الجماعات المشـكلة للمجتمـع العراقـى نحو بعضهـا البعـض. كذلك فى إفغانسـتان حيـث نجـد التيـار الدينـى المتطرف والمتمثـل فى حركة «طالبـان» يقود العنـف والصراع ضـد القـوى المحتلـة للمجتمـع الأفغـانى، والتـى رحلـت الآن تحـت ضغوطـه بالإضافـة إلى أنه عنف وتطـرف موجـه إلي بعـض الجماعـات في المجتمـع، يتسـبب فى قتـل كثـير مـن الأبريـاء مـن بـين الموا طنين.

بالإضافـة إلى ذلـك هنـاك العنـف التـى تقـوده إسرائيـل كدولـة دينيـة متطرفـة، تـارة ضـد لبنـان فتحطـم المـدن وتقتـل الأطفـال والشـيوخ والنسـاء، أو ضـد الفلسـطينيين فى الضفـة الغربيـة وغـزة، وهـى الحـروب الموجهـة بعواطـف العنـف والتطـرف والتـى

مـا زالـت مسـتعرة حتـى الآن. حيـث تقـود هـذه الحـروب العنيفـة عقليـات صهيونيـة متطرفـة، ومـن الطبيعـى أن تسـلم هـذه الحـروب وهـذا التطـرف الدينـى، الـذى تقـوده دولـة إسرائيل ضد الجماعـات الأخـرى إلى توليـد أو إنتـاج عنـف مضـاد. وهـو ما يعنى أنـه من المتوقـع أن يقود هذا العنـف الدينـى المتطـرف إلى إسـتمرار التطـرف الدينـى والعنف فى المسـتقبل، بالإضافـة إلى ذلك ما يحـدث فى الصومـال، فـإن تبنـى بعض الجماعـات الدينية لأفكار تأسـيس «المحاكم الإسـلامية» التى تعمـل وفـق أفـكار دينيـة متطرفـة. حيـث قـاد ذلـك هـذه الجماعـات إلى الـصراع مـع الجماعـات الأخـرى فى المجتمـع الصومـالى، بحيـث إنهـارت الدولـة فى الصومـال، وهـى تعيـش الآن حالـة مـن الفـوضى بسـبب التطـرف الدينـى والعنـف الـذى تفجـر عـلى سـاحتها. بالإضافـة إلى ذلـك فإننا إذا تأملنـا دولـة مثـل الجزائـر فى فـترة سـابقة، وليبيـا وسـوريا الآن. التـى إنتـشر فيهـا لذلـك التطـرف الدينـى، بحيـث أدى هـذا التطـرف فى إطارهـا إلى إنتشـار سـلوكيات العنـف التـى أودت بكثـير من الأرواح فى هـذه المجتمعـات، كذلـك مـا قامـت بـه الجماعـات الدينيـة المتطرفـة فى اليمـن، والتـى تسـببت فى مقتـل كثـير مـن الأرواح. ومـن الطبيعـى أنـه إذا كان التطرف الدينـى والعنف موجود وقائـم فى منطقـة الـشرق الأوسـط والعـالم العربى والاسـلامى، فإن ذلك من شـأنه أن يمـلأ فضاء هذه المجتمعـات بأفـكار التطـرف الدينـى والعنـف، بحيـث تصبـح هـذه الأفـكار والممارسـات كالمـرض المعـدى تنتـشر مـن المجتمـع المولـد للتطـرف إلى المجتمعـات الأخـرى، حتـى تلـك التـى ليـس فيها الأسـباب أو الظـروف المولـدة للعنـف (٥).

٣. ضعـف القيـم والأخـلاق فى المجتمـع: ويرتبـط بذلـك أننـا إذا تأملنـا حالـة التفاعـل فى أى مجتمـع مـن المجتمعـات فسـوف نجـد أن هـذا التفاعـل تنظمـة المعايـير والقيـم المشـتقة مـن ثقافـة المجتمـع أو المتضمنـة فيهـا. وفى العـادة فـإن المعايـير والقيـم تنظـم سـلوكيات البـشر فى مختلـف مجـالات المجتمـع، حيـث نجـد أن الثقافـة ومنظومـات القيـم المتضمنـة فيهـا تميـل إلى الإعتـدال والوسـطية ولا تميـل إلى المواقـف المتطرفـة. لأن الإعتـدال والوسـطية هـى التعبيـر عـن غالبيـة أفـراد المجتمـع، بينـما نجـد أن المواقـف المتطرفـة تعـبر عـادة عن وجهـة نظر عـدد محدود

مـن البـشر فى المجتمـع، أى القلـة. غـير أننـا إذا تأملنـا القيم والأخـلاق، أى الثقافة، التـى تؤكد على الوسـطية والإعتـدال، فإننـا سـوف نجـد أنـه قـد أصابهـا نوع مـن الضعـف، بحيث أصبحـت عاجزة عـن أداء وظيفتهـا الأساسـية فى ضبـط التفاعـل الإجتماعـى وتنظيم علاقـات البـشر ببعضهم البعض (٦).

ويرجـع الضعـف الـذى أصـاب ثقافـة المجتمـع وقيمـه إلى عـدة ظـروف وأسـباب رئيسـية، مـن هـذه الأسـباب أن التحـولات الإجتماعيـة الإقتصاديـة التـى وقعـت فى المجتمـع المـصرى مثـلاً فى النصـف الثـانى مـن القـرن العشريـن – عـلى نحـو مـا أشرنـا فى الفصـل الخامـس -، أى إبتـداء مـن ١٩٥٢ وحتـى الآن. قـد أدت إلي إضعـاف ثقافـة المجتمـع ومنظوماتـه القيميـة، وذلـك لتتابـع الإيديولوجيـات دون ان تؤكـد عـلى ثقافـة المجتمـع، لأنهـا لم تولـد مـن رحمهـا. فقد كنـا قوميين فى الفـترة مـن ١٩٥٢-١٩٦٠، ثـم أصبحنـا إشـتراكيين فى الفـترة مـن ١٩٦٠-١٩٧٠، ثم أصبحنـا ليبراليين فى الفـترة مـن ١٩٧٠ وحتـى الآن، إضافـة إلى تأثـيرات العولمـة الثقافيـة والأخلاقيـة، التـي بـدأت تؤثـر علينـا فى الفـترة الأخيرة، بسـبب الإخـتراق الذى حدث لفضائنـا الثقافى. هذا التتابـع للأيديولوجيات، كان يحـدث تقريبـا كل عـشر سـنوات، حتـى إسـتقر فى التحـول الليـبرالى الأخير، ونحـن إذا نظرنا إلى هـذه التحـولات فسـوف نجـد أن منظومـة القيـم الموجـودة فى كل تحـول كانـت تلغـى المنظومـة القيميـة السـابقة عليهـا، حتـى نفـت أو ألغـت منظومـات القيـم بعضهـا البعـض، بحيـث أصبـح فضاءنـا الثقـافى يعـانى مـن نوع مـن الفـراغ القيمـى أو الأخلاقـى (٧).

بالإضافـة إلى ذلـك فإننـا إذا نظرنـا إلى المنظومـات القيميـة المتضمنـة فى كل هـذه الأيديولوجيـات فسـوف نجـد أنهـا منظومـات قيـم ليسـت منبثقـة مـن رحـم ثقافـة المجتمـع، بـل فرضـت عـلى المجتمـع وثقافتـة مـن خارجـه. فى حـين أنـه كان ينبغـى أن تعمـل عـلى تقويـة ثقافـة المجتمـع، وفى المقابـل تعمـل ثقافـة المجتمـع عـلى دعـم هـذه الإيديولوجيـات وتقويتهـا. بحيـث أدى هـذا الإنفصـال إلى حـدوث حالـة مـن الفـراغ الأخلاقـى، إضيفـت إلى مسـاحة الفـراغ السـابق. يضـاف إلى ذلـك أن مؤسسـات التنشـئة الإجتماعيـة فى الفـترة الأخـيرة قـد أصابهـا الخلـل

بسـبب ظـروف كثـيرة، فقـد ضعفـت مؤسسـة الأسرة تـاره بسـبب، الزيـادة المتناميـة للاحتياجـات، وهـي الزيـادة التـي تسـاعد في ازدهـار الثقافـة الاسـتهلاكية، الأمـر الـذى دفـع كثـيراً مـن أربـاب الأسر إلى السـفر إلى مجتمعـات الخليـج، بحيـث سـاهم غيـاب الأب في إضعـاف الأسرة. كـما سـاهم في تبنـى الأسر للثقافـة الإسـتهلاكية التـى إخترقـت مجتمعاتنـا، وأرهقـت دخـول الأسرة. إضافـة إلى أن الأسرة لم تعـد متفرغـة لتنشـئة أبنائها التنشـئة السـليمة، بحيـث إنكمش دور الأسرة فى التنشـئة الإجتماعيـة للأبنـاء، فى مقابـل إتسـاع مسـاحة الإعـلام وتكنولوجيـا المعلومـات (٨). كذلـك ضعفت المدرسـة كمؤسسـة للتنشـئة الإجتماعيـة والتربيـة التعليمية، وذلك بسـبب إنتشـار ظاهـرة الدروس الخصوصيـة، وهـى الظاهـرة التـى شـوهت العمليـة التعليميـة، وحطمت القـدوة أو قضـت عليها، إضافـة إلى أنهـا سـاهمت بصـورة واضحـة فى إثقـال كاهـل الأسر بكثـير مـن الأعبـاء الإقتصادية.

فى هـذا الإطـار فإنـه إذا كانـت أخـلاق المجتمـع بحكـم التحـولات الإجتماعيـة الإقتصاديـة قـد أصابهـا قـدر مـن الضعـف، وإذا كانـت مؤسسـات التنشـئة الإجتماعيـة، التـى تـربى البـشر على القيـم والأخـلاق قـد ضعفـت هـى الأخرى. فـإن ذلك قد أدى إلى تاسـيس نوع من الفـراغ الأخلاقى فى المجتمـع، ضـاع معـه اليقـين عنـد الشـباب، وإذا ضـاع اليقـين فـإن الإنسـان يفتقـد «البوصلـة» الأخلاقيـة والقيميـة التـى توجـه سـلوكه. ومـن ثـم يقـع فريسـة لبعـض الأفـكار المتطرفـة، التـى تقدمهـا بعـض الجماعـات جاهـزة للشـباب، لـكى يعتقـد فيهـا، بغـض النظر عـن تطرفهـا. ومن ثم تصبـح هـذه القيـم المتطرفـة هـى التى توجه سـلوكه، وعـلي هذا النحـو يصبح التطـرف الدينى هو رد فعـل للفـراغ القيمـى والأخلاقـى التـى يعـانى منـه المجتمع.

٤. الظـروف الإقتصاديـة والإجتماعيـة: حيـث تعـانى بعـض المجتمعـات فى فى بعـض فـترات التحـول الإجتماعـى الـذى تمـر بـه، مـن الظـروف الإقتصاديـة الصعبـة، التـى تنعكـس عـلى هيئـة إرتفـاع معـدلات البطالـة فى المجتمـع، بخاصـة البطالـة بـين الشـباب الجامعـى (٩). وهـى البطالة التـى تنتـج عـن التحـول إلى إقتصـاد السـوق، وإلى القطـاع الخـاص بإعتبـاره القطـاع الـذى يشـكل قاطـرة التنميـة، كـما ترجـع البطالـة كذلـك لترسـخ ثقافـة العمـل الحكومـى فى عقولنـا. وعـدم

إسـتيعابنا لثقافـة العمـل الحـر، التـى يتبنـى الشـباب فى نطاقهـا المبـادرات الذاتيـة لإنتـاج فـرص العمـل. يضـاف إلى ذلـك الهـدر الإقتصـادى الـذى يحـدث بفعـل ظواهـر سـلبية عديـدة. بحيـث يعجـز الإقتصـاد فى هـذه الأحـوال عـن توليد فرص العمـل الملائمة للشـباب. ونتيجة لذلـك لا تتوفر دخـول للشـباب وذلـك فى مواجهـة حاجاتهـم الكثيفة التى تتطلب الإشـباع، كالحصول على مسـكن، وتشـكيل أسرة، وممارسـة الحيـاة بصـورة معتـادة. بحيـث تفـرض هـذه الظـروف الإقتصاديـة على الشـباب نوعـاً مـن المعانـاة، وللهـروب مـن هذه المعانـاة فإن بعـض الجماعـات المتطرفـة دينيا، قد تغريـة بإشـباع حاجاتـه الأساسـية فى حدودهـا الدنيـا، فى مقابـل أن تسـحبه من عالمة الـذى يتفاعل فى إطـاره وتجنـده أو تضمـه إليهـا، ومـن ثـم يصبـح الهـروب إلى الجماعـات المتطرفـة دينيـا يناظـر الهـروب إلى المخـدرات (١٠). وذلـك حتـى ينـسى الإنسـان مـن خلالـه مشـاكله، بينـما فـرض اللـه علينـا السـعى الجـاد للحصـول عـلى مـا يشـبع حاجاتنـا وليـس الهـروب. وفى القـرآن الكريـم يقول اللـه تعـالى «لقـد خلقنـا الإنسـان فى كبد»سـورة البلـد الأيـة «٤»، فقـد خلقنـا جميعـا فى مشـقة مـن المحـال أن ننسـاها أو نتغلـب عليهـا بعمليـات تعادليـة فى الحيـاة. حيـث يتطلـب منـا ذلك أن نتغلـب عليهـا بالعمـل أو بالتديـن المعتـدل أو بالرياضة والفن. إذ يسـاعد التدين المعتدل الإنسـان ويمنحـه القـوة لـكى يتغلـب بهـا عـلى متاعبـة ومشـكلاته الإقتصاديـة، لكونـه يـزوده بالطاقـة التـى تمكنـه أن يتصـدى لهـا، ويحـاول حلهـا، وسـوف يحالفـه النجـاح إذا أعمل إرادتـه فيها، أمـا الهروب إلى الجماعـات المتطرفـة فهـو نـوع مـن الضعف، والهزيمـة فى مواجهـة الظروف الإقتصاديـة الصعبة التـى قـد يواجههـا بعض الشـباب.

٥. غيـاب التعليـم الدينـى المعتـدل والوسـطى: يلعب التعليـم الدينى دوراً مبـاشراً فى عدم اللجـوء إلى التطـرف الدينـى أو الإندفـاع فى هذا الإتجاه، وذلك يرجع إلى أننا نجد أن الأديان سـمحة بطبيعتهـا، وأننـا نـدرك الديـن بالقلـب كـما ندركـه بالعقـل، فقـد قـال فى كتابـه العزيـز «ولوكنـت فظـا غليـظ القلـب لأنفضـوا مـن حولـك» وهـو القائل تعـالى أيضـا «وجادلهـم بالتى هى أحسـن». كـما أنـه القائـل تعـالى «فذكـر إنمـا أنـت مذكـر لسـت عليهـم بمسـيطر»، فغيـاب التعليـم الدينـى

المعتـدل والعقـلانى يـؤدى إلى زيـادة مسـاحة التطـرف فى المجتمـع، لأن الديـن معتـدل بطبيعتـه، وسـطى يدعـو إلى الوسـطية وليـس إلى التطـرف. لذلـك فـإن غيـاب التعليـم الدينـى الملائـم لـكل مرحلـة مـن مراحـل التعليـم، حتـى التعليم الجامعـى يخلق حالة من عـدم المعرفة بصحيـح الدين. الأمـر الـذى تسـتغلة بعـض الجماعـات المتطرفـة، فتمـلأ عقـول الشـباب بالأفـكار المتطرفـة، التـى تميـل أو تدفـع إلى إرتـكاب العنـف، وقـد يصدقها بعض الشـباب إعتقـاداً منهم أن ذلك هـو التدين الصحيـح، وهـو ليـس مـن الديـن فى شـئ. إرتباطـا بذلـك تعمـل جماعـات التطرف فى إتجـاه غرس الأفـكار الدينيـة الخاطئـة فى عقول الشـباب، سـواء فيـما يتعلق بالمـرأة، أو ما يتعلـق بالآخر عموما، أو مـا يتعلـق بمختلـف جوانـب الحياة، أو مـا يتعلق بمعاملـة الوالدين والأقربـين (١١). وذلك لأننا نجـد كثـيراً مـن المتطرفـين الذيـن قـد يخرجـون عـلى أهلهـم بحجـة أنهـم كفـار، لأنهـم لم يلتحقـوا بالجماعـات المتطرفـة مثلهـم، أو لم يوافقوهـم عـلى العنـف الـذى يقومون بـه. وهو أمـر نهى عنه الديـن، الـذى وصانـا بالرحمـة بالوالديـن، فهـو القائـل تعـالى» ولا تقـل لهـما أفً ولا تنهرهـما، وقل ربى ارحمهـما كـما ربيـانى صغـيراً»، وهـو ما يعنـى أن التطرف يعد فى حـد ذاته خروجا عـلى الدين. ويذكـر أنـه أثنـاء توزيـع النبـى للغنائـم فى أحـدى الغـزوات أن صـاح أعـرابى متصلب فى قولـه قائلاً «أعـدل يـا محمـد» فلـما هـم سـيدنا عمر بن الخطـاب أن يـدق عنقه بالسـيف، قال له رسـول الله صـلى اللـه عليـه وسـلم «أتركه فسـوف يكـون له قـوم، يتطرفون بالديـن، فيخرجون منـه كما تخرج السـهم مـن الرميـة». وهـو الأمـر الـذى يعنـى أن التطـرف يـؤدى إلى الخـروج من الدين الوسـطى السـمح المعتـدل. بالإضافـة إلى ذلـك فـإن التطـرف قـد يـؤدى إلى الغياب عـن ركب الحضـارة، وأنه قـد يـؤدى إلى الجمـود بالديـن، وإلى تجمد وتصلـب السـلوك (١٢). وجمود المشـاعر، وعدم إعمال العقـل، وهـو مـا يعنـى أن التطـرف على هـذا النحو مضـاد لصحيح الديـن. فإذا تحـول التطرف إلى عنـف، فإنـه يـضر بحيـاة البـشر، ثم الإنحـدار إلى الجريمـة والإنحراف بشـكل عام، وهـو الأمر الذى يتطلـب المواجهـة بالحـوار والردع.

٦. عـدم فتـح قنـوات المشـاركة أمـام الشـباب: وذلـك يرجـع إلى أن الشـباب وإن كان لهـم وجودهـم فى الحـاضر إلا أنهـم أصحـاب المسـتقبل، وإسـتناداً إلى ذلـك فـإن علينـا أن نعدهـم لهـذا المسـتقبل، بـأن ندربهـم عـلى المشـاركة فى صناعـة وإتخـاذ القـرار، كذلـك المشـاركة والإسـهام فى تجسـيد قراراتهم واقعيا. وذلك يرجع إلى أن أحسـاس الشـباب بعدم المشـاركة يجعلهم عرضة لآية جماعـات متطرفـة تتيـح لهـم فرص المشـاركة، حتى وإن كانـت منحرفة. لذلك فإن عـلى المجتمع أن يفتـح أمـام الشـباب قنـوات المشـاركة، كذلـك من المهـم ألا نحرم الأبنـاء فى الأسر من إبـداء أرائهم، وعـلى الأبـاء أن يشـجعوا ذلـك، ففـى ذلـك تأهيل وتدريـب لهم على أصـول المشـاركة (١٣).

يضـاف إلى ذلـك فـإن عـدم فتـح قنـوات المشـاركة أمـام الشـباب عـلى مسـتوى المجتمـع مـن شـأنه أن يلقـى بالشـباب إلى أتـون الجماعـات المتطرفـة. فالحرمـان مـن المشـاركة يولـد لـدى الإنسـان شـعورا بـأن الوطـن الـذى يعيـش فى نطاقـه ليـس وطنـه لأنـه لا كلمة لـه فيه، كذلـك فإن عـدم المشـاركة تحـرم الشـاب مـن التأهيـل والتدريـب عـلى قواعـد المشـاركة وأصولهـا. ومـن ثـم فـإذا شـارك بعـد ذلـك حينـما يكـبر، تكـون مشـاركته مشـوهه وغـير رشـيدة إلى حـد كبـير، لأنـه لم يتـدرب عـلى أصولهـا الصحيحـة. وفى الغالـب فـإن الحرمـان من المشـاركة تدفع الشـاب إلى البحث عـن أى أطـر فرعيـة ولـو منحرفـة، لـكى يشـارك فيهـا ومـن خلالهـا، لأنهـا تعـترف بعضويتـه كاملـة فيهـا. فإسـتقرار المجتمـع يعتمـد بالأسـاس عـلى فتـح قنـوات المشـاركة أمـام الشـباب، ولذلك نجد أن المجتمعـات التـى لا تتيـح المشـاركة لأبنائهـا تعـانى دومـا مـن حالـة مـن عـدم الإسـتقرار. ونحن هنـا نقصـد المشـاركة بأوسـع معانيهـا، إبتداء من المشـاركة فى العمليـة التعليمية والحيـاة الجامعية داخـل الحـرم الجامعـى، إضافـة إلى المشـاركة فى العمـل التطوعـى للإرتقـاء بأوضـاع المجتمع المحلى أو الأرتقـاء بأحـوال بعـض الفئـات الإجتماعيـة المهمشـة. وإنتهـاء بالمشـاركة السياسـية مـن خـلال التنظيـمات السياسـية والحزبيـة (١٤)، إذ ينبغـى تدريـب شـبابنا عـلى كل أنمـاط المشـاركة هـذه.

٧. دور الإعلام فى نشر ثقافة التطرف الدينى والعنف: من المفترض أن يلعب الإعلام دوراً أساسياً فى مواجهة التطرف الدينى والعنف، بإعتبار أن الإعلام يعمل على ترشيد الرأى العام، والإرتقاء بالعقل الجمعى للمجتمع، وكذلك عقول البشر. غير أن الإعلام قد يتسبب أحيانا فى نشر التطرف الدينى والعنف بأساليب كثيره. من هذه الأساليب أن الإعلام قد يعمل أحيانا على نشر التشدد الدينى من خلال نشر أفكار بعض الدعاة الحرفيين والمتشددين دينيا. وهو ما يساعد على نشر هذه السلوكيات، ويدرب بصورة غير مباشرة الشباب على الأفكار المتشدده، التى قد تقود إلى التطرف والعنف. وعلى ذلك فإنه من الممكن أن يعمل الجهاز الإعلامى على تنشئة الشباب على التطرف وسلوكيات العنف (١٥).

ومن ناحية ثانية فإننا إذا تأملنا الإعلام المعاصر فسوف نجد أنه يدرب البشر دون أن يدرى على العنف والتطرف، على سبيل المثال فإننا إذا نظرنا إلى الإعلام فى متابعته للحرب على العراق، أو لشن إسرائيل الحرب على لبنان أو غزة فى فلسطين. فسوف نجده يعرض لمشاهد القتل والدم وتناثر الجثث، غير مدرك أنه بذلك يخلق عند البشر ثقافة أو عادة مشاهدة الدماء تسيل، دون أن تستنفر فى نفس المشاهد الغضب او الحزن، ومن ثم تعوده على نوع من البلاده امام رؤية إزهاق الأرواح وقتل البشر. ونتيجة لذلك فإنه إذا تعرض بعض المشاهدين من الشباب، الذين لديهم ميول دينية متطرفة، أو تملكت عليهم أمرهم بعض الجماعات المتطرفة، فإن ذلك من شأنه أن يدرب بعض الشباب على العنف والتطرف. فإذا سنحت الفرصة أو الظروف الذى تساعد على ظهور هذه المشاعر والسلوكيات، فإن ذلك من شأنه أن يؤدى إلى إنفجار أحداث التطرف الدينى والعنف.

بالإضافة إلى ذلك فإن الإعلام بأدائه لأدواره يدفع الشباب أحيانا إلى التطرف وإلى العنف من خلاله عرضه الفج للمشاهد المتصلة بالجنس والغرائز، فقد يعمل الإعلام والإعلان على نشر بعض المضامين التى تؤذى مشاعر المتدينين عادة. الأمر الذى يدفع هؤلاء الشباب إلى رد فعل متطرف وعنيف، يحتمى برؤية

دينيـة متشـددة. إلى جانـب ذلـك فـإن الإعـلام قـد يلعـب دوراً أساسـياً فى نـشر مشـاعر الحرمـان والإحبـاط، حينـما يتجـه الإعـلام الإعـلان عـن السـلع المسـتفزة، بحيـث تـؤدى هـذه الإعلانـات إلى تراكـم التوتـر ومشـاعر الإحبـاط، التـى تجعـل شرائـح الشـباب التى تعانى مـن هذه المشـاعر، مرتعا خصبـا للجماعـات الدينيـة المتطرفـة، التـى تجنـد أعضاءهـا مـن الشـباب الذيـن يعانـون مـن هذه المشاعر.

ثانياً: طبيعة وخصائص الشخصية المتطرفة

إذا كنـا قـد عرضنـا فى الفقـرة السـابقة للعوامل والأسـباب العالميـة والإقليمية المسـئولة عن التطـرف الدينـى والعنـف، أو تلـك المتصلـه ببنـاء المجتمعـات التـى تعـانى مـن التطـرف والعنـف. فإننـا نعـرض فى هـذه الفقـرة للعوامـل والأسـباب المتصلـة بالشـخصية المتطرفـة أو التـى تميـل إلى العنـف. حيـث نجـد أن هـذه الشـخصية تتصـف ببعـض الملامـح الأساسـية التـي نعـرض فيـما يلي لبعـض منها.

١. البنيـة القلقـة للشـخصية الشـابة: حيـث نجـد أن غالبيـة أعضـاء الجماعـات الدينيـة المتطرفـة مـن الشـباب، وذلـك يرجع إلى أن الشـخصية الشـابة بطبيعتها شـخصية إنتقاليـة. ومرحلة الإنتقـال فى حيـاة الإنسـان غالبـا مـا يصاحبهـا قـدر كبـير مـن التوتـر، هـذا بالإضافـة إلى أن مرحلـة الشـباب هـى المرحلـة التى تتسـع فيها مسـاحة حاجات الإنسـان التـي تحتاج إلي الاشـباع. وفى ذلك يختلـف الشـباب عـن كبـار السـن الذيـن أصبحـوا مسـتقرين فى حياتهم، أما الشـباب فلم يسـتقروا بعـد، وحاجاتهـم متسـعه وملحـة كالحاجـة إلى العمـل أو الوظيفـة، الحاجـة إلى الدخـل، إضافة إلى الحاجـة إلى السـكن والحاجـة إلى تشـكيل أسرة. فـإذا لم تشـبع حاجـات الشـباب فـإن الجماعـات المتطرفـة، تقنعهـم بالإنضـمام إليهـا فى مقابـل أنهـا توفـر لهـم الحـد الإدنى مـن الإشـباع كالسـكن المجـانى وأحيانـا الـزواج المجـانى. ولكنهـا فى مقابـل ذلـك تنزعه من مجتمعـه وأسرتـه، والعالم الذى كان ينبغـى أن يعيـش فيـه ثـم تفـرض بعـد ذلـك عليهـم القيـام بأعـمال عنـف متطرفـة وإجراميـة (١٦).

٢. طلـب الإعـتراف الإجتماعـى: تعتـبر مرحلـة الشـباب هـى المرحلـة التاليـة مبـاشرة لمرحلـة الطفولـة والمراهقـة، حيـث تقـع للشـخصية فى هـذه الفـترة بعـض التغـيرات الجسـمية. إذ يتخـذ الشـاب هيئـة الرجولـه، وتتخـذ الإنـاث هيئـة المـرأة

المكتملـة، وبذلـك يبـدأ الشـباب فى الدخـول فى عـالم البالغـين العاقلـين. أى الذيـن يتحركـوا بإتجـاه طلـب الإعـتراف الإجتماعـى بهـم فى عـالم البالغـين، فـإذا لم يقـدم الأبـاء والكبـار هـذا الإعـتراف بهم وبأفكارهـم. فإنهـم قـد يتجهـوا إلى تبنـى أفـكار متطرفـة فيـما يتعلـق بمختلـف جوانـب الحيـاة، ومـن بينهـا الديـن. ويسـاعد على ذلك أن تقـوم بعض الجماعـات الدينية على إسـتهوائهم وتقديم الإعـتراف الإجتماعـى بهـم وبأفكارهـم، بحيـث تشـكل الجماعـة الدينيـة المتطرفـة فى هـذه الحالـة المرجعيـة التـى تؤكـد تطرفـه وعنفـه ، بـل وتضفـي المشروعيـة عليـه. بـل وتبـارك ذلـك، وتدفعـه إلى مزيـد منـه، ويصبـح ذلـك نـوع مـن الإعـتراف الإجتماعـى الزائـف الـذى يقابلـه المجتمـع عـادة بالرفـض. ونتيجـة لذلـك يدخـل المتطـرف مـع المجتمـع فى حالـة من الرفـض المتبـادل، فكلما رفض المجتمـع سـلوكياته المتطرفـة، كلـما إزداد هو تطرفا وعنفـا وإعتداءً علي المجتمع، بحيث يشـير ذلك إلى حالـة مرضيـة تميـز المجتمـع والشـخصية المتطرفـة فى هـذه المواقـف (١٧).

٣. مرحلـة الشـباب والبحـث عـن اليقـين: يحتاج الإنسـان عـادة إلى اليقين أو الإقتناع بشـئ فى حياتـه، بحيـث يولـد لديـه هـذا اليقـين أو الإقتناع نوعاً من الإسـتقرار فى حياته. ويـأتى اليقين من مصـادر عديـدة فقـد يصـدر عـن القـدوة التـى يتمثـل الإنسـان سـلوكها السـوى، ويعمل وفقـا لها. أو أن هـذا اليقـين قـد يصـدر عـن الإقتنـاع بافـكار وقيـم دينيـة معتدلـه، تحـدد للإنسـان الصـواب والخطـأ، كـما تؤكـد لديـه عـلى قيـم التسـامح. وقـد يـأتى اليقـين مـن خـلال تدريـب الشـباب على أعـمال عقولهـم فى كل مـا يعـرض عليهـم، بحيـث يصبـح العقل ذاتـه مصـدراً لليقين. فـإذا لم تتوفر القـدوة السـليمة والصالحـة، وإذا لم يسـتوعب الإنسـان القيـم والأفـكار الدينية فى صورتهـا المعتدلة والوسـطية. وإذا لم يعمـل الإنسـان عقلـه فى كل مـا يحيـط بـه، أو يعـرض عليـه، فإننـا نكـون بإزاء شـخص لا قـدوة لـه، أو يتبنـى سـلوكيات قـدوة متطرفـة أو منحرفـة. إضافـة إلى أنـه ليـس لديـه إقتنـاع بإعتـدال الديـن ووسـطيته، فإننـا نكون فى هذه الحالة أمام شـخص فاقد لليقـين (١٨). فإذا جـاءت جماعـة دينيـة متطرفـة وقدمـت له هـذا اليقين المتشـدد والمتطـرف، فإننا نجـده فى قناعاته وسـلوكياته يميـل إلى التطـرف إلى حـد كبير.

٤. العجـز عـن السـيطرة عـلى مصـادر الحرمـان: مـن الطبيعـى أن يكـون أى منـا لديـه حرمانـات كثـيرة، ومـن الطبيعـى أيضـا أن يعمـل بإتجـاه إشـباعها خـلال الفـترات المتتابعـة لحياته، سـواء المتعلقـة بالدخـل أو المتعلقـة بالحصـول عـلى مسـكن أو الـزواج، أو غـير ذلـك مـن المـوارد الأزمـة لإشـباع الحاجـات الأساسـية للإنسـان. فى هـذه الحالـة فإنـه أمـام الشـباب فى هـذه الحالـة إحتمالـين، الأول أن يسـعى ولـو بمشـقه بإتجـاه البحـث عـن العمـل، أى عمـل، ثـم الإكتفـاء بهـذا العمـل والدخـل حتـى يتمكـن من إشـباع حاجاته الأساسـية. وفى هـذا الإطار من الممكن للشـخص أن يسـتدعى إرادتـه حتـى يمتلـك القـوة لقهـر الصعـاب التـى تعـترض طريقـة، ويمكـن أن يتسـامى بغرائـزه مـن خـلال التديـن المعتـدل، أو من خلال المشـاركة فى ممارسـة العمل الأهـلى أو التطوعى. أمـا الأحتـمال الثـانى فيتعلـق بإتجاه الإنسـان العاجز عن السـيطرة عـلى مصادر حرماتـه، وفى نطاق فى هـذا الإحتـمال قـد يلتحق الشـاب بإحدى جماعات التطرف، التي تقدم له إشـباعات فى مسـتوى حدهـا الأدنى، فى مقابـل قيادتـه لحيـاة ملؤهـا القتـل والإنحـراف والجريمة، بالضبط كمـن يهرب من مشـاكله بإتجـاه تعاطـى المخـدرات (١٩). هنا نجـد أن الهروب إلى التطرف والعنف يشـير عادة إلى العجـز عـن السـيطرة عـلى مصـادر الحرمـان التى يعـانى منها الشـاب.

٥. الشـعور بجنـون العظمـة: حيـث نجـد أن الشـخصية المتطرفـة لأنها شـخصية عاجزة عن مواجهة مشـكلاتها الأساسـية، ومن ثم فإذا أصابها التطرف الدينى، فإنها تجد نفسـها بسـبب الأفكار التـى تعتنقهـا مقتنعـة بأنها أفضل من كل البشر، وأنها تدافع عن الدين، وعن المجتمع والأمة. ومن الطبيعـى أن يمنحهـا ذلـك إحسـاس زائـف بالعظمة، مع أنها فى الواقع شـخصية عاجـزة من مواجهة مشـكلاتها الواقعيـة. هـذا الإحسـاس الزائف قد يضخـم ذاتها ويصور لها الأمر وكأنها المسـئولة عن إصلاح أحوال البشر، وأنها حارسـة وقيمه على امورهم، وهو ما يدفعها أحيانا إلى العنف الذى يصل إلى حـد الإيـذاء والقتـل. وقـد يتأسـس هـذا الإحسـاس الزائف لدى الشـخصية المتطرفـة كإنعكاس لظروفهـا الواقعيـة الصعبـة، والتـى تعـانى فى نطاقهـا مـن الحرمـان، أو أن هذا الشـعور والأحسـاس

قـد تغرسـه بعـض الجماعـات المتطرفـة فى الشـخصية. ولإنها شـخصية ضعيفـة فاقـدة الإرادة، فإن قابليـة الإسـتهواء تكـون لديهـا أكـبر. ومـن ثـم فهـى تقع فريسـة هذه الجماعـات التى تسـاعدها بشـكل مبالـغ فيـه فى إتجـاه تضخيـم ذاتهـا، كأن تمنح بعضهـم لقب «أمـير» أو «مخلـص»، ومن ثم تدفعهـم بعـد ذلـك فى إتجـاه إرتـكاب الأفعـال الإجراميـة التى تتمثـل فى الإعتداء عـلى الآخر وحتى القتل (٢٠).

ثالثاً: التحول من التطرف إلى الارهاب

أصبـح العـالم الـذى نعيـش فيـه قريـة صغـيرة حسـبما يقولـون، غـير أنهـا قريـة متماسـكة الأحـكام، حيـث نجـد أنـه إذا كانـت ثمـة قـوى أو قـوة عالميـة مسـيطرة عـلى العـالم، فإن سـيطرتها تصـل إلى حـد الأحـكام، فلـم تعـد مسـاحة الحرية أو الحركة واسـعة أمـام المجتمعات، التى تشـكل وحـدات فرعيـة مـن هـذا العـالم. حيـث لم يعـد بإمـكان أى جماعـة أو مجتمـع أن يفعـل مـا يريد بغـض النظـر عـن توجهـات النظـام العالمـى. وإلا فرضت عليـه العقوبـات التى تدفعـه إلى الرجوع للالتـزام بقواعـد التعامـل العالمـى مـن جديـد، بالتـالى فإنـه لم يعـد من السـهل مثـلاً أن تقـوم ثورة أو إنقـلاب فى أى مـن المجتمعـات بإعتبارهـا تغيـيراً جذريـا دون موافقة من النظام العالمى المسـتقر والمتماسـك إلى حـد كبـير. وبالمثـل لم تعـد بإسـتطاعة الفواعـل القوميـة أن تتـصرف فى الداخـل كما تريـد، وإلا عرضـت نفسـها لعقـاب المؤسسـات العالميـة، ولدينـا حالات ثـلاث. محاكمة قـادة صربيا بسـبب الإعتـداء عـلى المسـلمين فى كوسـوفو، وحالـة العـراق، حيث أطيح برئيسـه، وحالة السـودان حيـث تلاحـق المحكمـة الجنائيـة الدوليـة رئيسـه. فى مواجهـة هـذا النظـام العالمـى المحكـم، الذى قـد يفـرض الظلـم عـلى بعض الفئـات الإجتماعية، وبعـض المجتمع. وهـو الظلم والقهـر الذى يدفع هـذه الجماعـات لرفضـه، ولأن فاعليـة القـوى المسـيطرة عـلى النظـام العالمـى عاتيـه وقويـة، فـإن جماعـات الرفـض تميـل إلى أن تـضرب ضربـات سريعـة وخاطفـة. قـد لا تسـتطيع هـذه الضربـات المحـدودة إيقـاع الأذى أو الـضرر فى القـوى المسـيطرة عـلى النظـام العالمـى، غير أنها عـلى اقل تنشر فى حياتهـا الألم وعـدم الإسـتقرار، والخـوف عـلى مصالحهـا ومصالـح مواطنيها.

وفى هـــذا الإطـــار فإنـــه مـــن الـــضرورى التفرقـــة بـــين فعـــل المقاومـــة والإرهـــاب

حيث فعل المقاومة قيام بعض الجماعات للدفاع عن مصالحها الوطنية ، إذ تدرك هذه الجماعات أن هناك قوى محتلة، غاشمة وظالمه سلبت هذه الحقوق. وفى العادة تكون المقاومة موجهة نحو القوى العسكرية التى تفرض الإحتلال، وكل حركات المقاومة التى ناضلت ضد الأستعمار كانت من هذا النمط. فهى حركات لها هدف وطنى تسعى لتحقيقه من خلال المقاومة، وقد تكون المقاومة داخلية ضد الدولة، كمقاومة نمور التاميل لحكومة سيريلانكا، أو مقاومة المسلمين فى كشمير للحكم الهندى. فى حالة المقاومة نجد أن العدو محدد، والمطالب محددة، فإذا تحققت هذه المطالب، لا يصبح هناك مبرراً للمقاومة. وهناك أشكال كثيرة للمقاومة منها مقاومة حزب الله فى لبنان للإحتلال الإسرائيلى، ومقاومة الفلسطينين فى غزة والضفة الغربية للإحتلال الإسرائيلى كذلك. وفى العادة تجد المقاومة تعاطفا من بعض المجتمعات، لأنها تنظر إلى افعالها بإعتبارها مشروعة بهدف تحقيق مصالح معينة.

١- تعريف الإرهاب والفعل الإرهابى: إرتباطا بما سبق فإن فعل الإرهاب قد يعبر عن رفض ظروف معينة لها وطأتها على المجتمع، أو على بعض الشرائح أو الجماعات، غير أن الإرهاب عادة ما يكون رد فعل لهذه الظروف. إرتباطا بذلك فإننا نجد أن الإرهاب فى تعريفه الأساسى هو «تهديد بإستخدام العنف أو القيام بأعمال عنف فردية تهدف إلى نشر الخوف والرعب، بقصد إخافة الجموع وترويعهم. أو قد يكون الإرهاب، كما يراه البعض، إستعمال منظم للقتل والهدم، أو التهديد بهما من قبل جماعة منظمة من الأفراد والجماعات للضغط على المجتمعات او الحكومات بهدف فرض إستجابتها للمطالب». وفى تعريف آخر يعد الإرهاب «هو الإستخدام المادى للقوة بكل أشكالها، وتقوم به فى العادة منظمات أو أفراد، أو ربما تقوم به الدولة من أجل إنجاز غايات سياسية» (٢١). ويعرف «فرنك بولتز» وآخرون الإرهاب بأنه عبارة عن أنشطة لجماعات متطرفة ذات أفكار أيديولوجية خاصة، إنشقت عن الرأى العام وحتى عن الرأى المعارض المقبول إجتماعيا وكونت لها تنظيمات سرية لتحقيق غاياتها. مستخدمة ذرائع ذات قبول إجتماعى من أجل تحقيق أهدافها، ومتخذة من

فكـرة الغايـة تـبرر الوسـيلة منهجـا لتحقيـق غاياتهـا وهـو مـا يؤكـد ضرورة ممارسـة نشـاطاتها من خـلال تنظيـمات سريـة وغـير مكشـوفة» (٢٢). وإرتباطـا بذلـك يشـير معجـم العلـوم الإجتماعيـة إلى الإرهـاب بأنـه « بـث الرعـب الـذى يثـير الخـوف، أو هـو الطريقـة التـى تحـاول بهـا جماعة أو منظمـة أو حـزب محـدد تحقيـق أهدافـه عـن طريـق إسـتخدام العنف وتوجيـه الأعـمال الإرهابية ضـد الأشـخاص أو الممتلـكات». ويعـرف الإرهـاب فى الإتفاقيـة العربية لمكافحة الإرهـاب بأنه «كل فعـل مـن أفعـال العنـف أو التهديـد بـه أيـا كانـت بواعثـه وأغراضـه، يقع تنفيـذا لـشروع إجرامى فـردى أو جماعـي. يهـدف إلى نـشر الرعـب بين النـاس أو ترويعهم، بإيذائهـم أو تعريض حياتهم أو حرياتهـم أو أمنهـم للخطـر، أو إلحاق الـضرر بالبيئة أو باحد المرافق أو بالأمـلاك العامة، أو الخاصة أو إحتلالهـا أو الإسـتيلاب عليهـا أو تعريـض أحـد المـوارد الوطنية للخطـر». وفى تعريف آخر يعرف الإرهـاب بأنـه «نـشر الخـوف وتدمير الإحسـاس بالأمـن، بهـدف إعادة تشـكيل المجتمعـات المدنية حسـب رأى ومعتقـد الجماعـات الدينية المتطرفـة ومجنديها والمتعاونين معها عـلى الصعيد العالمى. «كـما يقصـد بالإرهـاب «الأعـمال الإجراميـة التـى يقوم بهـا فرد أو جماعـة أو تنظيم تجاه أشـخاص أو أماكـن أو وسـائل مواصـلات بإسـتخدام أسـاليب أو أجهـزة مبتكـرة تضمن تنفيـذ الجريمة بأقصى درجـات القتـل والتدمـير والترويع مـن اجل تحقيـق أهداف سياسـية» (٢٣).

٢- تحديـد الملامـح العامـة للإرهـاب: مـن خـلال تأمـل التعريفـات السـابقة نسـتطيع أن نحـدد الملامـح العامـة للأفعـال الإرهابيـة مـن خـلال عـدة أبعـاد أساسـية. البعـد الأول يشـير إلى أن جماعـات الارهـاب تكـون عـادة موجهـة بعـدة أفـكار أيديولوجيـة متطرفـة، بغـض النظـر عـن مرجعيـة هـذه الأفـكار، سـواء كانـت ذات طبيعـة علمانيـة او دينيـة، وفى العـادة تكـون هـذه الأفـكار ذات طبيعـة متطرفـة وغـير مقبولـة إجتماعيـا. كـما أن الجماعـة الإرهابيـة تكـون متعصبـة لهـذه الأفـكار، وتعتقـد فى ضرورة فـرض هـذه الأفـكار على المجتمـع ولو بالقـوة. ويتمثل البعـد الثـانى فى أن الفاعـل القائـم بالإرهـاب قـد يكـون فـرد أو جماعـة، وفى الغالـب يوجـد تنظيـم معـين وراء الفاعـل القائـم بالإرهـاب. حيـث يوفـر هـذا التنظيـم الإرهـابى، الـذى يكـون فى

الغالب ذو طبيعة سرية، الموارد اللازمة للقيام بالعملية الإرهابية، كتنشئة الأفراد الفاعلين حسب أفكار معينة – غسيل مخ أيديولوجى – حيث يمدهم بالمعانى التى تشكل طاقة دافعة لفعلهم، وهو ما يشكل المورد المعنوى. يضاف إلى ذلك أن هذا التنظيم يوفر لهم المعلومات الكافية التى تيسر لهم القيام بالعملية الارهابية كالمواد المفجرة وأجهزة التفجير والأدوات الأخرى التى يستخدمونها، يضاف إلى ذلك توفير التغطية اللوجستية الحامية لهم، بما فى ذلك الأدوات المستخدمة لإنجاز الفعل الارهابي، إضافة إلي توفير مخارج الهروب بعد القيام بالعملية الإرهابية. حيث ييسر لهم الأختفاء وعدم القبض عليهم، إلى جانب ذلك فهو يعمل على تأمينهم وتأمين أسرهم إذا قبض عليهم، ولقوا حتفهم، أثناء إنجاز العملية. ويتصل البعد الثالث بعدد الأفراد القائمين بالعملية الأرهابية فقد يكون فرداً واحداً أو جماعة حسب طبيعة العملية الإرهابية المطلوب تنفيذها. ويذهب البعد الرابع إلى أن هدف العملية الإرهابية قد يكون الهدف منها مجرد نشر الرعب وإحراج أجهزة الأمن الدولة، من خلال أبراز أنها غير قادرة على حماية منشآتها ومواطنيها. أو نشر الرعب بين الناس بحيث يبتعدوا عن هذه الأماكن، كما هى الحال فى القيام بالعمليات الإرهابية فى المناطق السياحية حتى يمكن التأثير على السياحة، ومن ثم التأثير على الأوضاع الإقتصادية للمجتمع، أو قد يتمثل الهدف فى الضغط على الدولة من أجل الإستجابة لمطالب معينة. ويتحدد البعد الخامس فى أن الأفعال الإرهابية تتنوع ضحاياها فى الغالب فهى قد تستهدف الأجهزة الأمنية، وفى هذه الحالة فإن الفعل الإرهابى تكون له طبيعتة الإنتقامية، حيث يوجه الإنتقام إلى الجهاز الذى أضر به. أو قد يوجه الإرهاب من قبل جماعة إثنية معينة إلى جماعة إثنية أخرى بسبب صراع بين الجماعات الإثنية فى الوطن، أو أن الإرهاب قد يوجه إلى الدولة ذاتها، لأن سياساتها لم تراع إحتياجات الجماعات القائمة القائمة بالإحتجاج أو أن الإرهاب. أو قد يوجه الإرهاب إلى المواطنين الآمنين، من النساء والأطفال والعجائز. وفى هذه الحالة يكون الفعل الإرهابى مجرد تفريغ لشحنة غاضبة، عند مفجرى الفعل الإرهابى، فى محاولة لإظهار عجز الأجهزة الأمنية عن حماية مواطنيها. أو أن

الإرهـاب قـد يوجـه إلى مصالـح دولـة أجنبيـة أضرت سياسـاتها بمصالـح الجماعـة القائمـة بالإرهاب سـواء على المسـتوى المادى أو المسـتوى المعنوى. ويتصل البعد السـادس بأسـلوب عمل الجماعات الإرهابيـة، إذ عـادة مـا تختـار هـذه الجماعـات السـاحات الرخـوة، وهـى السـاحات التـى لا تلقـى إهتمامـا أو حراسـة أمنيـة كافيـة، وتكـون فى ذلـك الوقـت ذات قيمـة بالنسـبة لتحقيقهـا لأهدافها. أو تختـار هـذه الأهـداف او السـاحات، التـى تيـسر الهـرب منهـا بعـد إنجـاز الفعـل الإرهـابى عمومـا. ويتصـل البعـد السـابع، بـأن الأهـداف التـى تختـار الجماعـات الإرهابيـة ضربهـا، تكـون عـادة أهـداف ذات طبيعـة إسـتراتيجية بالنسـبة للدولـة، كضرب بـرج التجـارة العالميـة فى الولايات المتحـدة الأمريكيـة عـام ٢٠٠١. أو حادثـة الأقـصر فى مـصر فى العقـد الأخـير مـن الألفيـة الثانية، أو الإضرار ببعـض المناطـق السـياحية بمنتجـع شرم الشـيخ، أو الحادثتـين اللتـين وقعتا فى حى الحسـين. حيـث يـؤدى ضرب هـذه الأهـداف إلى التأكيـد عـلي بقـاء أثارهـا أو خسـائرها الماديـة والمعنوية فى الأذهـان لفـترة طويلـة من الزمن، سـواء فى عقول المواطنـين أو الحكومة والأجهـزة الأمنية. ويذهب البعـد الثامـن والأخـير، إلى أن غالبيـة الجماعـات القائمـة بالأفعـال الإرهابيـة تكـون لهـا في الغالـب علاقـة باطـراف أو دول خارجيـة أو معاديـة للدولـة، وتسـعى إلى هز إسـتقرارها، أو أنهـا تعمل من اجـل الضغـط عليهـا. وقـد يقـدم الطـرف الخارجى للجماعـة الإرهابية دعـما بأشـكال متنوعة، كأن يسـاعدها فى تمويـل عملياتهـا، أو توفـير الخبرة الفنيـة الإرهابية لها لتنفيذ عملياتهـا، وتوفير الأجهزة التـى تسـتخدمها عمومـا (٢٤). وفى هـذه الحالـة قـد تظهـر بعـض الجماعـات الإرهابيـة العابـرة للحـدود، أى التـى تعمـل عـلى الصعيـد العالمـى، وفى أكـثر مـن دولـة، كـما هـى الحـال فى «تنظيـم القاعـدة» مثـلاً ، وتنظيـم داعـش أخيراً.

٣- أشــكال الإرهــاب: تتحقــق أفعــال الإرهــاب بأشــكال كثــيرة لتحقيــق الأهــداف والأبعــاد الســابقة، وفى الغالــب يتحــدد شــكل الفعــل الإرهــابى وفــق معايــير عديــدة. مــن هــذه المعايــير إمتــلاك الجماعــة الإرهابيــة لإمكانيــات كافيــة ماديــة ومعنويــة لتحقيــق عملياتهــا الإرهابيــة، كذلــك حجــم التنظيــم الإرهــابى ومــدى كفــاءة هياكلــه،

وقدرتـه عـلى الإنجـاز. إضافـة إلي وجـود عنـاصر مدربـة تدريبـا عاليـا مـن اجـل القيـام بالأعمال أو الأفعـال الإجراميـة، يضـاف إلى ذلـك فـإن قـدر الخسـائر التـى تريـد الجماعـة الإرهابيـة إحداثهـا، يحـدد شـكل ومسـتوى الفعـل الإرهابى الكفيل بتحقيق هذا الخسـائر، إسـتناداً إلى ذلـك توجد عدة أشـكال للأفعـال الارهابيـة نعـرض فيـما يلى لبعـض منها.

وتشـكل عمليـات التفجـير الشـكل الأول للأفعـال الارهابيـة، وتعـد الأسـلوب الأكثر شـيوعاً واسـتخدماً وانتشـاراً في معظـم الجرائـم الإرهابيـة عـلى مسـتوى العـالم ، وذلـك لعـدة أسـباب مـن أهمهـا، انـه الأسـلوب الـذي يمنـح الفرصـة الكافيـة للشـخص أو الجماعـة الارهابية لإكـمال العملية بنجـاح مـع أمكانيـة الانسـحاب مـن مـسرح الجريمـة دونمـا القبـض عليـه او اكتشـافه. إضافـة الى ان هـذا الأسـلوب يتميـز في انـه يحـدث في حـال وقوعـه قـدرة عاليـة عـلى جـذب الانتباه مـن قبل الجماهـير ، وكذلـك مـن قبـل وسـائل الأعـلام . وبذلـك تتحقق الغايـة المرجوة من الفعـل الارهابي ، وهـي الرعـب والإثارة بالنسـبة للجماهير والتأثير السـلبي في موقف السـلطة السياسـية، مع التقليل مـن حجـم الأفـراد المشـاركين في تنفيـذ الجرائم الإرهابيـة (٢٥).

ويعـد الاختطـاف الشـكل الثـاني وهـو شـكل أخـر مـن الجرائـم الإرهابيـة ويوجـه حيـال الشـخصيات السياسـية ويعـد اختطـاف رئيـس وزراء ايطاليا (الـدو مورو) في السـبعينات من القرن المـاضي ، واختطـاف وزراء بـترول أوبـك في فيينا خـلال الثمانينات، واختطاف عضـوة البرلمان العراقي «تيسـير المشـهداني» خـير مثـال عـلى هـذا النمـط مـن الأفعـال الارهابيـة. وقد شـاع هذا الأسـلوب فى عالمنـا العـربى بعـد أن تنامـى عـدد وحجم الجماعـات الارهابية، وضعـف قبضة الأجهـزة الأمنية، بخاصـة بعـد ثـورات الربيـع العربى، ونمـو التنظيـمات الارهابية، حيث سـاعدت حالة الفـوضي التي أنتابـت المجتمعـات حينئـذ عـلى إنتشـارها، خاصـة أن الاختطـاف كانـت لـه فى أحيان كثـيرة أبعاده الاقتصادية (٢٦)، كما يعتبر احتجاز الرهائن شـكل أخر من أشـكال الجرائم الإرهابية ويسـتخدم من قبـل الجماعـات الإرهابية من اجل الحصول على مكاسـب سياسـية تتعلق بمطالـب التنظيمات التي

يتبعونها ، والضغط على الحكومات والأنظمة السياسية الحاكمة لتحقيق مطالبها . وقد يسعى الإرهابيون إلى الحصول على مكاسب اقتصادية من اجل الحصول على الأموال اللازمة لاستمرار التنظيم.

يالإضافة إلي ذلك تعد المصادرة والابتزاز من الأشكال الشائعة التي يستخدمها التنظيمات من اجل الحصول على الأموال وذلك من خلال السطو المسلح ومصادرة بعض الأموال أو بابتزاز بعض الأشخاص أو الشركات على شكل الحراسة والحماية ، وقيام التنظيمات بالابتزاز تعد من وجهة نظرهم ضرورة قصوى تدعوها الحاجة لكي يتمكن من الاستمرار وتحقيق أهدافه .

ومن الواضح أن تخريب وتدمير المنشات الهامة هو شكل من اشكال الجرائم الإرهابية ويتم ذلك حيال المنشات الإستراتيجية والحيوية والهامة بتخريب وتدمير تلك المنشات ، كما يتم ذلك في اسواق الشورجة واسواق جميلة في بغداد وباستمرار حيث يتم حرق وتدمير المحلات والاسواق عن طريق التفجير والتلغيم، إضافة إلى تدمير الكهرباء فى مصر. يضاف إلي ذلك فإن التهديد بالمعلومات الكاذبة: وهو إحدى العمليات التي يستخدمها الإرهابيون ، وصحيح أنها لا تؤدي إلى حوادث إرهابية حقيقية ، ألا أنها تحقق اثأر ايجابية للإرهابيين ، منها أنهاك الجهاز الأمني والسلطات المختصة ومنها إثارة الرعب في المجتمع وخلق حالة من الفزع لدى المواطنين ، كما أنها تساعد الإرهابيين على قياس الثغرات الأمنية ومدى قدرة الأجهزة الأمنية في التفاعل مع الحالة.

إلي جانب ذلك تعتبر الاغتيالات التي توجه نحو الشخصيات الهامة والسياسية في النظام السياسي الحاكم والتي يعتقد التنظيم والإرهابيون، ان اغتيالهم سيحقق شيئاً من الأهداف التي حددها التنظيم. ويعد السياسيون والموظفون الحكوميون ذووا المناصب الحساسة والشخصيات العامة في المجتمع أهدافا للتنظيمات المتطرفة وجماعاتهم الإرهابية. إلي جانب ذلك ينتشر خطف الطائرات بإعتباره من أهم أساليب الإرهاب خاصة منذ السبعينيات من القرن الميلادي الماضي ، وهو ما أدى إلى زيادة اهتمام السلطات على مستوى العالم بتأمين سلامة الطيران المدني. واتخاذ اجراءات وقائية دقيقة لتفتيش الركاب قبل

صعودهم، وإيجاد حواجز بين الركاب وطاقم الطائرة ، وكذلك تعيين حراسات قوية ومدربة (٢٧).

رابعاً: المتغيرات والعوامل المسئولة عن الارهاب

يشير التراث النظرى إلى أن هناك مجموعة من العوامل المسئولة عن إنتشار الارهاب سواء على الصعيد القومى أو العالمى، حيث نجد أن، هذه العوامل تقع على ثلاثة مستويات. المستوي الأول ذو طبيعة عالمية، وتبرز هذه الطبيعة العالمية، لأن عالمنا الأن أصبح كلا متماسكاً، يؤكد تماسكة كثافة العلاقات بين عناصرة وأجزائه، بحيث نجد أن أحداث هذا العالم اصبحت أحداثا واحدة، لها أثارها الواحدة تقريبا، وهى الآثار التى تؤثر على مختلف مجتمعاته. وقد زاد من تماسك هذا العالم الدور الذى أصبح الإعلام يلعبه سواء على الصعيد العالمى او القومى، من خلال قنواته الفضائية العديدة والمتنوعة. إضافة إلى شبكة المعلومات الدولية، التى بدأت تلعب دوراً محوريا، فى نقل التفاعلات المتعلقة بأحداثه عبر العالم. إلي جانب أن المعرفة بهذه الأحداث لم تعد قاصرة على مستوى النخبة فقط، بل أصبحت على مستوى الجماهير كذلك، بحيث لعب الإعلام دوراً محوريا فى تأكيد التماسك لنظامنا العالمى المعاصر (٢٨). بالإضافة إلى ذلك فهناك عديد من العوامل المسئولة عن الإرهاب على المستوى القومى، حيث تظهر بعض المتغيرات أو العوامل من داخل المجتمع القومى أو الدولة القومية، ومن ثم تؤدى إلى إستنفار جماعات العنف والإرهاب، ومن ثم تدفعها إلى القيام بأفعالها. يضاف إلى ذلك العوامل المرتبطة بالأرهابين أنفسهم، حيث نجد أن أشخاص محدودين هم الذين يقومون بالأعمال الإرهابية، وفى الغالب فإنهم يكونوا ذوى بنية شخصية وسيكلوجية غير سوية تجعلهم يميلون إلى إعتناق الأفكار المتطرفة ويرتكبون الأفعال المتطرفة، ونعرض فيما يلى لهذه الأنماط الثلاثة من العوامل.

١- العوامل او المتغيرات العالمية المسئولة عن الإرهاب: إستناداً إلى ما أشرنا إليه من أن عالمنا أصبح عالم متماسك أحداثه واحدة، فإننا نعتقد أن هذه الخاصية لعبت دوراً أساسياً فى تفجر حوادث الإرهاب. فقد كان المواطنون فى الماضى، داخل المجتمعات القومية، لا علاقة لهم بالقوى العالمية المسيطرة على

النظـام العالمـى قديمـاً، وذلـك لأنهـم محتمـين بدولتهـم القوميـة. أمـا الآن فقـد ضعفـت الدولـة القوميـة وتراجعـت، وأصبحـت عاجـزة عـن السـيطرة عـلى فضائهـا، كـما أصبحـت عاجـزة عـن السـيطرة عـلى إقتصادهـا. الـذى أصبـح يديـره الأن القطـاع الخـاص الوطنـى، متحالفـا مـع القطـاع الخـاص العالمـى، المسـتند بالأسـاس إلى الـشركات المتعـددة الجنسـية. إضافة إلى أن الدولـة القومية أصبحـت تفتقـد قـدرة السـيطرة على إقتصادهـا، ولذلك أصبح تأثير فعل وسياسـات القـوى العالمية يؤثـر مبـاشرة عـلى سـلوك المواطـن داخل الدولـة القومية. الأمـر الذى يفرض على بعـض الجماعات التـى تضـار بـآداء القـوى العالميـة، أن تمـارس الإرهـاب أو تشـارك فيـه فى محاولـة لـلإضرار بمصالـح هـذه القـوى العالميـة التـى تفـرض الضغـوط القهريـة عليها.

ذلـك يعنـى أن القـوى العالميـة تـأتى أحيانـا بعـض السـلوكيات التـى تـؤدى إلى إسـتنفار جماعـات العنـف والإرهـاب، مـن هذه السـلوكيات أن تعمـل القوى المسـيطرة على النظـام العالمى بإتجاه سـلب خيرات وموارد الشـعوب المختلفة. وإذا كانت الحكومات بسـبب الضغوط المفروضة عليهـا لا تخاطـر بالوقـوف فى مواجهـة هذه القوى العالمية، فإن الضغوط لسـلب مـوارد المجتمعات أصبـح المواطـن العـادى يدركهـا ويتأثـر بهـا. وهو مـا يدفع بعض الجماعـات إلى التحـرك فى مواجهة الحفـاظ عـلى مـوارد مجتمعاتهـا، وهـو الأمـر الـذى يدفع القـوى العالميـة فى المقابـل إلى وصم هذه الجماعـات بالإرهـاب. وقـد يـؤدى الضغـط المفـروض عـلى هـذه الجماعـات إلى إرتـكاب أفعـال إرهابيـة فعـلاً، وهنـا نجـد أن فعـل المقاومـة قـد يتحـول إلى إرهـاب (٢٩). مثـال عـلى ذلـك فـإن مقاومـة بعـض الجماعـات للإحتـلال الأمريـكى للعـراق ، قـد دفعهـا أحيانـا إلى السـقوط فى بعـض الأعـمال الإرهابيـة، كتفجـير المـواد المتفجـرة فى الأسـواق، لإثبـات عـدم الإسـتقرار فى ظـل الإحتـلال، غـير أن هـذه التفجـيرات يـروح ضحيتهـا عـادة أفـراد الشـعب العراقـى. وفى فلسـطين بسـبب قهر الإحتـلال، قـد يفجـر أحـد المقاومـين نفسـه فى حافلـة ركاب إسرائيليـة، فيقتـل بـشراً لا علاقـة لهـم بعمليـات الإقتتـال بـين إسرائيل والفلسـطينين.

فى هـذا الإطـار فقـد تمـارس الدولـة سـلوكيات الإرهـاب، مثـال عـلى ذلـك أثنـاء العـدوان الإسرائيـلى عـلى غـزة، كان الجيـش الإسرائيـلى يـضرب المدنيـين، الأطفـال والنسـاء والشـيوخ، ويدمر المسـاكن والمرافـق الأساسـية. وهـو مـا يعنى أن الجهد الحـربى أصبح عاريا من الأخـلاق، وأصبحت الدولـة تمـارس نـوع مـن البلطجـة، الأمـر الـذى إسـتوجب الإدانـه العالميـة. مثـل هـذا السـلوك الإسرائيـلى يمكـن أن يقـود فى المقابـل إلى أعـمال ذات طبيعـة إرهابيـة مـن قبـل الفلسـطيين، حينما يطلقـون صاروخـا يصيـب النسـاء والأطفـال والشـيوخ، وهنـا تصبـح مبادلـة الإرهـاب بالإرهـاب. تأكيـداً لذلـك أيضـا مـا فعلتـه الولايـات المتحـدة الأمريكيـة بالعـراق، حينـما كانـت تداهـم أهـل قريـة بأكملهـا بحثـا عـن أفراد المقاومـة، فتعمـل آلات التقتيل فيهم، الأمر الذى يؤسـس ثـأراً قوات الاحتـلال مـن ناحيـة ، وجماعـات المقاومـة وأهـل هـذه الجماعـات أو قراهـم مـن ناحيـة ثانيـة. حيـث نجدهـم يتجـاوزون حاجـز المقاومـة معهـم ويبدأون فى ممارسـة عمليـات إرهابيـة. كخطف الأجانـب الإمريكيـين أو الغربيـين عمومـاً، وقتلهـم أو إحتجازهـم مقابـل تحقيـق مطالـب معينـة، بحيـث أن الإسـتجابة لمطالـب هـذه الجماعات من شـأنه أن يؤكد ثقتهـا بذاتها، ويدفعهـا إلى إعادة الكـرة وممارسـة الأفعـال الأرهابيـة مـن جديـد (٣٠).

بالإضافة إلى ذلك فقد تعمل القوى العالمية على تمزيق بعض الشـعوب إسـتناداً إلى هشاشـة بنيتهـا فتحـول جماعـات مـن مواطنيهـا إلى جماعـات إرهابيـة. ولكى تحقق هـذا التمزيـق فإنها قد تقـف إلى جـوار بعـض الجماعـات الإثنيـة، عـلى حسـاب جماعـات أخـرى. بحيـث يعد تمزيـق بنية المجتمعات مدخلاً للسيطرة عليها تمهيداً لسلبها خيراتها. ومن الطبيعى أن تدرك ذلك بعض الفئات العابـرة للجماعـات الإثنيـة، كـما تدرك ذلـك الجماعات الإثنيـة التى تعمـل القوى العالميـة الدخيلة والقهريـة لغـير صالحهـا. الأمر الذى يدفع إلى مقاومة هذا التدخل وهـذا التمزيق لمجتمعاتها، وهو مـا يـؤدى إلى تبنـى بعض الجماعات لسـلوك المقاومة، فإن كانت آلة البطش أقوى ولا تترك مسـاحة للمقاومـة المشروعـة. فـإن بعض الجماعات قد تلجأ إلى نوع من السـلوك اليائـس، الذى يأخذ طابع الفعـل الإرهـابى، والذى يسـتهدف نـشر الفزع بين صفوف القـوى الأجنبية الدخيلة، بـأن تنجز هذه

الجماعـات ضربـات لا تميـز فيهـا بـين عسـكرى ومـدنى. فى هـذه الحالة فإنهـا تختار عـادة الأهداف السـهلة الموجعـة والتـى تـؤدى إلى نشر الفـزع والخوف عند الطـرف الأخر (٣١). فـإذا كانت بعض الأنظمـة السياسـية، أو الشرائـح الإجتماعيـة فى الوطـن متعاونـة مـع هـذه القـوى الأجنبيـة، فـإن بعـض الأفعـال الإرهابيـة تطولهـا حتى تكشـف عـن تعاونها مـع هذه القـوى الأجنبيـة. ذلك يعنى أنـه كلـما كانـت الجبهـة التـى تشـكل هدفـا للمقاومـة قوية، وعاتيـة وقهريـة، كلما تحولـت أفعال المقاومـة إلى أفعـال إرهابيـة، لكونهـا فى هـذه الحالة تسـلك فى عنفها سـلوك اليائس، وهو السـلوك الـذى يجسـد طبيعـة وملامح الفعـل الإرهابي.

٢- المتغـيرات أو العوامـل البنائيـة المتصلـة بالإرهـاب: إلى جانـب المتغـيرات العالميـة او الخارجيـة، توجـد مجموعـة مـن العوامـل المنطلقة مـن الداخل، أي عـلي الصعيد القومي بالأسـاس، والتـى تلعـب دورهـا في تفجـير الأفعـال الإرهابيـة. هـذه العوامـل تكـون فى العـادة نتيجـة لبعـض جوانـب الخلـل فى البنـاء الإجتماعـى القائـم، وهـو الخلـل التـى تكـون لـه وطأتـه وآثـاره السـلبية عـلى بعـض الجماعـات، الأمـر الـذى يدفعها إلى رفـض هذه الآثار السـلبية مـن خلال محاولـة النيل مـن مصدرهـا حتـى تتوقـف عـن توليد أو إنتـاج سـلبيتها، وفى هذا الإطـار فإننا نعـرض، للعوامل أو المتغـيرات المسـببة لتفجـر الأفعـال الإرهابيـة عـلى سـاحة المجتمـع بفعل عوامـل داخلية بالأسـاس.

يعـد ضعـف الثقافـة ومنظومـات القيـم، خـلال فـترات التحـول الإجتماعـى، التـى تمـر بهـا مختلـف المجتمعـات الناميـة، حيـث نجـد أن ثقافـة المجتمـع ومنظومـات القيـم المتضمنـة فيهـا تصـاب بنـوع مـن الوهـن أو الضعـف. أمـا بسـبب ضعـف مؤسسـات التنشـئة الإجتماعيـة، أو بسـبب تعـدد منظومـات القيـم وتناقضهـا فى نطـاق بنيـة الثقافـة، أو بسـبب الإخـتراق الثقـافى مـن الخـارج لثقافـة ممـزق نسـيجها. إرتباطـا بذلـك فإننـا نجـد أن الثقافـة والقيـم السـائدة في المجتمـع لا تصبـح قـادرة عـلى توجيـة السـلوك، وهـو مـا يـؤدى إلى ضعفهـا وإنهيارهـا، الأمـر الـذى يمكـن بعـض التنظيـمات المتطرفـة إلى إسـتغلال هـذا الفـراغ الثقـافى والقيمـى، فى غـرس قيـم اجتماعيـة جديـدة تتعـارض مـع قيـم المجتمـع أو تحـل محلهـا. بيـد أنهـا تتـواءم

مـع معتقـدات وقيـم التنظيـم ، ولهـا سـلطة نافـذة عـلى الفرد تجعلـه يعتنقها بشـدة حتـى انه قد يبـذل روحـه في سـبيل المحافظـة عـلى تلك القيـم والمعتقدات ، وهنا يكـون الفرد رهينـا لهذه القيم الخاصـة التـي يرفضهـا المجتمـع(٣٢). وهـذا مـا يجعـل الجرائم الإرهابيـة التي قد يكلـف التنظيم الفـرد للقيـام بهـا وتنفيذهـا تجـد قبـولاً سريعـاً وتفانيـاً في تحقيقهـا مـن قبلـه ، وذلك اعتقـاداً منه بانهـا القيـم الصحيحـة الواجـب تعزيزها والمحافظـة عليها .

كـما يعـد غيـاب التربية الدينيـة الوسـطية والمعتدلة، إضافـة إلى الفهم الخاطـئ للدين أحد العوامـل المفجـرة للارهـاب. حيـث يشـكل الدين عـادة قاعـدة الثقافـة ومنظومات القيـم، فى هذا الإطـار فإنـه لـكى يصبـح المجتمع مسـتقراً، والأفراد متمسـكين بثقافتهم وقيمهم، فإنـه من الضرورى أن تتـم تنشـئتهم تنشـئة دينيـة معتدلـة ووسـطية. تعـرف البـشر بصحيـح الديـن دون تطـرف او غلـو، بحيـث نجـد أن ذلـك فى حـد ذاتـه يشـكل درعـا يحمـى الفـرد مـن المشـاركة فى سـلوكيات العنـف والتطـرف والإرهـاب. وذلـك لأن غيـاب التربيـة الدينيـة الوسـطية والمعتدلة، قـد يؤدى إلى فهـم الديـن بصـورة منحرفـة او غـير صحيحـة، وفى هذا الإطـار يعد الفهـم الخاطئ بأصـول العقيدة وقواعدهـا والجهـل بمقاصـد الشريعـة عاملاً مسـاعداً عـلى تطرف الشـباب. آذ أن حفـظ النصوص دون فقـه وفهـم، والابتعـاد عـن العلـماء الثقـاة، يعد سـبب مباشر لـبروز ظاهـرة الغلو وانتشـارها. إذ يعـد الجهـل بأصـول الديـن الصحيحـة مـن أهـم أسـباب الإرهـاب ، وان الغلو في الدين وتفسـير النصـوص الشرعيـة عـلى غـير حقيقتهـا يـؤدى الى ظهـور الفكـر المنحـرف الـذي يخلط بـين الإرهاب والجهاد (٣٣).

كـما يعتـبر نقـص المسـتوى التعليمـى وغيـاب التفكـير العقـلانى مـن بـين العوامـل المسـببة للإرهـاب، إرتباطـا بذلك يلعب التعليم دوراً اساسـياً فى مواجهـة الثقافة غير العقلانية التى قد تنتشر فى بعـض المجتمعـات، والتـى تشـكل تربـة خصبـة لظهـور سـلوكيات العنـف والتطـرف والإرهـاب. ولمواجهـة ذلـك مـن الضروري أن يعمـل التعليم على تزويـد البشر بالمعارف التى ترفع من مسـتوى العقلانيـة فى تفكيرهـم. بحيـث يجعلهـم يواجهـون الضغـوط بصـورة عقلانيـة ومنطقيـة، دون أن

يسـقطوا أسرى التفكير المتطـرف والمتوتـر، أو التفكـير فى ظـل الحصـار النفسى. هـذا إلى جانب أنه كلـما إرتفـع مسـتوى الرشـد فى المجتمـع، كلـما سـاعد ذلـك فى التأكيـد على منطـق الجـدل والحوار، وهـو المنطـق الـذى تباركه الأديان كما يباركه التفكير السـليم. وفى ذلك يقـول الله تعالى «وجادلهم بالتـى هـى أحسـن فـإذا الـذى بينك وبينه عـداوة كأنه ولى حميم» وهـو القائل تعـالى أيضا مخاطبا الرسـول الكريـم، صـلى اللـه عليـه وسـلم «ولـو كنـت فظا غليـظ القلـب لانفضـوا من حولـك». إذ تأكد إسـتناداً إلى دراسـات عديدة أن نقص المسـتوى التعليمى، يعد من أهم العوامل التي تسـاعد عـلى سرعـة الانتـماء للجماعـات الارهابيـة، حيـث يشـير البعـض إلى ان غالبيـة المتورطـين في قضايـا الإرهـاب والتطـرف مـن الأميـين أو المسـتويات التعليميـة والثقافيـة المتوسـطة(٣٤)، وهـي نتيجـة طبيعيـة ومتوقعـة، اذ لا يتوقـع مـن فرد متعلم ومسـتمر في الدراسـة أن ينسـاق بسرعـة للجماعات المتطرفـة، لأن التعليـم مـن شـأنه أن يرفـع مسـتوى العقلانية لديـه. ولذلك نجـد أن الأميين وذوى المسـتويات التعليميـة المنخفضـة يكونـون فى العـادة معرضون أكـثر للانضمام للجماعـات المتطرفة.

بالاضافـة إلي ذلـك يلعب دور الإعلام وتكنولوجيا المعلومات دوره فى نشر التطرف والإرهاب ، حيـث تقـوم وسـائل الأعـلام بـدور كبير في دفع الشـباب للانتـماء للتنظيـمات المتطرفـة والإرهابية بشـكل مبـاشر وغـير مبـاشر. آذ تسـتفيد التنظيـمات المتطرفـة مـن وسـائل الأعـلام المتعـددة ، المفتوحـة جماهيريـاً والمغلقـة أحيانـا، في بـث أفـكار التنظيم والترويـج له، لتجنيد اكـبر عدد ممكن مـن الشـباب ،خاصـة من يتوفر لديهم دوافع تسـاعد على الانتـماء للتنظيمات المتطرفـة والإرهابية، وتؤكـــد إحـدى الدراسـات أن الإرهابيـين اسـتخدموا شـبكة الانترنـت في نقـل الرسـائل والتعليمات التنظيميـة ، وكانـت لهـم مواقـع دعائيـة عـلى الشـبكة تنطـق باسـمهم وتدعـو لأفكارهـم ، وتجنيد الأعضـاء والأنصـار الجـدد. بالإضافـة إلى أن وسـائل الأعـلام تسـاهم في تحريـك الخلايـا الإرهابيـة النائمـة، من أجل الاسـتفادة من الأسـاليب الإرهابية المسـتخدمة، وأسـاليب المواجهـة الأمنية، وردود فعـل المجتمـع تجـاه تلـك الجرائـم للاسـتفادة منهـا في التخطيط لعمليـات إرهابية لاحقـة (٣٥).

إلي جانب ذلك تعتبر المعاناة من حالة التهميش الإجتماعى أحد العوامل الدافعة للمشاركة في عمليات الارهاب وذلك يرجع إلي أن الحالة الإفتراضية تتمثل أن غالبية أفراد المجتمع من الطبيعى يتدفقون عادة فى المجرى الرئيسى للمجتمع، ويشاركون فى تفاعلاته فى مختلف المجالات الإجتماعية والإقتصادية والسياسية والثقافية. غير أننا نجد أن هناك بعض الشرائح الإجتماعية فى بعض المجتمعات مستبعدة من المشاركة الكاملة فى المجتمع، سواء لاعتبارات إقتصادية أو إجتماعية أو ثقافية أو سياسية. إرتباطا بذلك تعد البطالة احد عوامل وحالات التهميش الإجتماعى، وترجع البطالة فى جانب منها إلى أن الأقتصاد هش وضعيف لا يستطيع إنتاج فرص العمل بالمعدلات التى تكفى السكان فى سن العمل. أو قد ترجع البطالة إلى عدم تأهيل قوى العمل بنوع المهارات التى يحتاجها سوق العمل، بحيث يقع النقص فى ذلك على عاتق نظام التعليم والتدريب فى المجتمع. بالإضافة إلى ذلك فقد يعنى التهميش الاجتماعي عدم إتاحة الفرصة الملائمة للمشاركة السياسية، إما لأن العملية السياسية لا تتم بصورة سليمة، ومن ثم تشعر المواطن بأن فاعليته أو مشاركته لا قيمة لها. أو لأن المشاركة حسب أصولها الصحيحة غير متاحة، الأمر الذى يدفع المواطنين فى المجتمع إلى البقاء على ضفاف المجتمع، ليس لهم القدرة على التدفق فى المجرى الرئيسى للمجتمع أو هم رافضين لذلك. كما أن التهميش قد يكون ثقافيا، حيث نجد أن هذا النمط من التهميش تسببه إرتفاع معدلات الأمية فى المجتمع ،الأمر الذى يحرمه من العقلانية والوعى، الذى ييسر له إدراك ما حولة، وهو ما يجعلة يسقط دون أن يدرى تحت سيطرة جماعات العنف والإرهاب فى المجتمع. يضاف إلى ذلك أن التهميش الإجتماعى، الذى قد يوجد فى بعض المجتمعات والذى قد ترجع أسبابه إلى أن هناك بعض البشر مستبعدون من الحصول على الفرص الأساسية فى المجتمع (٣٦). كإستبعاد بعض الجماعات الإثنية، فى بعض المجتمعات من التمتع ببعض الفرص الإجتماعية، أو إستبعاد بعض السياقات الإجتماعية كسيناء أو الصعيد، أو بعض التجمعات الصحراوية من الحصول على بعض الفرص، الأمر الذى يؤدى إلى تهميشها. كذلك هناك

التهميـش الإقتصـادى والـذى يتمثـل فى خضـوع بعـض شرائـح المجتمـع إلى المصاعـب التـى تقـع فى حياتهـم بسـبب الظـروف الاقتصاديـة الصعبـة، خاصـة أن ٥٠٪ مـن السـكان فى مـصر يقعون تحت خـط الفقـر منهـم نحـو ٢٥٪ يقعـون تحت خط الفقـر المدقع، وهـى الحالة التى قد تدفع الشـباب إلى الانحـراف أو التطـرف. إذ أن الحاجـة للـمال لإشـباع الاحتياجـات الضروريـة أو حتـى الكماليـة، أو حتـى الحاجـة لتحقيـق الـذات، والتـي قـد لا تتوفـر لـدى الفقـير أو العاطـل قـد تدفـع الفـرد للانحـراف، وقـد تدفعـه للانتـماء للتنظيمات المتطرفـة التي تقوم بإشـباع حاجاته الماديـة والمعنوية.

كـما يعـد إنتشـار ثقافـة الفسـاد فى المجتمـع أحـد عوامل العنـف والارهـاب في المجتمع. إذ قـد يحـدث فى فـترات التحول الإجتماعى أن يسـتغل البعض هذه الحالة ، للقيام ببعض السـلوكيات الفاسـدة والتـى تعمـل عـلى نـشر ثقافـة الفسـاد فى المجتمـع. والأمثلـة على ذلـك كثـيرة، منها على سـبيل المثـال والإسـتيلاء عـلى المـال العـام والهـروب بـه. حيـث يـؤدى إنتشـار الفسـاد فى المجتمع، وأحيانـا تضافـر نخبـة السياسـة والاقتصـاد عـلى سـاحة الفسـاد، الأمـر الـذى قـد يـؤدى إلى إدانـه الجماهـير عمومـا. غـير أن هـذا الرفـض، قـد يتكثف على سـاحات بعض المهمشـين، الذين يعيشـون فى ظـل ظـروف إقتصاديـة صعبـة، الأمر الـذى يدفعهم إلى ممارسـة بعض الأفعال الانتقامية بسـبب تهميشـهم الاقتصـادى وربمـا السـياسى والاجتماعـى، حيـث نجدهـم قـد يلجئـون إلى بعـض الأفعال الانتقاميـة والارهابيـة سـواء مـن أعضـاء النخبة أو أعضـاء النظام السـياسى، أو ضرب بعض الأهداف الاجتماعيـة العامـة، فى محاولـة لهـز الاسـتقرار السـياسى للدولة والمجتمـع، ويقع ذلـك حينما يكون النظـام السـياسى ضعيفـا وهشـا، وهـى الحالة التـى يفسرها إفـتراض الحرمان النسـبى (٣٧).

وارتباطـا بمـا سـبق هنـاك التأثـيرات السـلبية لوقـت الفـراغ ، حيـث يلعـب الفـراغ دوراً مبـاشراً في إنضـمام الشـباب للجماعـات المنحرفـة والمتطرفـة، إذ إنـه إذا لم يسـتغل الشـاب أوقـات فراغـه في عمـل مفيـد يحقـق أهدافـه ويسـتثمره، فيـما يعـود عليـه بإشـباع حاجاتـه. فإنـه قـد يتعـرض للضجـر والملـل والإحسـاس بالدونيـة،

وبالتالي قد لا يتردد في الإنخراط في الجماعات المتطرفة التي تساعده على تحقيق ذاته.

٣- العوامـل المتصلـة بالشـخصية الإرهابيـة: إذا كنا قد أشرنا فى الفقرة السـابقة إلى العوامل المتصلـة بالإرهـاب والتـى ترجـع بالأسـاس إلى طبيعـة النظـام العالمـى الـذى نعيـش فيـه، وكذلـك العوامـل المتصلـة ببنـاء المجتمـع الـذى تنتمـى إليـه الجماعـات الارهابيـة، فإننـا فى هـذه الفقـرة سـوف نحـاول إستكشـاف طبيعة الشـخصية الإرهابيـة، وكذلك طبيعـة العوامل المتصلـة بها، والتى تدفعهـا لإرتـكاب وقائـع الإرهـاب أو المشـاركة فيها. غير أننـا نلاحظ منذ البداية أنها شـخصية تتولد لديهـا القابليـة للفعـل الإرهـابى بفعل عوامـل عديدة.

مـن هـذه العوامـل أن الشـخصية الارهابيـة غـير متكيفـة مـع سـياقها الإجتماعـى، إذ مـن الواضـح أن البـشر فى أى مجتمـع مـن المجتمعـات قـد يتعرضـون لنفـس الظـروف الضاغطـة، غـير أن نفـراً قليـل منهـم هـم الذيـن يسـتجيبون بالإنضـمام إلى التنظيـمات الإرهابيـة. أو أن التنظيـمات الإرهابيـة تجندهـم بإعتبارهـم المـادة البشريـة التـى يمكـن أن يعـاد تشـكيلها وفـق ثقافـة هـذه التنظيـمات وأهدافهـا (٣٨). وفى هـذا الإطـار، فإننـا نجـد أن هـؤلاء الأفـراد، الذيـن يرتكبـون الفعـل الإرهـابى غـير متكيفـين مـع سـياقهم أو إطارهـم الإجتماعـى. إمـا لأنهـم ينتمـون إلى أسر مفككـة ومنهـارة أو أورثتهـم عـدم الإحسـاس بالدفـئ العائـلى، أو أن هـذه الأسر غـير قادرة عـلى إشـباع حاجاتهـم الأساسـية، الأمـر الـذى جعلهـم عرضـة لتجنيدهـم مـن قبـل الجماعـات الإرهابيـة. أو أن لديهـم بعـض الأفـكار المغلوطـة التـى تفـرض عليهـم النظـر إلى الأشـياء بصـورة تختلـف عـن نظـرة الآخريـن لهـا. وفى مقابـل ذلـك نجـد أن الجماعـات الارهابيـة توفـر إشـباع لبعـض الحاجـات الأساسـية للشـخصية الإرهابيـة، ومـن ثـم تسـيطر هـذه التنظيـمات عليهـا، مـن مدخـل أشـباع حاجاتهـا الأساسـية، يضـاف إلى توفـير دفـئ الجماعـة لهـذه الشـخصية بعـد أن فقـدت دفئهـا العائـلى.

ويتحـدد العامـل الثـاني والمؤسـس للشـخصية الإرهابيـة ، بكونهـا شـخصية تفتقـد الإعـتراف الإجتماعـى بهـا، فهـى فى الغالـب تشـغل مكانـه دنيـا فى سـياقها

الإجتماعـى، مـن الناحيـة التعليميـة فهـى أميـه فى الغالـب، أو الحصـول عـلى شـهادة لا تتجـاوز مسـتوى التعليـم المتوسـط. ثـم هـى فى الغالـب شـخصية من بيئـة فقيرة مـن الناحيـة الإقتصادية، يضـاف إلى ذلـك فهـى شـخصية تنتمـى فى الغالـب إلى المهـن الدنيـا. وهـى المهن التى قـد لا تلقى تقديـرا إجتماعيـا ملائمـا، جملـة الأمـر أن الشـخصية الإرهابيـة لا تلقـى الإعـتراف الإجتماعـى الكافى فى حياتهـا الطبيعيـة، وفى سـياقها الاجتماعـى الـذى تعيـش فيـه. ومـن ثـم نجـد أن التنظيـمات الإرهابيـة تبحـث دائمـاً عـن هـذا النمـط من الشـخصيات حتـى تتمكن مـن تجنيدها، فـإذا تمكنت مـن تجنيدهـا، فإنهـا تقـدم لهـا إعترافـا إجتماعيـا، وترفـع مـن مكانتهـا حسـب قدرتهـا عـلى إنجـاز الأفعـال الارهابيـة والاجراميـة والإنحرافيـة، التـى تثـير الرعـب والخـوف بـين البـشر (٣٩).

مـن الخصائـص التـى تميـز الشـخصية الإرهابيـة كذلـك، أنهـا حين قيامهـا بالعمـل الإرهابى تعتقـد أنهـا عـلى قـدر من السـمو، حتى أنـه عادة ما يطلـق على العضـو الفعال والآمـر فى الجماعة لقـب «أمـير» فى حـين أن مكانتـه متدنيـة مـن الناحيـة الإجتماعيـة وفى سـياقه الاجتماعـى. وحينما يقـوم بالإفعـال الإرهابيـة فإنـه يلقـى التقديـر مـن الجماعـة الإرهابيـة، وهنـا نجـد أن الشـخصية الإرهابيـة تقـارن بداخلهـا بـين الإعـتراف المتـدنى الـذى تلقـاه إجتماعيا من قبـل سـياقها الإجتماعى المحيـط بهـا، «المنطقـة التـى تسـكن بها»، وبين الإعـتراف الإجتماعى الأسـمى والأرفع الـذى تقدمه لـه الجماعـة الإرهابيـة، والـذى يزيـد من ثقته بذاتـه وكذلك إحترامـه لذاته. الأمر الـذى يؤكد لدية الإسـتعداد لفعـل أى شـئ تأمـره بـه الجماعـة، حفاظـا عـلى هذه المشـاعر الإيجابيـة، التـى توفر له القـدرة عـلى إنجـاز الأفعـال الإرهابيـة (٤٠). بـل أننـا نجـده يرحـب بالقيـام بهذه الأفعـال بصورة مسـتمرة، طلبـا لمزيـد مـن إعـتراف الجماعـة بـه وبقدراتـه وتميـزه، وجميعهـا صفـات يفتقدهـا فى سـياقه الإجتماعـى الواقعى.

مــما يميــز الشــخصية الإرهابيــة كذلــك، أنهــا عــلى قــدر كبــير مــن العدوانيــة، وذلــك يرجــع إلى أنــه بمجــرد إنضمامهــا إلى التنظيــمات الإرهابيــة، فإنهــا تعيــش معهــا، وتشــارك الجماعــة فى تطويــر ثقافــة فرعيــة تؤكــد عــلى العــداء بينهــا، أو

بالأصح بين الجماعة والمجتمع. هذه الثقافة الفرعية تتحول إلى ثقافة مضادة للمجتمع، تدين كل ما يحدث فى المجتمع وترفضه بغض النظر عن محاسنه أو مساوئه. بحيث تعمل هذه الثقافة الفرعية على إعادة تنشئة أفرادها ، وفق متطلبات هذه الثقافة المضادة للمجتمع، وتدريجيا تتحول هذه الثقافة المضادة إلى ثقافة إرهابية ذات توجهات عدوانية فى العادة. ثم أنها تبحث دائماً عن السلوكيات والوسائل المادية التى تكون أكثر إثارة أو نشراً للخوف والفزع، ثم أنها ثقافة هروبية، لأنها تدرك منذ البداية أن الفعل الذى تقوم به، هو إنحراف وإجرام بحق المجتمع(٤١).

بالاضافة إلي ذلك تعانى الشخصية الإرهابية من تصلب السلوك، ومن وطأة الأفكار المتصلبة، فهى شخصية تفتقد العقلية المرنة، التى تنظر إلى الشئ من وجوه مختلفة، وتقلب الأمور والقضايا من زواياها العديدة، حتى تصل إلى حكم موضوعى، دقيق وسليم. وبديلاً لذلك نجدها أحادية النظرة، لا تنظر إلى الحقيقة إلا من زاوية واحدة، ومن خلال الأفكار التى تقتنع هى بها دون أن تعطى إعتبارا لقناعات الآخرين، لأن الآخرين يدركون الحقيقة من أكثر من بعد وأكثر من زاوية. ولذلك فإن إصرار الشخصية الإرهابية للنظر إلى الحقيقة على هذا النحو يعبر عن نظرة ضيقة، وجامدة، ترفض الرأى الآخر، ثم توسع الشخصية الإرهابية هذا الإدراك بإتجاه رفض الآخر، ثم يستمر في توسيع هذا الإدراك المنحرف، ليندفع بإتجاه أفعال لإخضاع الآخر لأفكاره، حتى ولو أدى ذلك إلى قتله ونشر الفزع إلى ساحته.

خامساً: إنحرافات سلوكية أخرى على ساحة الشباب

تعتبر الشخصية الشابة هي أقل أنماط الشخصية في حياة الإنسان من حيث مستوي استقرارها ، وكذلك من حيث إرتباطها بمعاني المجتمع، سواء تمثلت هذه المعاني في الثقافة ومنظومات القيم التي تتضمنها، أو أخذت شكل العادات والتقاليد والمعايير والأعراف الضابطة للتفاعل الاجتماعي. وذلك يرجع إلي أن الشخصية الشابة لم يكتمل استيعابها بعد لتراث المجتمع وقيمه ومعانيه، وهو مايعني أن عملية وأسسه institutionalization لم يكتمل بعد،

أي أنهـا لم تسـتوعب كل المضامـين الثقافيـة والاجتماعيـة بعـد، ولذلك نجدها أقـل التزاما بالمرجعية الثقافيـة والأخلاقيـة للمجتمـع. وهـو الأمـر الذي يجعلهـا أكثر قابلية لاسـتيعاب ماهو جديد، سـواء كان إيجابيـا أو سـلبيا . إضافـة إلي أنهـا تكـون أميـل لتجريـب ماهـو جديـد، سـواء كان إيجابيـا أو سـلبيا، وهـي الحالـة التـي تجعلهـا عرضـة للمشـاركة في سـلوكيات أو ثقافـات إنحرافيـة عديـدة، نعـرض فيـما يـلي لبعـض منها.

١- العنـف البيئـي والاجتماعـي: إذا كانـت الشـخصية الشـابة متوازنـة ومسـتقرة، وهـى الحالـة التـى يكـون فيهـا الضمـير الأخلاقى للشـاب مسـيطراً عـلى غرائـزه البيلوجيـة، فإننـا نجد أن هـذا الإسـتقرار ينعكـس عـلى سـلوكيات الشـباب. حيـث نجـد أن سـلوكياتهم ذات طبيعة سـلامية معتدلـة بعيـدة عـن العنـف، خاصـة إذا كانـت الإحتياجات الأساسـية للشـباب مشـبعة، ذلك يعنى أن العنـف يصبـح مـن السـلوكيات الضـارة، وذلك لأنه عـادة ما يتضمـن إضراراً بالآخريـن أو بالبيئة المحيطـة. وللعنـف مظاهـر كثـيرة، كالعنـف اللفظـى، كأن يتفاعـل الشـاب مـع الآخريـن من خلال توجيـة الألفـاظ النابيـة، أو حتـى الحديـث بلهجة عنيفـة، أو إرتفاع الصـوت أثناء حـواره مع الآخر، أو اللجـوء إلى الإهانـات اللفظيـة. بحيـث نجـد أن هـذه السـلوكيات العنيفـة مـا هـى إلا تعبـير عـن توتـرات مختزنـة ومكبوتـة خرجـت عـن سـيطرة الضمـير الأخلاقـى للفـرد عليهـا (٤٢). ذلـك بالإضافـة إلى العنـف السـلوكى، أو البـدنى، وهـو العنـف الـذى ينتهـى إلى الإضرار بالآخريـن ماديـا وبدنيـا، بـل إننـا نجـد أن العنـف قـد يتنـاول البيئـة المحيطـة. فالعنـف الـذى يمـارس فى الحدائـق العامـة، مـع النباتـات والمسـاحات الخـضراء، يـؤدى عـادة إلى التشـوية البيئـى، إلى جانـب تشـوية البيئـة الثقافيـة، حينـما يتلفـظ الإنسـان بألفـاظ نابيـة أو خارجـة، فيخـدش القيـم ويخـدش معهـا حيـاء وأخـلاق الآخريـن ويشـوه أسـماعهم. كذلـك العنـف يوجـة أحيانـا إلى البيئـة الإجتماعيـة حينـما نتعامـل مـع الآخريـن مـن خـلال سـلوكيات تـؤذى مشـاعرهم. إضافـة إلى العنـف مـع البيئـة الطبيعيـة بتشـوية البيئـة بـدلا مـن تجميلهـا، حتـى تكـون صديقـة للإنسـان. وينبغـى على الشـاب أن يتـدرب عـلى ضبـط إنفعالاتـه وعليـه أن يجـرب أنـه فى موقـف العنـف عليـه أن يضبط

زمـام انفعالاتـه نفسـه، ثـم بعـد أن يهدأ أن يعيد تأمـل الموقف الذى كان من الممكـن أن تدفعه إلى العنـف، حينئـذ سـوف يشـعر بالراحة أنه لم يطـاوع غرائزه وأنه قـد تحكم فى ذاته.

والعنـف بطبيعتـه سـلوك متطـرف، ينـدرج فى إطـار تبنـى الإنسـان المواقـف والسـلوكيات المتطرفـة التـى تبتعـد عن الإعتدال. فممارسـة السـلوكيات والشـعائر الدينية بتطرف يبعد الإنسـان عـن صحيـح الديـن، فالديـن يـسر لا عـسر، ويحب اللـه العمـل الدائم وليـس العمل الشـاق بحيث يصبـح التطـرف إرهـاق للـذات، يتحـول إلى إرهاقـه للغـير والعنـف معـه. وقد نهـى اللـه دائماً عن الفظاظـة فى الديـن، وكذلـك نهـى عـن الاكـراه، سـواء إكـراه الـذات أو إكـراه الآخـر رجـلا أو أمـرأة، مـن داخـل الأسرة أو مـن خارجهـا، سـواء كان الأخـر دينيـا أو عرقيـا. فالتعامـل المعتـدل مـع الآخر يـؤدى إلى تطويـر الإتجاهـات الإيجابيـة والتعاونيـة بـين الآنـا والآخر، ويحقق السـلام والإسـتقرار فى المجتمـع. ويرتبـط العنـف بالتعصـب والتطـرف، وجميعها سـلوكيات تجعل نظرة الإنسـان للأشـياء أحاديـة ومختزلـة، بينـما الإعتـدال يتيح للإنسـان أن يقلب الأمور مـن مختلف جوانبهـا، وأيضا يتيح للإنسـان أن يـرى الجوانـب الإيجابيـة فى نظـرة الآخريـن أو مواقفهم (٤٣).

٢- التدخـين وتعاطـى المخـدرات: برغـم أن ضرر التدخـين أقل من ضرر تعاطـى المخدرات. إلا أنـه يعـد مـن العـادات المذمومـة والمدمـرة، سـواء لصحـة الإنسـان أو لصحـة الآخريـن، كـما أن التدخـين يعـد جـسر العبـور إلى تعاطى المخدرات. إلى جانـب ذلك فإن التدخين يعـد إضرارا بصحة الإنسـان، وقـد أمرنـا اللـه أن نحافـظ عـلى النفـس وكذلـك عـلى المـال، وجعـل الحفاظ عـلى النفس والمـال مـن المقاصـد الشرعيـة الأساسـية. يضـاف إلى ذلـك أن التدخين يعـد من الصفات الشـخصية المرفوضـة والمنفـرة، والتـى تشـير إلى التخلـف وإهـدار الوقـت والزمـن والمـال. مثـال عـلى ذلك أن التحـول مـن تدخـين السـجائر إلى تدخـين الشيشـة، يعنـى إسـتهلاك الوقـت فى مفسـدة بـدلاً مـن إستغلاله فى الإنتاج أو ما يفيد. يضاف إلى ذلك أن التدخين خاصة للوسائل المشتركة ناقل للأمراض، وإذا مارسـتة الأنثـى، فإنـه يقلـص أنوثتهـا، ويضفـى عليهـا قـدراً مـن الرجولـة المرفوضـة والغريبـة

على طبيعتها وثقافتنا. بالإضافة إلى ذلك فإن التدخين يعد مرحلة من مراحل التحول والتقدم لتعاطى المخدرات، وذلك لوجود أدوات أو وسائل مشتركة بين التدخين وتعاطى المخدرات (٤٤).

بالإضافة إلى ذلك يعد تعاطى المخدرات من السلوكيات المدمرة للشاب والأسرة والمجتمع، وإذا كانت المخدرات يتم تعاطيها قديما للتسلية وقضاء وقت الفراغ، فإن المخدرات فى الوقت الحاضر، سواء كانت طبيعية أو تخليقية تقود عادة إلى الإدمان. وللإدمان آثار ونتائج سلوكية عديدة. فمثلا نجد أن الإدمان يسلب الإنسان إرادته ويدفعه أحيانا لإنجاز أفعال وسلوكيات تتنافى مع كرامته الإنسانية، بل وتتنافى مع تصور الإنسان عن ذاته. كأن يجد الإنسان نفسه مضطراً تحت وطأة الحاجة إلى المخدر، إلى إتيان أفعال ذات طبيعة إنحرافية وسلبية، ما كان يأتيها لو أنه فى حالته السوية. وهناك بعض الجماعات المنحرفة والعصابات التى تستغل هذا الجانب فى الإنسان، فتيسر له طريق الإدمان أو تفرضه عليه، حتى تتمكن من السيطرة عليه. كذلك يؤثر تعاطى المخدرات على تقليص نجاحات الإنسان سواء فى عملة أو فى دراسته، وذلك بإعتبار أن المخدرات تسلبه إرادته، ومن ثم تجعله عاجزاً عن إدارة ذاته. فتحت تأثير المخدر قد لا ينجز الإنسان عمله بالكفاءة اللازمة، وتحت تأثير المخدر قد لا يستطيع الإنسان تحقيق التحصيل أو التدريب المطلوب منه، وذلك بإعتبار أن تعاطى المخدرات يعطل قدراته وإمكاناته الأساسية، ويجعل الإنسان عاجزاً عن الآداء، وعاجزاً عن تحقيق النجاح. إلى جانب ذلك فإن تعاطى المخدرات يقرب الإنسان من الجماعات المنحرفة، التى تدفع بالشاب إلى ساحة الجريمة والإنحراف. فإحيانا يتطلب التعاطى والإدمان المال لإنفاقه فى الحصول على المادة المخدرة، وهو ما يدفع بعض الشباب إلى المشاركة فى التوزيع والإتجار فى المخدرات أى إرتكاب جريمة لمواجهة جريمة أخرى. أو قد يشترك الشباب المتعاطين مع بعضهم البعض فى إرتكاب بعض الجرائم التى قد تضر بأنفسهم، كما تضر بالآخرين كإرتكاب جرائم الإغتصاب التى تقع عادة تحت تأثير تعاطى المخدرات وإدمانها. حيث يؤدى الوقوع تحت سيطرة المخدر إلى إضعاف فاعلية

الضمير الشخصى للإنسان، بحيث تصبح الجوانب الغريزية هى المتحكمة فى سلوكة (٤٥). وبطبيعة الحال فإن تعاطى المخدرات لا يضعف الضمير الأخلاقى للفرد فقط، ولكنه يؤجج الجانب الغريزى فى الإنسان، الأمر الذى يجعله أكثر إندفاعاً لإرتكاب الجريمة.

ويقود التعاطى أيضا إلى إرتكاب جرائم السرقة وربما القتل أيضا، وذلك يرجع إلى أن جماعة التعاطى والإدمان، تحتاج إلى الإنفاق على المخدر، وهى وأن كانت تعتمد على دخلها، سواء دخل الأسرة، أو دخلها الشخصى، فإن إستمرار التعاطى عادة ما يأتى على دخل الأسرة، ومن ثم فإن ذلك يكون مدعاة لتفجر مشاكل أسرية عديدة، بسبب توجيه دخل الاسرة إلى المخدرات، وهو الأمر الذى يدفع إلى وقوع مشكلات عديدة قد تفجر الأسرة من الداخل. يضاف إلى ذلك فإنه إذا أنفق الشاب مصروفه الشخصى، فإنه يبدأ فى الإحتيال على دخل اسرته، ثم يبدأ فى سرقة بعض الأشياء من داخل الأسرة وبيعها. وإذا كان يعمل فإنه يسرق بعض الأدوات من داخل محل العمل الذى يعمل به، ليشترى بثمن بيعها ما يشبع الحاجة الملحة إلى المخدر. فإذا وجدت الجماعة نفسها فى مأزق الإنفاق على المخدر، فإنها قد تدخل فيما يسمى بالتشكيل العصابى، حيث تسرق جماعة التعاطى لشراء المخدر وتعاطيه. وأثناء السرقة قد تقع جرائم أخرى كالإعتداء، أو حتى القتل، ذلك يحدث لأن الحاجة إلى المخدر يكون لها ضغطها ووطأتها، ولأنها تقتل إرادة الإنسان فى العودة إلى ضميره الأخلاقى الذى تضعفه المخدرات (٤٦).

٣- التحرش الجنسى: يعد التحرش الجنسى نتيجة لثلاثة عوامل أساسية ويتمثل العامل الأول فى ضعف الضمير الأخلاقى للمتحرش، وكذلك ضعف تمسكه بالقيم التى يقرها المجتمع، وذلك نتيجة للتنشئة الإجتماعية الضعيفة بطبيعة الحال. ويتمثل العامل الثانى فى إنهيار القيم أو الأخلاق بصورة عامة فى المجتمع لأسباب عديدة، بحيث أصبح الناس لا يتصرفون بصورة سوية فى مواجهة بعض المواقف. اما العامل الثالث فيتمثل فى القانون الرخو، ونعنى بالقانون الرخو، عكس القانون الصارم الذى يطبق على كل من يخالف بلا تمييز،

بحيـث يكـون هنـاك يقـين لدى الإنسـان بإنـه إذا إرتكـب فعـلاً مخالفاً فإنه مـن المؤكـد أن العقاب سـوف ينتظره.

إرتباطـا بذلـك فـإن فعـل التحـرش يشـير إلى الفعـل الـذى يشـكل إعتـداء صارخـاً عـلى جسـد الآخريـن بـأى مـن الصـور، ويرتكـب هذا الفعـل عـادة مجموعة مـن الشـباب ذوى الضمائر المشـوهة، أو التنشـئة الإجتماعيـة الضعيفـة. كما يشـير إلى أن الشـاب الذى يقبل على هـذا الفعل، تكـون لديـة قابليـة لإنتهـاك القواعد والقوانـين فى مجالات إجتماعيـة أخرى. والتحـرش الجنسى من شـأنه أن ينـشر حالـة مـن الفـوضى أو عـدم الأمـان فى المجتمـع، كـما أنه قد يكـون مدخـلاً لإرتكاب كثـير مـن الجرائـم، إذا حاولـت المتحـرش بها الدفاع عن نفسـها، بشـكل حـاد يـؤدى إلى إيقاع الأذى بالمعتـدى، أو إذا تصـادف أن وجـد أحـد أقاربهـا فى ذات الموقـف. أو إذا أصابـت النخـوة احـد المشـاهدين للمـسرح الـذى تقـع عليـه جريمـة التحـرش، الأمـر الـذى يعنـى أن سـلوكيات بسـيطة ومحـدودة، يمكـن أن تؤدى إلى إنتشـار سـلوكيات إجراميـة عديدة فى المجتمع. وقـد يطول التحرش السـياح القادمـين إلى مجتمعنـا، كـما حـدث فى بعـض حـالات التحرش مع السـياح، الأمـر الذى يضر بصـورة المجتمـع فى الخـارج، ومـن ثـم يـؤدى بطبيعـة الحـال إلى الإضرار بالإقتصـاد القومـى (٤٧). لأنـه سـوف يدفـع السـياح إلى العـزوف عن زيـارة مجتمعنـا، وهو ما يشـوه صورة المجتمـع، بحيث يصبـح مـن الصعـب إسـتعادة الثقـة فى مجتمعنـا، وهـو وضع يـضر بالأمـن القومـى للمجتمع.

ويشـير إنتشـار هـذه السـلوكيات فى مجتمعنـا، بطبيعـة الحـال إلى حالـة مـن الفـوضى الإجتماعيـة والأخلاقيـة، وهـى الحالـة التـى ينبغـى أن تواجـه بقـدر من الحسـم لأنها تضر بسـمعة المجتمـع، ومـن الممكـن أن تواجـه بحلـول قصـيرة المـدى وأخـرى بعيـدة المـدى. أمـا الحلـول الفوريـة والقصـيرة المـدى، فتتمثـل فى ضرورة إعـمال وتفعيـل القانـون بصـورة صارمـة للقضـاء على هـذه الظاهـرة، فمـن شـأن العقـاب القانـونى أن يعاقـب مرتكـب الفعـل، وأن يشـكل رادعـا فى ذات الوقـت للآخريـن. بينـما الحلـول الطويلـة أو البعيـدة المـدى، فتتمثـل فى ضرورة أن نعمـل

على إعادة بناء ودعم منظومات القيم الموجهة لسلوكيات البشر فى مجتمعنا، وأن نعمل على تقوية الضمير الأخلاقى لشبابنا. من خلال إعادة التنشئة الإجتماعية التى تقوم بها مؤسسات التنشئة الإجتماعية العديدة والتقليدية، كالأسرة والمدرسة والوسائل الحديثة كالإعلام وتكنولوجيا المعلومات.

٤- إنحرافات وسائل الإتصال وتكنولوجيا المعلومات: وهى من الإنحرافات الشبابية التى ظهرت حديثا مع عصر العولمة، حيث الفضاءات المفتوحة، وحيث برزت شبكة المعلومات الدولية «النت» كآلية للتواصل فى المجتمع الإفتراضى. حيث يدخل الشباب إلى مواقع شبكة المعلومات الدولية للتفاعل مع آخرين، وبرغم أن شبكة المعلومات لها فوائد جمة يمكن أن يستفيد منها الشباب، على سبيل المثال الإطلاع على أحدث المعلومات العالمية فى مختلف المجالات. بما يجعل شبابنا إذا إجتهد فى هذا الإتجاه، فإن بإمكانه ان يقف على أحدث المعلومات التى يمكن أن يحصل عليها شباب المجتمعات المتقدمة، بيد أن هناك صور عديدة لإساءة إستخدام شبكة المعلومات.

من هذه الصور أن هناك بعض الشباب الذين يجلسون لساعات طويلة إلى جهاز الكومبيوتر منعزلين عن أسرهم، لمتابعة المادة المتنوعة التى يتيحها هذا الجهاز، ومن شأن ذلك أن يعزلهم عن التفاعل الأسرى، وهو التفاعل الذى يعد مدخلاً لتنشئتهم إجتماعيا. حيث يستوعبون من خلال التنشئة الإجتماعية القيم والمعانى التى توجه سلوكياتهم فى مختلف المجالات الإجتماعية، هذا بالإضافة إلى أن العزلة مع جهاز الكومبيوتر، من شأنها أن تضعف الروابط والعلاقات الأسرية، سواء مع الوالدين أو الأخوة. الأمر الذى يعد مدخلاً لخلع القداسة عن الأسرة، بحيث تصبح الأسرة والحياة الأسرية غير ذات قيمة بالنسبة للشاب حينما يكبر، وإذا كان ذلك يحدث بالنسبة لعلاقة الشاب أو إرتباطه بأسرته الأبوية، فإنه من الطبيعى حينما يتزوج هذا الشاب فإن الحياة الأسرية لا تكون لها آية قداسة بالنسبة له.

وتشير الصورة الثانية للإنحراف فى هذا الصدد، إلى إنزلاق الشباب إلى بعض بعض المواقع المنحرفة، من هذه المواقع المنحرفة مواقع تدعو مثلاً إلى

تعاطـى المخـدرات، وتحـاول أن تزيـن وتـروج لهـذا التعاطـى. وفى الغالـب فـإن هذه المواقـع تتبع شـبكات توزيـع المخـدرات والإتجـار فيهـا، لتوسـيع أسـواقها بشـكل عـام، أو المواقـع التـى تدعـو للشـذوذ الجنـسى. وتسـعى لتصويـره بأنـه طبيعـى، وأنـه حـق مـن حقـوق الإنسـان، وذلـك لنـشر الشـذوذ السـائد والمنتـشر فى الحيـاة الغربيـة، فى حياتنـا الإجتماعيـة وبـين شـبابنا. بيـد أن صـورة الإنحـراف الأكـثر خطـورة فى هـذا الصـدد، تتمثـل فى وجـود بعـض المواقـع الجنسـية، التـى تدعـو الشـباب إلى زيارتهـا. وزيـارة بعـض الشـباب لهـا مـن غـير وعـى بطبيعـة هـذه المواقـع مـن شـأنه أن يبـدد زمانـه ووقتـه. فبـدلاً مـن إنفـاق الوقـت فى أشـياء نافعـة ومفيدة ترتقـى بحياة الإنسـان، كالإطـلاع عـلى بعـض المعلومـات، أو تطوير قدراتـه وإمكانياته، فإنـه يبدد وقتـه فى متابعة مضامين هـذه المواقـع الإباحيـة. ومـن شـأن متابعـة هذه المضامـين والصور أن يوسـع من مسـاحة الغريزة عنـد الإنسـان وفى بنيتـه، بخاصـة الشـباب، وإتسـاع مسـاحة الغريزة يكـون له ضغطة على الشـاب، حتـى يصبـح هـو الموجـه لسـلوكياته. وبطبيعة الحـال فإنه نظـرا لأن الغرائز ذات طبيعـة حيوانية برغـم لزوميتهـا لحيـاة الإنسـان، فإنها تصبح منحرفـة إذا إنطلقت بدون ضابـط أو تنظيم من القيم. بحيـث يـؤدى تدفقهـا إلى تحولهـا إلى سـلوكيات إجراميـة كثـيرة كالتحـرش الجنـسى ، والإغتصـاب، والسرقـة، وربمـا الإعتـداء الجنـسى عـلى المحارم داخـل الأسرة. وذلـك لأن زيادة ضغـط الغريزة من شـأنه أن يلغـى قـدرات الضبـط الأخلاقـى والعقلى للإنسـان (٤٨).

مـن الصـور الإنحرافيـة التـى يقـع فيهـا الشـباب وهـو يتعامـل مـع شـبكة المعلومـات «التحـاور أو الشـات Chatt، وهـو السـلوك الـذى يبـدأ تحـاوراً بـين إثنـين حـول بعـض الموضوعـات أو القضايـا العامـة. ثـم يبـدأ فى الإنحـدار إلى بعـض القضايـا الخاصـة الأكـثر خصوصيـة، وبخاصـة قضايـا الجنـس أو الحيـاة الأسريـة الخاصـة إذا كان أحـد الطرفـين متزوجـاً أو الإثنـين معـاً. بحيـث يمكـن أن يـؤدى هـذا الإنحـدار إلى عـدة إحتـمالات، الإحتـمال الأول أن يتحـول التفاعـل فى المجتمـع الإفـتراضى للشـباب إلى التفاعـل الواقعـى. بحيـث ينتقـل إنحـراف المحادثـة مـن عـلى شاشـة الكومبيوتـر إلى إنحـراف واقعـى، وفى هـذا الإطـار يقـع الجنـس

الحـرام. وتقـع الخيانـات الزوجيـة بحيـث يعـد كل ذلـك مدخـلاً لإنهيـار الأسر، وظهـور ممارسـات أسريـة غريبـة عـلى مجتمعاتنـا وأخلاقنـا وحضارتنـا كتبـادل الزوجـات مثـلاً. أمـا الإحتـمال الثـانى فيتمثـل فى أنـه برغـم أن هـذه المحادثـات أو العلاقـات الإفتراضيـة منحرفـة ومرفوضـة، فإنـه قـد يحـدث أن يتربـص أحـد أطـراف المحادثة بالآخر. يعرف منـه أسراره وخصوصياته، ويسـجلها له، ثم يحولهـا بعـد ذلـك إلى أداة إبتـزاز لـه، ليحصـل منـه على كل مـا يريد، وليـس أمام الطـرف المغلوب عـلى أمـره سـوى أن يرضـخ لهـذه المطالب (٤٩). التـى قد تعنى أن يقدم تنـازلات من ذاته أو يجبر عـلى دفـع أمـوال للطـرف الذى يهـدده، أو قد ينتهـى الأمر إلى إربـاك حياة الشـخص الأسرية فتنهار أسرتـة، أو يجبرعـلى إرتـكاب إنحرافـات أخـرى كان مـن الممكـن أن يكون فى غنـى عنها.

٥- خضـوع الشـباب لسـطوة ثقافـة الإسـتهلاك: الإسـتهلاك المعتـدل يعـد جانبـا أساسـيا مـن الحيـاة الإنسـانية، وهـو جـزء مكمـل لـدورة حيـاة الطبيعـة التـى خلقهـا اللـه لتقـدم الخبرات التـى يسـتمتع بهـا الإنسـان لإشـباع حاجاتـه الأساسـية التـى ركبهـا اللـه فيه. فقـد قال تعـالى «وإذ إستسـقى مـوسى لقومـة فقلنـا أضرب بعصـاك الحجـر فإنفجرت إثنتى عـشر عينا قد علـم كل إناس مشربهـم كلـوا وإشربـوا مـن رزق اللـه ولا تعثـوا فى الأرض مفسـدين» سـورة البقرة الآيـة ٦٠. وهو تعـالى القائـل «الـذى جعـل لكم الأرض فراشـا – والسـماء بناء وأنزل من السـماء مـاء فأخرج به من الثمـرات رزقـا لكـم، فـلا تجعلـوا الله أنداداً وأنتـم تعملون» البقـرة، الآية ٢٢. ذلـك يعنى أن هناك دورة مكتملـة بـين الطبيعـة والإنسـان، الطبيعـة لديهـا قابليـة إنتـاج المـواد التـى تشـبع الحاجـات الإنسـانية، إبتـداء مـن المـواد المعنويـة كالزمـن مثـلاً، وحتـى المـواد ذات الطبيعـة الماديـة كصنوف الثـمار والمنتجـات الموجهـة لإشـباع حاجـات الإنسـان. والإنسـان فى المقابـل عليـه أن يجـد ويجتهد ليحصـل عـلى منتجـات الطبيعة، يشـبع بهـا حاجاته إما بصورة مبـاشرة أو بصورة غير مبـاشرة وأثناء ذلـك فهـو يبنـى أو يؤسـس العمـران البـشرى، وهـو مـا يعنـى أن مضامـين الكـون كـما خلقـه اللـه إنتاجـى كـما هـو إسـتهلاكى، سـواء كان هـذا الإسـتهلاك ضرورى أو كـمالى أو ترفى.

إرتباطا بذلك فإذا إتجه الإنسان إلى الإستهلاك فقط دون الانتاج، أو إتجه إلى الإنتاج فقط دون الإستهلاك، فإن فى ذلك إخلال بدائرة الإنتاج والإستهلاك، بين الطبيعة والإنسان. وذلك يعنى أن الإتجاه إلى الإنتاج أو الإستهلاك الفائض يعنى إخلال بحالة الطبيعة ومتطلبات إجتماع البشر ذاتها. فإذا تأملنا الأوضاع الحالية على الصعيد العالمى فسوف نجد أن المجتمعات المتقدمة أسرفت في عملية الإنتاج فيها، بحيث ظهر مصطلح إنتاج الجملة (٥٠). ومن ثم فقد كان من الطبيعى أن تعمل على تصريف هذه السلع المنتجة وفتح الأسواق وتوسيعها لتستوعب هذه السلع، وذلك حتى تطل عجلة الإنتاج دائرة. ولتحقيق إستهلاك السلع فى الأسواق قامت جهود الإعلان والإعلام وتكنولوجيا المعلومات، للترويج لإستهلاك السلع، ونتيجة لذلك تبلورت ثقافة الإستهلاك. وهى الثقافة التى يتم على أساسها وإستناداً إلى قيمها وأغراءاتها، تتم تنشئة الشباب وفق نوعية حياة ملؤها الإستهلاك، الذى قد يأخذ صوراً عديدة.

من صور الإستهلاك الشائعة والضارة بالشباب إستهلاك الزمن «فالوقت من ذهب» و «الوقت كالسيف إن لم تقطعه قطعك»، فى هذا الصدد ينبغى أن ينفق الشاب وقته بصورة إنتاجية، ويتحقق ذلك إذ هو قد أنفق وقته فى ممارسات مفيدة، كالتدريب العملى فى تخصصه، حتى ولو بدون أجر. فلو كان متخصصا فى دراسته الجامعية فى أى تخصص، فليحاول أن يلتحق بإحدى المؤسسات خلال العطلة الصيفية التى تكسبه بعض المهارات الواقعية إلى جانب دراسته النظرية. أو أن يحاول أن يكتسب مهارات أخرى يدرك أن سوق العمل يحتاجها. ومن الضرورى أن يتدرب عليها كأعمال الكومبيوتر أو البرمجيات، أو أى أعمال أخرى، بغض النظر عن طبيعتها، إذ ينبغى أن يتحلى الشباب بدرجة عالية من المرونة فى هذا الصدد. على هذا النحو فإن الشاب يستفيد من الوقت والزمن، بما يساعد على تطوير ذاته وقدراته.

يمكن للشباب أيضا أن ينفقوا وقتهم أيضا فيما هو مفيد فى القراءة مثلاً، فالقراءة من شأنها أن تطور قدرات الإنسان ومداركه، ويمكن أن تتنوع القراءة، من القراءات الأدبية التى توسع خيال الإنسان إلى القراءات المتخصصة

التـى تتصـل بإهتمامـات الإنسـان وتخصصـه. وللقـراءة أهميـة أخـرى لكونهـا تنـزع الإنسـان مـن ثقافـة الصـورة السـطحية وغـير العميقـة، وتدفعـه بإتجـاه ثقافـة الكلمـة التـى تتميـز بالعمـق وتسـتنفر التأمـل. وعـلى الشـاب أن يراعـى أن يقسـم وقتـه بـين القـراءة، التـى ينبغـى أن تكـون فعـلاً إنتاجيـا، بمعنـى أن يعتبرهـا وسـيلة لتوسـيع مداركـه ومعارفـة. وقـد فعلـت الدولـة خـيراً إذ روجـت لمـشروع القـراءة للجميـع، وهـو المـشروع الـذى يطـرح الكتـاب بأسـعار رخيصـة فى متناول غالبيـة النـاس، بحيـث يحافظون من خـلال إقتنائه، على تطويـر قدراتهم وإمكانياتهـم وقضاء وقت فراغهـم بصورة سـوية وسـليمه.

بالإضافـة إلى ذلـك فـلا بـد أن نطـور وعـى الشـباب بمـا يجعلـه عضـوا فعـالاً فى المجتمـع، بـأن يـروج الإعـلام للثقافـة العقلانيـة وثقافـة الفاعليـة والانتـاج، كـما ينبغـى أن تؤكـد التنشـئة الإجتماعيـة عـلى ذلـك. حيـث التأكيـد عـلى ضرورة تبنـى ثقافـة الإنتـاج وليـس ثقافـة الإسـتهلاك، وهـى الثقافـة التـى تذهـب إلى إمكانيـة أن نشـبع حاجاتنـا عنـد مسـتوى الضروريـات الأساسـية، وقـدر مـن الكمليـات. بإعتبـار أننـا أولا فى بلد فقـير، لا يلائمـة أن تتدفق مدخرات أبنائـه فى قنوات الإسـتهلاك، كذلـك يلائـم شـبابنا أن لا يكـون مسـتهلكا، يدخـر مـوارده المحـدودة لمـا هـو مفيـد. وعلينـا أن نـدرك أن الـشرة الإنسـانى بـلا حـدود إذا تـرك الإنسـان العنان لـه، فإنه قد ينحـدر بنا إلى عـالم الحيـوان. ومـن ثم فعلى الشـاب أن يتـصرف بمنطق الإنسـان الإقتصادى الذى يتميز بالسـلوك الرشـيد، والـذى يقـدم الأهـم على المهـم، والذى يـدرك المنفعة الحدية لكل ما يشـترية أو يسـتهلكه (٥١).

سادساً: نحو سياسة إجتماعية لمواجهة التطرف والأرهاب

إسـتناداً إلى العوامـل والأسـباب التـى عرضنـا لها، والتى تسـبب إتجاه الشـباب إلى التطرف والعنـف والإرهـاب، فإننـا فى هـذه الفقرة نقترح بعض السياسـات والإجراءات التى يمكن أن تسـاعد فى دمـج الشـباب فى المجتمـع. بحيـث يرتبطون به عضويا، ولا يكونوا عرضة للإنخراط فى سـلوكيات التطـرف، أو لإسـتهوائهم بواسـطة أى مـن الجماعـات الدينيـة المتطرفـة، وإسـتناداً إلى ذلـك نطـرح عـدة سياسـات وأسـاليب لمواجهة التطرف عند الشـباب.

ويتمثـل البعـد الأول في السياسـة الاجتماعيـة للمواجهـة في ضرورة محافظـة الدولـة عـلى سـيادتها وإسـتقلالها، وذلـك يرجـع إلى أننـا نعيـش فى عـالم تشـكل المصالـح فيـه «البوصلـة» التـى تضبـط تحـرك الـدول عـلى سـاحته، وحتـى تصبـح الدولـة قويـة فى نظـر مواطنيهـا فـإن عليهـا أن تحافـظ عـلى كيانهـا ومواردهـا. وأن لا تجعـل مـن نفسـها موضـع إبتـزاز مـن دول أخرى، تسـتغل الإتصـال بإحـدى جماعاتهـا، أو تعمـل عـلى تأليـب جماعاتهـا عـلى بعضهـا البعـض، وفى قلـب هذه الفـوضى تتدخـل فى شـئونها، وتهـدر إسـتقلالها. وحتـى تحقـق الدولـة إحتوائهـا لمواطنيهـا، وعـدم خروجهـم عليهـا، فـإن عليهـا أن تتـصرف مع مواطنيها على أسـاس من إحـترام مبـدأ المواطنة، حيث لا تفـرق بـين مواطنيهـا عـلى أسـاس مـن تبانياتهم الإثنيـة. فالجميع فى الوطن سـواء، كـما عليها أن تؤكـد عـلى مبـدأ الوحـدة فى التنوع، بحيـث تؤدى مثل هذه الاجراءات إلى سـد الثغـرات التى يمكن أن تسـتغلها الـدول الأخـرى للتدخـل فى شـئونها، وتأليـب جماعاتهـا عـلى بعضهـا البعض.

ويؤكـد البعـد الثـاني عـلي ضرورة إشـباع الدولـة لحاجات مواطنيهـا ، ففى عـصر الفضاءات المفتوحـة، لم يعـد بالإمـكان إبقـاء الدولـة عـلى مواطنيهـا محرومـين من إشـباع حاجاتهم الأساسـية، دون توقـع ردود فعـل سـلبية مـن جانبهـم، ذلـك يرجـع إلى أن الفضائيـات تنقـل إليهـم نوعيـة الحيـاة القائمـة فى المجتمعـات الأخـرى. بحيـث يـؤدى قيـام المواطنـين بمقارنـة نوعيـة الحيـاة التى يعيشـون فى إطارهـا، بنظائرهـا فى المجتمعـات الأخـرى، إلى أن تكـون المقارنـة فى الغالـب لغير صالح الدولـة العاجـزة عـن إشـباع الحاجـات المختلفـة لأبنائهـا. الأمـر الـذى يخلـق فجـوة بينهـما وبـين مواطنيهـا، إذ أنـه عـلى سـاحة الحرمـان مـن إشـباع الحاجـات الأساسـية تنمو المشـاعر السـلبية بين المواطنـين والدولـة، وتشـكل إطـاراً خصبـا لنمـو وتكاثـر الجماعـات المضـادة للدولـة، ومـن بينهـا جماعـات التطـرف والإرهـاب والعنـف. لذلـك من الـضرورى أن تعمـل الدولة القوميـة على تطوير السياسـات، التـى توفـر الحـد الأدنى لإشـباع الحاجـات الأساسـية لمواطنيهـا، حتى لا يصبـح حرمانهم هـو الظـرف الـذى يجعلهـم عرضـه لتجنيدهـم مـن قبـل هـذه الجماعات.

ويتصل البعد الثالث للسياسة الاجتماعية للمواجهة بضرورة الإهتمام بالتربية الدينية والأخلاقية للشباب، وفى هذا الإطار من الضرورى أن نعيد النظر فى نظمنا التعليمية، بحيث نجعل مادة الدين من المقررات الأساسية التى يتعلمها الطفل فى المراحل التعليمية قبل الجامعية، والشباب فى المرحلة الجامعية. بحيث نربى أبناءنا على قيم دينية وسطية ومعتدلة، تتيح لهم أن يفهموا الدين فى أصولة الصحيحة والمرنة وغير الجامدة، بحيث يساعدهم ذلك على الوقوف فى مواجهة آية جماعات دينية متطرفة، تشوه الدين وتنحرف به. بل إننا نجد أن هذا التعليم الدينى المعتدل سوف يوفر الفهم الملائم والصحيح للدين، بحيث يتمكن من حصار الفكر الدينى المتطرف. حتى يمنعه من الإنتشار. وذلك لأن إنتشار التطرف الدينى، أحيانا ما يكون بسبب جهل المستمع أو المتلقى بقيم الدين ومبادئه، ولذلك فإن التوعية أو التعريف بصحيح الدين سوف يفوت الفرصة على الجماعات المتطرفة.

بالإضافة إلى ذلك من الضرورى أن نعمل على تطوير الدعوة الدينية التى يقوم بها الدعاه، فالدين ليس تخويفاً من النار ولا ترغيبا فى الجنة فقط، وإنما هو إلى جانب ذلك تعريف بشئون الحياة، وتوجيه لأسلوب الإرتقاء بحياتنا، وأن فى ذلك تفعيل لقيم الدين ومبادئه. بالإضافة إلى ذلك فإنه على الدعوة الدينية فى المساجد مثلاً، أن تناقش مسائل وقضايا يومية وحياتية، مثل نظافة الشارع والإهتمام بالمؤسسات العامة والطرق العامة والمواصلات العامة. وكذلك على الدعاة أن يوضحوا للبشر اهمية أن يكونوا متسامحين مع الآخر، وعلى الدعاة أن يدربونهم على الأخلاص والإتقان فى العمل، وكذلك الإنضباط فى العمل بحيث تتسرب قيم الدين ومبادئه لتنظيم الحياة اليومية للبشر. كذلك من الضرورى أن يوضح الدعاة معنى التطرف بالدين، وأن يبرزوا أن ذلك جريمة فى حق الدين أو إنحراف به، وأن التطرف ليس من الدين فى شئ. ذلك يتحقق إذ تبنى الأزهر الشريف دعاوى التجديد الدينى، سعيا وراء تفسير الدين، بما يجعله قادراً على التعامل مع مشكلات الحياة اليومية للبشر، ففهم الدين الصحيح يشكل بلا شك عائقاً أمام إنتشار التطرف فى المجتمع.

بالاضافة إلي ذلك فإنه من الضروري فتح قنوات المشاركة واسعة، إذ من الضرورى أن تفتح قنوات المشاركة واسعة أمام الشباب، بل أنه من الضرورى أن ندربهم على المشاركة السليمة. ويبدأ تدريبهم فى المراحل التعليمية ما قبل الجامعة، إضافة إلى المرحلة الجامعية، ويمكن أن يتحقق ذلك بوسائل عديدة. من هذه الوسائل أن نعيد إحياء صيغة الأسر الجامعية، حيث يمكن أن تتشكل الأسر بواسطة الطلاب وريادة أحد الأساتذة. حيث يجتمعون معا ويتدربون على اسلوب المشاركة فى الحوار حول موضوع معين، وكذلك أسلوب إتخاذ القرار. يضاف إلى ذلك من الضرورى الإهتمام بالإتحادات الطلابية، وأن تكون المشاركة فيها وفق معايير سليمة، كما أنه من المهم أن تتميز إنتخاباتها بالنزاهة والشفافية، وذلك حتى ندرب ابناءنا وفق المعايير الصحيحة للمشاركة. بالإضافة إلى ذلك من الضرورى أن تسعى الأحزاب اإلى تجنيد الشباب فى عضويتها، وعقد الندوات والمحاضرات التى تطور وعيهم فيما يتعلق بالمشاركة. كما تعقد الندوات والمحاضرات لتوعيتهم بصورة موضوعية بمختلف القضايا الإقتصادية والسياسية والإجتماعية التى يواجهها المجتمع، والتي ينبغى أن تنال إهتمامهم، بحيث تساعد كل هذه الإجراءات فى بناء شريحة من الشباب الملتزم بقضايا وطنه والأكثر إرتباطا بهذا الوطن، والأعمق إنتماءاً له.

إلي جانب ذلك من المهم تطوير الآداء الإعلامى، وفى هذا الإطار علينا أن نؤكد على الإعلام الملتزم بتراث وهوية مجتمعه وأمته. وإذا كان من الصعب علينا أن نتحكم فى الإعلام الخارجى وتأثيره على شبابنا، فليعمل إعلامنا على دعم الضمير الداخلى لشبابنا. حتى يمتلك درعاً أخلاقياً يحميه من الإنحراف، كما يحميه من السقوط فى براثن التطرف. وفى هذا الإطار من الممكن أن يبدع ويذيع الإعلام الأعمال الدرامية، التى تتضمن عديد من القيم والمبادئ الأخلاقية السوية، التى تساعد فى بناء الضمير الأخلاقى والدينى السليم والصحيح، بحيث يشكل هذا الضمير درع يحمى الشباب من التطرف. كما أن على الإعلام أن يوضح بصورة غير مباشرة أن التطرف يعد خروجاً على الدين، وبذلك تصبح التربة المصرية تربة غير صالحة لنمو التطرف الدينى. ذلك بالإضافة إلى توجية

الأعمال الدرامية، التى تعالج التطرف والجماعات المتطرفة بصورة غير مباشرة، حتى يقتنع الشباب بإنحراف التطرف الدينى، بإعتباره جريمة ويجندوا أنفسهم لمحاربته. بالإضافة إلى ذلك من الضرورى أن تلعب مؤسسة الأزهر الشريف دوراً محوريا من خلال الإعلام، بإتجاه توضيح أن التطرف الدينى خروجا على الدين، ومن ثم فهو مدمر للدين مثلما هو مدمر للمجتمع، إضافة إلى تدميره للمتطرفين أنفسهم.

ذلك يعنى أنه من الضرورى أن يبذل الإعلام دوراً أساسيا فى تنشئة الجماهير، حتى يؤسس بيئة غير مواتية لنمو الإرهاب، وفى نطاق ذلك من الضرورى أن يعمل الإعلام على التنشئة الأخلاقية للمجتمع. وكذلك أن تؤكد برامجه على تنشئة المواطنين تنشئة دينية وسطية بحيث تؤدى هذه التنشئة الأخلاقية والدينية الوسطية، إلى قطع الطريق أمام نمو أية جماعات دينية متطرفة او إرهابية، لأن الجماهير سوف تكون واعية بدينها الوسطى المعتدل. يضاف إلى ذلك فإنه من الضرورى أن يراعى الإعلام أن لا يضر بالقيم الإجتماعية والأخلاقية، عن طريق بعض المادة الإعلامية التى تتضمن قدر من الإباحية، حتى لا يستنفر ذلك اخلاق الجماهير. إلى جانب ذلك فإنه من الضرورى أن يعمل الإعلام فى إتجاه تطوير وعى الجماهير بالقضايا الإجتماعية والسياسية والإقتصادية العامة، والمشكلات والصعاب التى يواجهها المجتمع، حتى يكون أفراد المجتمع على وعى بها. فذلك من شأنه أن يربطهم بمجتمعهم، بما يجعل منهم بيئة غير مواتية للإرهاب، كما هى غير آمنة بالنسبة للإرهابيين الذين قد يرتكبون أفعالا سلبية فى حق الجماهير.

ومن الضروري توليد فرص عمل للشباب، وذلك لقطع الطريق على جماعات التطرف الدينى والعنف، وإرتباطا بذلك من الضرورى العمل فى إتجاه توليد فرص عمل للشباب، بخاصة خريجى الجامعات، ويمكن أن نحقق ذلك من خلال ثلاثة أبعاد. البعد الأول التوسع فى ميزانية الصندوق الإجتماعى لزيادة إقتراض الشباب لبناء المشروعات الصغيرة، وحتى نحقق إحتمالية النجاح فإنه من الضرورى أن يعمل الصندوق على تشكيل لجنة تتولى إقتراح المشروعات،

التـى يمكـن أن يؤسسـها الشـباب، وتقـوم بدراسـة الجـدوى لهـا. بحيـث يختـار الشـباب مـن بـين هـذه المشروعـات مـا يناسـبة، ذلـك بالإضافـة إلى عقـد دورات للشـباب الذيـن سـوف يسـند إليهم القيـام بمشروعـات، تتعلق بدراسـة الجـدوى، أو بتدريبهم عـلى الاجراءات لنجاح هـذه المشروعات، أو حـول أفضـل أسـاليب التسـويق، حتـى يقـوم الشـباب بهـذه المشروعـات، وهنـاك إحتـمال كبير لنجاحهـم فى ذلك.

بالإضافـة إلى ذلـك يمكـن أن تتأسـس منظـمات غـير حكوميـة تتـولى تطويـر فـرص عمـل للشـباب مـن خـلال مشروعـات يعملـون بهـا، مثـلاً منظمـة أهليـة لمحـو الأميـة، ويمكـن تتـولى المنظمـة محـو الأميـة بالميزانيـة المرصـودة لذلـك مـن قبـل الدولـة، وفى ذات الوقت تقوم بتشـغيل الشـباب فى هـذا المجـال. وإذا كانـت نسـبة الأميـة فى مـصر نحـو ٣٠٪-٤٠٪، فنحـن امامنـا عـدة سـنوات بهـذه الأسـلوب، نضمـن خلالهـا توفـير فـرص عمـل لهـؤلاء الشـباب. ذلـك بالإضافـة إلى أنـه مـن الممكـن أن تقـوم المنظـمات غـير الحكوميـة ببعـض المشروعـات التـى تمـول مـن قبـل الهيئـات الدوليـة، أو تمـول بواسـطة الصنـدوق الإجتماعـى، إضافـة إلى تبرعـات مـن رجـال الأعمال، بحيـث تؤسـس هـذه المنظـمات غـير الحكوميـة المشروعـات لتوفـير فـرص عمـل للشـباب.

بالإضافــة إلى ذلــك مــن الــضرورى أن يتجــه القطــاع الخــاص إلى تأســيس المشروعــات الكثيفـة العمالـة، ويمكنـة فى هـذا الإطـار دراسـة التجربـة اليابانيـة والتجربـة الصينيـة فى هـذا الصـدد. حيـث إمكانيـة الإسـتفادة مـن التوسـع فى الاسـتفاده مـن العمـل بالمنـزل، أو العمالـة المؤقتـة للقيـام ببعـض الأعـمال المؤقتـة نظـير مكافـأة بالقطعـة. يضـاف إلى ذلـك مـن الـضرورى أن يبحـث القطـاع الحكومـى عـن حلـول مبدعـة للقيـام بمشروعـات العمالـة الكثيفـة، والقـادرة عـلى إسـتيعاب طاقـات الشـباب الـذى يعـانى مـن البطالـة. إلى جانـب ذلـك مـن الـضرورى أن تنشـط وزارة القـوى العاملـة بعقـد الإتفاقيـات مـع الـدول الأفريقيـة- وليـس التركيـز فقـط عـلى دول الخليـج- لإمكانيـة تشـغيل العمالـة الجامعيـة المؤهلـة فى إطارهـا. بحيـث نعمـل مـن كل إتجـاه عـلى محـاصرة ظاهـرة البطالـة بـين الشـباب، حيـث يـؤدى توفـير فرصـة

العمل والدخل إلى توفير ما يشبع الحاجات الأساسية للشباب وما يساعده على قيادة نوعية حياة إنسانية وملائمة تشكل درعاً حاميا له من التطرف أو الإستهواء من قبل الجماعات الدينية المتطرفة.

إضافة إلي ذلك ينبغي محاربة الفساد والإنحراف، إذ أنه كما أشرت يعد الفساد من أهم الوسائل التى تعمل بإتجاه تدمير رأسمال المجتمع، وبالتالى فهو يساهم بشكل غير مباشر فى عدم تمكين الدولة من إشباع الحاجات الأساسية لمواطنيها. بالإضافة إلى أن الفساد وغيره من الظواهر الإنحرافية ذات الطبيعة السلبية، التى قد تنتشر فى المجتمع، تلعب فى الغالب دوراً فى إستفزاز أو إستنفار مظاهر الإحتجاج الإجتماعى، وأبرزها الأفعال والسلوكيات ذات الطابع الإرهابى. ولذلك فإنه لكى تحقق الدولة إستقرارها، فإنها ينبغى أن تحارب كل مظاهر الفساد والرشوة والإنحراف على ساحتها، بحيث يساعدها ذلك من ناحية على منع الظروف والأسباب التى تؤدي إلي تفجير العنف والإرهاب على ساحتها. إضافة إلى أنها من ناحية أخرى تمنع أى تعاطف جماهيرى مع هذه الجماعات، حيث تتحول الجماهير إلى بيئة معادية لهذه الجماعات، لأن أفعالها سوف تبدو غير منطقية وغير عقلانية من وجهة نظر المجتمع حينئذ.

وأخيرا ينبغي تضافر الحوار والردع، فيما يتعلق بالتعامل مع الجماعات المتطرفة، في هذا الإطار فإنه من الضرورى أن نبذل الجهد لتوعية الجماعات المتطرفة، خاصة تلك التى تم القبض عليها بسبب حوادث عنف وتطرف شاركوا فيها، وذلك من خلال الحوار الجاد مع هذه الجماعات حول مختلف القضايا التى سببت تطرفهم. إضافة إلى توضيح موقف الدين من هذه القضايا، وذلك لكى نوضح فهم طبيعة الدين المرنة المتسامحة المعتدلة والوسطية. وأن التطرف أبعد ما يكون عن الدين، وأن الدين يرفضه، وأن لنا فى رسول الله أسوة حسنه، فهو صلى الله عليه وسلم لم يكن متطرفاً، ولا جامداً ولا فظ غليظ القلب، وأن ما يفعله المتطرفون هو خروج عن صحيح ال دين.

فإذا لم ينفع الحوار معهم، فإن العقاب الصارم والرادع لهم يكفى لعودتهم إلى جاة الصواب، فإذا إتفقنا على أن التطرف الدينى مرض يصيب المجتمع،

فإنـه مـن الـضرورى العـلاج، حتـى ولو كان العـلاج جراحيا وبالعقـاب. حيث يمكـن أن يلعب الردع دوراً فى إرجـاع المتطرفـين إلى جـادة الصـواب، بـل ودفـع الآخريـن الذيـن لديهـم القابليـة للتطـرف، بإتجـاه عـدم الإنخـراط فى الجماعا الدينيـة المتطرفة.

ذلـك يعنـى أنـه مـن الـضرورى أن يكـون القانـون صارمـا فى مواجهـة مرتكبـى الأفعـال الإجراميـة، سـواء مرتكبـى هـذه الأفعـال أو المتعاونين معهـم، أو الذين لديهم معلومـات عنهم، لأن أفعالهـم تـضر بأمـن الوطـن، والإعتـداء عـلى الوطـن جريمـة. بالإضافـة إلى ذلك فإنه مـن الضرورى أن تعمـل الأجهـزة الأمنيـة بمنطـق الوقايـة، بمعنى ان تسـعى فى الأوقات التى لا ترتكـب فيها أفعال إجراميـة أو إرهابيـة، بإتجـاه التعـرف عـلى الشـبكات الإرهابيـة لوأدها قبـل إرتـكاب أفعالها، حتى تعمـل عـلى إجهـاض هـذه الشـبكات، وتجهض معهـا الأفعـال الإرهابيـة المحتملة.

المراجـــــع

1. Belaid, Sadok, The Role of Roligions Institutions in Support of the State "in" Dawisha Adeed &Zurtman. L. William "EDS" Beyond Coercion, The Durability of the Arab State, London, Croom Helm, 1988, p, 152.

٢. علـى ليلـة، السـودان إلي أيـن ، تأمـلات في مسـألة دارفـور ، «بحـث» مركـز الخليـج للدراسـات الاسـتراتيجية ، ٣٠ يونيـة ٢٠٠٧.

3. Featherstone M, Global Culture, Nationalism, Globalization and Modernity, 1990, Sage, p, 17.

4. Ibid, p, 21.

5. Sadok Belaid & Others, Op, citp, 73.

٦. عـلى ليلـة: تقاطعـات العنـف والارهاب فى زمن العولمـة، مكتبة الانجلـو المصرية، ٢٠٠٧، ص ٣٢.

٧. محمـود عـودة، عـلى ليلـة: تاريـخ مـصر الاجتماعـى، كتـاب التعليـم المفتـوح ٢٠٠٢، ص ٢٦١.

٨. عـلى ليلـة، الشـباب والمجتمـع، أبعاد الاتصال والانفصـال، المكتبة المصريـة للطبع والنشر والتوزيع، الاسـكندرية، ٢٠٠٤، ص ١١٣.

٩. عـلى ليلـة، وآخـرون، تعاطـى المخدرات بين شـباب العشـوائيات، دراسـة ميدانية لمنطقة الشرابيـة، منشـورات صنـدوق مكافحة وعلاج الادمـان والتعاطى، والمجلس القومـى لمكافحة وعلاج الإدمان، ٢٠٠٢، ص ١٣.

١٠. على ليلة، تقاطعات العنف والارهاب فى زمن العولمة، مرجع سابق، ص ٥٣.

11. Sadok Blaid & Others, Op, Cit, p, 125.

١٢. على ليلة، الشباب والمجتمع، أبعاد الاتصال والانفصال، مرجع سابق، ص ١٠٣.

١٣. نفس المرجع، ص ١٠٤.

14. Dekejimian, R. Hrair; Islam in Revolution, Fundmentalism in the Arab World, Seryacuse University Press, 1982, p, 143.

١٥. على ليلة، الاعلام والمجتمع، تشكيل الثقافة وبناء المجتمع الافتراضى، قرطبة للنشر والتوزيع، ٢٠١٤، ص ٩٧.

١٦. على ليلة، الشباب والمجتمع، القضايا والمشكلات، المكتبة المصرية للطباعة والنشر والتوزيع، الاسكندرية، ٢٠٠٨، ص ١٧٦.

١٧. نفس المرجع، ص ١٧٧.

١٨. نفس المرجع، ص ١٨٠.

١٩. نفس المرجع، ص ١٨٣.

٢٠. الهادى السعيد عرفة، براءة الاسلام من كل جرائم العنف والقتل والارهاب بكافة صورها وأشكالها، بحث مقدم للمؤتمر العلمى الثالث للمواجهة التشريعية لظاهرة الارهاب على الصعيدين الوطنى والدولى، جامعة المنصورة، كلية الحقوق، القاهرة، ٢١-٢٢ إبريل، ١٩٩٨، ص ٦١.

٢١. نفس المرجع، ص ٢١.

٢٢. نفس المرجع، ص ٦٤.

٢٣. نبيل أحمد حلمى، التحديد القانونى لجريمة الارهاب الدولى، وثيقة مفهوم الارهاب والمقاومة، يوليو ٢٠٠٣، ص ٣٣.

٢٤. الهادى السعيد عرفه، مرجع سابق، ص ٦٣.

٢٥. على ليلة: الاعلام والمجتمع، تشكيل الثقافة وبناء المجتمع الافتراضى، مرجع سابق، ص ١١٣.

٢٦. نبيل احمد حلمى، مرجع سابق، ص ٧٣.

٢٧. على ليلة، الاعلام والمجتمع، تشكيل الثقافة وبناء المجتمع الافتراضى، مرجع سابق، ص ٩٨.

٢٨. الهادى السعيد عرفة، مرجع سابق، ص ٦٥.

٢٩. نبيل أحمد حلمى، مرجع سابق، ص ٣٥.

٣٠. صلاح الدين حافظ، قمة لمواجهة الارهاب ومواجهة التدهور، الأهرام فى ٢٠٠٥/٧/٢٧.

٣١. سعيد اللاوندى، تساؤلات حول تفجيرات كفر الشيخ، جريدة الأهرام، فى ٢٠٠٥/٧/٢٥.

٣٢. الهادى سعيد عرفه، مرجع سابق ص ٦٧.

٣٣. صلاح الدين حافظ، مرجع سابق.

٣٤. يونان لبيب رزق، مطاريد التاريخ المصرى، الاهرام فى ٢٠٠٥/٧/٢٥.

٣٥. على ليلة، تأثيرات العولمة على المجتمع والدولة فى الشرق الأوسط «فى» مصر والشرق الأوسط، إدارة الشئون المعنوية بالقوات المسلحة «تحرير» اسامة الغزالى حرب، يناير ٢٠٠٠، ص ٤٦١.

٣٦. نفس المرجع، ص ٤٦٣.

٣٧. نفس المرجع، ص ٤٦٥.

٣٨. محمد حسن الحفناوى، الارهاب لا دين ولا أخلاق، كلام معقول، الأهرام، فى ٢٠٠٥/٧/٢٥.

٣٩. صلاح الدين حافظ، مرجع سابق.

40. Parsons, Talcott the Social System, The Free Press, Glencose, 1952, p, 42.

٤١. على ليلة، الأمن القومى العربى فى عصر العولمة، الأبعاد الثقافية والاجتماعية، «إختراق الثقافة وتبديد الهوية» مكتبة الانجلو المصرية، ٢٠١١، ص ٢١١.

٤٢. على ليلة، تقاطعات العنف والارهاب فى زمن العولمة، مرجع سابق، ص ٢٣٣.

٤٣. على ليلة وآخرون، تعاطى المخدرات بين شباب العشوائيات، دراسة ميدانية لمنطقة الشرابية، مرجع سابق، ص ٨٣.

٤٤. نفس المرجع، ص ٩٢.

٤٥. نفس المرجع، ص ١٣٢.

٤٦. على ليلة، العنف السياسى

٤٧. علـى ليلـة، الأمـن القومى العربى فى عـصر العولمة، الأبعاد الثقافيـة والاجتماعية، تفكيك المجتمـع وإضعـاف الدولة، مكتبة الأنجلو المصرية، الكتـاب الثالث، ٢٠١١، ص ٢٤٣.

٤٨. نفس المرجع، ص ٢٤٥.

٤٩. نفس المرجع، ص ٢٤٦.

٥٠. علـى ليلـة، الأمـن القومى العربى فى عـصر العولمة، الأبعاد الثقافيـة والاجتماعية، إختراق الثقافـة وتبديد الهوية، مرجع سـابق ص ٢٥١.

٥١. نفس المرجع، ص ٢٢٥.